دكتور عبدالحكيم راضى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

النقد العربى وشعر المحدثين في العصر العباسى

(محاولة لقراءة جديدة)

دار الشايب للنشر
١٠ ش سليمان الحلبى - التوفيقية
ت : ٥٧٤١٣٧١

الطبعة الأُولى
١٩٩٣

إلى أستاذنا الجليل

شوقي ضيف

مدّ الله في عمره ونفع بعلمه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عزيزى القارئ .. أقدّم إليكَ هذا الكتابَ على استحياء ، لبُعد العهد ما بين الفراغ من كتابته وتاريخ نشره .

أما القضية التى يعالجها فهى - كما يتّضحُ من العنوان - موقفُ النقد العربىّ من شعر المحدثين فى العصر العباسى ، وهى قضية قديمةٌ جديدة ، قديمةٌ لأنّ فى تراثنا النقدىّ ما يبعث على التساؤل حولها ، وجديدةٌ لأنّ الدارسين فى العصر الحديث قد وقفوا عند هذه البواعثِ ، وكثير منهم أطال الوقوفَ دون أن يتبين الحقيقةَ ، فقالوا فيها بغير ماهى عليه .

لذلك كان من الضرورىّ أن نتتبّعَ المسألةَ - أو المشكلة -من بدايتها ، فنعرضَ لتصوّر هؤلاء الدارسين عن موقف النقد العربىّ من شعر أولئك المحدثين - إذْ كان هذا التصوّر هو الباعث الأوّل على هذه الدراسة - وأن نناقشَ تصوّرهم هذا ، لنثبتَ أنه يثير من المشاكل مالا سبيلَ إلى حلّه إنْ نحن تمسّكنا به ، خصوصاً حين نعرض الصورةَ الحقيقيةَ لموقف النقد العربىّ من شعر المحدثين من واقع نصوص التراث النقدىّ ، وهى الصورةُ التى يدعمها الكشفُ عن موقف ذلك النقد من محاولات التجديد كما تمثّلت فى دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام .

وإيضاحاً لبقية الجوانب كان لابدّ من تفسير مابدا عند أوائل النقاد - المتّهمين بالتعصّب على الشعر المحدث -من اهتمام بأشعار القدماء ، تلك الأشعار التى كانَ لها العديدُ من الأدوار والوظائف فى مجرى الحياة الثقافية العربية ، كما كان لابدَّ من التأكيد على تنوّع اهتمام أولئك النقّاد وتعدّد أدوارهم ومواقفهم التى كان منها ما يتطلّب المعرفةَ بالشعر القديم وروايته وحفظه ، دون أن يشكّل ذلك تعصّبا على شعر المحدثين .

وأخيراً كان من الضرورىّ تعليلُ وقوع الدارسين فى العصر الحديث فيما تصوّروه من تعصّب أوائل النقاد على شعر المحدثين فى العصر العبّاسى ، ليظهرَ وراء هذا التصوّر إطارٌ تاريخىّ خاطئٌ ساهم فى رسمه بعضُ القدماء ، وتابعه الدارسون فى

عصرنا الحديث دون مراجعة أو بحث . وإنما أوقعهم فيما وقعوا فيه إغفالُهم الشروطَ الواجبةَ لقراءة تراثنا الأدبيّ عامة ، وتراثنا النقديّ بوجهٍ خاصّ ، وهى الشروط التى ذكرتُها فى كلمة التمهيد .

وبعد .. فهذا هو الكتابُ ، وقد عمدتُ إلى عدم تفصيلِ الحديث عنه فى هذا التقديم ، مكتفياً بالتنبيه إلى موضوعه والمشكلةِ التى يعالجها ، تاركاً للقارئ أن يتعرّفَ عليه من خلاله بنفسه ، معترفًا بأنه نتاج فترة مبكّرةٍ من حياتى ، إذْ هو أولُ ما خطّت يدى على طريق البحث ، ولذا فإنه لايُعوزه الصدقُ ولا الحماسُ الذى أرجو ألاّ يكون قد بلغ إلى حدّ الاندفاع .

ولن أقول إننى قد أتيتُ بما لم تستطعه الأوائل والأواخر ، حَسْبى أن أقولَ لقارئى : إننى قد حاولتُ قدْرَ طاقتى أن أدلّل على ما اعتقدتُ أنه الصّواب ، وإننى قد أعدْتُ قراءةَ نصوص نقدنا العربى ، بعد أن ضمَمْتُ بعضها إلى بعض ، ففهمتها على نحوٍ يخالف مافهمها عليه غيرى ، وسجّلتُ نتاج هذا الفهم فى تجرّدٍ وصدق ، دون تعسّف فى الفهم أو إبْعادٍ فى التأويل .

وقد نُشرتْ أجزاء من هذا الكتاب – في حينها – فى بعض المجلات الأدبيّة، كمجلّة (المجلّة) ومجلّة (الثقافة) ، وإن بقى الكتابُ فى مجمله جزءاً من رسالة جامعيّة تضمّها – فى غير شفقة – رفوفُ قسم الرسائل فى مكتبة جامعة القاهرة .

وحتى لا أظلم نفسى ولاكتابى ، فقد أعدتُ قراءتَه أخيراً قبل تقديمه للطبع ، وحذفت من عباراته ما أمكن من آثار اندفاع الشباب ، ثم أضفتُ إليه الكثير مما يدعم فكرته الأساسية التى بقى إيمانى بها راسخا حتى هذه اللحظة .

ذلك – ياقارئى العزيز – هو ما أعرفه عن الكتاب ، أفضيْت به إليك ، أمّا ما ستعرفُه أنت وما ستقوله عنه فليس بوسعى التنبّؤُ به ، وإن كنتُ توّاقًا إلى معرفته، كلّ ما أستطيعه أن أسألَ اللهَ التوفيقَ لك ولى ، توفيقَك إلى الإنصاف والإخلاص فى النصح ، وتوفيقى إلى التواضع وحُسْن القَبول ، والله من وراء القصد .

عبدالحكيم راضى

رقم الصفحة

فهرس إجمالي

• كان العرب أحرارا فى الحياة المادية محافظين فى الحياة الأدبية ، وكان الشعراء الذين يجرؤون على أن ينكروا هذه المحافظة ويحاولون تحرير الشعر يتعرضون لسخط الأئمة والعلماء ، لأن هؤلاء الأئمة والعلماءَ حراص على القديم أعداء لكل جديد .

طه حسين

• كان الميلاد بعد الإسلام فى ذاته دليلا على الانحطاط الشعرى.

نكلسون

• وقد تزعم معسكر الدعوة إلى القديم فريق اللغويين أمثال الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى ، واتهموا أبا تمام بالخروج على عمود الشعر لأنه انحرف عن المألوف قليلا بابتكار بعض المعانى والتعمق فيها والتحليق بها فى الخيال.

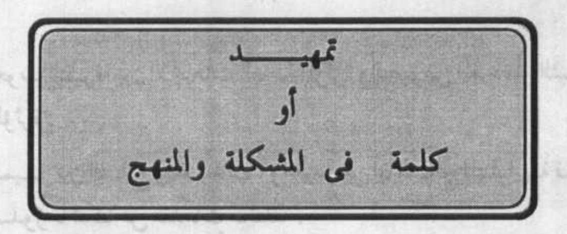
أحمد أمين

• **أبو عبيدة :** قال المازنى : سمعت رجلا يقرأ على أبى عبيدة شعر بشار ، فمرت قصيدته الميمية ، فقال له : هاتها ، فهى أوزن من ميميّتى جرير والفرزدق . ولَقصيدة مروان أجود من قصيدة الأعشى ، ولقصيدة أبى نواس خير من قصيدة امرئ القيس .

• **الأصمعى :** سئل الأصمعي : أبشار أشعر أو مروان ؟ فقال : بشار، فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : لأن مروان سلك طريقا كثر سُلاّكه ، وأن بشارا سلك طريقا لم يسلكه أحد ، فانفرد به ، وأحسن فيه .. ومروان آخذ بمسالك الأوائل.

• **ابن قتيبة :** لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوما بين عباده فى كل دهر .





تمهيد
أو
كلمة في المشكلة والمنهج

من المؤكد أن للنقد العربى ، بل لتراثنا الفكرى القديم عامة ظروفَه الخاصةَ التى يمثلها امتدادُه العميق زمنا ومكانا فى أمة غلب عليها التأليف فى علوم اللسان بأوسع مدلولات الكلمة : إنشاءً ووصفاً ونقداً ، كما يمثلها عدمُ وصول هذا التراث إلينا كاملا بسبب الأوضاع التى حاقت بالأمة العربية من ناحية ، وبسبب ضخامة هذا التراث وتفرُّقه فى شتَّى أنحاء العالم من ناحية أخرى .

ويبدو أن الأثر المباشر لهذه الظروف هو أن ذلك التراث ، وبالذات ما يتعلق منه بالوصف والتقييم ، لم يُتَحْ له أن يُستَوعَب استيعابا كاملا نتيجة لغياب كثير من النصوص عن أعين الباحثين ، مما كان له أثره فى عدم تكامل أجزاء الصورة، وأيضا فى عدم تبيُّن المراد من الأجزاء المتاحة فى كثير من الأحيان .

ولقد عمِلت الحركة الدائبة فى بعث هذا التراث ونشره على تمكين القراء والدارسين منه بقدر الإمكان مما دفعهم إلى إعادة النظر فى الصورة ، بل إعادة الفهم لكثير من النصوص التى قُدِّر لما تحمله من أحكام أن تُفهَمَ فى يوم من الأيّام على غير حقيقتها .

على أن اكتشافَ النصوص ونشرَها ليس كافيا ، وَحْدَهُ ، فى إتاحة الفهم الكامل للتراث النقدى العربى ، ذلك أن طبيعةَ وظروفَ التأليف والمؤلِّفين فى ذلك النقد قد ساعدت هى الأخرى على أن يشوب فهم الدارسين كثير من اللّبس مصدرُه الإخلال بمقتضيات القراءة الصحيحة لذلك النقد والتى من بينها :

- التجرُّد من أى حكم أو أية فكرة سابقة عن ذلك النقد .
- الفهم التاريخى للنصوص والمصطلحات ، والاقتصار بفهمها على ما أُرِيدَ منها.

* وجوب التفرقة بين الاتجاهات العامة المؤثرة والنصوص المفردة أو الشاذة غير المؤثرة .
* التمييز بين النتائج والمقدّمات ، والحذرُ من أنّ النتائجَ المتشابهةَ قد يكون صدورُها ممكنا عن مقدّماتٍ مختلفة .

وتتضح الآثار الخطيرةُ لإغفال الشروطِ المشارِ إليها لقراءة التراث العربى قراءةً صحيحةً مما سادَ فى الدراسات الحديثة ابتداءً من مطالع القرنِ العشرين على الأقل والتى دارت حول النقدِ العربى القديم ، من اتجاهٍ إلى تصوير موقف قدامى الرواةِ واللغويّين والنحاة ، ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرىّ وأوائل القرن الثانى - وهم الذين كانوا يمثّلون نقادَ الشعرِ فى تلك الفترة - على أنه كانَ موقفَ التعصّبِ للشعر القديم والعَداءِ والرّفضِ للشعرِ المُحْدَثِ ، وتَبعَ هذا اتهامهم بمعاداةِ كلّ حركةٍ من حركات التجديد فى الشعر ، وبأنهم ظلّوا - حتى بعد تسامُحِهم فى قبول شِعر المحدثين - لا يقبلون منه إلا ماكان سائرا فى رِكاب القديم فى أسلوبه وبنائِه الفنّى ، وتمادت الدراساتُ الحديثة فى تثبيت هذا التصورُ ، إلى حدّ القول بأنه لم يكن لأولئك النقاد من مبررات فى رفضِ الشعر الحديثِ وقبولِ الشعر القديم سوى عاملِ الزمن ، فرفضوا الشعرَ الحديثَ لأنه حديثٌ زمناً ، وقبلوا القديمَ لأنه قديمٌ زمناً .

وراح أصحابُ هذه الدراساتِ يحمّلون أولئكَ النقادَ كلَّ ماتصوّروا أنه نتيجةٌ لنزعةٍ محافِظةٍ فى الشعرِ العربى ، فما داموا قد رفضوا الشعرَ الحديثَ ، ثم لم يقبلوا منه - حين قبلوا - إلا ما سارَ على نهْج القديم ، فهم مسئولون عن كلّ ما يمكن أنْ يكونَ محافظاً فى هذا الشعر .

وقد ذهب الجميعُ يحشدون النصوصَ التى تؤيّد هذا التصورَ ، وهى نصوص معدودة تَرِدُ فى جميع الأبحاث بلا استثناء .

وكان مما يَلفت النظرَ فى هذا التصورِ أنه وقف عند نصوص جزئية لا تعبّر عن اتجاهاتٍ عامة ، وإنما كانَ الناقدُ يُدلى بالحكم فى مناسبةٍ ثم يَعدل عنه فى أخرى - وإن كان فى الإمكان تبيّنُ رأيه النهائى باستقراء آثاره وآرائه فى جملتها - مما جعل الاعتمادَ على نصوصٍ بعينها ، تكرر وتُعاد ، وتُبتر أحيانا لكى تلائمَ المعنى الذى يُراد

تحميلُها إياه ، أقول : أصبح الوقوفُ عند هذه النصوص - القليلة جدا - فحسب ، غيرَ كافٍ على الإطلاق .

على أنّ الناظرَ فى تاريخ النقد العربى والمتتبعَ لحركته ، على أساسٍ نظرةٍ شاملةٍ تتخطّى ما يمكن تسميته (بالنّتوءات الهَشّة) - التى تمثلها النصوص التى اعتمد عليها الدارسون المُحدَثون - يستطيع أن يتبين أنّ أعلامَ ذلك النقد لم يكونوا على هذه الصورة من التعصّب للقديم والمقاومة لكل ماهو جديد ، بالعكس لقد كان الجديد دائما محلَّ قبولهم ، وأكثر من هذا أنهم حثّوا عليه ، ونبّهوا على من سوّلت له نفسُه أنّ يستعير من غيره . هذا عن النقّادِ القُدامى فى القرن الثانى وتلاميذهم من اللغويين والنحاةِ فى القرن الثالث ، وهم الذين يتعرّضون لهجوم الدارسين المحدثين ، ثم مالبثَ تيّارُ القبول للجديد أن اتّسع وتعاظم وأصبح هذا الشاعرُ أو ذاك يُفضَّل على غيره لأنه مجدّدٌ ولأنه مبْتكِر .

ومعنى ذلك أنّ هناكَ خطأً متصلا فى النقد العربى ليس عمادُه التعصُّبَ ضد الحديث وتقديسَ ماهو قديم ، وإنما كان على العكس من هذا يرحّب بالجديد ويقبله وينوّه به .

وحين يحاول الإنسانُ أن يتبينَ السببَ الذى من أجله وقفَ الدارسون المحدثونَ هذا الموقفَ من وَصْفِ النقاد القدامى بالتعصُّب للقديم ورفْضِ الحديث لايجد سببا سوَى الوقوفِ عند النصوص الجزئية والأفكارِ المبتسرة التى لاتمثّل اتّجاها عاما ولاتيّارا متّصلا سار فيه أولئك النقاد وخضع له تفكيرُهم .

وتبدو أهميّةُ الاحتكام إلى النظرة الشّاملةِ والاتّجاهِ العام فى دراسة التراثِ النقدىّ من أننا نواجه فى نصوص هذا التّراث غيرَ قليلٍ من الخطأ والتناقض والتّحامل والمجاملة . فهناك - كما سنرى - النصوص التى اقتُطِعت من سياقها ، والنصوص التى تحمل من الأخبار ما يستعصِى على التصديق ، وتلك التى تنضحُ بالكيْد أو التزلّف .

وعلى سبيل المثال : كيف يمكن أن نتصوّر شاعراً كالفرزدق (ت ١٠ / ١١١) ينوّهُ بالسيّد الحميرى (١٠٥ - ١٧٣) سالكا معه فى نفس الخبر شاعراً خارجيّا هو عمران بن حِطّان (ت ٨٤ هـ) ، إذْ يُنسب إلى الفرزدق القولُ : « إنّ هاهنا لرجلين لو

أخذا فى معنى الناس لَما كنّا معهما فى شىء ، فسألناه : من هما ؟ فقال : السيّد الحميرى وعِمران بن حطّان السّدوسىّ » (١) . ومثل آخر : كيف يمكننا أن نثق بقول الأصمعى : إنّ « تسعةَ أعشار شعر الفرزدق سرقة ، وكان يكابر ، وأما جرير فما علمته سرق إلاّ نصف بيت . قال : ولا أدرى ، ولعلّه وافق شىءٌ شيئاً » (٢) . ومعنى (وافق شىءٌ شيئاً) أن نصف البيت الذى تُنسب إلى جرير سرقته قد يكون من قبيل التوارُد ، فلا تكون هناك سرقة لجرير على الإطلاق.

وإذا كان المرزبانى قد انتقد هذا القولَ ووصفه بالتحامل على الفرزدق والميل مع جرير لأنّ الفرزدق كان يهجو باهلةَ قبيلة الأصمعى ، فإنّ الخبرَ الأوّلَ لم يجد من ينَقده، ولا وُجِدَ من القدماء مَنْ لاحظ التناقض بين القول بأنّ أبا عمرو بن العلاء كان لايحتجّ بأشعار الإسلاميّين ولا يرويها ، وبين واقع روايته الواسعة لتلك الأشعار والإعجاب بها والتلقى عن أصحابها والتّتلمذ عليهم .

والواقع أنه مالم يُؤخذ الاتجاهُ العامّ لحركة النقد العربىّ فى الاعتبار ، فإنه يكونُ من الصّعْب فهم أىّ موقف من مواقف ذلك النقد ، إذ إنّ مجردَ الوقوفِ عند النصوص – خاصةً إذا كانت قليلةً وغيرَ قاطعةٍ فى دلالتها – لايكفى ، إذْ توجَد – من ناحيةٍ أخرى – نصوصٌ تنقضُها ، وبالتالى يُصبح الاكتفاء بمجرد النصوص غيرَ مُجدٍ، وهذا ما تبدُو صحته من مجرد النظر فى محاولات الدارسين فى عصرنا الحديث للتدليل على تعصّب قدامى النقاد ضد شعر المحدَثين فى العصر العباسى وضد محاولات التجديد فى ذلك الشعر .

فعلى الرغم من اتفاقهم على هذا التصوُّر لموقف أولئك النقاد ، فإننا لا نعدَم الخلافَ بينهم ، وهو خلافٌ كثيرا ما يكون جوهريا ، وإن صدَر عن نظرةٍ واحدة . وعلى سبيل المثال : دعوةُ أبى نُواس : قيمتها ، ومدى وقعِها على أولئك النقاد ، وموقفهم منها ، أهُوجِمَتْ ؟ أم لم تهاجَم ؟ وما هو التعليل الذي يُساقُ فى كل من الموقفين ؟ .

---

(١) الأغانى ٧ / ٢٣١ .

(٢) الموشح ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

أما عن قيمتها ، فيبدو من حديث نِكْلُسُنْ Nicholson (R.A) عن (أبى نواس الناقد) أنه يعترف بقيمتها ، إذ يتحدث عن أبى نُواس كواحد ممن سلّموا بسُخْفِ الجَرْى على النمط القديم فى حَشْو الشعر بصور مستعارة من حياة البادية ، لايجد الشعراء أو جمهورهم أدنى قدر من المَيْل إليها [١] . كما يُشيد بها طه حسين ويرى أن أبا نُواس كان يدعو الناسَ إلى تغيير القديم ، كما يَرى فى دعوته مذهبا فى الصدق الفنى [٢] ، ويرى فيها طه إبراهيم المحاولةَ الوحيدةَ فى النقد العربىّ التى استهدفت تجديدَ الشعر تجديدا حقيقيا وإن أخفقتْ فى النهاية . هذا بينما لا يرى فيها مَنْدور دعوةً إلى التجديد ، كما أنّ ما حاولهُ أبو نواس فى تغيير مقدمة القصيدة بإحلال الخمر محلَّ الأطلال لا يُعدُّ تجديداً بقدر ماهو ضربٌ من المحاذاة التى يفوق خطرُها خطرَ التقليد ، وكذا يتفق معه عبدُالقادر القط فى التقليل من قيمة تلك المحاولة على أساس أنها لا تمثل ثورةً فنيةً على تقاليد الشعر العربى . [٣] أما محمد مصطفى هدارة فيذهب إلى أنها من الحركات الثورية وأن أبا نواس ثار على تقاليد الشعر العربىّ وخرج على عَمود الشعر ونَهْج القصيدة [٤] .

هذا عن الاختلاف فى قيمتها ، أما عن وقعها على أولئك النقاد ، وموقفهم منها، فيرى طه حسين أنها كانت محلّ سُخْط لما فيها من هجوم على العرب وهجوم على القديم لأنه عربىّ ، بينما لا يشير طه إبراهيم إلى أنها كانت عُرضةً لهجوم خاصٍّ من جانب النقاد ، وإن فُهِم من كلامه أنها هُوجمت ضمن التيار العام فى الهجوم على كل ماهو حديث ، ويرى مندور وعبدُالقادر القط أنّ أحداً لم يهاجم دعوة أبى نواس هجوما مماثلا لما حدَثَ مع أبى تمّام ، وذلك لأنها كانت ضئيلةَ الأهمية من الوجهة

---

(١) Nicholson (R.A .) A Literary History of the Arabs, p 286 .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٩٤/٢ .

(٣) عبدالقادر القط ، حركات التجديد فى الشعر العباسى ، بحث نشر ضمن مجموعة من الدراسات مهداة (إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين) ص ٤١٨ .

(٤) محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ٢١٣ ، وراجع : أحمد أمين ، (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) مجلة الثقافة ، العدد ١٩ مايو ١٩٣٩ ، ص ٧ حيث يجعل أبا نواس من الدعاة إلى التجديد .

الفنية. أما أحمد أمين فيرى أن أنصار القديم هاجموا تلك الدعوة واضطرّوا أبا نواس إلى الرجوع عن مذهبه في الدعوة إلى الإقلاع عن بكاء الديار ووصفِ الأطلال في افتتاح القصائد، وهذا هو ما يراه صاحبُ (مشكلة السرقات في النقد العربي) أيضا (١).

بل إنهم يختلفون في نوع المهاجمين لتلك الدعوة، فطه حسين يُشير إلى تعرضُ الشعراء المجددين لسُخط الأئمة والعلماء من رجال الدين، الذين كانوا بحكم منزلتهم الدينية واللغوية يقفون في صف القديم، يحافظون عليه ويتعصبون له ضد كل ماهو جديد، على حين يرى أحمد أمين ومحمد مصطفى هدارة أن مصدرَ الهجوم على أبي نواس كان الرواة وعلماء اللغة، وهم الذين قاموا بدور النقاد في المرحلة الأولى من نشأة النقد العربي، ويبدُو أن هذا هو مايراه إبراهيم سلامة حين يقرر أن الرواةَ واللغويين كانوا يسعون إلى كبت كل صوت يرتفع بالتجديد (٢)، وهو ما يراه أيضا شكري عياد حين يذكر أن أصحاب النقد العربي الخالص ألزموا الشعرَ المحدثَ منهجَ القصيدةِ التقليدية (٣)، أي أن خروج أبي نواس يجب أن يكون محل سُخط أولئك النقاد.

ومن الواضح إجماعُهم على وجود ذلك الموقف من جانب قدامى النقاد، حتى عند من نفَوا قيامَ خصومة وهجوم على أبي نواس، مثل مندور والقط، فهؤلاء لم ينفُوه على أساس قبول النقاد لدعوة الشاعر المجدِّد، بل على أساس أن الدعوةَ ذاتَها لم تكن درجةُ التجديد فيها، ومدى الجِدِّيّة أيضا، من الوضوح بالقَدْر الذى يُثير انتباهَ النقاد، ويستحق - بالتالي - المقاومةَ والهجوم. وهم بذلك يَصدُرُون عن نفس التصوّر الذى يرى أنّ دعوةَ أبي نواس تعرضت للهجوم على أساس القيمة التجديدية في تلك الدعوة.

---

(١) أحمد أمين، المصدر السابق ص ٨. ومحمد مصطفى هدارة، المصدر السابق ص ٢١٣.

(٢) إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص ٣٠٦.

(٣) شكري عياد كتاب أرسطو طاليس في الشعر، نقل متى بن يونس، تحقيق وترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية ص ٢٢٩.

بل إن الباحث الواحد ليتناقض مع نفسه فى بعض الأحيان في تصوره لمدى قبول العلماء لتلك الدعوة ، فطه حسين مثلا يبدأ كلامه عن (القدماء والمحدثون) بأن من أسباب بُطء تطور الأدب العربى ، والشعر العربى خاصة ، أن الشعراءَ المجددين كانوا يتعرضون للهجوم والسخط من جانب الأئمة وعلماء الدين ، لأن أولئك العلماء ، بحكم منزلتهم اللغوية والدينية ، محافظون يكرهون كل جديد ، ويعملون على الإبقاء على اللغة وعلى مفرداتها ومعانيها كما هى دون أى قدر من التطور ، تلك الطائفة كانت أعداء للجديد ، ولاشك أن عداءهم يشمل أبا نواس، إذ هو الممثلُ البارزُ للجديد، هو صورة العصرِ كله فى الجرى وراء الجديد ورفضِ القديم أيا كان : دينا أو لغةً أو تقاليدَ .

ولاشك أن أبا نواس – وفقا لهذا التصور – كان فى دائرة هجومهم ، وعندما قال بعضهم لطه حسين إن ذلك العصرَ كان فيه الوقارُ والرزانة والتديّن، راح يجادل معارضيه مؤكداً أن ذلك العصر – سواء فى الظاهر أو فى الخفاء– كان عصر مجون وكان عصر تحرر ، لم يسلم منه مَن يُفْتَرَضُ فيهم أنهم أكثرُ الناس محافظةً ، لم يسلم منه رجال الدين أنفسهم ، وما كان رجال الدين من المتزمتين ، ابتداء من عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير الذى كان خليفة – لم يكن علماء الدين من المتزمتين ، وفي العصر العباسي صاروا من المتحررين وإن تستّروا قليلا ، أو ظهروا بمظهر الجدّ أحيانا ، بل هم لم يحافظوا على مظهر الجدّ دائما ، لأن أبا نُواس – رأسَ الاستهتار والمجون والجرأة والتجديد – حَظِيَ بأكبر قدر من ثنائهم ، بل إنهم رَوَوْا عنه ، وروى هو عنهم [1] ، وأشادوا به وجالسوه وأعجبوا به . بل إن الناس جميعا فى العصر العباسي كانوا قابلين للجديد آخذين به ، الجميع كانوا مجدّدين وقابلين للجديد ، ولايفترق أبو نواس عنهم إلا بأنه هو الذى (أعلن) قَبولَ الجديد ، أما القبولُ للجديد فى ذاته والعملُ

---

(١) فى رواية أبى نواس عن عدد من المحدّثين ، ورواية عدد من ثقاتهم – منهم الشافعى – عن أبي نواس ، يراجع : حديث الأربعاء ٢/٢٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، وجدير بالذكر أن الدكتور طه حسين يحيل فى هذا على (تاريخ دمشق) للحافظ ابن عساكر .

به ، فقد كان قائما وكان مأخوذا به بين الجميع [١] .

فهل قاوم رجال الدين وعلماؤه كلّ جديد ؟

وهل أخذ رجال الدين والمجتمع العباسى كله بكلّ جديد ؟

يجيب طه حسين عن كلا السؤالين بنَعَمْ . وأحسب أن إجابته عن السؤال الثانى صحيحة وأنه مُوقنٌ بها ، لكنه قال ما قال خاصًا بالسؤال الأول ، تحت وطأة الفكرة المسيطرة عن وجود من قاوموا حركات التجديد فى الشعر العربى ، وهى الفكرة السائدة من بداية القرن العشرين على الأقل إلى هذا اليوم .

هذا مثالٌ واحد لكيفيّة الاختلاف فى جزء واحد من أجزاء الصّورة ، بسبب الاعتماد على بعض الروايات دون بعضها الآخر ، وبسبب الانسياق وراء أفكار سابقة تكونت لدى الباحثين من قبل ، وظلت تتحكمُ فى اختيارهم للنّصوص وفى فهْمِهم لها حتى تصبحَ أكثرَ طواعية لما يريدون أن يقرروه .

ولاشك أن الخلاف سيكون أعظم حين يُطرح هذا السؤال : ما الفرق بين دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام ؟ ثم يعظم أكثرَ حين يُسأل عن موطن الهُجوم الذى ركّز عليه خصومُ أبى تمام : هل كان هجوما على اختراعه للمعاني ، أوْ كان هجوما على طريقتِه فى الصّياغة أو على غموضه ؟ هل كان هجوما على ما جاء به من جديد ؟ أى أنّ خصومه كانوا فى صَفّ القديم ؟ أم أن خصومه تصوّروا أن ما يهاجمونه هو ضرب من الإغراب والإحالة وإفساد اللغة لا أكثر ؟ وأنهم كانوا –فى ذلك– يجارون ذوقا عاما وجد قبلهم وظل سائداً بعدهم حتى عند من عُرفوا بأنهم ناصَروا الجديد ؟ .

---

(١) عرض الدكتور طه حسين رأيه فى مهاجمة رجال الدين وعلمائه للتجديد فى الشعر فى (حديث الأربعاء) ٢/١٠ أما رأيه فى اندفاع المجتمع العباسى كله بما فيه رجال الدين والخلفاء والشعراء وقبول الجميع للجديد بشتى صوره فيصوره كثير من الصفحات التى تناول فيها المشكلة بالدراسة ، على سبيل المثال ٢/٣٥ ، ٣٦ ، ٩٥ ، ٩٧ ، وراجع أيضا ٢ / ٥٥ فى تفضيل الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين لأبى نواس .

ولقد بلغت نتيجةُ الاعتماد الجزئيّ على الروايات أقصى مراحلِ خطورتها — فيما أعتقد — حين تصور أستاذ جليل أن النقد العربيّ تناقضَ مع نفسه ، ذلك أنّ هناك رواياتٍ تقول إنهم حثّوا على اتباع القديم ، ثم إن هناك دراساتٍ تسجل اهتمامَهم بكلِ ما اقتدى فيه أحدُ الشعراء بشاعر ممن سبقوا عليه ، وهو الاقتداء الذى كان عُرضةً لسُخْطهم واستنكارهم ، أى أنّ النقدَ العربى وَفقًا لهذا التصور كان يحثُّ على التقليد وينهى عن التقليد فى آن واحد (١) . ومع الاعتراف بحصافة الاستنتاج فإننا لانستطيع التسليمَ بسهولة بأن تلك المرحلةَ من التفكير العربيّ شهدت خدعة كبرى كان الناسُ أثناءها لايفهمون أنفسهم ، ولايفهمون مايريدون ، بحيث تضاربوا مع أنفسهم دون أن يشعروا ، فراحوا يأمرون بالتقليد والبعدِ عن التقليد فى وقت واحد !

أكثر من هذا أن أولئك النقادَ كثيرا ماكانوا يُصدرون الحكم النظريَّ فيذاع عنهم ، ثم هم عند التطبيق يتراجعون عنه ، وخطورة هذا التصرُّف بالنسبة للدراسات الحديثة أن البعضَ يكتفي بعَدد من النصوص ، أى بجانبٍ من الصورة دون بقيةِ الجوانب ، فتكون النتيجةُ صدورَ حكم خاطئ ، أو ناقص على أقل تقدير . وهذا ما حدث بالنسبة لابن قتيبة ، فقد أعلن ضرورةَ التزام الشاعر المحدث بالنهْج التقليدى للقصيدة العربية وحين راح يطبّقُ ما أعلنه على الشعراء — فى ترجمته لهم — كان احتفاؤه وتنويهُه بأولئك الذين خرجوا عن النهْج التقليدى للقصيدة أكثرَ من احتفائه بمن حافظوا على ذلك النهج .

على أن تصريحَ ابن قتيبة لم يمّر دون أن يسجّل عليه المحدثون ملاحظاتِهم ، وهكذا تضاربت الآراء فيه ابتداء من الوصف بأقصى درجات الرجعية إلى الوصف بالتحرر والعدل ، فبينما يرى نكُلْسُنْ أنه أولُ ناقد عربى هامّ يعلن أن القدماءَ والمحدثين ينبغى أن يُحكَم عليهم على أساس ميزاتهم لا على أساس العصر (٢) ، نرى محمد مندور لايعجبه شىء فى ابن قتيبة ، فحين يصرح الناقد القديم بوجوب الحكم على شعر القدماء والمحدثين على أساس مافى كلّ منهما من عناصر الجودة

---

(١) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(٢) Nicholson (R. A.) A Literary History of the Arabs, p . 286 .

لا على أساس الحداثة والقِدَم لايروق هذا التصريحُ لمندور لأن الشعرَ القديم أفضلُ من الشعر المحدَث ، وبالتالي فابن قتيبة مخطئ حين يطالب بالمساواة بين الشعرين : القديم والمحدَث ، وحين يُدلى الناقدُ القديم بتصريحه عن وجوب عدم خروج المحدثين عن منهج القدماء يتساءل منـــدور : لماذا لايخرج الشاعر المحدث ؟ ولماذا لايصِفُ الدُّورَ والقصُور ؟ وهكذا (١) ، أما أحمد أمين فيرى فى ابن قتيبة ناقداً متحررا ورجعيا فى آن واحد (٢) .

وكان رجوع ابن قتيبة عن حكمه رجوعا صامتا ، حين قبل - دون تحفّظ - شعر أبى نواس ، الشاعر الذى خرج على نهْج القصيدة ، أى حين وافق على ما سبق أن أعلن رفضَه . ولكن هناك غيرَ ابن قتيبة مَنْ كانوا يُصدرون نصوصا متضاربة ، أو هكذا صوّرَتْهم الروايات ، بل مانظن إلا أن الروايات هي التى صورتْهم بهذه الصورة ، وهذا مثال واحد : أبو عمرو بن العلاء ، مِنْ رؤوس المدرسة البصرية فى اللغة والنحو - والنقد أيضا - حكى الأصمعى أنه جلس إليه ثمانى حجج فما سمِعَه يستشهد ببيت واحدٍ إسلامى ، ثم نجد روايات أخرى : كان يروى شعر جرير وطبقته ، وكان إعجابه بالأخطل لاحدودَ له ، وكان يروى شعر ذى الرُّمة ، ويرى أن عمرَ بنَ أبى ربيعة حجة ، ثم هو كان يرسل إلى الحارث بن خالد المخزومى - وهو شاعر إسلامى - يستفتيه فى اللغة ، ونتساءل : هل ذلك هو سلوك الرجـــل الذى يرفض شعر الإسلاميين ؟ - حتى فى مجال الاحتجاج اللغوى ؟ ذلك مثل واحد .

وتعظم محنة الدارس الحديث حين يرى أن النقدَ العربى انتهى به الأمر إلى إفراد مبحث لما سُمِّى (بالاختراع) حينا و (الإبداع) حينا آخر ، وأنه أصبح يحث على الابتكار والتجديد ، وهنا يتساءل الدارس الحديث : ألا يوجد تناقض فى التفكير العربى ، تناقضٌ بين موقفين له فى زمنين مختلفين ، ماداموا يقولون إنّ عصرا معينا قد رفض كل ما هو جديد، وها نحن أولاء نرى أنهم صاروا أحرصَ الناس على الجديد؟

---

(١) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) أحمد أمين ، النقد الأدبى ٢/ ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، وراجع أيضا المقالة الأولى من دراسته عن (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) العدد ١٩ من مجلة الثقافة مايو ١٩٣٩ ص ٨ .

ألا يوجد تضارب وتعارض ؟ وقد يقال إنه تعارض طبيعي ، فهم قد تراجعوا – بعد فترة – عما سبق أن تمسكوا به في فترة سابقة ، وهنا يجد الإنسان نفسه فى حاجة إلى التماس تعليل لهذا التحول والتراجع ، ويجد نفسه أمامَ محاولات لهذا التعليل تحاول أن تعزوَ ذلك التحول إلى عواملَ طارئة من الخارج . والتعليل وإنْ كان مطلوبا ، واللجوءُ إلى عامل خارجيّ وإن كان يمكن أن يكونَ مقبولا ، لكنه من ناحية يبدو أنه لايتفق مع الواقع ولامع طبيعة المجتمع الذى قبل كلَّ ما هو جديد ، ولو صحَّ أن العواملَ الخارجيةَ الطارئةَ قد تُولّد اتجاهات جديدةً مستحدثة ، فإن الذى نشكُّ فيه أن تستطيع هذه العوامل المُضِيّ فى محاباة الاتجاهات الجديدة وتنميتها مالم يكن المجتمعُ نفسُه على استعداد لقبول هذا الجديد ، من هنا يبدو اللجوءُ إلى تعليل خارجيّ لقبول المجتمع العربيّ للجديد غيرَ كافٍ ، بل غير مستقيم .

وهكذا لايكون أمام الباحث إلا أن يكرر النظرَ في الصورة مراتٍ ومراتٍ محاولا أن يتبينَ فيها بعضَ الخطوط التى يمكن أن يكونَ لها حظ من الاتّصال والوضوح وهو ما يُضفى على الصورة شيئا من المنطق ويكسبُها صفةَ الاستمرار ويجنّبُها صفة التناقض . ويكون جُلُّ اعتماده هنا على الاتّجاه العامّ في حركةِ النقد أكثرَ من الوقوف عندَ نصوصٍ جزئية قليلة قد تَنقصُها الدلالةُ الكافية ، وإن كان لايهمل هذه النصوصَ ، وإنما ينظر إليها من خلال الإطار العام والاتجاه العام الذي يطبع حركة النقد في عمومها ، وهكذا يصبح الاتجاهُ العامّ هو الذي يحكم على دقة النصوص المفْرَدة ، على الرغم من أنه يقوم على أساسها ، وليس العكس ، أى أنّ النصوصَ الجزئية لاتحكم نظرتَنا إلى الاتجاه العام إلا بمقدار ماتتفق مع هذا الاتجاه .

ولانعنى بما نسميه الاتجاهَ العامّ نظرةً سابقة على البحث نحاول أن ننتخب النصوص لتأييدها وأن نرفض ما يعارضُها تحت دعوى عدَم توافقها مع هذا الاتّجاه ، ولكننا نَعني به نوعاً من الاستقراء القائم على النظرة الشّاملة التى قد تتخطّى بعض النتوءات التى لاتتوافق مع اتجاه حركة النقد ، لاعن عَمْدٍ لإهمال ما نُسميه بالنتوءات ، ولكنْ لأن هذا الإهمالَ والتخطّى إنما يعتمدُ على انعدام أثر هذه النصوص ، وبالتالى لاينبغى الوقوفُ عليها مادامت عديمةَ التأثير .

ولايمكن الحكم عليها بعدم التأثير مالم يُنظر إليها فى ضوء غيرها من النصوص وفي ضوء ملاءمة هذه النصوص واتفاقها مع النتائج ، بحيث تبدو النصوصُ المهملةُ غريبة على الصورة أو نشازا في اللحن ، وهو ما يقوم سبباً مشروعاً لعدم الوقوف عندها .

ونحن بهذا المنهج لانبتدع جديداً ، سواءٌ من حيث التحفّظُ فى قبول آراء العلماء، أو اقتراحُ التوفيق بينها بحمْل بعضها على بعض والانقياد للنصوص التى تمثل الاتجاه الأقوى . فمن القدماء مَنْ واجه مثلَ هذا الموقف وتصدّى له بحلولٍ لم يكن أمامه - فيما نرى - أنسب منها ، وهى حلول من النوع الذى اقترحناه . ومن هؤلاء ابن جنى (أبو الفتح عثمان ت ٣٩٥) وقد جاء فى كتابه - الخصائص - (بابٌ فى اللفظين على المعنى الواحد يردان عن العالم متضادّين) ، ويقصد بـ (اللفظين) هنا: العبارتين ، أو الحكمين فى الموضوع الواحد، قال : « وذلك عندنا على أوجه :

أحدها : أن يكون أحدهما (يعني أحد الحكمين) مُرْسلا والآخر معلَّلاً ، فإذا اتفق ذلك كان المذهبُ الأخذَ بالمعلّل ، ووجب - مع ذلك - أن يُتأوّلَ المرسل .. » [١] .

« ومن ذلك أن يرد اللفظان عن العالم متضادين على غير هذا الوجه ، وهو أن يَحكم فى شىء بحكم ما ، ثم يَحكم فيه نفسه بضدّه ، غير أنه لم يعلّلْ أحدَ القولين ، فينبغي حينئذ أن يُنظَرَ إلى الأليق بالمذهب والأجْرى على قوانينه، فيُجعلَ هو المراد المعتَزَم فيهما ، ويُتأوّلَ الآخر » [٢] .

« ومن ذلك أن يردَ اللفظان عن العالم متضادّيْن ، غيرَ أنه قد نصّ فى أحدهما على الرجوع عن القول الآخر ، فيُعْلَم بذلك أن رأيه مستقرٌ على ما أثبته ولم ينفه ، وأن القولَ الآخر مُطَّرَحٌ من رأيه .

---

(١) الخصائص ١/٢٠٠ .

(٢) الخصائص ١/٢٠٣ .

فإن تعارضَ القولانِ مرسلين ، غير مُبانٍ أحدهما من صاحبه بقاطع يحكم عليه به .. بُحِثَ عن تاريخهما فعُلِمَ أن الثاني هو ما اعترفه ، وأن قولَه به انصرافٌ منه عن القول الأول ...

فإن استبهم الأمرُ فلم يُعْرَف التاريخُ وجَب سَبْرُ المذهبين ، وإنعامُ الفحص عن حال القولين ، فإن كان أحدهما أقوى من صاحبه وجب إحسان الظن بذلك العالم ، وأن ينسب إليه أن الأقوى منهما هو قوله الثاني الذي به يقول ، وله يعتقد، وأن الأضعف منهما هو الأول منهما الذى تركه إلى الثانى » (١) .

وواضح أنه لايكتفي فى التوفيق بين المتناقض من آراء العالم الواحد فى المسألة الواحدة بمجرد ترجيح الرأى المعلّل على غير المعلّل ، أو اعتماد الرأى الثاني باعتباره ناسخاً للرأى الأول ، وإنما يتدخّل بالترجيح بين الرأيين المرسلين فى ضوء المعروف من اتجاه صاحبهما ومذهبه مما يساعد على تقوية أحد الرأيين والأخذ به وإهمال الآخر(٢) .

هذا هو مسلك ابن جني الذى لايسعنا إلا تقديره والتنويه به ، وهو مسلك أمْلتْه – دون شك – ظروفُ التراث العربى وتعدد ما يُروَى عن العالم الواحد من آراء في المسألة الواحدة ، مما جعل من الضرورى الصدورَ في دراسته عن نظرة شاملة تعُمّ آراءَه ومواقفه .

وهذه هي النظرة التى حاولتُ اصطناعَها فى هذه الإطلالة على موقف النقد العربى القديم من شعر المحدثين ومن حركات التجديد فى ذلك الشعر في القرنين الثاني والثالث ، إذ إن الوقوفَ على حقيقة ذلك الموقف ومدى قَبول النقد أو رفضه للتجديد يعتبر – فيما أرى – مقدمة ضرورية لدراسة أى من موضوعات ذلك النقد

---

(١) الخصائص ١/٢٠٥ .

(٢) مما له دلالة في هذا الصدد ماذكره ابن جني من شيوع هذا المسلك عن عدد من العلماء ، أعني صدور الرأى من أحدهم في مسألة من المسائل ثم رجوعه عنه إلى رأى آخر ، أو قوله في المسألة الواحدة برأيين يلتزمهما جميعاً ، وممن نسب إليهم سلوك هذا المسلك بعض الفقهاء كأبى يوسف صاحب أبى حنيفة ، وعدد من المشتغلين بالنحو واللغة والقراءات منهم أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبّرد وأبو على الفارسى . يراجع الخصائص ١/٢٠٥ ، ٢٠٦ .

وقضاياه تلك التى أُسيءَ فهْمُ الكثير منها بسبب انطلاق الدارسين لها من مسلمات غير دقيقة أخطرها ماشاع عن مناصرة النقد العربى - بل الفكر العربى كله - للقديم ، ورفضه لكل جديد .

وإذا كان هناك من ملحظ أعتذر عنه - سلفا - فإنما هو كثرةُ الإلحاح على النصوص وإيرادها ، سواء في ذلك نصوصُ الدارسين فى عصرنا الحديث ممن وَصَفوا أوائل النقاد بالتعصّب ، ونصوصُ أولئك الأوائل ممن وُجِّهت إليهم تهمةُ التعصّب ، وهو مَسْلك تشفعُ له طبيعة المشكلة التى يتصدّى لها البحث والموقف الذى يتوخّاه صاحبُه ، أعني موقف الحياد والاكتفاء بتتبّع ما يمكن أن نسمّيه بـ (تَحاوُر النصّوص) تتبعًا غايتُه الفهم ، ورائدُه ما سبق أن ذكرتُه من وضع النصوص تاريخيًا فى أُطُرها الاجتماعيةِ والثقافيةِ والفنيةِ .

الباب الأول
موقفُ النقدِ العربيِّ من شعر المُحدثين كما تصوّره الدارساتُ الحديثة

(١)
عـــــرض

فى الفصل الذى عـقدَه نكلسن **Nicholson** للحـديث عن الشعـر والأدب والعلم في العـصر العبـاسى ، فى كتـابه (التاريخ الأد بى للعرب) تـناول موقف أوائل النقاد العرب ، الذين كانوا من اللغويّين أصلا ، في تعظيم الشعر الجاهلى ، وهو الموقف الذى كان له انعكاسـه – فيما رأى – على الـنظرة إلى الشعر المحدث ، وعلى الشـعراء المحدثين أنفسـهم ، يقول : « كان الشعر الجاهلى هو التـعبير الطبيعى عن الحـياة البدوية ، وعلى هذا فمن الممكن أن نتوقع قيـامَ الظروف الجديدة والأفكار التى جاء بها الإسلامُ بإحداثِ ثورة مماثلة فى الشعر على وجه السرعةِ فى القرن التالى . ولكنّ ذلك على أى حال كـان بعيدا عمّا آلَ إليـه الوضع ، ذلك أن الشعراء الأمـويـين تشبّثوا بقـوة بالنماذج العظيـمة التى أنتـجها عـصرُ البطـولة ، كمـا اعتـقدوا بـوجود ميـزة فى المحاكـاة الماهرة للقصائد القديمة . وتمسّـك النقادُ المسلمون الأوائل ، الذين كانوا لغويين بحكم المهنة ، بالمبدأ القـائل بأن الشـعرَ فى العـصـور السـابقة عـلى الإسلام قـد وصلَ إلى درجـة من الكمال لايَطمعُ فى مجاراتِها شاعرٌ محـدث ، ولايتيح الإلهامَ بمثلها سوى المثلِ الجاهليةِ البائدة . وكان الميلاد بعد الإسلام فى ذاته دليلا على الانحطاط الشعرى .

وقد حازت تلك الأفكـار قبولا واسعا فى الدوائر الأدبيـة ، وأدت بالتدريج إلى انحراف الذوق العـامّ إلى حدٍّ أن يَدّعِىَ الدارسون المتحـذلقون ، مثل الخليل بن أحـمد مخترع العَروض العربى ، أنّ فى إمكانهم أن يَشيدُوا أو يحطّموا شهرةَ الشاعر الناشئ حسب مايتـراءى لهم ، وإذ صارت الأصالة **originality** مقضيًا عليهـا مقدّما ، فإن أولئك الذين رغبـوا فى الحصول على تقـدير تلك الأكاديمية التى تكونت ذاتيــا ، كان عليهم أن يضيّعوا وقتهم ومواهبهم في احتذاء الروائع القديمــة مع شيء من التحسين، وفي إتحـاف الندماء والمواطنين بالصـور المستـعارة من الحياة البـدوية ، التى لايشـعرون

ولا يشعـر جمهورهم بأدنى قدرٍ من الميل إليهـا » (١) .

وخلال الأعـوام ١٩٢٢ – ١٩٢٣ – ١٩٢٤ نشر **طه حسين** مجموعة من المقـالات الأسبـوعـية فى جـريدة (السـيـاسة) جَمـعَهـا موضـوعٌ واحـد هو (القـدمـاء والمحدثـون) ، ويذهب الأستـاذ الجليل إلى أنه « لم يخلُ عصـر أدبىّ في حيـاةِ الأمم التى كـان لها نصـيبٌ من الأدب وحظٌ فى إتقـان القول وإجـادته من هذه المسـألة – مسـألة القدمـاء والمحدثين » (٢) ' ولم تكن الأمـة العربيـة بِدْعاً فى ذلك بين الأمم فـقد ظهـرت فـيهـا هى الأخرى ظاهرةُ الصِّراع بين الـقديم والحـديث فى ميـدان الشعـر ، « ذلك أن الخلافَ قـد وقعَ بالفعل فى أواخرِ القـرن الأول وأوائلِ القَرن الثاني للهجـرة بين أنصار الجاهـليّين والإسلاميّين ، وكـان أبو عمْرو بن الـعلاء يروى كارهـاً شعرَ جـرير لأن هذا (المُولَّد) كـان مُجيـدا ، ثم ظهر الخـلافُ فى منتـصَف القرن الثـانى بين أنصار العـرب جاهليّين وإسـلاميين وأنصـارِ المحدثين ، أى ظهر الخـلاف بين بشّار وتلاميـذه ومن كان ينتصـر لهم من الأدباء وبين امرئ القيس وتلاميـذه ومن كان ينتصر لهم من أئمـة اللغة ورواة الشعر ، ثم ظهـر الخـلافُ فى القرن الثـالـث بين الذين كانوا ينتصـرون للبُحتري وأبى تمام والذين كـانوا ينتـصـرون لأبى نُواس ومسلـــم ، ثم ظهر الخـلافُ فى القـرن الرابع بين الذين كانوا ينتصرون للمتنبى والذين كانوا ينتصرون لأبى تمام . فأنت ترى أن كلّ هذا العـصــر الأدبىّ الذهبـىّ عـــند العـــرب كـان مملوءا بالاخـتــلاف بين القدمـــاء والمحدثين » (٣) .

أمـا مـوطن الخلاف ، « فـقـد كـان قـبلَ كـلّ شيئ في اللفظِ ثم فى المـعنى ، لم يتجاوزْ هذين الأمرين ، كان القدماءُ والمحـدثون أيامَ بنى أميّة يختلفون فى اللفظ اختلافا ظاهرا ، وكانوا يتخذونَ اللفظ مقياسا لجَودة الشّعر ، فكلما قَرُب هذا اللفظ من البداوةِ وكلمـا كـان رَصينا .. كـان الشـعرُ جـيـدا .. ثم ظهـر الخـلافُ بعينه فى أول الـعَصْر العـبـاسـىّ فـاختـلف الشـعــراءُ العبـاسـيـون واخـتـلف مـعـهم الأدباء واللـغـويون فى

(١) Nicholson (R.A) A Literary History of the Arabs, p .285 , 286 .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٣/٢ .

(٣) طه حسين ، المرجع السابق ٦/٢ ، ٧ .

أىّ الشعرين أجملُ وأرقى وأحسنُ : الشعرُ الذي يحتذى شعراءَ الجاهلية والإسلام في متانةِ اللفظ ورصانتِه وبَداوته ، أم الشعرُ الذى يتخيّر الألفاظَ السهلةَ العذبةَ التى ألفَها الناس عامة لاعلماءُ اللغة خاصة ؟ وظهَر إلى جانب هذا خلاف آخرُ فى المعنى ، فاختلف الشعراء فى معانى الشعر ، أتبْقى كما كانت بَدَوية أعرابيّة أم تتحضرُ كما تحضّر الناس ؟ ثم أتتناول الشّعور الإنسانىّ فتصفَه ... كما كان يشعر به الأعرابُ في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثاتِ الحضريةَ والمُسْتَطْرفات التى لم يعهدْها الأعراب ؟ وعلى الجملة أيعيش الشعراءُ عصرَهم الذى هُمْ فيه أم يعيشون عصورَ الآباءِ والأجداد ؟ »(١) .

ثم يرى أن ذلك الخلافَ « لم ينتج لهذه الآدابِ شيئا كثيرا فى الشعر على أقلّ تقدير ... وإنما أحدثَ شيئا جديدا في لفظ الشعر ومعناه » . لكن ذلك الشىء « كان أقلّ جدا مما كنا ننتظر » (٢) « لقد كان العربُ أحراراً في الحياةِ المادية محافظين فى الحياةِ الأدبية .. وكان الشعراءُ الذين يجرؤون على أن يُنكِروا هذه المحافظةَ ويحاولون تحريرَ الشعر قليلا أو كثيرا .. يتعرّضون لسُخط الأئمةِ والعلماء من رجال الدين ، لأن هؤلاء الأئمةَ والعلماء بطبيعة منازلهم الدينية حُرّاص على القديم أعداء لكلّ جديد ، وكان هؤلاءِ الشعراءُ يتعرضون لسُخط الأئمة والعلماءِ لأنهم بحكم منزلتهم اللغوية مضطرّون إلى أنْ يحتفظوا لا بقواعد اللغة وأصولِها فحسب بل بألفاظها وأساليبها أيضا » (٣) « فكان من المعقول أن يتأثرَ الشعرُ بهذا كله وأن يكون موقفُ الشعراءِ المجدّدين – كموقفِ الفلاسفة المجدّدين – ثقيلا ، شديدَ الحَرَج ، وأن يتعرضَ أولئك وهؤلاءِ للحَبْس والضرب والنفى وغير ذلك من ضُروب الاضطهادِ وألوان العذاب ... فقد ضُرِبَ بشارٌ حتى مات ، وحُبِس أبو نواس فى عصر الرّشيد ، كما حُبِسَ فى عصر الأمين ولو أدركه المأمون لقتله » (٤) .

---

(١) طه حسين ، المرجع السابق ٢/٧ ، ٨ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق٢/٩ .

(٣) طه حسين ، المرجع السابق٢/١٠ .

(٤) طه حسين ، المرجع السابق ٢/١١ .

ولاتعنينا بقيةُ الأسباب التى ذكرها لتعليل عدم مُسايرة تطور الشعر لتطوّر الحياة مثل روعة الآداب العربية القديمة وحرص الأمة على سُننها القديمة وعلى ما ورثته، ثم عدم معرفة الأمة العربية لشيء من الآداب الأجنبية ، وإنما يعنينا ماذكره من مقاومة الأشخاص ، وهم الذين سمّاهم الأئمةَ وعلماءَ الدين ، لمَا هو جديد .

ثم راح يعرض لمظاهر التجديد الشامل فى العصر العباسى ومانتج عن ذلك من تجدُّد الحياة الأدبية : « وفى الحق أن الشعر قد سلك فى أيام بنى العباس طريقا تكاد تخالف كلّ المخالفة طريقه أيام بنى أمية فنشأت معانٍ جديدةٌ وذهب الشعراء مذاهبَ مختلفة في وصف هذه المعانى والتعبير عنها .. ذلك أن الحياةَ في عصر بنى العباس كانت جديدةً من كلّ وجه ، فانقطعت الصلةُ شيئا فشيئا ، أو كادت تنقطع ، بين هذه الحضارة البديعة التى كانت تزدهر فى بغداد وضواحى بغداد وبين هذه البداوة القاسية الخشنة التى كانت تبسُط سلطانها على بلاد العرب » (١) . فقد كان من الظواهر اللافتة في ذلك العصر « ظاهرة الإباحة والإسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكلّ قديم دينًا كان هذا القديمُ أو خُلُقا أو سياسةً أو أدَبًا ... وظهر ازدراءُ الأدب العربى القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة ، بل ظهر ازدراءُ الأمة العربية نفسِها وتفضيلُ الأمة الفارسية عليها .. والذي يعنينا أن هذا التغيُّر قد كان ، وقَوِىَ حتى ظهر فى الشعر ظهورا جعل إنكارَه مستحيلا ، فيكفي أن تقرأ شعرَ أبى نواس وما كان بينه وبين أصحابِه وخصومه من معارضةٍ ومناقضة لتعرف مقدارَ هذا التغير ، ثم إن هذا التغير نفسه قد أنتج نتيجته الطبيعيةَ فنهض القديم للدفاع عن نفسه واشتدَّ الجهاد بينه وبين الجديد » (٢) .

والواقع أنه « لم يكن الجهاد عنيفا حين كانت الحياة الماديةُ موضوعا له ... وإنما كان الجهادُ عنيفا بعضَ العُنف حين كانت الحياة العقليةُ موضوعا له ... وكان القرنُ الأولُ للهجرة عصرَ هذا الجهاد ، ولكنه لم يكد ينقضى حتى ظهر انتصار الجديد ، وأخذ القديمُ ينهزم أمامه ... وكان هذا الانتصارُ عاما تناول الحياةَ الماديةَ والعقلية ،

(١) طه حسين ، المرجع السابق ٢/ ٢٠ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق٢/٢٢ .

وتناول معهما حياةَ الشعور ، ففكّر العربُ المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكيرَ العرب القدماء ... وظهرت عندهم العلومُ وضروبُ الفلسفة ، وتغير لهذا كلّه حسُّهم وشعورهم ، فتغير لسانُ هذا الحِسّ وهذا الشعور وهو الأدب نثـرا كان أو شعرا » (١) .

ويرى طه حسين أن أبا نُواس يمثل ذلك العصرَ أصدقَ تمثيل ، بشكّه ومجونه وأيضا بجدّه وزهده ، ويورد جملة من أقوال العلماء والأدباء فى تفضيل شعر أبى نواس ومدْح شاعريته (كالأصمعى وأبى العَتاهية وابن الأعرابى والمبرِّد) (٢) ، ويتشكك طه حسين فى أن تكون تلك الأحكامُ صادرة عن دراسة حقيقية لشعر الشاعر وانتقاد حقيقى لفنه ، ولكنه – مع ذلك – يرى « أن معاصرى أبى نُواس كانوا يقدّمونه ويدينون له بالزعامة ... كان القدماء يُؤثرون أبا نواس على معاصريه ، وكانوا فى ذلك مُحقّين ولكنهم لم يقولوا ، ولعلهم لم يعلموا لماذا كانوا يُؤثرون أبا نواس » (٣) .

فإذا انتقل إلى الحديث عن مذهبه فى ترك الحديث عن الأطلال وحياة البدو رأى « أنه كان يريد أن يتّخذَ – ويتخذ الناس معه – فى الشعر مذهبا جديدا ، وهو التوفيق بين الشعر والحياة الحاضرة بحيث يكون الشعرُ مرآة صافية تتمثل فيها الحياة ، ومعنى ذلك العُدول عن طريقة القدماء ، لأن هذه الطريقةَ كانت تلائم القدماء وما ألِفُوا من ضروب العيش ، فإذا تغيرت ضروبُ العيش هذه وجَبَ أن يتغيرَ الشعرُ الذى يتغنى بها فليس يليقُ بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذّاتها أن يصف الخيامَ والأطلال أو يتغنّى الإبلَ والنساءَ وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ، ويتغنى الخمرَ والقيانَ ، فإنْ فعل غيرَ ذلك فهو كاذب متكلّف ، أراد أبو نواس أنْ يشرّع للناس هذا المذهب فجدَّ فيه ووُفِّقَ التوفيقَ كلَّه ، واتخذ وصف الخمر وما إليها من اللذات وسيلةً إلى مدح طريقته الحديثة وذمّ طريقة القدماء ... على أن هذا المذهب الجديد ، على حُسْنه واستقامته وعلى أن أبا نواس موفّق فيه ، لم يسلم من أشياء تمكّننا من أن نفهم

---

(١) طه حسين ، المرجع السابق٢/٢٧ ، ٢٨ .

(٢) طه حسين ، المرجع السابق ٢/٥٧ .

(٣) طه حسين ، نفس المرجع والصفحة .

بُغضَ الناسِ له ونَعْيهم عليه ، فهو ليس مذهبا شعريا فحسب وإنما هو مذهب سياسىّ أيضا ، يذمُّ القديم – لا لأنه قديم – بل لأنه قديم ولأنه عربى ، ويمدح الحديث – لا لأنه حديث – بل لأنه حديث وفارسىّ ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرسِ على العرب، مذهبُ الشعوبيةِ المشهور ... ومن هنا نفهم سُخْطَ كثيرٍ من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد ، ونفهم أيضا أن الرشيد حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب » (١) .

<u>ذلك هو عَرض طه حسين لحركة القدماء والمحدثين ولموقف أنصار القديم ، والمجتمع العباسى كله من حركة أبى نواس .</u>

ويقرر **طه إبراهيم** فى كتابه (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) عند حديثه عن (الخصومة بين القدماء والمحدثين) أن النقد « بلغَ أشُدَّه واستَوى عند متقدّمى اللغويين (*) ، فهم الذين وطّدوه واستنبطوا أصوله ومقاييسه ، وشرحوا وعلّلوا كثيرا من أحواله » ويقرر أن كل ذلك « كان خاصا بالشعر القديم .. الجاهلىّ والإسلامىّ . فلَمَّا هَمَّ المحدثون بالتجديد أوْجَدوا فى النقد مشاكل لم تكن فيه من قبل ، وكلما أمعنوا فى الابتعاد عن روح القديم أمعن النقادُ فى التخاصُم والجدل » ، إذْ عندما « أخذ الشعرُ العربىّ يتغير فى أوائل القرن الثانى أخذ النقدُ الأدبى من ذلك العهد يتغير ويخوض فيما جاء به المحدثون » (٢) .

ويستعرض المؤلف بعضَ السِّمات المميِّزة للشعر القديم ، وكيف أن الشعراءَ المحدثين منذ قُبيْل قيام الدولة العباسية – أى من عهد بشار ومروان بن أبى حفصة –

---

(١) طه حسين ، المرجع السابق٢/ ٩٠ ، ٩١ .

(*) يُقْصدُ بهم متقدمو اللغويين والنحاة الذين شاركوا بصور مختلفة فى نقد الشعر ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى . ومنهم : عبدالله بن أبى إسحاق (ت ١١٧) . أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤/٩) . الخليل بن أحمد (ت ١٦٠) . خلف الأحمر (ت ١٨٠) . أبو عمرو الشيبانى (ت٢٠٦) . الفراء (ت ٢٠٧) . أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى (ت١١/ ٢٠٧) . الأصمعى (ت ٢١٣). ابن الأعرابى (ت ٢٣١) محمد بن سلام الجمحى (ت٢٣٢) وغيرهم .

(٢) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٩١ ، ٩٢ .

حاولوا التجديدَ فاضْطرَّتهم ظروف خاصة إلى لون من التجديد أو الابتكار فى حدود الإطار الذى رسمه القدماء (١) ، ويذكر من مظاهر ذلك التجديد – الخاضع لرسوم القدماء – محاولةَ أبى نواس أن يستمدَّ دِيباجَة شعره من حياته الحاضرة ، من الخمر والندامى ومجالس الشراب ، وكذلك ما فعل غيرُه من استمداد تلك الديباجة من الحديث عن القصورِ والرياض والورد والنيلوفر وغيرها من الأزهار ، « وهكذا خلق المحدثون من الموالى ديباجةً حضَرِيّة لاتتصل بسبب إلى شبه جزيرة العرب ... ولاتبكى على طلل » (٢) .

ولم يكن استبدالُ مقدِّمة خمْرية أو غيرها بالمقدمة الطللية أمرا عظيم الخطر – على حدِّ تعبيره – فتلك الديباجة لم تَنْسَخْ سابقَتَها ، ولم تستهْوِ من الشعراء إلا نفراً يسيرا ، على أنّ لونا آخر من التجديد استهوى غيرَ قليل من الشعراء وطغىَ على الشعر أولاً ثم على النثر ، ولازم الأدب العربىَّ قرونا طوالا ، وقد وُجِدَ ذلك النوعُ حين تغير المثل الأعلى للشعر عند المحدثين : لقد رأوا أن أهمَّ شىءٍ فى الشعر إنما هو الصياغة وليس المهمُّ إذن شيئا يقال ، وإنما المهم أن يُقال هذا الشىءُ فى بيانٍ جميل . وكيف يتأتّى هذا البيانُ الجميل ؟ بالزُخرف فى العبارة والتنميق . وُجِدَتْ إذن مدرسة بيانيةٌ جديدة شيخها بشار ومن رجالها ابنُ هَرْمة والعتّابى ومنصورُ النَّمرىّ وأبو نُواس ومُسلمُ بن الوليد . وأصبح للشعر لغةٌ جديدةٌ غيرُ لغة القدماء ، وتغيرت وجهةُ النظر فى البيان ، وأصبح الشعرُ فنّا حقا يسير الشاعر فيه وراء الجمال (٣) .

ويستطرد المؤلِّف فيذكرُ ألوانا أخرى من محاولاتِ المحدثين فى التجديد مثل ماصنعوا فى أعاريض الشعر وأوزانه ، وبعضِ المظاهر الأخرى كالإسْفافِ والإغراقِ والإحالة ، يقول : « هذه الحركةُ التى قام بها المحدثون كانت بعيدةَ الأثر فى الشعر وفى النقد.. فمن ذلك العهد صار الشعرُ مذهبين متميِّزين وصار الشعراء طائفتَيْن : طائفةٌ تحتذى القدماء ، ولاتجدِّد إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية ... وطائفةٌ مالت إلى

---

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) طه إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٣) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ٩٩ – ١٠١ .

التجديد ... صار الشعراء من مذهبين ، وصار فى الأدب العربى شعْران ، بينهما فى الصياغة وفى المعانى أحيانا تفاوتٌ غيرُ قليل ، وكان هذا بالضرورة موضعَ اختلافٍ بين النقاد : أيهما أحسن ... كانت هناك خصومة عنيفة بين القديم والحديث ، بين المذهبين اللذين توطّدا وأصبح لكل منهما أتباع وأشياع » (١) .

« وأخص الناس الذين كانوا يتعصبون للقدماء ، ولا يكادون يُقرون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون .. فأبو عمْرو بن العلاء شيخُهم وأسنُّهم كانت ذهنيتُه جاهليةً ، وتعصُّبه شديداً للجاهليين ، فلا يرى الشعر إلا لهم ولا يرى مَنْ بعدَهم شيئاً ، وغالى فى ذلك مغالاة صرفته إلى النظر إلى المتقدم بعين الجلالة ، لا لسبب إلا لأنه متقدم ، والنظر إلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخر ، وحتى أقام الموازنةَ على العَصْر لا على الشعْر ... وحتى قال فى أشعار كبَار الإسلاميّين : (لقد كثُرَ هذا المحدثُ وحَسُنَ حتى لقد هممت بروايته) ومن كان هذا شأنه مع الإسلاميين فأحرى به ألا يسلِّم بفضل لمولَّد » (٢) . « وماتَ أبو عمرو قبل أن يتحدَّد شعرُ المحدثين وتتضحَ خصائصُه كما هى عند أبى نواس ومسلم ، وظل اللغويون على تجاهُلِهم له وازدرائهم إياه » ويمثل لهم بابن الأعرابى وبخَلَفٍ الأحمر ثم يقول : « كان تعصُّب اللغويين للقدماء للأسباب التى ذكرناها ، كان قائما على التقدُّم فى العصر مستندا إلى أسبابٍ لغويةٍ دون أن ينصرف إلى الأسباب الفنية فى الشعر وعناصره » (٣) .

وهكذا تستمر نظرةُ المؤلِّف إلى موقف اللغويين كما هي حين ينتقل إلى الحديث عن لُغويِّى القرن الثالث وموقفهم من شعر المحدثين ، لقد قررَ أنّ اللغويين فى ذلك القرن « هم تلاميذ اللغويين الذين ذكرناهم وأتباعُهم والممثّلون لآرائهم وأذواقهم فى اللغة والأدب والفن » ، وهم أيضا « حَمَلَة العربية والساهرون على تنظيمها وتطهيرها مما يشوبُها من فساد » (٤) . وهو يحدِّد خصائصَ ذهنيّتهم فى نقد الشعر بالآتى :

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٣) طه إبراهيم ، نفس المرجع والموضع .
(٤) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١١٨ .

١ – أنهم من أنصار القدماء.. يؤثرون الشعر القديم ويَعدُّونه المثل الأعلى للشعر العربىّ فإن آثروا محدثا على محدثٍ فلابد أن يكون من يُؤْثرونه جاريا على مذهب القدماء فى جملته كالبحترىّ .

٢ – ويحبون فى الشعر القديم ما كان يحبُّه القدماء : جودةَ المعنى وسهولةَ الألفاظ .

٣ – وقلما يتعرضون لتحليل عناصر شعر المحدثين ...

أما السر فى هذا الموقف كما يراه فهو أن اللغويين كانوا « زاهدين فى الشعر المحدَث مولّين وجوهَهُم عنه ، مؤثرين عليه القديمَ ، واللغويون الآن على ذلك العهد (يعنى القرن الثالث) يخاصمون المحدَثَ ، ولا يستسيغون منه إلا ما شاكل القديم » (١) .

ويقرر أن الذين اهتموا بتحليل عناصر شعر المحدثين هم جماعة الشعراء المحدَثين أنفسهم والأدباء ، ويمثّل لهم بابن المعتز فى رسالته عن (محاسن شعر أبى تمام ومساويه)(٢) ، وهم وإن اختلفوا مع اللغويين فى طريقة النقد لشعر المحدثين إلا أن المقياسَ فى الذهنين كان واحداً . وهكذا يَخلُص إلى أن النقد عند اللغويين وعند الأدباء لم يَخْلُصْ يوما من آثار القديم ولم يتحررْ من كثير من الأصول التى عُرِفَتْ فيه من قبل (٣) .

وفى سنة ١٩٣٩ كتب **أحمد أمين** مقالا بعنوان (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) نشر فى العددين ١٩ و ٢١ من مجلة الثقافة .

ويرى أن موضوعاتِ الشعرِ الجاهلىّ من وقوف على الأطلال وبكاءِ الدِّمَن والرحلة على الناقة ووصفِ الرحلة وغيرها من الموضوعات كالفخر والهجاء والغزل ... الخ إنما هى موضوعاتُ حياتِهم فكان الأدب الجاهلى صورةً لتلك الحياة .

---

(١) طه ابراهيم ، المرجع السابق ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) أورد المرزبانى فى (الموشح) جانبا من نقد ابن المعتز لأبى تمام فى رسالته تلك عند حديثه عن مآخذ العلماء على أبى تمام ، الموشح ص ٣٠٧ ط جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .

(٣) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

كذلك يقرر أن الشعرَ فى العصر الأموىّ استمر – غالبا – بنفس صفاته وأُسُسِه الجاهلية إذْ إنّ كثيرا من شعراء الدولة الأموية « لم تكن حياتُهم إلا امتداداً للحياة الجاهلية » كما أن الأثر الذى جاء به الإسلامُ لم يمتدّ إلى الشعراء ، « فلا عَجَبَ أنْ يأتىَ الشعرُ الأموىّ مصبوغا بالصبغة الجاهلية فى الأوزان والقوافى والموضوعات والروح ، إنما العجبُ أن يأتىَ الشعرُ العباسىُّ على هذا النمط ، وكثير من الشعراء فُرْسٌ والحياةُ حياةٌ فارسية فى أكثر ألوانها، والحالةُ الاجتماعية والسياسيةُ والاقتصادية مخالفةٌ كلَّ المخالفة للحياة الجاهلية والأموية ... لقد كان من مقتضى هذا التغيُّر أن يأتىَ الشعر العباسىُّ صورةً صادقة لهذه الحياة الجديدة ، ولكن لم يكن شىءٌ من ذلك » (١).

وهو يرى أن السببَ فى ذلك كلّه (جناية الأدب الجاهلى) عليهم ، فقد وُجد معسكران أحدهما يتعصب للقديم والآخر يدعو للجديد .

وقد تزعم معسكرَ الدعوة إلى القديم فريقٌ من اللغويين أمثال الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى ، وكان هؤلاء رواةً أكثرَ منهم أدباء ... فغلب عليهم بطبيعة ثقافتهم أن يتعصبوا للقديم وخاصة الشعر الجاهلى .

وأما المعسكر الثانى فكان يدعو إلى استحسان الحسَن لقديم كان أو لمحدث، واستقباح القبيح لقديم كان أو لِمُحدَث ، وكان من هؤلاء أبو نُواس .

ولكن هذه الحربَ انتهت ، مع الأسف ، بنُصْرة الدعاة إلى القديم ، والسبب فى ذلك أنهم كانوا أكثر اتصالاً بالحكّام وأكثر أتباعاً وأشياعاً ، وأنهم صبغوا دعوتَهم بصبغة دينية ، فقالوا إن الشّعرَ الجاهلىَّ هو أحد المصادر فى تفسير القرآن الكريم وعليه نعتمد فى شرح مفرداته وبيان أساليبه ... على كل حال نجحت دعوتهم وأخفتُوا صوتَ مخالفيهم وساد فى ذلك العصر تقديسُ الشعر الجاهلى وكل شىءٍ جاهلى (٢) .

ودليله على ذلك دعوةُ ابن قُتيبةَ إلى عدم خروج الشعراء عن مذاهب المتقدمين فى أجزاء القصيدة ، ويرى أن فى دعوته تلك منافاةً لصدق العاطفة وصدق الوصف ،

---

(١) مجلة الثقافة ، العدد ١٩ مايو ١٩٣٩ ، ص ٦ .

(٢) أحمد أمين ، مجلة الثقافة ، العدد السابق ص ٧ .

وإن تكن قد لاقت – مع الأسف – نجاحا كبيرا ، وشلّتْ الأدبَ العربىّ شللا فظيعا فى العصور كلّها ، إلى اليوم.

ويتهم أنصارَ القديم بأنهم هاجموا كلَّ دعوة للتجديد ، فقد اضَطروّا أبانواس إلى العُدول عن مذهبه الجديد ، واتّهموا أبا تمام بالخروج عن عمود الشعر لأنه انحرف عن المألوف قليلا « بابتكار بعض المعانى والتعمق فيها والتحليق بها فى الخيال » . فكان من « أثر دعوتهم هذه انعدام حركة التجديد فى الشعر وعدم ملاءمته لروح العصر وانحباسه فى قوالب تقليدية لايَتعدّاها » (١) .

ومن هنا يرى أنه لم يحدث أىّ تجديدٍ فى الشعر العربى ، فقد ظلت الخصائصُ الشكليةُ كما هى ، وظلت الموضوعاتُ كما هى إلى حدٍّ التوقّفِ عن القول إلا فى الموضوعات التى قال فيها الجاهليون (٢) .

وقد استمر على نفس الرأى فى كتابه (النقد الأدبى) ورأى أن من أثر فريق المحافظين « تخوُّف كثير من الشعراء أن يخرجوا على التقاليد القديمة فيثيروا سُخْطَهم ونقدهم» (٣) .

وقد سار **محمد مندور** فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) فى نفس الاتجاه ، وعرض رأيَه فى موقف النقادِ اللغويين والنحاةِ فى القرنين الثانى والثالث – موقفهم من الشعر الحديث – فى الفصل الثالث حين تحدث عن (الخصومة بين القدماء والمحدثين) .

ويقرر مندور أن تلك الخصومةَ « لم تكن بين مذهب أبى نواس وبين أنصار التقاليد الشعرية ، ولو أنها كانت كذلك لأخذت اتجاها غيرَ الذى أخذته، إنما قامت بين أنصار أبى تمام وبين خصومه ، كأنَّ هذا الشاعر قد جدّد الشعرَ العربىَّ تجديدا حقيقيا، وكأنه قد خرج على ماعهده الجاهليون والأمويُّون من شعر ، مع أنه – كما

(١) أحمد أمين ، المرجع السابق ص ٨ .

(٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ص٩ .

(٣) أحمد أمين ، النقد الأدبى ٢ / ٤٤٠ .

قلنا– لم يغيِّر شيئا في الأصول الفنية للشعر العربيّ ، ولم يخرج إلا على عَموده... ومعنى العمود عندهم – فيما يبدو – الصياغة » (١) .

وحين يتطرق مندور إلى هذا السؤال : لماذا لم تنشأ – في رأيه – خصومةٌ حول مذهب أبي نواس ؟ يحاول – في سبيل الإجابة – أن يستعرض سير الحركة الشعرية عند العرب « لقد جاء العصرُ العباسيُّ وأخذ العرب يَجِدُّون في جمع تراثهم الرّوحيّ، وكان من الطبيعي أن ينصرف أولُ جهدهم إلى المحافظة على لغتهم من العُجْمَة التي أخذت تتسرب إليها بعد الفتوحات ، وعلى سلامة تلك اللغة يتوقف فهمُهم لمصادر دينهم... . ولذا حَرَصَ علماؤُهم على تدوين الشعر القديم ، يتخذونه حُجَّةً في تفسير القرآن والحديث ، ولم يكن يشغلهم إذْ ذاك جمالُ ذلك الشعر قَدْرَ ماشغلتهم صلاحيتُه للاستشهاد . فاتّصال الشعر بالدين هو السبب الأكبر في الانتصار للقديم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل امتدّ إلى الشعراء أنفسهم ، إذ لم يروا بُدّا – لكي يُروَى عنهم شعرُهم وينتشر – من أن يحاكُوا الشعرَ القديم ، لا في أسلوبه فحسب ، بل وفي بنائه الفني » (٢) .

ويردِّدُ مندور نفسَ النصوص التي استشهد بها غيره في الدلالة على تعصّب قدامى النقاد ضدّ شعر المحدثين (٣) ثم يقول : إن ظروفَ الحياة كانت قد تغيرت ولم يعُدْ الشاعر المحدَثُ مستطيعا أن يعبِّر عن نفسه مع التقيُّد بمحاكاة القدماء في مواضيع القول عندهم ، ومن هنا كانت دعوةُ أبي نُواس إلى إحلال التغنِّي بالخمر ومتع الحياة محل وصف الديار والأطلال . إذ لم تعد هناك ديار ، ولا أطلال ، وإنما هناك مظاهرُ الترف العباسي التي يجب وصفُها ، لأنها هي التي يعيشُها الشاعر . وهنا يتعرض مندور لقضية من أخطر قضايا النقد ، وهي ما إذا كان لابد للشاعر – أو الفنان عموماً – من المرور بالتجربة مرورا مباشرا لكي يتحقق له شرط الصدق ، ويميل مع الرأي القائل بأن

(١) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٦٩ .

(٢) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٠ .

(٣) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥ .

الفنان الموهوب « يستطيع أن يخلقَ فى نفسه الجوَّ الشعرىَّ الذى يريده ، ومتى خلق هذا الجو استطاع أن ينقل إحساساته إلى أى موضوع، وهذا مايسمونه بنقل القيم » (١) .

ويتطرق من تقرير هذا المبدأ إلى القول بأن دعوةَ أبى نواس لم تكن من الناحية الفنية ضرورةً حتمية ، « وبخاصة أنها لم تعْدُ أن تكون محاذاةً للشعر القديم ، والمحاذاةُ أخطر من التقليد ، وذلك لأننا كنا نفهم أن يدعوَ إلى نوع جديد من الشعر ، وأما أنْ يحافظ على الهياكل القديمة للقصيدة مستبدلاً ديباجةً بأخرى وأن يدعوَ إلى الحديث فى موضوعات لاتستطيع أن تحرك نفوسَ الجميع فذلك مالا يمكن أن يُعتَبَرَ خَلْقًا لشعر جديد .... ولو أننا أضفنا إلى ذلك أنَّ دعوته كانت مشوبة بروح الشعوبية والغضِّ من شأن العرب ... وأن معظم الأغراض التى طرقها كان العربُ قد سَبَقوا إليها ، وأنَّ مالم يسبقوا إليه كان شيئا تافها كالغزل بالمذكر ، كما أنه هو نفسه لم يساير مذهبَه إلى النهاية ... نقول : إننا لو أضفنا كل هذا إلى ماسبق أن بسطناه عن حقائق الخلق الفنى لفهمنا أسباب إخفاقِ المحاولة ، وعدم مسايرة الشعراء له ... ومن ثَمَّ عدم قيام خصومةٍ قويةٍ حول هذا المذهب على نحو ماقامت حول مذهب أبى تمام » (٢) .

ولقد انتهى الأمر بالشعراء العرب – كما يقول مندور – إلى أن « حبسوا أنفسَهم فى تفاصيل الصور والمعانى ... فضيَّقُوا على أنفسهم حتى لم يَعُدْ أمامهم مجالٌ للتجديد غير (التجويد الفنى) وحتى جاء شعرُهم أدلَّ على المهارة فى الصياغة منه على أصالة الطبع ، والعمق فى الإنسانية .. وفى هذا ما يفسر نزعة أبى تمام إلى التجديد فى الصياغة واتخاذه من البديع مذهبا بما يجرُّ إليه مذهبٌ كهذا من التكلّف والإحالة والإسراف والإغراب فى المعانى المألوفة ، فكان من نتيجة ذلك أنَّ النقادَ راحوا يبحثون فى الشعر القديم عن أمثالٍ لما قال أبو تمام ، بعضُهم ليغُضَّ منه متَّهما إيَّاه بالسرقة ، وإما بإفساد التراث ... والبعض الآخر ليُشيد به مدّعيا أنه قد بزَّ القدماء فى معانيهم وفى العبارة عن تلك المعانى ، مع تسليم الكل بأنه لم يخرج عن الدائرة التقليدية.

ونظر النقادُ فرأوا البحترىَّ يأتى بالشعرِ السهل دون أن يكدَّ خاطرَه فى مخالفة

(١) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

ونظر النقادُ فرأوا البحتريّ يأتى بالشعرِ السهل دون أن يكدّ خاطرَه فى مخالفة عمود الشعر فتعصّب له أنصار القديم ، وكان هذا عنصرا قويا فى تلك الخصومة العنيفة» (١) .

ويتحدث **إبراهيم سلامة** فى (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) عن النقد فى كتاب (الموازنة) للآمدى عارضا الأسس التى قام عليها جدالُ أنصار الشاعرين الكبيرين ، وهو يرى أن الهجوم على أبى تمام يدل على أن النقاد قد بَرِمُوا بالبديع وثاروا ضده ، وأنهم بَرِمُوا بالمعانى الدقيقة التى يُغرب بها الشاعر ، وأنهم فى مقابل ذلك دَعَوْا إلى شعر الأوائل وطريقتهم وذلك ظاهر عند النقاد الذين يعرضون الأوائلَ نموذجاً ، وهو يرى أن الدعوة إلى تحديد السرقات والاعتداد بها وعمل المقاييس لها دليل واعتراف عملى صريح من المحدثين بأن من تقدمهم أمثال تُحْتَذَى ونماذجُ يُفْرَغُ على قوالبها (٢) .

على أنه يتجاوز هذا إلى القول بأن العلماء باللغة والنحو ورواية الأدب ممن يعتمدون على القديم وقفوا أمام هؤلاء المحدثين رَصَداً يعدُّون عليهم أنفاسَهم ويميزون بين الحارِّ منها والبارد فإذا أحسُّوا بنفَس جديد خنقوه فى أول تردُّده مخافةَ أنْ تستطيل به الحياة ، ثم يمثِّل بما يُحكى عن ابن الأعرابى حين خرَّق شعرا كتبه لعلمه أنه لُمحْدَث ، وقصة الأصمعى مع إسحاق الموصلى ثم يقول : «مثلُ هذا الظلم قد وقع فعلا وعانى منه الشعراء كثيرا ، والذى يُهمُّنا من أمره أن ردَّ الفعل ضد الصنعة وضد الحداثة قد وقع فعلا وأثَّر تأثيرَه بالرجعة إلى الوراء» (٣) ، ويذكر فى موضع آخر أن الشعراء المحدثين « لم يقفوا عند حدِّ ما يُمليه الزمنُ وماتُمليه المدنيةُ الحديثة التى عاشوا فيها ولم يعرفْها سابقوهم ، وإنما جارَوْا مضطرين أو متعمِّدين ، الرواةَ وعلماء اللغة الذين يعتزُّون بالقديم دائما» (٤) .

---

(١) محمد مندور ، المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٠٦ .

(٣) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٠٦، ٣٠٧ .

(٤) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٣٠٩ .

وحين يعلن القاضى الجرجانى – فى الوساطة – أن القدماء ليسوا معصومين من الخطأ وإنما هم يخطئون – تماما كالمحدثين – وإنْ حاول الرواةُ والنحاةُ جبرَ هذه الأخطاء والتماس العلل لها ، وبالتالى فهم لايَصْلُحون نموذجا فى كل شىء ، بل إن من حق الشاعر الحديث أن يتخيّر أسلوبَه ويطاوعَ خياله .. يرى إبراهيم سلامة فى تلك الدعوة محاولةً من الجرجانى أنْ يكسر الحواجز التى أقامَها الرواةُ والنحاةُ المحتاجون إلى الرواية للاستشهاد (١) .

ويلاحظ **شكرى عياد** ، عند تتبُّعه لنشأة النقد العربى الخالص – كمقدمة لتبيُّن أثر كتاب الشعر الأرسطى فى ذلك النقد – أن تلك النشأة ، كما يمثلها كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام – كانت شديدة الاتصال بعلوم العربية التى كانت ناشئة إذْ ذاك، وأنّ هذه الصلة تظهر فى ملاحظات فى النحو واللغة والعَروض يُعْنَى ابنُ سلام بروايتها وتسجيلها . لذلك « لم يكن غريبا أن يَقْصُرَ هؤلاء النقادُ الرواةُ اللغويون عنايتَهم على الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وألاّ ينظروا فى شىء من شعر المحدثين الذين نشئوا فى عصر اضطربت فيه اللغة وشاع اللحنُ حتى على ألسُنِ السَّراة . وقد عاد حاملو لواءِ هذا النقد القديم فتسامحوا فى رواية شعر المحدثين ، ولكنهم من جهة أخرى ، أفلحوا فى أن يُلزموا الشعرَ العربى كلَّه أخصَّ خصائص الشعر الجاهلى ، أعنى منهج القصيدة ، وفعلوا ذلك فى شىء من ضيق الأفق ، وحَرَجِ الصدر ، إذا قُورنت به محاولةُ أبى نواس تجديدَ هذا المنهج بدتْ لنا لونا من العبث لا يُراد به إلا الهُزْءُ بأولئك الجامدين » (٢) ، ويقول فى موضع آخر إن النقد « ألزم المحدثين منهجَ القصيدةِ العربية » (٣) ، وإنه كان نقدا جزئيا ذاتيا ، وحين قرر قانونا عاما « كان هذا القانون هو اتّباع الأقدمين » (٤) .

وحين يتحدث عن آثار كتاب الشعر الأرسطى فى البلاغة العربية ، يرى أن من

---

(١) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(٢) شكرى عياد ، (كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ، نقل متى بن يونس ، تحقيق مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره فى البلاغة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٤) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٣١ .

المسائل التى اتّصلت دراستُها عند البلاغيين العرب بترجمة كتاب الشعر وتلخيصاته ، مسألةَ اللفظ والمعنى ، ويرى أن عنايةَ الأدباء بتلك المسألة قد اشتدت فى القرنين الثانى والثالث متأثرة بعاملين هما : « سلطانُ الشعر القديم الذى فرضه النقاد أنفسهم شيئا فشيئا ، فمن منهج القصيدة إلى المعانى إلى التشبيهات نفسها ... والعامل الثانى ... هو ظهور أبى تمام بمذهب جديد فى الشعر يقوم على الصنعة والتدقيق فى المعانى ، فأدّى به ذلك فى كثير من الأحيان إلى الخروج على مألوف الشعر فى تشبيهاته واستعاراته ... واتخذ أنصارُ القديم من سقطاته هذه ذريعة إلى الطعن فى مذهبه والإلحاح فى قيمة اللفظ والسبك » (١) .

ذلك عن إلزام النقاد - من أنصار القديم - للشعر بالسير فى رِكاب القديم، والمحافظة على صورته ، فإذا عرفْنا أن النقاد راحوا يُحْصُونَ سرقات الشعراء ويؤلفون فيها ، أىْ راحوا يهاجمونهم حين يتبيّنُون أنهم اقتدَوْا بسابقيهم أو تأثروا بهم فى شعرهم ، أىْ حين يتبيّنون فى شعرهم أثرا من آثار التقليد واتّباع القديم أدركنا « أن النقدَ العربى الخالصَ قد وضع الشعراءَ والنقادَ جميعا فى (مأزِق) ؛ فالشاعر المحدَث ملزَم بأن يجاريَ القدماء فى أوصافهم وتشبيهَاتهم ... فإذا وافقَ الشاعرُ المحدثُ بعد ذلك شاعراً مقدَّما فى معنى أو أسلوب ، فهو آخذٌ وهو مسبوقٌ، وربما رُمِيَ بهذه اللفظة البشعة : لفظة (السرقة) » (٢) .

وفى بحث عن (حركات التجديد فى الشعر العباسى) **لعبدالقادر القط،** يتعرض المؤلف لأشهر محاولتين للتجديد فى ذلك العصر ، وهما : دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام .

وفى تعرُّضه لحقيقة التجديد فى شعر أبى نُواس يذكر أن النقادَ عدُّوا الدورَ الذى قام به خصومةً واعيةً بين الجديد والقديم ... ويقول : إن من يقرأ سخريةَ أبى نواس من وقُوف الشعراء على الأطلال يخيل إليه أن الشعراءَ إلى عصره كانوا لايزالون يبدأون قصائدَهم بتلك الصور التقليديةِ المعروفة فى الشعر الجاهلىّ، والواقع أن تلك

(١) شكرى عياد ، المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٢) شكرى عياد ،المرجع السابق ص ٢٣٤ .

المطالعَ التقليديةَ لم تكن الطابعَ الغالبَ على الشعر حينذاك ، فعند شاعرٍ كمسلم بن الوليد ، وهو معاصر لأبى نُواس ، نجد المطالعَ الجديدة تفوقُ فى عددها المطالعَ القديمة، وعلى ضوء هذه الحقيقة لايمكن أن نَعُدَّ تلك السخريةَ من المطالع التقليدية عند أبى نواس تعبيرا عن اتجاه فنّىّ خاصّ أو ثورةً على القيم الشعرية القديمة كما يرى طه حسين(١) .

بل إن الشاعر لم يكن عدواً حقا لتلك المطالع التقليدية ، ولم يكن يُحِسُّ بشعور فنىّ صادقٍ يدفعه إلى أن يَنْبِذَها ، وإنما كان يسخرُ منها لسبب آخر ، فنحن نراه يكرر بعد كل دعوة إلى نَبْذِ الوقوف بالأطلال أمرا بسلوكٍ خُلُقِىّ - لا اتجاهٍ فنيٍّ - .. ويطّرد هذا الصنيعُ فى أغلب تلك المطالع الساخرة ، ومعنى ذلك أن الشاعر يتّخذ الوقوفَ على الأطلال رمزا لسلوك خاصّ يمثل التزمّتَ والتخلّفَ عن مسايرة روح العصرِ الذى يعيش فيه .. والشاعرُ فى أمثال تلك المطالع الجديدة يدافع عن سلوكه الخُلُقِىّ الخاص ... وهو بهذا لايدافع عن شعره فى وصف ملذّاته من حيث إنه مذهب فنىّ جديد ، بل لأنه تعبير عن سلوك خُلقى لا يرضى عنه كثيرٌ من معاصريه (٢) .

من هنا لم يَقُم أبو نواس بثورة فنية فى الشعر ... ولم يُحدِث تغييرا جوهريا فى بناء القصيدة العربية ، بل جرىَ على نظامها القديم أحيانا وعلى مقوّماتها الجديدة التي كانت قد اكتسبتْها من التطور الطبيعىّ الذى سار فيه الشعرُ العربىّ حتى ذلك العصر أحيانا أخرى . من هنا لاينكر أحد ما أحدثه أبو نواس من تجديد فى بعض مقومات الشعر العربى ... على أن ذلك كان تجديدا فى إطار محدود ، فلم يحسّ معاصروه بأنه قد خرج على مقومات الشعر المعروفة أو أتىَ ببِدْعٍ ينكره المتعصّبون للقديم ، لذلك لم تُثَرْ حوله خصومةٌ بين القديم والجديد (٣) .

---

(١) عبد القادر القط (حركات التجديد فى الشعر العباسى) ضمن مجموعة من الدراسات مهداة إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ومما له دلالة فيما نحن بصدده هذا الخلاف بين القط وطه حسين حول القيمة الفنية لدعوة أبى نواس .

(٢) عبد القادر القط ، المرجع السابق ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٣) عبدالقادر القط ، المرجع السابق ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

وجاء أبو تمام فرأى النقادُ فى شعره شيئا جديدا يخالف مقومات الشعر العربىّ من قبله ولم يكونوا يناقشونه فى ذاته بل كـانوا يوازنون بينه وبين شاعر آخر يمثل عندهم القِيمَ الفنيَّةَ للشعر القديم ، أو عَمُودَ الشعر على حدّ تعبيرهم حينذاك ... لذلك اتّخَذت الخصومةُ حول أبى تمام بحق طبيعةَ المعركة بين القديم والجديد .. على أن شعرَ البحترىّ هو الآخر لم يكن يمثل تماما مقومات الشعر العربى القديم ، بل كان يمثّل كلَّ ما طرأ على الشعر العربى من تطور حتى العصر العباسى « ولم يكن الخلافُ بينه وبين شعر أبى تمام إلاّ خلافا فى الدرجة لا فى الكيف »[1] ويؤكد هذا ما أُثير حول تلمذته لأبى تمام ، فهو دليلٌ على إحساس الناس بالتشابه بين الشاعرين ... « ومعنى ذلك أن شعرَ البحترى لم يكن نقيضا لشعر أبى تمام ، كما يمكن أن يُفهَم من تلك الخصومة التى دارت حولهما ، وإنما رأى أنصارُ البحترىِّ فى شعره شيئا من الاعتدال النسبىّ فى الاتجاه الحديث فتشبثوا به واتّخذوه رمزا لعَمُودِ الشعر فى محاولةٍ يائسة للوقوف أمام التيّارِ الجديد الذى كان قد بلَغَ أوجَ تطوره عند أبى تمام »[2] .

وقد ساعدت ظروفٌ كثيرة على أن تنتهى محاولة التجديد كما تمثلت عند أبى تمام إلى الإغراق فى الصَّنعة اللفظية وتوليد المعانى والابتعاد عن الحياة والنفس البشرية والطبيعة ، وظلّت القصيدةُ العربيةُ على حالها فى بنائها وشكلها[3] . وكما لم تُسفِرْ حركةُ أبى نُواس عن تجديد جوهرى فى شكل القصيدة العربية أو بنائها القديم جاء تجديدُ أبى تمام محدوداً فى داخل ذلك الإطار التقليدىّ[4] .

وعرضَ **محمد مصطفى هدارة** فى (مشكلة السرقات فى النقد العربى) لموضوع الخصومة بين القدماء والمحدثين ، كأحد الموضوعات المتصلة بمشكلة السرقات، وأشار إلى انقسام النقادِ والأدباء إلى فريقين أحدهما يدافع عن القديم ويتعصب له والآخرُ يدافع عن الحديث ويتعصَّبُ له .

---

(١) عبدالقادر القط ، المرجع السابق ص ٤١٩ .
(٢) عبدالقادر القط ، المرجع السابق ص٤٢٠ .
(٣) عبدالقادر القط ، المرجع السابق ص٤٥٥ .
(٤) عبدالقادر القط ، المرجع السابق ص ٤٢٠ .

فلقد جاء الإسلام ، وكان لانتشاره فى مختلف أقطار الأرض أثرٌ عميق فى تغيير أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما كان له أعمقُ الأثر أيضا فى تطوُّر حالتهم الفكرية ، « على أن هذا التطورَ الفكرىَّ كان متباطئا فى سيْره ، إذ كان العربُ ... لايزالون مرتبطين بأمجاد وطنهم وتراث أجدادهم وأهم مافيه أشعارُهم ، فظلَّتْ تجرى على سننها القديم ... اللهم إلا اتّساع الموضوعات التى تقتضيها الحياةُ الجديدة من سياسية واجتماعية ودينية . أما نظام القصيدة وأسلوبها وعَمود الشعر فقد ظل أولئك جميعا شيئا مقدساً ينبغى الحفاظ عليه ، ولعل ذلكَ يرجع إلى أن العصرَ الأمَوىّ كان عصر الجَمع والتدوين لآثار السلَف ، فكانت هذه الأشعارُ هى المثلُ الأعلى بالنسبة للعرب الذين كانوا مايزالون يتعصَّبون لعروبتهم وماضيهم » ، ويستشهد بما يُروى عن أبى عمرو بن العلاء من قوله إنه لو أدرك الأخطلُ يوماً واحدا من الجاهلية لما فضل عليه أحدا ، ويقول هدارة « كأنّ يوما واحداً من أيام الجاهلية يعدلُ سنوات يحياها المتأخرُ عنها » [1] .

على أن الوضعَ مالبث أن تغيرّ بزوال مُلْك الأمويين وقيام العباسيين ، فُوجدَ من العوامل ما هيَّأ للشعر العربى تطورا جديدا ، كان لابد أن يساير هذا التطورَ السياسىَّ والاجتماعىّ ، « على أن كثيرا من أفراد المجتمع لايعترفون بالواقع فيحاولون التكيُّف مع بيئتهم الجديدة ، بل إنهم يفضلون الانطواءَ فى عالمهم يجترّون مالديهم من زادٍ فكرىّ ، محاولين إيقافَ هؤلاء المتطوِّرين فى عَدَاءٍ سافر وصِدام عنيف ... وهذا ماحدث تماما فى المجتمع العربى فى فترة نُقْلَته من القديم إلى الجديد فى عهد الدولة العباسية ، فقد وُجد فريقان يختلفان حول الشعر العربى : فريق يتشبث بالماضى ... ويحارب التطورَ الجديدَ ، ويتمثل هذا الفريق فى رُواة الشعر وعلمائه ، والفريق الآخر ينزع إلى التجديد ليتكيّف مع الحياة الجديدة ، ويتمثل فى بعض الشعراء الذين كانت عندهم الشجاعة الكافية للثورة على القديم والاصطدام بالرواة ، وهم الفئة المهيمنة إذْ ذاكَ على أذواقِ الناس وفهمهم لطبيعة الشعر » .

---

(١) محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ويدلّل هدّارةُ على رفض الرواة وعلماء الشّعْر أولئك للشعر الحديث ، بأنهم كانوا لايَروونه ويحاولون الانتقاص منه ما أمكن ، ويذكر قصة استحسان ابن الأعرابى لأرجوزةٍ لأبى تمام على أنها لشاعر من هُذَيْل ثم رُجوعه فى حُكمه حين علم أنها لأبى تمام ، وقول ابن الأعرابى أيضا عن أشعار المحدثين ما معناه إن رَوْعَتَها تزولُ بمرور الوقت على عكس أشعار القدماء التى تزداد روعةً بمرور الزمان (١) .

أما عن الأسس التى استند إليها ذلك الرفض للشعر المحدَث فيرى أن عمودَ الشعر ونهْجَ القصيدة هُمَا السبب فى تحامل الرواةِ على المحدثين من الشعراء لخروجهم عليهما ، فإسحق الموصلى لايَعُدُّ أبا نواس شيئا لأنه (ليس على طَريقِ الشعراء) وابن الأعرابى يسمع شعرا لأبى تمام فيصيح : (إنْ كانَ هذا شعراً فكلام العرب باطل) (٢) ويقول فى موضع آخر : « يمكننا أنْ نحصُرَ عناصرَ الخصومة الحقيقية بين القدماء والمحدثين فى اختلافهم على عَمود الشعر ونهج القصيدة ، وفى الإيمان بفكرة استنْفادِ القدماء للمعانى ، فأغلبُ مافى الخصومة كان دائراً حول تجديد المحدَثين لمعاني القدماء ، وذلك عن طريق وضعها فى صورة جديدة ، مادامت المعانى قد استأْثَرَ بها القدماء ولابد للمحدثين من التواردُ عليها » (٣) .

فهو يرى أنّ قضيةَ اللفظ والمعنى كانت من بين دواعى الخصومة بين القدماء والمحدثين ، فالمحافظون على القديم يتمسّكون بالمعنى تمسكَهم بعمود الشعر ونهج القصيدة ، والمحدثون يُقرُّون بتناولهم لمعانى الأقدمين ، ولكنهم يأخذون فى تحويرها بالصياغة الجديدة ... فينتصرون بذلك للّفظِ على المعنى ، أو ينتصرون للصورة الشعرية بمعنى آخر (٤) .

ويوجز الباحثُ رأيه فى أُسُسِ تلك الخصومة فيسجل أنها « كانت قائمة على أساسِ تأثير الرُّواةِ المتحفظين الذين ناصروا القديم للمحافظة على كِيانهم كرواةٍ

---

(١) هدارة ، المرجع السابق ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٤) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٤ .

للشعر القديم يتكَسَّبُون برِوايته ، أما الشعر الحديث فهو ليس عندهم بضاعة مُزجاة ، لهذا كانوا يتعصبون عليه ، كما أن هذه الخصومة كانت قائمة على أساس عَمُود الشعر ونهج القصيدة ، وفيهما يكمن مظهُر المحافظة على القَديم وعدم الخروج عليه ، وكذلك كانت قائمة على أساسِ قضيَّةِ اللفظ والمعنى ، فأنصارُ القديم يسفِّهُون المحدثين لأنَّ معانيَهم مأخوذةٌ من الأقدمين وليس فيها أىّ جديد ، وكان توسُّعُهم فى هذا البحث أساسَ مشكلة السرقات ، إذ حاول أنصارُ القديم أنْ يجعلوا من هذه السرقات إغاراتٍ حقيقيّةً لاينسب الفضلُ فيها للمتبع » (١) .

---

(١) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٥ ، ويجب أن نلاحظ أن القائلين بفكرة تعصُّب النقد القديم ضدّ شعر المحدثين وحركات التجديد فيه لايقتصرون على المجموعة التى عرضْنا لها ، والتى ركزنا فيها على أبرز مناطق التعرض للفكرة ، أعنى الكتب التى لمست - مباشرة - موضوع النقد القديم. على أن كثيرين غير هؤلاء قد ذهبوا إلى نفس الرأى ، وإن يكن بتفصيل أقل ، منهم :

* ترتون A . S , Tritton فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (شعر) حيث يذكر ان البعض قد اعتقدوا - بحقيقة القِدَم وحدها - أن شعراء ماقبل الإيسلام يَعْلُون جميع الآخرين .
* زكى مبارك فى " الموازنة بين الشعراء" .
* شوقى ضيف فى (البلاغة : تطور وتاريخ) و (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) . و (النقد) .

(٢)
تحليل ومناقشة

يتلخص رأى نكلسن فى أن متقدمى اللغويين والرواة قد حكّموا فى تقييم الشعر مقياسا زمنيا أساسه أن التقدمَ فى الزمن دليل على التفوق الشعرى بينما يدل التأخر الزمنى على الانحطاط وأنّ الحدَّ الفاصل هو ظهور الإسلام، وهو يشير فى تعليقاته إلى عبارة صدرت عن أحد اللغويين ممّن اشتهروا فى النصف الأول من القرن الثانى، وهو أبو عمرو بن العلاء، وهى تلك العبارة التى تدل على إعجابه بالشاعر الأموى الأخطَل حين أعلن أنه ماكان ليقدّمَ أحدا على الأخطل لو كان قد أدركَ من الجاهلية يوما واحدا (١) .

وهو يحمّلُ ذلك الموقفَ الذى تصوّره من جانب أولئك النقاد مسئوليةَ مايبدو من عدم مُسايَرةِ الشعر العربىِّ للثورةِ التى أحدثها الإسلام والأفكارِ التى جاء بها، حيث كان من المتوقع أنْ تحدُثَ فى القرن الثانى ثورةٌ مماثلة فى الفنِّ الشعرى، ولكنَّ شيئا من ذلك لم يحدث .

وإذا كان يجعل من ابنِ قتيبةَ أولَ ناقد يسوّى بين الحديث والقديم، ويقبل الشعرَ على أساس ما فيه من ميزات لا على أساس عصره، أو كما صرّح فى موضع آخر، بأنه هو الذي حثَّ على أن يقيّم المحدَّثون على أساس جَماليّ وليس على أسس تاريخية أو لغوية (٢)، فإن هذا لايعنى أكثر من أنه يُلحِق تهمة الرفضِ للحديث بكلِّ نقاد القرن الثانى والقرن الثالث قبلَ ابن قتيبة، وهى تهمةٌ لاتستقيم مع ما يُروى عن قبول أولئك النقاد لكل ما هو جديدٌ .

ورغم أن نكلسن قد فهم – فيما نعتقد – حقيقةَ موقف ابنِ قتيبة، فلم يصفْه

---

(١) Nicholson (R .A .) A Literary History of the Arabs , P . 242 .

(٢) Nicholson , Ibid , P . 288 .

بالرجعية كما فعل البعض ، فإنه يسير فى حدود التصوُّر القديم لموقف النحاة واللغويين والرواة قبل ابن قتيبة من الشعر الحديث ، وهو التصور الذى لانرى له أساسا يعتمد عليه.

أما طه حسين فإنَّ حاصل ما ذكره فى مسألة القديم والحديث فى الأدب العربى هو :

١ – أن ميدانَ الخصومة كان فى الشعر ، وأنها دارتْ حول اللفظ والمعنى ولم تتجاوزْهما.

٢ – أنّ مقدارَ التجديد الذى تحقّق نتيجة لتلك الخصومة كان ضئيلا بالقياس إلى التطور الواسع المدى الذى شمل الحياةَ العربية فى العصر العباسى .

٣ – وحين يحاول تعليلَ تلك الظاهرة ، يذكر عددا من الأسباب يرى أنّ أهمها هو عدم معرفة الأمة العربية لشىءٍ من الآداب الأجنبية ، كما يذكر منها حِرْصَ الأمة العربية على سُنَنِها القديمة ، ثم ما تتمتّع به الآدابُ العربيةُ القديمةُ من جاذبية وخلاَبة . لكنَّ ما يَلفت النظر فى عناصر تعليله للظاهرة التى أشار إليها – ظاهرة عدم مسايرةِ التجديد فى الأدبِ للتجديد فى الحياة الماديّة عموما – ما ذكره من تعرُّض الشعراء الذين كانوا يحاولون التجديدَ ، لسُخْطِ الأئمة والعلماء من رجال الدين واضطهادهم ، لأن أولئك الأئمةَ كانوا بحكم منزلتهم الدينية واللغوية مضطرين للاحتفاظ بقواعد اللغة وألفاظها وأساليبها أيضا .

وواضح أن طه حسين يربط بين ماكانت تلقاه مظاهر التّهتُّك وإعلان الإلحاد والطّعن على الدين من مقاومة وبين ما تصوَّره من مقاومة التجديد ، فهو يرى أنّ مقاومةَ العَبث بالدين مقاومةٌ للتجديد . ولسنا نرى هذا الرأى ، كما أننا لانرى ضرورةَ توافر شرط الخُروج على الدين فى كل من يريد أن يكون مجدِّدا ، وبالتالى لانرى فيما ذكره من ضرْب بشّار حتّى الموت وحبْس أبى نُواس وماكان سيلقاه من الهَلاكِ على يد المأمون ، لانرى فى تلك الوقائع مقاومةً لروح الجديد ، وتعصُّبا للقديم ، فهجاءُ بشّار للمهدى واستهانته بالدين أمورٌ معروفة استحقّ من أجلها مصيرَه . وتعريضُ أبى نُواس بالمأمون وهجاؤُه له هو الذى كان سيُلْحِقُه بنفس مصير بشّار ، وبالتالى فلا دَاعِيَ للربط

بين أمور هي أشدُّ ما تكون تباعُدا ، أعني الضربَ على أيدي الماجنين ومقاومةَ التجديد في الشعر .

وهو نفسه قد عدل عن هذا الرأى حين ذكر أن عدداً من أئمة الدين والمحدِّثين قد رووا عن أبى نواس ، وأن أبا نواس قد روى عن عددٍ منهم ، وأبو نواس – فيما يرى طه حسين وما نوافق عليه – يصور خيرَ تصوير الحياةَ العباسية بلَهْوِها وجدِّها أيضا ، وإذا كان ممثِّلُ الحياة اللاهية ، وزعيمُ الدعاة إلى الجديد محلَّ ثقةٍ واحترام من المحدِّثين وعلماءِ الدين – على ما كان منه فى شعره – فلا يجب القولُ بأن رجالَ الدين هاجموا الجديدَ عنده . ونحن نذكر ما يُروى عن كثير من رجال الدين الورِعين فى التنوية بشعر أبى نواس ، خاصة فى الغزل والخمر .

ثم هو نفسه يعدل عن هذا القول مرة ثانية ، بل عن رأيه فى ضيق مجال التجديد وانحصاره حين يقرر أنه بانقضاء القرن الأول للهجرة ظهر انتصارُ الجَديد وأخذَ القديمُ ينهزم أمامه مما أدَّى إلى تغيُّر حِسِّ العرب وشعورهم وبالتالى تغيُّر لسانِ الحس والشعور وهو الأدب نثرا وشعرا .

ومع ذلك تظل الفكرة السابقةُ مسيطرةً عليه – فكرةُ وجود أشخاص قاوموا الجديدَ – ردَّدَها – كما رأينا – حين ذكر مقاومةَ الأئمةِ وعلماءِ الدين لكل ماهو جديد ، وهو يردِّدُها مرةً ثانية حين يقرر وجود من سَخِطوا على أبى نواس ودعوته إلى تجديد ديباجة القصيدة ونَبْذِ الأطلال والانصراف إلى القول فى الخمر ، فقد رأى أن هناك من سَخِطوا عليه لأنهم تصوروا فى دعوته ازدراء للعرب ، ويذكر فى هذا الصدد أن الرشيدَ حبس أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب .

ولانظن ذلك كله إلاّ من أجلِ الصُّورة العامّة التى غلبت على الدّارسين المحدثين من غلبة التعصّب للقديم لقدمه ورفض الحديث لحداثته على نقاد ذلك العصر ، مع أن طه حسين نفسَه يصرح بأن التطوُّرَ فى اللغة كان واقعا على كل حال .. وأن الناسَ كانوا خاضعين له راضين عنه ، كذلك يصرح بـ « أنّ أبا نُواس كان أشدَّ الناس إلحاحاً فى تغيير الأسلوب الشعرى وتجديد اللفظ والمعنى ولكنه لم يكن وحدَه مغيِّرَ الأسلوب الشعرى ولا مجدِّدَ اللفظ والمعنى وإنما كان الشعراءُ المعاصرُون له – سواءٌ

منهم أنصارُه وخصومُه – يغيِّرون الأسلوب الشعريّ ويجدِّدون اللفظَ والمعنى أيضا ، وكان منهم من يعترف بهذا التغييـر ومنهم من يُنكر هذا التغييرَ ويتكلّف الفرارَ منه » (١) . وهكذا يرى طه حسين أن البيئةَ من حول الشاعر الثائر كانت معترفةً بالجديد – بقبولها له – وإن لم تعترف به عن طريق الإعلان . ومع ذلك يصر على القول بأن هناك من هاجموا الجديد ومن قاوموا الدعوة إليه.

فإذا فطِنَ إلى أنّ كثيرين من علماء اللغة والرواة والأدباء قد أشادوا بأبى نواس واعترفوا له بالتفوّق والإحسان ، أيْ قَبِلوا الشاعرَ المحدث ولم يرفضوا تجديدَه ، نـراه يرجِّحُ أن أولئك المفضِّلين لم يعلمـوا لماذا كانوا يُؤْثِرون أبا نواس ! .

كذلك يلاَحظ أن طه حسين يوسِّع دائرةَ الصراع بين القديم والحديث بحيث تشمل – عنده – كل الآراء التى صدرَتْ فى المفاضلة بين شاعر وآخر ، فهو يُدخل فى ذلك الصراع ما ذكره من صراع بين أنصار البحترى وأبى تمام وأنصار مسلم وأبى نواس وما دار من صراع حول المتنبى وأبى تمام . ومن الواجب أنْ نعلم أنّ المنافسة بين أولئك الشعراء أو الحوار بيْن أنصارهم لم ينفِ أنهم جميعا شعراء محدَثون . وليس فى الإمكان أن نَصِفَ تعصُّبَ الحاتمى فى القرنِ الرابع لأبى تمام ضد المتنبى بأنه كان صراعا بين القديم والحديث ، فمن ناحية كان أبو تمام أقدم زمناً من المتنبى ، ومع ذلك كان تفضيلُ الحاتمى لأبى تمام قائما على قدرته الابتكارية وتفوقه فى الاختراع والإبداع (٢) .

وهكذا لايغيب التصوُّر القديمُ لموقف اللغويين والرواة ، ومن يضيفهم إليهم من علماء الدين عن ذهن طه حسين ، على الرغم من توافر كثير من الأدلة والشواهد على عدم دقةِ هذا التّصور ، وعلى الرغم من تنبُّهِهِ فى مواضع كثيرة إلى احْتفَاء الرواة واللغويين والعلماء بأبى نواس وأيضا بالرغم من تأكيده – أكثر من مرة – قبول المجتمع

---

(١) حديث الأربعاء ٢ / ٩٦ .

(٢) يراجع فى موقف الحاتمى : حلية المحاضرة ١ / ٢٢١ ، وتراجع : (الرسالة الموضحة) للحاتمى أيضا فى انتصار الحاتمى لأبى تمام والبحترى ضد المتنبى ص ١٠٦ وما بعدها ، والصفحات ١٥٦ – ١٩٤ كلها فى التنويه بأبى تمام والبحترى أيضا وتفضيلهما على المتنبى .

العباسى كلّه بما فيه العلماء وطبقات المثقفين ، لكلِ ماهو جديد . فإننا نراه يصف مجموعةَ النقاد والأدباء الذين نوّهوا بأبى نواس وقدّروا فنه بأنهم لم يكونوا يعلمون السبب فى تفضيلهم للشاعر الثائر ، وهو تفسير غريب يمثل – فى رأينا – ذروة الهرب من مواجهة الحقائق ، ويثير من الأسئلة أكثر مما يقدّم من الحلول .

ويمكن تلخيص رأى طه إبراهيم فيما يأتى :

١– تأكيد دورِ قُدامى النقادِ فى تدعيم قواعد النقد إبانَ مرحلة النشأة والاستواء .

٢ – أنهم كانوا يفضلون الشعرَ القديم – ويشمل الجاهلىّ والإسلامىّ – على الشعر الحديث الذى يبدأ منذ عصر بشار تقريبا .

٣ – أن ذلك التفضيلَ للشعر القديم والرفضَ للشعر الحديث كان أساسه التقدُّم الزمنى فى تفضيل القديم ، والتأخر الزمنى فى الغضّ من الشعر الحديث ، وهو يستغل فى ذلك بعض عباراتِ القدماء حين وصفَ أبا عَمْرو بن العلاء بأنه كان يُقيم الموازنةَ على أساس العصر لا على الشعر .

٤ – يُضيف إلى ذلك الأساس أساسا آخر هو استناد ذلك التفضيل إلى أسباب لغوية لا إلى أسباب فنية .

ومن اليسير جدا من واقع عرضنا السابق لرأى المؤلف ، أن نقول إنه يحمّل اللغويين مسئولية رفض الشعر المُحْدَث والحَضَ على تيار الاتّباعية أو السير على منوال القديم ، ماداموا لايفضّلون إلا القديم – فى القرن الثانى – ولا يقبلون من الحديث إلا ما كان قريبا فى جملته من ذوق القدماء – فى القرن الثالث . وهذا استنتاج منطقى ، فاللغويون يرفضون الحديث على أساس زمنى، ولقد حرم الشعر منذ عصر بشار هذه الميزةَ – ميزة التقدُّم الزمنى – فلم يعد فى مقدور الشعراء الرجوعُ بأنفسهم إلى الماضى . كما أن لغويّى القرن الثالث لايقبلون من المحدَثين إلا ماكان متمشيا مع الذوق القديم ، وعلى هذا الأساس قَبِل لغوىٌّ كالمبرد (ت ٢٨٥) شاعرا مثل البُحْترى، وفضّله على أبى تمام ، فإذا أراد محدَثٌ أنّ يفوزَ بالقبول فعليه أن يقولَ على منوال القدماء . ولاشك فى النتيجة التى يمكن ترتيبُها على ذلك الموقفِ ، وهى تحميلُهم

مسئوليةَ مايقال عن الشعر من شُيوع الجرْى وراءَ القديم ، وعدم السير فى طريق التجديد .

وهكذا يظل كثير من الأسئلة لايستطيع أن يجيب عنها مثلُ هذا التصوير للموقف . منها مثلا : –

أ – إذا كان تفضيلُ اللغويين للشعر القديم قائما على أساسٍ زمنى ، فلماذا رفض أولئك اللغويـــونَ الاحتجاجَ بأشعار البعض ممن تمتّعوا بصفة التقدّم الزمنى ؟

ب – إن المؤلف يعتبر دعوةَ أبى نواس إلى تجديد ديباجة القصيدة وإحلال الحديث عن الخمر محلَّ الحديث عن الأطلال يعتبر تلك الدعوة « الثورة الوحيدة على أصول الفن الشعرى فى كل عصور الأدب العربى » (١) ، ولاشك أن ثورةً هذه صفتُها كانت تستدعى من اللغويين – أعداء الجديد – موقفا يتّسم بالشدّة والصّلابة وعنف المقاومة أكثرَ مما استدعاه أسلوبُ شاعر مثل أبى تمام، مادامت درجةُ الجِدَّة والثوريّة فى دعوة أبى نواس أكبرَ منها فى مذهب أبى تمام ، ومادام تشدّد اللغويين ضد الشعر الحديث يتناسب طَرْدياً مع درجة التجديد فى هذا الشعر ، ويقول تاريخُ النقدِ العربىّ إن الحركةَ النقدية حول أبى تمام كانت أقوى وأعنف بكثيرٍ مما دارَ حول دعوة أبى نواس – إن صحَّ أنها تعرضت لنقد – وأيا كانت الأسباب التى دعت اللغويين إلى مهاجمة الشعرِ الحديث أو رفضه ، فإن المؤلف لايقدم لنا تفسيرا لتلك الظاهرة .

جـ – يكتفى المؤلّف بموقفِ المتَعَجِّب من تفضيل لغوىٍّ كالأصمعى للشاعر بشّار بن بُرد على معاصِرِه مروانَ بن أبى حفصة : تقول الروايات إن الأصمعى كان يفضل بشارا على مَرْوان ، مع أن الأخير كان أقربَ إلى طريق القدماء من بشار ، بل يذكرون من مبّررات تفضيل الأصمعى لبشار تجديدَ بشّار وعدمَ سيره على مذهبِ الأوائل . وهنا يكتفى صاحب (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) بموقف المتعجّب ، فالأصمعى لغوى « وقد يكون ذلك غريبا من لغوىٍّ كالأصمعى ، إذا عرفنا أن اللغويين جميعا كانوا يتعصّبون للقدماء على المحدثين ، ولِمَنْ هم على طريقة القدماء ،

---

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١١١ .

وإذا عرفنا أنّ الأصمعيّ نفسه من الذين بعُدَتْ بهم العصبية فى ذلك » (١) ، ولوكان الأمرُ مجردَ تفضيل للقديم أوْ لمن يسير فى طريق القديم ، لفضَّل الأصمعيُ مروانَ على بشار ، أما فضّل الأخير فلابد من تفسير ، ولم يُعط المؤلف تفسيرا ونحن من جانبنا سنؤ رض تفسيرنا لذلك الموقف إلى ما بعد استكمال عرض آراء المحدثين فى هذا الموضوع ومناقشتها ، وحسبنا أن نسجل – مؤقتا – ما لاحظناه من أن التصوُّر القديم لموقف قدامى النقاد من الشعر الحديث لايعطى تفسيرا ولا يقدِّم حلاً لكثير من المشاكل على نحو ما رأينا الآن .

ولاشك أن عنوانَ الدراسةِ التى قام بها أحمد أمين عن (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) يشير مقدَّما إلى رأيه فى الموضوع ، وهو يؤكد على هذه النقاط :

١ – استمرار الشعر الأمويّ والشعر العباسيّ على نفس النمط الجاهلى .

٢ – أن السبب فى هذا هو إعجاب أنصار القديم بالأدب الجاهلى والتعصُّب له ومهاجمتُهم للشعر الحديث ، وانتهاء النزاع بينهم وبين أنصار الحديث بتغلُّب أنصارِ القديم وسيادة النّمط الجاهلى فى الشعر العربى .

٣ – أن أنصارَ القديم كان يتزعمهم اللغويون أمثال أبى عمرو بن العَلاء والأصمعى وابن الأعرابى .

٤ – أن من عوامل انتصار الدعاة للقديم سلطانَهم فى قُصور الحكام وصَبْغَهم دعوتَهم بصبغة دينية مستمدةٍ من الاعتماد فى تفسير القرآن وشرحْ مفرداته على الشعر الجاهلى .

٥ – كانت دعوةُ ابنِ قتيبة إلى عدم الخروج على النهج التقليدى للقصيدة ذروةَ انتصار القديم ، وقد أدى انتصارُ تلك الدعوة إلى استمرار الشاعر العربى فى القول فى نفس الموضوعات القديمة مع المحافظة على الخصائص الشكلية أيضا .

ولقد ناقشَ المؤلِّف موقفَ ابن قتيبة هذا فى الجزء الثانى من كتابه (النقد الأدبى) وردّ إليه الفضلَ الأول فى تسخيف الرأى الذى يقدِّم القديم لقدمه ويرفض الحديث

---

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١٠٣ .

الحداثة، وجعلَه من مؤيدى نظرية الأحرار، ووصفَ دعوته إلى التسوية بين شعر المحدثين وشعر القدماء – فى القبول – بأنها « نظرةٌ صادقةٌ ربَّما سبقت زمانَها » ثم وصفه بالرجعية بسبب دعوته إلى عدم الخُروج على النهج التقليدى للقصيدة المدحية[1].

فهل كان ابنُ قتيبة – حقا – متحرِّراً رجعيا، أو رجعيا متحررا؟ وهل يجب للحكم عليه أن نقتصر على بضعة سطور فى مقدمة واحد من كتبه ؟ وإذْ قد عرض من النصوص مايدل على رجعية تفكيره، ثم عرض مايدل على تحرر التفكير، فما هى الوسيلة لتحديد موقفه الفكرى ؟ ولاشك أن هذا هو نفس الموقف – بصورة أخرى – الذى واجهه طه إبراهيم حين وجد الأصمعى – اللغوى المناصرَ للقديم فى رأيه – يفضِّل بشارا، الشاعر المحدث المجدد، ولقد اكتفى طه إبراهيم بتسجيل تعجبِه من موقف الأصمعى، على حين رجَّحَ أحمد أمين صفةً على أخرى، أعنى صفةَ الرجعية فى تفكير ابن قتيبة على صفة التحرر، ومع ذلك فكلاهما يعطى نموذجا للمشاكل التى يمكن أن تترتب على ذلك التصور القديم، وإن كان كل منهما أيضا لم يحاول البحثَ عن تفسير لما وقع بين يديه من تناقض فى ذلك التصور، ولاشك أن ذلك كلَّه من جَرَّاء سيطرة الفكرة الشائعة عن تعصب قدامى النقاد ضد الشعر الحديث، مما جعل الدارسين يتغافلون عما يخالف هذه الفكرة .

ويتلخص رأى مندور فى هذه المسألة فيما يأتى : –

١ – وجود فريق من متقدمى اللغويين النقاد قاوَم الشعرَ الحديث وفضل عليه الشعرَ القديم وتعصَّب له على أساس زمنى ولغوى .

٢ – أن الشعر العربىَّ فى القرنين الثانى والثالث جرتْ فيه محاولتان للتَّجديد : إحداهما دعوةُ أبى نُواس، والأخرى مذهبُ أبى تمّام، وقامتْ الأولى أساساً على تجديد ديباجَةِ القصيدة، وقامتْ الثانيةُ على التَّجديد فى الصِّياغة، وإنْ أخذَتْ المحاولةُ الأولى – هى أيضا – بنصيبٍ من تجديدِ الصياغة .

---

(١) أحمد أمين، النقد الأدبى ٢ / ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٣ .

٣ – أن المحاولة الأولى لم تتعرض لهجوم أنصار القديم بينما تعرضت الثانية لذلك الهجوم ودارت حولها الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث .

٤ – أن السبب فى عدم قيام خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث حول دعوة أبى نواس يعود إلى طبيعة الدعوة نفسها ، فلم تكن من العُمْقِ والاستنادِ إلى الأسباب الفنّية الحقيقية وإخلاص صاحبها لها واستمراره فيها إلى النهاية ، بالدرجة التى تكفى لإثارة الخصومةِ حولها من جانب أنصار القديم .

وهكذا يقف قُدامى النقادِ كما صوّرهم مندور – شأن غيره من الدارسين المحدثين – فى موقف المتّهَمين برفض الشعر الحديث والتعصّب للقديم لأنه عُدّتهم فى الاستشهاد اللغوى ، والاحتجاج لفهم ألفاظ القرآن الكريم ، وتعظُم التهمةُ الموجهةُ إليهم حين نُضيف إليها ماسجّله مندور أيضا من أن قَبولهم القديم ورفضهم للجديد قد امتدّ أثرُه إلى الشعر ، فكان من نتائجه محاولةُ الشعراءِ أن يُحاكوا الشعرَ القديم لا فى أسلوبه فحسب ، بل فى بنائه الفنى . ويؤكد مندور أن أولئك النقادَ قد رفضوا الشعر الحديثَ لمجرد حداثته كما أنهم قبلوا القديم لمجرد قِدَمه ، ويسرد عددا من الروايات التى تؤيّد وجهةَ نظره عن أبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى الذى اشتهر بأنه كان يهاجم أبا تمام ، والروايات منقولة عن الصّولى الذى اشتهر هو الآخر بالتعصب لأبى تمام مما يجعلها محلّ شك ، ولكن المؤلّف لايرى داعيا للشك فيها ، لأنها – على حد تعبيره – « تتمشّى مع كلّ ما ورد عن اللغويين من تحزّبهم للقديم لِقدَمه ورفضهم الحديث لحداثته » ، ويقرر مندور أن ذلك التعصبَ للقديم من جانب اللغويين كأبى عمرو وابن الأعرابى لايقوم على أسباب فنية من صدق الإحساس أو جودة العبارة وإنما كان لمجرّد السبق الزمنى .

على أنه قد عادَ فوصف الخُصُومةَ بين أنصار القديم – ويمثلهم أنصارُ البحترى، وبين المحدثين – ويمثلهم أنصارُ أبى تمام – بأنها خصومة على أساس فنى ، ونحن نعلم أنّ كثيرين من خصوم أبى تمام كانوا ممن سُمُّوا بأنصار الذوق القديم ، أو – بعبارة أدق – كانوا من مفضلى الذوق القديم فى الصياغة ، وهم من اللغويين الذين ينتمون إلى مدرسة أبى عمرو بن العلاء (فى تفضيل القديم) كابن الأعرابى ، أو من لغويين أحدثَ عهدا ، ولكنهم جميعا يشتركون فى الميل إلى الذوق القديم فى الصياغة . وهنا

يمكن أن يثار عدد من الأسئلة :

١ – إذا كان قدماءُ اللغويين ، ويشملون فى تصوير مندور أفرادا عاشوا إلى انقضاء الثلث الأول من القرن الثالث ، كابن الأعرابى ، قد رفضوا الشعر الحديث على أسس غير فنية – كما يقول مندور – فكيف تحولت خصومتُهم ، أو خصومةُ تلاميذهم لشعر أبى تمام – المثل الأعلى للشعر الحديث – إلى خصومة فنية ؟ .

٢ – أن الادّعاء بأن قدماءَ النقاد إنما فضّلوا من شعر المحدثين مااقتصر فقط على مجاراة القديم يتنافى مع تفضيلِ رجل كالأصمعى لشاعر من رواد المحدثين كبشار على شاعر من طراز القدماء مثل مروان على أساس مخالفة الأول لأساليب القدماء .

وهكذا يفتح القولُ بأن اللغويين قد رفضوا الشعرَ الحديثَ لمجرّدِ تأخُّره ، وقبلوا الشعر القديم لمجرد قدمه ، البابَ لثغرات كثيرة يتّسعُ فيها تناقضُ الباحث مع نفسه حين يصرح من ناحية بأن تعصُّبَ اللغويين القدماء لـلقديم لم يكن على أسس فنيه مستشهدا بكلام لابن الأعرابى بالذات فى الطعن على شعر أبى تمام ثم يصرح من ناحية أخرى بأن الخصومة حول شعر أبى تمام كانت ذاتَ طبيعةٍ فنية وأنها احتدمت فى القرن الرابع واتخذت شكلَ النزاع بين أنصارِ القديم وأنصار الحديث .

ومع علمنا بأن أعظم المؤلَّفات حول مذهب أبى تمام قد دُوِّن فى القرن الرابع يجب أن نذكر أن الموادَّ التى اعتمدت عليها – أو الجزء الأكبر منها – كان من صُنْع القرن الثالث ، وشارك فى كثير منه ذلك الفريق من اللغويين الذين وُصِفوا برفض الشعر الحديث لأسباب غير فنية (١) .

والواقع أن كلامَ مندور يبدو فى غاية الاضطراب ، فهو يرتب على الخصائص

---

(١) من المناسب هنا أن نذكر أن المعركة حول أبى تمام تختلف فى إطارها الزمنى عن تلك التى دارت حول المتنبى من حيث إن المعركة الأخيرة قد نشأت فى القرن الرابع – عصر المتنبى – فعلا ، أما تلك التى دارت حول أبى تمام فمع أن الآمدى هو الذى جمع مادتها فى القرن الرابع فإن معظم هذه المادة كان موجوداً بالفعل منذ أوائل القرن الثالث .

التى جعلها من سمات دعوة أبى نواس ومذهبِه عدمَ قيام خصومةٍ أو حركةٍ نقدية حوله على نحو الحركة النقدية والخصومة التى قامت حول أبى تمام، ومعنى ذلك أنه يسلِّم ضمنا بعدد من الخصائص اتّسم بها مذهبُ أبى تمام استحقّ بها أن تقوم حولهَ حركةٌ نقدية وخصومةٌ بين القدماء والمحدثين ، وهى خصائص ينبغى لها أن تُناقض خصائصَ مذهب أبى نواس ، مادامت قد أدّت إلى نتيجة مخالفة . فإذا كانت دعوة أبى نواس « لم تكن من الناحية الفنية ضرورةً حتمية » فهذا يعنى أن مذهبَ أبى تمام كان فيه من الناحية الفنية مايجعله ضرورة حتمية ، واذا كان أبو نواس « لم يَدْعُ إلى نوع جديد من الشعر » ، فينبغى أن يكون أبو تمام قد دعا إلى نوع جديد من الشعر . وإذا كان أبو نواس « قد دعا إلى الحديث فى موضوعات لاتستطيع أن تحرك نفوس الجميع » ، فينبغى أن يكون أبو تمام قد دعا إلى الحديث فى موضوعات تستطيع أن تحرك نفوس الجميع ، وإذا كان معظم الأغراض التى طرقها أبو نواس قد سبقه العرب إليها ، فينبغى أن يكون العرب لم يسبقوا أبا تمام إلى معظم الأغراض التى طرقها . أما عن شعوبية أبى نواس فنحن مطمئنون إلى خلو أبى تمام منها ، « والشعوبية – فيما يرى البعض – كانت سببا للهجوم على أبى نواس » ، وهكذا تكتمل العناصر التى لابد – وفقا لكلام مندور – أنها قد توافرت فى مذهب أبى تمام حتى انفرد بقيام الخصومة حوله.

لكنه لا يسوق ما كنا نتوقعه ، أو ما ينبغى أن نتوقعه – وفقا لحديثه عن خصائص مذهب أبى نواس – من سمات أدت إلى قيام الحركة النقدية حول أبى تمام ، وأدى انعدامُها فى مذهب أبى نواس إلى عدم قيام حركة مماثلة حوله .

والغريب أن مندورا يضيف نفس الخاصة التى جعلها عمادَ مذهب أبى تمام والتى كانت – فى رأيه – سبب قيام الخصومة حوله .. خاصة البديع والصياغة الجديدة، يضيفها إلى أبى نواس أيضا ، « فأبو نواس .. لم يَدْعُ إلى التمسك بالصياغة القديمة كما فعل شِنييه فى محاولاته لتجديد الشعر الغنائى فى فرنسا ، حين دعا إلى قول الأفكارِ الجديدة فى صياغة قديمة ، بل قصد إلى التجديد فى المعنى والتجديد فى العبارة على السواء » وها نحن أولاء نرى ابن المعتز – كما يقول – يرد إليه تنمية الاتجاه نحو مذهب البديع الذى انتهى إلى أبى تمام .

وهكذا لانستطيع الوقوفَ على حقيقة كل من المذهبين ، حين نكتفى بكلام مندور وحين نقارن أقوالَه فى الأماكن المختلفة ، بعضها ببعض ، وتبقى الأسباب التى ساقها تعليلا لعدم قيام خصومة حول مذهب أبى نواس غير مقنعة بالمرة بل غير واضحة، فإذا كان البديع والصياغة الجديدة هما سبب الحركة النقدية حولَ أبى تمام ، فإن مندورا يقررُ أن نفسَ الشيء كان موجودا عند أبى نواس – وإن يكن بدرجة أقلّ – واذا كان أبو نواس لم يدْعُ إلى نوع جديد من الشعر ، وكان قد سبق إلى معظم الأغراض التى طرقها فإن أبا تمام – وبعبارة مندور – « لم يكد يجدد شيئا فى موضوعات الشعر » وإذا كان أبو نواس قد حافظ على الهيكل القديم للقصيدة فلقد كان أبو تمام أكثرَ محافظة . ومع ذلك قامت حركة نقدية وخصومة وهجوم على أحد الرجلين ، وقُبِلَ ما أتى به الآخر ، فى إعجاب .

وهكذا تمثل دراسة مندور للمشكلة – كما نرى – حلقة من حلقات التصور القديم لموقف متقدمى النقاد من الشعر الحديث وهو التصور الذي يزيد فى غموض الموقف وإقامة المشاكل .

ويساير إبراهيم سلامة نفسَ الاتجاه فى تصوّر موقف اللغويين ورواة الشعر والنحاة على أنه موقف التفضيل للقديم وهو يرى أن ما سماه (بالدعوة إلى شعر الأوائل) وإلى طريقتهم كان ردَّ فعل ضد الحَداثة ، وقد وقع ردُّ الفعل ذلك وأثّر تأثيرَه بالرجعة إلى الوراء .

ومن ثم يرى أنّ الشعراءَ كانوا يجارون – مضطرين أو متعمّدين – الرواةَ وعلماء اللغة الذين يعتزون بالقديم ، فى السير على أسلوب القدماء بالطبع .

ونحن على يقين من أن هذا التصور للموقف والذى يرى فى هجوم أنصار البحترى على أبى تمام ردَّ فعل ضدّ الحداثة لن يستطيع – على الأقل – وضع تفسير لما جاء على لسان أنصار البحترى من اتهام أبى تمام بالتشبُّه بالقدماء ومحاولة القول على نمط أهل البادية ، وافتخارهم بأن شاعرَهم – البدَوىَّ فى نشأته – استطاع أن يتحضر ، وأن ينجح فى محاولته التحضر .

أما شكرى عياد فإنه تعقّب موقفَ الرواةِ واللغويين من الشعر المحدَث على

النحو التالى :-

١ - لاحظ أنّ ابنَ سلام وفريقَ العلماء الذين روى عنهم أهملوا النظرَ فى الشعرِ الحديث واقتصروا - كما فى طبقات ابن سلام - على رواية الشعر الجاهلىّ والإسلامىّ، وأن ذلك السلوكَ من جانبهم كان مرتبطا بالمهمّة اللغوية والنحوية التى كان يضطلع بها ذلك الفريق .

٢ - ألمح إلى أنّ إغفالَهم للشعر الحديث - أعنى روايته - يعود إلى أنه كان نتاجَ عصرٍ اضطربت فيه اللغةُ وشاع اللحن .

٣ - يقرر أن النقادَ من أنصارِ القديم عندما قبلوا روايةَ الشعر الحديث ألزموه منهجَ القصيدة القديمة وذلك عند ابن قتيبة .

٤ - يقرر - على الأساس السابق - أن القانونَ الذى أقـرّهُ النقدُ العربى الخالص هو ضرورة اتّباع القدماء .

٥ - يرى أن « سلطان الشعر القديم » الذى فرضه النقاد كان من العوامل التى أزكت بحث مسألة اللفظ والمعنى .

٦ - أن مسألة اللفظ والمعنى ذاتها أزكاها النزاع حول أبى تمام والبحترى ، حيث كان خروج أبى تمام على بعض ماهو مألوف فى الشعر سببا فى هجوم أنصار القديم عليه ، حيث ألحّوا فى قيمة اللفظ والسبك .

٧ - يقرر وقوع النقد العربى فى تناقض خطير أساسه مطالبةُ الشعراءِ بالتقليد والابتكار فى آن واحد ، وذلك مفهوم من مهاجمتهم لكلّ ماهو جديدٌ وأيضا من مهاجمتهم لأدنى صور الأخذ أو « السرقة » التى لم يكن منها مفرٌّ أمام إلزامِهم الشعراءَ باتّباع القديم.

ويثير عرضُ الموقف على هذا النحو عديداً من الأسئلة . ولاشك أنها ملاحظةٌ قيمةٌ تلك التى بدأ بها أستاذُنا من الربط بين إهمال النظر فى الشعر المحدَث من جانب الرواة وعلماءِ اللغة وبين شيوع اللّحن واضطراب اللغة فى ذلك العصر الذى نشأ فيه الشعراء المحدثون .

وإذا كانت العلةُ فى إهمال رواية ذلك الشعر واضحةً ، وهى عدم صلاحيته للاستشهاد النحوى واللغوى وهو مايُفهم منه أنَّ رفضَ الشعر الحديث كانَ مقصوراً على هذا المجال ، أى أنه كان مرفوضا فى موطن محدد من مواطن الاستخدام ، فإننا – بالتالى – لانرى فى رواية ابن قتيبة لشعر المحدثين (تسامُحاً) كما يقول أستاذنا ، فإن صفة التسامح إنما يُوصف بها من قَبِلَ شيئا رفضه غيرُه ، وهو نفسه يقرر أنّ ابنَ سلام وفريق العلماء الذين روى عنهم إنما ركزوا على رواية الشعر الجاهلى والإسلامى لأنه المادة الصالحة لحاجتهم فى الاحتجاج اللغوى والنحوى وهى حاجة لايصلح للوفاء بها الشعر الحديث ، معنى هذا أن روايةَ ابن قتيبةَ للشعر الحديث لم تكن رجوعا عن شىء تمسّك به العلماءُ قبلَه .... ولم تكن (تسامحا) فيما كانوا متشدّدين فيه ، وذلك على أساس اعترافنا بأن اقتصارَهم على رواية الشعر القديم كان سببُه صلاحيةَ ذلك الشعر – دون غيره – للاستشهاد اللغوى .

كذلك فإن مايقالُ عن إلزام الشعراء المحدثين بمنهج القصيدة القديمة – وهو أخصُّ خصائص الشعر الجاهلى – مسألة تحتاج إلى نظر ، فهذا الإلزامُ – إلى جانب انصبابه على قصيدة المدح لاغير ، وإلى جانب ماساقوه من مبررات صناعية فى فن يقوم ، فى تصوّرهم ، على الصناعية والشكليات أصلا – إلى جانب كل ذلك ، فإن هذا الإلزامَ لاوجود له إلاّ فى عبارة ابن قتيبةَ التى ساقها فى مقدمة (الشعر والشعراء) وباستثناء هذه العبارة – التى لانُحِسّ لها أثرا على الإطلاق فى ترجمته للشعراء ووجوهِ النقدِ التى أخذها عليهم ، خاصة فى ترجمته لأبى نواس ، زعيم الخروج على منهج القصيدة التقليدى – باستثناء تلك العبارة ، لانجد مايفيد تمسكَهم أو حتى تنبهَهُم لهذا الإلزام .

وهكذا يظل لدينا عدد من النقاط التى تحتاج إلى التوضيح :

١ – التحول فى موقف ابن قتيبة (العالم اللغوى المناصر للقديم) إلى رواية الشعر الحديث ، بعد أن رفضه سابقوه .

٢ – السبب فى توقف ابن قتيبة عن فرض منهج القصيدة التقليدىّ على الشعراء المحدثين ، ولماذا لم يوجّه النقد – من هذه الزاوية – إلى أبى نواس وغيرهِ ممن خرجوا على ذلك المنهج .

٣ – مسألة التناقض الذى وقع فيه النقد العربى الخالص ، ونحن نعلم أنهم سجلوا السرقات ورصدوها ، ونرى فى هذا الموقف من جانبهم أسلوبا فى السعى نحوَ الابتكارِ والتجديدِ حيث لم يرضَوْا للشاعر أن يكون آخذا من غيره ، خصوصا حين قصروا الاتهامَ بالسَّرق على الحالة التى يأخذ فيها الشاعرُ ما ابتدعَه سواه ، أى أنَّ مواطنَ السرق عند الشاعر كانت هى مواطن الابتكار عند مصدرِه . فهل وقع النقدُ العربىُّ حقّاً فى تناقض من ذلك النوع ؟ وإذا حدث فما تعليله ؟ إننا لانستطيع المرور على هذه المشكلة دون تعليل .

٤ – هل كان مهاجمو أبى تمام من أنصار القديم حقا ؟ إننا نقرأ نعيَهم على أبى تمام تشبُّهَه بالبدْو ، ومحاولتَه الاقتداءَ بالقدماء ، فهل هاجمه أنصارُ البحترى كمدافعين عن قديم البحترى ضد جديد أبى تمام ؟ هناك مَنْ يروْن أن البحترىَّ كان أكثر انفكاكاً من القديم من أبى تمام . وبالتالى تهتز صورة الحوار بين أنصار الشاعرين كما اعتدنا أن نستقبلها ، فليست – فيما يبدو – صورة نزاع بين قدماء ومحدثين ، خاصة أن معيار التقدّم والتأخّر الزّمنيّين غيرُ موجود فى هذه الحالة .

٥ – أخيرا نجدُنا بحاجة إلى معرفة موقفِ أنصار القديم وبالذات الذين فرضوا منهج القصيدة القديمة ، من أبى نواس صاحبِ إحدى دعوات التجديد فى الشعر العربى خاصةً فى منهج القصيدة ، فماذا كان موقفُ النقاد منه ؟

ولا يشير أستاذنا إلى ذلك الموقف – نظرا لطبيعة بحثه – ولكننا نتساءل : هل هاجم النقادُ أبا نواس ، وهو ما لايوجد عليه دليل ، أو لم يهاجموه ، ويكون معنى ذلك أنهم قبلوا مذهبَه فى تجديد ديباجةِ القصيدة ؟ وفى هذه الحالة يصبح السؤال : لماذا لم يهاجموه ماداموا يهاجمون كلَّ جديد ؟

ثم إذا كانوا لم يهاجموه – وهو الذى صرحّ بالثورة – فلماذا هوجم أبو تمام ؟ وحين هُوجِم أبو تمام هل صدر الهجوم تحت شعار أنه مجدد ؟ فإن هوجم على أنه مجدد فلماذا لم يهاجَم أبو نواس ؟ .

وهكذا ندور وندور فلا نجد فيما قيل عن تعصُّب أوائل النقاد ضد الشعر المحدث إجابةً لكثير من الأسئلة الحيوية .

وأثار عبدُالقادر القط فى بحثه للمسألة عددا من النقاط ، منها :

١ – أن الشعراءَ فى عصر أبى نواس كانوا قد تخلّصوا إلى حدٍّ كبير من المطالع التقليدية .

٢ – يرى – بناءً على الرأى السابق – أن سخريةَ أبى نواس من المطالع التقليدية لاتعبِّر عن ثورة على القِيَم الشعرية ، وإنما هى دفاعٌ عن سلوك خُلُقِىٍّ لايرضى عنه كثير من معاصريه .

٣ – أن تجديدَ أبى نُواس – بالتالى – كان تجديدا فى إطار محدود .

٤ – أن عدمَ ثورة أنصار القديم ضده يعود إلى عدم إحساسهم بخروجه عن مقومات الشعر المعروفة .

٥ – أن الخصومة بين الجديد والقديم قد تمثلت – فعلا – فى المعركة حول أبى تمام والبحترى .

٦ – أنه على الرغم من ذلك لا يُعدُّ البحترى ، من حيث صفة الحداثة ، نقيضًا لأبى تمام ، إذ كان هو الآخر شاعرا حديثا ، وقد أحسَّ القدماء بالتشابه بين الشاعرين .

٧ – أن الفرق بينهما – على هذا الأساس – هو فرق فى الدرجة لا فى النوع .

٨ – أن تجديد أبى تمام هو الآخر – شأن تجديد أبى نواس – كان داخل إطار محدود وأنه قام على الصنعة اللفظية والتعقيد وتوليد المعانى الذى كان يؤدى إلى غموض العبارة وسوء التأليف .

ويتفق القط – فى بعض النواحى – مع طه حسين ، مثل القول بأن تيَّار التجديد كان عاما ولم يقتصر على أبى نواس . ولكن القط يرتب على هذا إسقاط صفة الدعوة الفنية إلى التجديد عن حركة أبى نُواس ووصْفَها بأنها كانت مجرد دعوةٍ إلى نوع من السلوك الخُلُقى الذى لم يكن يَرضَى عنه كثيرٌ من معاصريه . ولو رُحْنا نبحث عن

أولئك المعاصرين لأبى نواس والذين لم يرضَوْا عن سلوكه فى معاقرة الخمر والإخلاد إلى حياة اللهو ، لما وجدنا لهم أثرا تقريبا ابتداء من الخليفة إلى أكثر رجال الدين تزمتا إلى رجل الشارع ، وما يروى عن عقاب الخلفاء لأبى نواس على وصف الخمر أو شربها ليس إلا ضربا من الرغبة فى الظهور أمام الرعية بمظهر الحزم والوقار . وإذا لم يوجد من يعارض أبا نواس فى سلوكه ، أى إذا انعدم الدافع إلى إعلان أبى نواس لمذهبه فى الخمر ودفاعه عنه كَلَوْنٍ من السلوك ، فى هذه الحالة ينتفى ما وصفَ به القطّ دعوةَ أبى نُواس من أنها كانت دعوة إلى لون من السلوك الخلقى ، ولم يبق إلا أن نُلبسها ثوبا فنيا .

ومن ناحية أخرى لا نوافق على القول بأن السبب فى عدم مهاجمة أنصار القديم لدعوة أبى نواس أنها لم تَحْوِ تجديدا حقيقيا ، وهو رأى رَدَّدَهُ مندور من قبل ، فمن الثابت أنّ النقاد القدامى أحسُّوا بأن أبا نواس قد ابتدع شيئا – أو دعا إلى شىء – ولكنهم لم يستنكروه .

وتُثير محاولة تبيُّن حقيقةِ ما أتى به أبو تمام – وهو ما كان عرضةً للهجوم – مشكلةً أخرى ، فلقد ذهب عبدُالقادر القط فى بعض المواضع إلى أن الخلافَ بين أبى تمام ومن سبقوه من الشعراء لا ينحصر فى توسعه فى البديع ، بقدر ما كان خلافاً فى كيفية الاستخدام لألوان البديع ، ولقد وصف مذهب أبى تمام – أو أسلوبه – فى موضع آخر بأنه (كيفية جديدة فى النظم) .

وكل ذلك يدل على أن الخلافَ بين أسلوب أبى تمام وغيره من الأساليب خلافٌ فى الكيف لا فى الدرجة فحسب . لكن القطّ فى سبيل التدليل على حداثة البحترى ، راح يجمع كلَّ ما يؤيد التشابُهَ بين الشاعرين ، كتلمذةِ البحترى على أبى تمام وأخذه منه ... الخ ، ثم قرر – مخالفا لما قرره فى مواضع أخرى – أن الاختلاف بين الشاعرين كان فى الدرجة لا فى الكيف . والواقع أنه لو كان كذلك لما كان يمكن أن يؤدِّىَ إلى خصومةٍ على نحو ما حدث ، خاصةً أن أنصار الشاعرين حذفوا – كما سنرى – مسألةَ استخدام البديع – حتى مع الإسراف فيه – من دواعى الخصومة ، وأيضا حذفوا مسألةَ التجديد ، وإنما أخذوا على أبى تمام سوءَ الاستخدام للغة ، وهو وإن كان نتيجةً للإفراط فى البديع فإنّ هناك مَنْ أفرطوا فى البديع دون أن يُسيئوا إلى

اللغة إساءة أبى تمام ، وبالتالى لم يتعرضوا للهجوم .

ثم إن ما يقوله من أنّ البحترىّ كان معتدلا نسبيا فى الاتجاه الحديث على عكس أبى تمام الذى كـان مندفعـا فى ذلك الاتجاه ، هذا الكلام غير واضح ، فـهل المقـصود بالاتجاه الحديث تيارُ البديع ؟ إن كان ذلك هو المقصود فإن البحترىّ فعلا كان معتدلا فى استخدامه ، لكننا نعلم أن مجرد الاندفاع فى استخدام البديع لم يكن ليسبّب ثورة ضد أبى تمام . ، وإن كان المقـصود بالاتجاه الحديث المعنى الواسع للحداثة الذى يرمى إلى تعبير الشاعر عن روح عـصره ، أعنى الحداثةَ التى تظهر فى روح الشعر كلّه لا من هذه الكلمة أو تلك ، إذا كـان هذا هو المقصود فقـد كان البحترى – فى هـذه الناحية – أقربَ إلى الحداثة من أبى تمام . وبالتـالى تظل أسبـابُ الخصـومة حـول أبى تمام غيرَ معروفة إذا اعتمدنا على تصوير القطّ لها .

ويبقى بعد ذلك كلّه السببُ الذى من أجله لم يُهاجَمْ أبو نواس ، والسبب الذى من أجله هُوجِم أبو تمام ، إذا كـان تجـديدُ كلٍّ منهـمـا تجـديدًا بسيطا مـحـصـورا بإطار محـدود ، وكذلك السبب الذى من أجـله لم يُهاجم البحـترى – وهو الشاعـر المحدَث الذى لم يكن أقلَّ حداثة من أبى تمام .

ولا شك أن مـحمـد مـصطفى هدارة فى كتـابه (مـشكلة السـرقات فى النقـد العربى) مـقتنعٌ تمامَ الاقتناع برفض اللـغويين والرواة فى القرنين الثـانى والثالث– وهم يمثلون نقادَ تلك الفـترة ، أو على الأقل فريْقـا منهـم – للشعر الحـديث ، وهجومِهِم على أصـحـابه وعلى الأخص من يحـاول منهم الإخـلال بالنظام القـديم للقـصـيدة العـربيـة ، والواقع أنـه فى مـثـل هذه النقطة تـكمن الخطورة، وذلـك حين يقـرر المؤلّف أنّ رفض اللغويين للشعر الحديث كان مبنيا على أساس فنّىٍّ مـثلِ عمود الشعر ومثل قضية اللفظ والمعنى ، ومع أننا لا نؤيـد رأىَ المؤلف فيـمـا ذهب إليه مـن رفض أولئك النقـاد للشعـر الحديث عـامة ، فـإننا نسجل أن كـلامه يبدو مـنطقيا بالنسبة لكلام منـدور الذى جعل رفضَ الرواة واللغويين للشعر الحديث مجرّدَ تعصُّب لا يقوم على أساس فنّى ، ثم رتّب على ذلك الرفضِ نتـيـجةً ذاتَ طابع فـنى هى محـاولة الشـعراء إرضـاءَ تلك الطائفـة من النقاد بالجرى فى ركاب الشعر القديم فى أسلوبه وبنائه الفنى .

وحين نأتي إلى مناقشة المؤلف فيما ذهب إليه من وجود « فريق يتشبث بالماضي بكل ماله من قوة ويحارب التطور الجديد ، ويتمثل . . . في رواة الشعر وعلمائه » يجب أن نتساءل : هل وُجدَ ذلك الفريقُ حقا ؟ وإذا كان الميدان الطبيعيّ للتطور هو الشعر الحديث فهل وُجدَ من رفض الشعرَ الحديث على أسسٍ فنية بحتة ؟ وإذا وجد من يفضّل أسلوبا على أسلوب آخر كأسلوب أبي تمام فهل كان التفضيل والرفض على أساس زمني ؟

تدل جميع الشواهد على أن مثل ذلك الفريق لم يوجد .

ونعود إلى موضوعنا محاولين أن نناقش الأسس التي أقام عليها هدّارة رفضَ الرواة والعلماءِ للشعر الحديث ، وتشبثهم بالقديم ودفاعَهم عنه ، فنجده يعدد أسسا ثلاثة :

الأول : هو موقفُ الرواة الذين كان يعنيهم التكسُّبُ بحفْظ الشعر القديم ، ولا شك أن الشعرَ الحديثَ لا يدخل في نطاق عملهم ، إذ إنّ مكانتَهم تقوم على حفظ ما لا يتيسّر للجميع معرفته ، فهؤلاء كانوا من أنصار القديم والطعن على الحديث .

الثاني : هو خروجُ المحدثين على عَمود الشعر ونَهْج القصيدة ، وقد كان ذلك الخروجُ سببا في الهجوم على الشعر الحديث ، خاصة ما اتضح فيه بشدة الخروجُ على ذلك العمود وذلك النهْج ، ووفقا لهذا الأساس علّل هدارة ما ظنّه من وجود ثورة ضدّ أبي نواس بسبب دعوته إلى تغيير مقدمة القصيدة كما علّل أيضا الخصومةَ ضد أبي تمام (١) .

الثالث : قضيةُ اللفظ والمعنى ، ويذهب المؤلفُ إلى أنّ أنصارَ القديم كانوا يتشبثون بتفوّق القدماء في المعاني ، وسبقهم إليها إلى حدّ القول – أحيانا – بأنهم قد استنْفَدُوها وأنه ليس أمام المحدثين سوى اتّباعهم فيها ، ولا فضلَ لهم في هذا الاتّباع.

على أن هناك أساسا خطيرا أشار إليه المؤلف أيضا عند حديثه عن البدايات الأولى لتطور الشعر العربي في العصر الأموي ، حين علل بُطْءَ ذلك التطور قائلا :

---

(١) محمد مصطفى هدارة ، مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

« لعل ذلك يرجع إلى أن العصرَ الأمويّ كان عصر الجَمْع والتدوين لآثار السلف ، فكانت هذه الأشعارُ هي المثل الأعلى بالنسبة للعرب الذين كانوا ما يزالون يتعصّبون لعروبتهم وماضيهم » (١) ، وهو في هذا يلتقى مع أحمد أمين في تصويره لما اعتقده من (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) وكذلك مع طه حسين حين قرر أنّ من أسباب عدمِ مسايرة التطور في ميدان الأدب للتطور في الحياة المادية في العصر الأموي ، ما تتمتع به الآداب العربية القديمةُ من خلاّبةٍ ، ثم حِرْصَ الأمة العربية على سننها القديمة وتراثها الموروث .

ربَّما كان من بين أسباب الجمع لتلك الأشعار إحساسٌ بقيمتها الفنية ، ومع ذلك فمن الثابت أن الجمعَ استهدف الأشعارَ التي تصلح شواهدَ وأمثلةً على صحة ألفاظ القرآن والحديث وهنا ينبغي التفرقة بين هدفين لجمع الشعر :

الأول : هدف لُغوي جُمعتْ له الأشعارُ القديمةُ لأنها تصلح لذلك الهدف ،

والثاني : هدفٌ فنيّ لا يُجمع له من الشعر إلا ما توافرت فيه صفاتٌ فنية معينة ، ويبدو أنهم في سبيل تحقيق الهدف اللغوي لم يهتموا كثيرا بالجمال الفني في الشعر الذي جمعوه . ونحن إنما نؤكّد هذه النقطةَ لكي ننفي عن حركة الجمع للشعر القديم أية صفة من صفات التعصب ضد الشعر الحديث كفن لذاته وبالتالي نبرّؤها من مسئوليّة ما يبدو في الشعر العربي وكأنه نتيجةٌ لدعوةٍ محافظةٍ من جانب النقاد .

ومن الملاحظ أن هذه الأسسَ تنقصها الدقةُ في كثير من الأحيان ، وأن بعضها تنقصه صفة الاطّراد بينما البعض الآخر يتسم بالتعميم الذي لا يراعي الفروقَ الدقيقةَ بين نظرة اللغويين والرواةِ إلى الشعر القديم كمادّة للاستشهاد الذي لا يصلح له سواه، ونظرتهم إليه كآثار فنية قد تصل إلى درجة الامتياز ، أو تقع دونها أو قد يتفوق عليها من الآثار ما هو أحدثُ منها عهدا . ثم إن الرواةَ أنفسَهم سرعان ما دوّنوا الشعرَ الحديث ورووْه أيضا ، هذا فضلا عن أننا لا نجد – كما قلت – الرواياتِ الكافيةَ التي تؤكّد وجودَ هذا العامل .

---

(١) مشكلة السرقات في النقد العربي ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

أما عن خروج المحدَثين على عمود الشعر ونَهْج القصيدة وأنّ ذلك الخروجَ كان سببا فى تحامل النقاد واللغويين ضد المحدثين ، فإن هذا القولَ يثير عددا من التساؤلات حين نذكر أن أحدًا لم يتفوه بكلمة واحدة فى تسفيه دعوة أبى نواس إلى الخروج على نهج القصيدة ، ولقد شاركه مسلمُ بن الوليد فى ذلك الخروج ، كما شاركه شعراء آخرون سابقون عليه – وإن كانت مشاركةً فى التطبيق لا فى الإعلان – ومع ذلك لم يتعرّضوا لأىّ لون من الهجوم بسبب هذا الخروج على النهْج التقليدىّ للقصيدة العربية .

من هنا يمكننا أن نقررَ عدمَ وجودِ ثورة ضد أبى نواس وهى ثورة قال هدارة بوجودها بناء على ما ظَنّهُ من خروج أبى نواس على عمود الشعر ، وعلى ما ظَنّهُ أيضا من وجود مَنْ هاجموا الخروجَ على الديباجة التقليدية للقصيدة . وسوف نناقش حقيقةَ دعوةِ أبى نُواس ، ومدى خروجه على نمطِ الشعر التقليدىّ، وحقيقة موقف النقاد وعلماء الشعر منه والفرق بين دعوته وبين مذهب أبى تمام الذى كان خروجُه على عمود الشعر فعلا سببا للجدَل حوله ، وحسبُنا أن نقررَ أن سيطرةَ التصوُّر القديم على تفكير الباحثِ دفعه إلى تعميم القولِ بوجود الهجوم من جانب علماء الشعر ضدّ كل ما هو حديث دون أنْ يُراعىَ الفروقَ الجوهرية بين أشهر محاولتين من محاولات التجديد فى الشعر العربى ، وهما دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام ، إلى الحدّ الذى يُفهَم منه أن كُلاً من المحاولتين صورة من الأخرى وأن أسباب الهجوم عليهما واحدة .

أما الأساسُ الثالث من أسس تعصّب علماء الشعر للقديم ، فهو قضيةُ اللفظ والمعنى وأن أنصارَ القديم كانوا يسفّهُون المحدثين لأن معانيَهم مأخوذة من الأقدمين ، وليس فيها أى جديد ، بينما راح أنصارُ الحديث ينتصرون للفظ على المعنى ويُقرُّون بتناولِ معانى القدماء وتحويرها بالصياغة الجديدة ، وكباحث فى مشكلة السرقات يريد الربطَ بينها وبين موضوعاتٍ أخرى فى النقد والأدب . . . يحاول أن يربط بين بحث قضية اللفظ والمعنى وبين مشكلة السرقات ويرى أن توسّعَ النقاد فى دراسة قضيةِ اللفظ والمعنى كان أساس تلك المشكلة (١) .

---

(١) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

والواقع أن قضيةَ السرقات لا تعدو أن تكون صورةً من بحث الملكية الأدبية أو الأصالة (١) ، وهي قد تتصل بقضية اللفظ والمعنى ، لكن مما لا شك فيه أن الخلافَ لم يكن على النحو الذى صوره هدّارة ، أعنى قولَه بتعصب أنصار القديم للمعنى وتعصب أنصارِ الحديث للفظ ، ولو أن الأمر كان على نحو ما يصوِّر ، لأصبحت الجهةُ منفكّة كما يقول طه إبراهيم – مستخدما اصطلاح المناطقة – أعنى لم يكن ليوجدَ النزاع بينهما ، ذلك أن سبق القدماء إلى كثير من المعانى لم يكن محل اعتراضٍ من أنصار الحديث وبالمثل لم تكن قدرةُ المحدثين على اختراع المعانى محلَّ إنكار ممن سُمُّوا بأنصار القديم ، بل إن من سُمُّوا بأنصار القديم – كما يمثلهم أنصار البحترى – يقرون بتناول البحترى (الشاعر التقليدى) لمعانى أبى تمام دون أن يَجِدُوا فى ذلك غضاضةً، باختصار لم تكن مسألةُ المعانى هى نقطة النزاع بل كان الأسلوب الجديدُ الذى لا يخلو من الْتِواءٍ وتقعّر عند أبى تمام هو محلُّ الهجوم من جانب كثير من النقاد .

ونحن نؤكد هذه النقطة لأن القولَ الشائع بأن أنصارَ القديم كانوا يفضِّلون المعنى ويتهمون المحدَثين بأنهم عَالَةٌ على معانى القدماء التى تكاد أن تكون قد استُنْفِدَتْ وأن المحدثين كانوا يناصرون اللفظ ، مثل هذا القول الشائع كثيرا ما يترتب عليه اتّهامُ من سُمُّوا بأنصار القديم بمسئوليتهم عن كثير من مظاهر المحافظة والتقليد – أو ما يبدو أنه كذلك – فى الشعر العربى ، فيقال مثلا : إن قولَهم باستنفاد القدماء للمعانى مسئولٌ عن ترديد المحدثين لهذه المعانى دون أن يُحاولوا الابتكار ، ما دام قد أُشيعَ أن المعانىَ قد استُنْفِدَتْ ولم يعد أمل فى اكتشاف المزيد منها ، إلى غير هذه من التهم .

وهكذا ، ووفقا لتصوير هدارة لموقف قدامى اللغويين والرواة من الشعر المحدَث ومن حركات التجديد فى الشعر العربى ، يظل هناك كثير من الأسئلة بلا إجابة ، ذلك أن ما أورده من الأدلة على وجود هجوم ضد أبى نواس ليس كافيا ، بل من المؤكد أنه لم تقم ضده ولا حوله خصومةٌ أو نزاع كما حدث حولَ أبى تمام . وإذا صح ذلك

---

(١) Grunebaum(G.E.V.) The Concept of Plagiarism in Arabic Theory J. N.S. Vol, III Oct.1944 P.234.

أصبح عليه أن يبيِّن السببَ فى عدم الهجوم على أبى نواس فى الوقت الذى اشتعلت فيه الخصومة حول أبى تمام، ثم ما الفرقُ بين هاتين الحركتين فى التجديد، حين نرى إحداهما تُهاَجَمُ بينما الأخرى تحظى بالقبول ؟ .

وإذا كان أبو تمام قد تعرض للهجوم، فهل كان مهاجموه من أنصار القديم حقًا وبالتالى يكون هدف الهجوم عليه هو ما أتى به من جديد ؟

ثم – وهذا عَوْدٌ إلى الوراء قليلا – ما الدليل على تعصب الرواة والعلماء الأوائل على الشعر المحدث ؟ كلماتٌ لأبى عمرو بن العلاء أو كلماتٌ لابن الأعرابى أو إسحاق الموصلى ؟ هناك روايات تفوق من حيث العدد والقيمة أضعافَ ما أورده الباحثون المحدثون تدل على احتفال أولئك القوم بالشعر المحدث وبالتالى لا تصبح للنصوص التى أوردوها فى التدليل على تعصُّبِهم قيمةٌ كبيرة لأن هناك نصوصًا تنقضها، وذلك من شأنه أن يجعل تلك النصوص التى اعتمدوا عليها، وكذلك الآراء التى بنَوْها على أساسها مَدْعَاةً لكثير من المشاكل .

* * *



الباب الثانى

بين مشكلات التصوّر وصورة الواقع

(١)
مشاكل يفرضها القول بتعصب النقد العربى ضد شعر المحدثين

مقدمة :

سبق أن أشرتُ إلى عدد من المشاكل التى يُثيرها القولُ بتعصب قدامَى النقادِ ضدّ شعر المحدثين فى العصر العباسى ، وضدّ أىّ محاولة للتجديد فيه ، وذلك فى أثناء التمهيد للبحثِ وخلالَ عرضى لتناولِ الدارسين المحدثين لهذا الموضوع ، ولكنّ المشاكلَ التى ذكرتُها كانت – غالبا – مشاكلَ خاصةً بكل دارس على حدة ، مشاكلَ نتجت عن تصورهِ ، وعن طبيعة بحثه للمشكلة : على سبيل المثال تناقُضُ طه حسين في قوله بمعارضة رجال الدين والعلماء لكل ما هو جديدٌ ثم قوله بعد ذلك : إنهم كانوا من أشدّ الناس إعجابا بأبى نواس – رأس الجديد – وتنويها به وثناء عليه ؛ أو قول مندور إن أنصارَ القديم هاجموا خروجَ أبى تمام على عمود الشعر الذى كان يعنى الصّياغة ، ثم قوله إنهم لم يهاجموا أبا نواس ، مع اعترافه بأن ذلك الشاعرَ قد جدّد ، هو الآخر في الصياغة .

كما كان من المشاكل التى أُشيرَ إليها ما يقوم على اختلاف هؤلاء الباحثين بعضهم مع بعضهم الآخر فى أمور معينة ، كالاختلاف فى موقف النقاد من دعوة أبى نواس ، وفى قيمة تلك الدعوة .

على أنّ مثلَ هذه المشاكلِ تُعدُّ مشاكلَ جزئية ، مصدرها الوقوفُ عند جوانبَ معينةٍ من الصورة دونَ بقية الجوانب ، أو وقوفُ كلّ باحثٍ عند جانب معيّنٍ منها بحيث يرى غيرَ ما يراه الآخر ، لكنها جميعا تُعدُّ – كما قلت – مشاكلَ جزئيةً إذا قيست بالمشاكل التى نحاولُ الآن عرضَها ، والتى نرى فيها مشاكلَ عامّةً ، لا يستطيع القولُ بفكرة التعصُّب – فى جملته وتفصيله – أن يقدم الحلولَ المقنعةَ

لها، وهذا هو الفرق بينهـا وبين ما سبق عرضُه من المشاكل، وهذا هو السبب فيما نراه من حاجة المسألة برمتها إلى النظر من جديد .

المشكلة الأولى :

وتنحصر فيما يُروى عن أولئك النقاد (المُتعصِّبين) من نصوص يُشيدون فيها بالشعراءِ المحدَثين ويفضِّلونهم على القدماء أحيانا كثيرة ، **وأساسُ المشكلة أننا نصبح أمامَ نصوصٍ متضاربة إذ** يكونُ لدينا – كما فهم الدارسون المحدَثون – نصوصٌ يَغُضُّ فيها أولئك النقادُ من الشعر الحديث والشعراء المحدثين ، وكذلك نصوصٌ أخرى تناقض – بالطبع – ما تحمله النصوصُ الأولى من أحكام .

لقد حفظَ الدارسون المحدَثون قولَ الأصمعي إنَّ استاذَه أبا عَمْرو بنَ العَلاء لم يكن يحتجُّ بشعر الإسلاميين ، وأنه سماهم (مُحْدَثين) أو (مولّدين) وأعلن أنه لهذا السبب – أي لتأخرِّ زمنهم – لا يروى شعرَهم ، وكذلك حفظُوا قصةَ رجوع الأصمعيِّ عن استحسانِه لبيتين من شعر إسحاق المَوصليِّ بعدَ علْم الأصمعي بأنهما لإسحاق ، وقصةَ تمزيقِ ابن الأعرابي لإحدى أراجيز أبي تمام حين علم أنها له ، بعدَ أن كان قد أمرَ بكتابتها على أنها لشاعر قديم ، ... إلى آخرِ هذه الأخبار المُبْتسرةِ حينا والمشوَّشةِ حينا والمعدُولَةِ عن وجوهها أحيانا .

غير أننا نجدُ في مقابل هذه الأخبار نصوصاً كثيرة تنقضُها ، وتدلُّ على أن موقفَ أولئك النقاد لم يكن – في حقيقته – موقفَ التعصب والرفض لكل ما هو جديد ، <u>ويصدق هذا القولُ بالنسبة للنقاد العرب جميعا ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لأكثرهم تعرضا لتهمة التعصب ، وأعنى أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي وإسحاق الموصلي</u>[1] .

---

(١) يراجع فى تفضيل أبى عمرو للإسلاميين وتنويهه بهم : الشعر والشعر١/٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٥٢١ ، الأغانى ٩/٣١٠ ، ٣١٢ ، الموشح ٦٤ ، ١٧١ ، الحلية ١/١٤ ، العمدة ١/١٨١ ، ٢/٢٤٨ . وفى تنويهه ببشّار – كشاعر حديث – الأغانى ٣/١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، وحلية المحاضرة ١/٩٣ ، ٩٤ ، العمدة ١ / ٢١٨ .

وفى إعجاب الأصمعى بالإسلاميين ، وانتصاره لهم إذا أصابوا على الجاهليين : الشعر والشعراء ٢/٥٧٢ ، حلية المحاضرة ١/٥٧ ، ٥٨ ، العمدة ٢/٤٦ ، نضرة الإغريض ١٥٦ ، ١٥٧ . أما تنويهه بالمحدثين من مخضرمى الدولتين ومن العباسيين ، فيراجع فيه : الشعر =

وهنا يصبح القولُ بفكرة التعصّب مثيرا للمشاكل وليس عاملا على حلّها ، والأمر لايقف عند حدّ الكلام النظرى وإنما يتعداه إلى المواجهة الفعلية مع المشكلة فى كتابات الدارسين المحدثين .. يقول طه إبراهيم :

« كانت هناك خصومةٌ عنيفة بين القديم والحديث ، بين المذهبَيْن الشعريّين اللذين توطّدا وتحدّدا ، وأصبح لكل منهما أتباع وأشياع .. ومن الأمثلة فى هذا الصدد اختلافُ النقاد فى بشار ومروان ، فكلاهما من مخضرَمى الدولتين ، من طبقة واحدة ، ولكنهما متفاوتان فى المذهب ، فمروان محافظٌ على القديم وبشّارٌ حضَرىٌّ مجدّد ، صاحبُ بديع ، فأيُّهما أشعر ...؟ كان الأصمعي يقدّم بشّاراً على مروان ، **وقد يكون ذلك غريبا** من لغوى كالأصمعى إذا عرفنا أن اللغويين جميعا كانوا يتعصّبون للقدماء على المحدثين ولمن هم على طريقة القدماء، وإذا عرفنا أن الأصمعىّ نفسَه من الذين بعُدَتْ بهم العصبيةُ فى ذلك ، ومهما يكن من شئ ، فقد كان الأصمعى يقدمُ ، بشـارا ، ويذكـر من بواعث هـذا التقديم تجديـدَه ، وأنه لم يَذِلّ لمذهب الأوائـل، وأنه واسع البديع » (١) .

وهكذا يكتفى طه إبراهيم بالتعجب من تفضيل الأصمعى (اللغوى المتعصب) لبشار – أحدِ رُوّاد الجديد – على مروان – أحدِ المتمسكين بالأسلوب القديم .

وفى هذا التعجّبِ نفسه تكمن المشكلة التى تتمثل فى التناقض بين ما أشيعَ عن ذلك الفريق من النقاد من معاداتهم للشعر المحدث ولحركات التجديد فيه، وبين نصوصٍ من النوع

= والشعراء ٧٢٩/٢ ، طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٠ ، ٢١٥ – ٢١٧ ، الأغانى ١٤٧/٣ ، ١٥٠ ، ١٥٨، ٢١٤ ، ١١/٤ ، ٤٠ ، ٣٧٣ ، ٢٦٣/٥ ، ٢٧٧ ، ٨ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وفى موقف ابن الأعرابى من المحدثين يراجع : أخبار أبي نواس لأبى هفان المهزمى ص ١٤١ (ملحق) ، الأغانى ١٤/٤ ، ١٥ ، ٣٩٦ ، ٢٧٤/٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٢/٨ ، ٨٩/١٠ ، حلية المحاضرة ١ / ٦٤ ، ١٩٢ ، العمدة ٢٣٢/١ ، ١٤٠/٢ ، أخبار أبي نواس لابن منظور ١٥٨/١ . ويراجع فى موقف إسحاق الموصلي من المحدثين : الأغانى ٥٦/٣ ، ٣٥٨/٨ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ .

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٠٣ والخبر المشار إليه فى تفضيل الأصمعى لبشار فى الموشح ص ٢٥١ .

الذي وقف أمامه طه إبراهيم ، وكذلك بين ما أُشيع عنهم من الحضّ على اتّباع القديم ، وبين ما نعرفه من مهاجمتهم لأدنى صور هذا الاتّباع ، وهذا ما دفع باحثا جليلا إلي القول بأن :

« النقد العربى الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعا فى مأزق ، فالشاعر المحدَث ملزَم بأن يجارىَ القدماءَ فى أوصافهم وتشبيهاتهم ، لا يستحسنُ إلا ما استحسنوا ، ولا يذُمّ إلا ما ذموه ، ولا يشبّه إلا على طريقتهم ولا يستعير إلا على أساليبهم ، فإن وافق الشاعرُ المحدثُ بعد ذلك شاعرا مقدَّماً فى معنى أو أسلوب، فهو آخذٌ وهو مسبوق ، وربما رُمِىَ بهذه اللفظة البشعة ، لفظة (السرقة) » (١) .

تلك صورة المشكلة فى عرض اثنين من الدارسين المدقّقين لها ، اكتفى أحدُهما أمامها بالتعجّب ، لأنه لم يلحظها ، واعترف بها الآخر وسجّلها ، ثم لانجد بعد ذلك محاولة للتفسير .

المشكلة الثانية :

وهى تنبُع من الزعم بأن أولئك النقادَ حكّمُوا عامل الزمن فى الحكم على الشعر ، ففضلوا الأقدمَ دائما ، ومعروف أن هذا الزعمَ يستند إلى تصريحات تحمل هذا المعنى كتمنّى أبى عمرو بن العلاء إدراكَ الأخطل يوما واحداً من الجاهلية، وتصريح ابن الأعرابىّ بأن القديمَ أحب إليه.. إلخ ، وليس ذلك – فى ظاهره – إلا تعصُّبا للقديم لقِدَمه بالطبع ، غير أن هذا الزعمَ نفسَه لايلبثُ أن يُثير مشكلة يصوّرها تصريحُ القاضى الجرجانى بأنّ :

« مِنْ حُفّاظ اللغة ومن جلّة الرواة من يَلْهَجُ بعيب المتأخرين ..**وقد بعُدتْ بهم العصبيةُ فى ذلك إلى تناول بعض المتقدمين** : زعم الأصمعيُ أنّ العربَ لا تروى شعر أبى دُؤادٍ وعَدِىّ بن زَيْد لأن ألفاظَهُما ليست بنَجْدِيةٍ، وكيف يكون ذلك ، وهذا معاويةُ يفضّل عَدِياً على جماعة الشعراء ، وهذا الحُطيئة يُسْأَلُ : مَنْ أشعرُ الناس ؟ فيقول : الذي يقول، وأنشد لأبى دُؤاد :

---

(١) شكرى عياد ، (كتاب أرسطو طاليس فى الشعر) ٢٣٤ .

لأ أعدُّ الإقتارَ عُدمًا ولكنْ .·. فَقدُ مَنْ قَدْ رُزِئتُهُ الإعدَامُ »

(ثلاثة أبيات) (١)

هذه صورة المشكلة الجديدة فى ذهن رجل كالقاضى الجرجاني فهو يرى أن (تحامُل) الرواة على الشعراء المحدثين قد امتدَّ إلى متقدمى الشعراء أيضا ، وهو لا يرى فى عدَم رواية شعر عَدِىّ وأبى دُؤاد أكثرَ من صورة من صور التعصُّب الذى تصوَّره موجودا أساسا ضد شعر المحدثين ، ثم امتدَّ إلى القدماء مبالغة وإمعانا . والواقع أنه كان بوُسْعِه أن يُدلِّل على رأيه فى (التعصّب) برفض الرواة واللغويين لشعراء آخرين فى الجاهلية والإسلام ، وهناك على الأقل ثلاثةُ شعراء هم أميَّةُ بن أبى الصَّلْت ، وهو جاهلى ، والطِّرِمّاحُ بن حكيم والكُمَيت بن زيد ، وهما إسلاميان ، لم يَستشهد اللغويون بأشعارهم ، بل رفضوها كما رفضوا شعرَ عَدِىّ وأبى دُؤاد ، وهذا من شأنه أن يوسع ويَدْعَم دعوى الجُرجانىّ ، ولكنه من ناحية أخرى يزيد من عَوَص المشكلة التى تقع بين ما يقال عن تحكيم أولئك النقاد لعامل الزمن فى الشعر ، وبين ما وقف عنده القاضى الجُرجانى وما تصوَّره إخلالاً بذلك المقياس من مقاييس الحكم ، كما تقع أيضا بين النص على رفض أشعار تلك المجموعة من الجاهليين والإسلاميين وبين ما تؤكّده المصادرُ من إعجاب نفس الفريق من النقاد بأشعار أولئك الشعراء .

المشكلة الثالثة :

وهى تتعلق بصورة النقد العربى ككُلّ ، وبمدى وتوقيت قَبوله للجديد ، ونحن نعرفُ أن الاندفاعَ نحو قبول التجديد والحضَّ عليه فى المؤلفات النقدية كان شديدا – على الأقل – ابتداء من القرن الرابع ، فقد تحدّث قدامة عن (الإغْراب والطُّرْفة) كما عقد الحاتمىُّ باباً للمعانى العُقْم « وهى الأبكارُ المبتَدَعةُ » وكذلك عقد باباً آخر تحدث فيه عن (السابق والمصَلِّى) من الشعراء ، وبالمثل فسّر معنى (الإخلاء) بأنه الخُلُوّ من المعانى المبتكرة ، أما ابنُ رشيق فقد عقد هو الآخر فصلا فى (المخترع والبديع) وما لبث (الاختراع) أو (سلامةُ الاختراع من الاتّباع) أن أصبحَ مبحثا من مباحث البديع فى المؤلفات المتأخرة ، ونحن نعرف أن مذهبَ الجَرْي وراء الابتكار هو الذي انتصرَ فى

---

(١) الوساطة للجرجانى ٤٠ ، ٤١ .

النهاية – بل منذ البداية – وإذا كان أبو تمام بمذهبه قد اعتُبِرَ فى نظر الآمدى قمةَ الجرى وراء الإبداع والإغراب فإنه – فى الحقيقة – يُعَدُّ نقطة البداية بالقياس إلى ماحدث بعد ذلك (١) .

ومن ناحية أخرى يقف النقدُ العربى – حتى نهايةِ القرن الثالث على الأقل – في نظر القائلين بتعصُّبه ضد الجديد موقفَ المتَّهَم ، إذ يرون أن متقدّمى النحاة واللغويين والرواة كانوا يعادُون الجديدَ ، وأنهم لم يقبلوا من شعر المحدثين إلاّ ما سار فى ركابِ القديم ، كان ذلك موقفَهم في القرن الثانى ، وهو موقفُهم فى القرن الثالث حين ظَل اللغويون فى ذلك القرن عند نفس الموقف (٢) ، وإذا كان النقاد فى القرن الثانى قد هاجموا دعوةَ أبى نواس وأحبطوها فيما يرى هدّارة (٣) ، فإن تلاميذَهم فى القرن الثالث هم الذين وقفوا يقاومون بشدةٍ الجديدَ الذى أتى به أبو تمام حين اشتعلت الخصومةُ بين القدماء والمحدثين حول ذلك الشاعر (٤) ، الذى كان خصومُه – كما يقول شكرى عياد – هم أنصار القديم ، وقد تمكّنوا من فرض سلطان الشعر القديم « شيئا فشيئا ، فمن منهج القصيدة إلى المعاني إلى التشبيهاتِ نفسها » (٥) .

هناك إذن مرحلتان فى تاريخ هذا النقد ، إحداهما ممعنةٌ فى رفض الجديد والأخرى ممعنةٌ فى قبوله ، وهو ما يبدو النقد العربى معه فى صورة قافزة– ولا أقول متناقضة – وهى صورة ليس لها ما يبررها ، إذْ لا تتفق مع النتيجة التى آل إليها ما صُوّرَ على أنه صراع بين قدماءَ ومحدثين حيث كانت الغلبة فى النهاية لأنصار الحديث، ولو صحّ وجودُ محاولاتٍ لإحباط كلّ ما هو جديد .. ولو صحّ أن تلك المحاولات كانت على نحو ما يتصوّرُ

---

(١) Elkott (A.) Arab Conception of Poetry as Illustrated in kitab Al - Muwazanah, p . 18 .

وراجع العمدة ٢/٦٣ والذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) هدارة ، مشكلة السرقات ٢١٢ .

(٤) مندور ، النقد المنهجى ٦٩ .

(٥) شكرى عياد ، (كتاب أرسطو طاليس فى الشعر) ٢٤٨ .

الدارسون المحدثون من العُنف .. وأنها انتصرت فعلاً لما كان في الإمكان أن تأتى النتيجة على النحو الذى جاءت عليه ، أعنى انتصارَ الجديد واستمرارَه، ووجودَ حركةٍ تشجِّعه وتزدرى أىَّ نزعة إلى التقليد .

فمن غير الطبيعى أن يَسُودَ هذا الاحتفالُ بالابتكار والتجديد على امتداد عصور النقد والبلاغة العربيين فى الوقت الذى يتّسم فيه مُؤَسِّسُو هذين العلمين بالرجعيّة وعدم تقبل أى جديد ، فضلا عن رفض الشعر - حتى الجيد منه - لمجرد تأخّره الزمنى .

والواقع أن تصوُّر مَجرى حركةِ النقد العربىّ على هذا الأساس يُظهِر تناقضَ هذه الحركة من جانبين : **الأول** تناقضها ذاتيا مع نفسها فى وقت واحد، حين طالب ذلك النقد بالتجديد وحث على التقليد فى نفس الوقت، **والثانى** تناقض مراحله المختلفة بعضها مع بعض ، أو على الأقل عدم اتساقها، وأعنى مرحلة رفضِ الجديد والمرحلة الأخرى التالية حين أصبح يطالب بالجديد .

وقد لا تكونُ هناك استحالةٌ نظريةٌ فى المسألة ، لكن الواقعَ كان غيرَ ذلك ، إذ يبينُ التتبُّعُ الدقيقُ لسير حركة ذلك النقد أنه أفسح المجال لعدد غفير من الشعراء الذين تمسّكوا بالتجديد - حتى وإن سلكوا فيه طريقا خاطئا - ولعدد من النقاد قرّروا قبولَ ذلك الجديد وأشادوا به ، حدث ذلك فى مراحله المبكرة - وهو مالا يقول به أصحاب القول بالتعصب - كما حدث فيما أعقب تلك من فترات .

المشكلة الرابعة :

تثيرها مسألة تعليل الاتجاه نحو الجديد والتخلُّص من سيطرة القديم فى ذلك النقد - بعد القرنين الثانى والثالث ، وتحمل هذه المشكلة - كسالفتها - لونا من ألوان الاتّهام للنقد العربى ، إلى جانب أنها أثرٌ من آثار الصورة القديمة التى تنفى عن العرب أىّ محاولة للتجديد أو القَبول للجديد ، فإن وَجَدَتْ شيئا من ذلك فلابد من اللجوء إلى تعليل أجنبىّ عن التفكير العربى .

من هنا نرى فى محاولات التعليل التى قام بها البعضُ تأكيدا لنفس الفكرة القديمة عن النقد العربى ، أعنى أنه النقدُ الذى لا يقبل الجديد ، فإنْ قبِلَه - وهنا تأتى الحاجةُ إلى التعليل - فلابدَ من عاملٍ خارجىّ عنه يعلّل ذلك التحولَ ، وهذا هو ما ذهب إليه شكرى عياد ، لقد

ألّف قدامة بنُ جعفر – متأثراً بأرسطو – كتابَه (نقد الشعر) وكان فى ذلك « مبشرا بتخلّص البلاغة المعاصرة من سلطان الأقدمين ، إذ كان على الأقل يقيس القدماء والمحدثين بمقياسٍ واحد ، فلا يجعل أحدَ الفريقين تابعا والآخر متبوعا ، ولايجعل فضيلةَ المتأخرين هى الجرى فى مضْمار المتقدمين فى معانيهم وأساليبهم ، فالمعانى قد تُعرف بالفلسفة خيرا مما تُعرفُ بالشعر القديم ، والأساليب – وإن التُمِسَتْ نماذجُها المختارة من الشعر المأثور – قد يُهتدَى إلى معرفة مواطن الحُسْنِ فيها بالنظر العقلىّ ، فيصبح الشاعرُ وفى يده عُدَّةُ الإتقان ، ويصبح الناقد وفي يده معيار الجودة » (١) . وعلى هذا فإنه :

« ... ليس بمستغرب أن تلتقى حركة إخضاع النقد للتأثير اليونانى بمحاولة التجديد فى الشعر العربى فيؤلّف قدامةُ كتابا فى (الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام) كما ألّف الآمدىّ من بعد كتاب (الموازنة) منتصرا للبحترى وممثلا ذوقَ (المدرسة العربية) فى نقد الشعر » (٢) .

وهكذا ينفرد قدامة – أو ممثّلُ التأثير اليونانى – ببداية الدعوة إلى وحدة المقياس بالنسبةِ للقدماءِ والمحدثين ، ومن مظاهر ذلك قيامُه بالدفاع عن أبى تمام الشاعر المجدِّد ، أمام ابنِ المعتز ، وكان ذلك إيذانا بالاعتراف بالجديد ، وإفساح المجَال له والحدّ من غُلَواءِ أنصار القديم ، وهو بهذه الصورة يمثل نقطةَ التحولِ فى التفكير النقدى عند العرب : التحول بين اتجاهين : اتجاه قُدامَى النقاد فى القرنين الثانى والثالث ، ومن سار على منوالهم فى القرن الرابع ممّن ناصروا القديم ، واتجاهٍ آخر بدأه قدامة ، ويعتدّ بالجَديد ويضعه على قدم المساواة مع القديم ، ويقبل الجيّدَ من الفريقين .

ويمثل هذا الرأىُ نتيجةً منطقية للمقدمة التى تُقَرِّرُ معاداةَ النقد العربى الخالص للجديد ، وبالتالى فمن الطبيعى حين نجد الجديدَ يصبح محلا للقبول والتقدير أن نبحثَ عن علة بعيدة عن الموطن التقليدى للتعصب ضد الجديد – وهو بيئة النقد العربى الخالص – وهذه قضية سليمة من ناحية الشكل ، غير أن المقدمة ذاتها محلٌّ للنظر وبالتالى تصبح النتيجة كذلك .

---

(١) المرجع السابق ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق ٢٣٥ .

فنحن نذكر ما أعلنه ابنُ قتيبة – من قبل – من وجوب التسوية بين القديم والجديد والحكم على كلٍّ منهما على أساس صفات الجودة فى الشعر لا على أساس الزمن ، كما يُذكر لابن قتيبة أيضا أنه لم يتمسك على الإطلاق بما أعلنه من وجوب سير المحدَث على خُطَى القديم (١) .

ولم يكن إهمال ابن سلاّم – أو إغفاله – لرواية الشعرِ المحدَث فى (طبقات الشعراء) إلا استجابةً للمهمّة اللغوية التى كان يضطلع بها – إلى جانب مهمةِ النقد – ذلك الفريقُ من متقدّمى اللغويين والنحاة ، إلى الحدّ الذى نكاد نرى عنده أنّ مبحثَ الانتحال فى ذاته والذى عُنِىَ به ابنُ سلام ، كان يهدف – ضمنَ ما يهدف – إلى الاطمئنان إلى سلامة الشواهد اللغوية والنحوية التى يحتاجها ذلك الفريق فى الاحتجاج اللغوى والنحوى (٢) .

ومن الطريف فى هذا الصدد أن نجد من الباحثين من يقول بتأثر فريقِ اللغويين وأصحاب مذهب الطَّبع من النقاد – وهم الذين اتُّهموا بالوقوف فى صف القديم – بأرسطو فى كتاب (الخطابة) وقد عدَّ البهبيتى من هؤلاء ابنَ الاعرابى ودعبل بن على والآمدىَّ والقاضى الجرجانى وغيرهم (٣) .

وربما استُغلَّتْ هذه الفكرة فى تأييد وتوسيع القول بوجود الأثر اليونانى ، إلا أن أى تفكير من هذا القبيل لابدَّ له ، حتما ، من تضمُّن مقدمةٍ أساسية عمادُها تأييدُ رأينا فى أنَّ عقلية مَنْ سمُّوا بأنصار القديم ومَنْ سمُّوا بأنصار الحديث كانت من طبيعةٍ واحدة .

وقبل أن نترك هذه النقطة لا يفوتنا أن نسجل أن تعليلَ الاتجاه إلى قَبولِ الجديد فى النقد العربى بدخول الفكر الأجنبى إلى العقلية العربية على يد رَجلٍ مثل قدامة ، يلتقي مع بعض المحاولات الأخرى فى تاريخ الأدب العربى وهى محاولات تردُّ ما يبدو عند بعض شعراء العربية من سمات معيّنة تدلُّ على تفوُّقهم وعلى دقة إحساسهم وميلهم إلى

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١/٦ ، ٧ .

(٢) راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥ حيث يقرر أن فى الشعر الكثير من المفتعل الموضوع الذى « لاحجة فى عربيته » ، والهدف اللغوى من وراء رواية الشعر واضح كما يبدو من المقدمة الهامّة للكتاب والتى عدد فيها بعض أجيال أوائل اللغويين والنحاة وطبقاتهم ، راجع أيضا ص ١٢ – ٢١ .

(٣) نجيب البهبيتى ، أبو تمام الطائى : حياته وشعره ، ص ١٩٣ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ،١٩٤٥.

الابتداع ، تردُّ هذه السمات عند محاولة تعليلها إلى الأصل الأجنبى لأصحابها . ومن ذلك محاولة طه حسين فى رد ما امتاز به أبو تمّام من تجديد المعانى وكَلَفِهِ بوصف الطبيعة والميل إلى المعانى (الفلسفية) إلى أصله الأعجمى وإلى استمداده وتأثُّره بالآداب اليونانية ، بحيث أصبح هو ومن كان على شاكلته من الأصل الأعجمى والتعرُّض للثقافة الأجنبية ، أصبحوا يستَمِدُّون وحْىَ قرائحهم من الأدب اليونانى إما مباشرةً بالأخذ عن الأصول اليونانية أو من طريقٍ غير مباشـــر بالاطّلاع على ما نقـل إلى اللغة العربية من التآليف اليونانية المختلفة (١) .

وكذلك حاول العقّادُ مع ابن الرومى ، فهو يرى أن كلَّ الخصائص والسّمات المتفردة التى امتاز بها ابنُ الرومى يمكن أن يُستمَدَّ تعليلُها من ذلك الاسم الذى اشتهر به الشاعر والذى يحمِل نسبتَه إلى الروم ، ثم راح يؤكد وجود خصائص (العبقرية اليونانية) فى شعره (٢) .

ويبدو أن كلاً من طه حسين والعقاد - بصورة من الصور - لم يثبت عند رأيه ، أما طه حسين فإننا نشير إلى ما ذكره فى حديث الأربعاء من ضآلة الآثار اليونانية فى ميدان الأدب - بل الآثار الأجنبية عامة - التى تُرجمت إلى العربية والتى كان من أسبابها عدم معرفة العرب لشىء من الآداب الأجنبية ، « ومن هنا لم يكن أمام الشعراء مثالٌ أدبىٌّ جديد يحتذونه ويسعَوْن فى تقليده ومحاكاته فظلّوا على ما كانوا عليه يردّدون ما ألفوا من الشعر القديم بأوزانه وقوافيه وبألفاظه ومعانيه » (٣) . ونحن نضع ذلك جنبا إلى جنب مع ما سبق نقلُه من بحثه الذى أُلقِىَ فى بعض مؤتمرات المستشرقين من أن عبقرية أبى تمام أو خصائص شاعريته الفريدة تعود - إلى جانب الجنس الأعجمى - إلى الاطلاع المباشر أو غير المباشر على الآداب اليونانية . أما العقاد فإنه عاد - فى دراسته الخاصة عن ابن الرومى - فعرّف (العبقرية اليونانية) بأن

---

(١) طه حسين ، تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبدالقاهر ، ص ٩ .

(٢) انظر مقدمة العقاد لديوان ابن الرومى ، بتحقيق كامل كيلانى ص : د ، وراجع (حركات التجديد فى الشعر العباسى) ص٤٢٩ .

(٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ١٢ .

المقصودَ بـها المعنى المفهوم بين قـرّاء الآداب من هذه الكلمة ، إذ هى تُطلَق على سِمَاتٍ معينة في الفنّ دون أن تعنىَ دائما الانتماءَ إلى الأصل اليونانى (١) .

وقد رد عبدالقادر القط على مثل هذه التعليلات ردا مقنعا (٢) .

تلك هي المشاكل العامةُ التى يمكن أن تعترضَ طريقَ ما أسْميناه بالتـصورّ القديم لموقف قُدامىَ النقـاد – رواةً ولغـويّين – من شعـر المحـدثين ، ونسارع إلـى القول بأنّهـا مـشاكلُ صُـورِيَّة ، بمعنى أنهـا لم تقعْ فعْلاً ، ذلك أن مـوقف أولئك النـقاد كـان – فى حقـيقـته – على خـلافِ ما تصـوّره الدارسون المحـدثون ، وهذا ما تكشف عنـه صورةٌ فـعليـة لذلك الموقف من واقع النـصوص التـى تمثل في حـقـيقـتـهـا مـشكلةً أخـرى فى مواجهة التصور القديم .

---

(١) عباس العقاد ، ابن الرومى : حياته من شعره ، ص ٣٠١ .

(٢) راجع (حركات التجديد فى الشعر العباسى) للقط ٤٢٩، وراجع لنفس المؤلف Arab Conception of poetry ... p . 27 . ومابعدها .

(٢)
صورة الموقف
من واقع النصوص

قلنا فيما مضى إنّ الاعتقادَ السائدَ لدى الدارسين المحدَثين بمعاداة النقاد فى القرنين الثانى والثالث الهجريّين لشعر المحدثين فى العصر العباسى قد بُنِى على عددٍ قليل جدا من النصوص التى فُهمت على غير وجوهها فى كثير من الأحيان ، وإن تصحيحَ الصورة كان يقضى بأنْ تُستقرأ كلُّ النصوص ذاتُ الصلة بهذه القضية .

وقد حان الوقتُ لإيرادِ عدد من هذه النصوص يصوِّرُ حقيقةَ موقفهم من ذلك الشعر .

ولنبدأ بأبى **عمرو بن العلاء** (ت ١٥٩ هـ) ، ولقد اشتهر عن هذا الرجل :

١ – أنه كان يعتبرُ الإسلاميين من طبقةِ جرير والفرزدق مولّدين ويسمّيهم محدَثين .

٢ – أنه لم يستشهدْ ببيتٍ واحدٍ إسلامى .

٣ – أنه كان يخصّ الجاهليّين بكل التقدير والشاعرية ، ولايرى فى المولّدين إلا كلَّ سمات الانحطاط ، وأنه حين أعجبَ بشاعر كالأخطل تمنى لو أنّ ذلك الشاعرَ أدرك من الجاهلية يوما واحدا إذْ كان يكون فى إمكانه – حينئذ – أن يروىَ شعره ولا يفضّل عليه أحدا .

على أن ذلك الشاعر – الأخطل – وطبقته – ممن كانوا محدثين فى رأى أبى عمرو – قد نالوا من ثناء الرجل وتقديرِه لشاعريّتهم ، وروايته لشعرهم بل والرواية عنهم الشئَ الكثير ، ونحن إنما نعتدّ بموقف ذلك الرجل من أولئك الشعراءِ الإسلاميّين لِماَ قيل عنه من أنه لم يحتجّ ببيتٍ واحد إسلامى ، وأنه لم يكن يروى أشعارَ المحدثين ابتداء من الإسلاميين. « قال إسحاق : وحدّثنى الأصمعىّ أنّ أبا عمرو أنشدَ بيتَ شعر

فاستجاده وقال : لو كان للأخطل ما زاد » (١) ، وعن الأصمعي «أنشد أبو حيّة النميري يوما أبا عمرو :

يا لَمَعَدٍّ ويا لَلنّاسِ كلهِم ∴ ويا لَغَائبِهِمْ يوما ومَنْ شَهِدَا

كأنــه معـــجــب بهــذا البيت ، فجعل أبو عـمرو يقول له : إنك لتعْجبُ بنفسك كأنكَ الأخطل (٢) .

و « قـال رجلٌ لأبي عمـرو : ياعجبا للأخطـل ! نصرانيٌ كـافر يهـجُو المسلمين ! فقال أبو عـمرو : يالُكع ، لقد كان الأخطل يجيء وعليه جُبة خـزّ ، وحِرْز خزّ في عنقه سلسلة ذهب فيـها صليب ، ذهب تنفـض لحيته خـمـرا حتى يدخـل عـلى عبـدالملك بن مروان بغير إذن » (٣) . وقال ابـن النطاح : « حدثني عـبدالله بن رؤبة بن الـعجـاج قال : كان أبو عمرو يفضّل الأخطل » (٤) ، ويقول أبو عبيدة : « كـان أبو عمرو يشبّه الأخطل بالنابغة لصحة شعره » (٥) .

ولانسـتطيع أن نفـهم من النصوص السـابقـة أن أبا عمـرو كـان يرفض النظر في شعـر الأخطل – المحدث – أو يرفض روايتـه وتقييـمه ، ذلك أن أبا عمـرو نفسَه رَوَى ، وسمع ، وأُمليَ عليه وقُرِئَ عليه شعرُ محدَثٍ آخرَ – أحدث من الأخطل – هو جرير ، الذي كان يشبهه بالأعشى على نحو تشبيهه الأخطلَ بالنابغة .

يقـول أبو عـبيـدة : « كـان أبو عمـرو يشـبّه جـريراً بالأعشى ، والـفرزدقَ بزُهَيـر والأخطل بالنابغة » (٦) ومن الأخبـار ذات الدلالة أن أبا عمرو كـان يروي أخبار جرير وشعره ، فالأصمعيّ يحدّث عن أبي عمرو : « قال : لما بلغ عبدَالملك قولُ جرير :

---

(١) الأغاني ٨ / ٢٨٥ .

(٢) الأغاني ٨/ ٢٩٠ .

(٣) الأغاني ٨/٢٩٩ .

(٤) الأغاني ٨/٢٨٧ .

(٥) الأغاني ٨/٢٨٦ .

(٦) الأغاني ٨/٥ ، والخبر في الشعر والشعراء ٤٣٧/١ ، وفيه يقول أبو عمرو عن جرير والأعشى «هما بازيّان يصيدان مابين العنادليب إلى الكركي » .

هذا ابنُ عمّى فى دمشق خليفةً ∴ لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قطينَا

قال : مازادَ ابنُ المراغـةِ على أنْ جعلَنِي شُرَطيا (١) ، كذلك يروى أبو عمرو خبر تعريض جرير لأبيه بشعر الفرزدق فيه (٢) وأهمُّ من هذا كله أنه كـانَ يجلس إلى جـرير وهو يملى شعـرَهُ ، وينشده ، فيـروى الأصمعـى : قال أخبـرَنا أبو عمرو بن العـلاء قال : جلس جرير .. يملى على رجل قوله :

ودّعْ أُمامةَ حانَ منكَ رَحيلُ ∴ إن الودَاع لِمنْ تحبُّ قليلُ

فمروا عليه بجنازة ، فـقطع الإنشادَ وجعلَ يبكي ... قـال أبُو عمرو : فقلت له : فـعلام تقـذِفُ المحصَنات منذ كـذا وكـذا ؟ فقـال : إنّهم يـدأونني ثم لا أعفـو (٣) ، ويحكى الأصمـعى أنه قرأ على خلـف الأحمـــر شعرَ جرير ، فـتوقـــف عند بعض عـباراته ، فقال الأصـمعى « هكذا قرأتُه علَى أبى عـمرو بن العلاء ، قال (يعنى خلفـا) صدقتَ ، وكذا قال جـرير ، وما كان أبو عمـرو ليقرئك إلا كمـا سمع » (٤) . فضـلا على ذلك فإنّ أبا عـمـرو كـان يقـوم بدوْر الراوية لِمـاَ يُدلى به جـرير من أحـكام نقـديّة ، يقـول الرياشى : « حدثنا الأصمعى عن أبى عمرو قـال : سُئل جرير أىّ الثلاثة أشعر ؟ فقال : أمّا الفرزدق فـيتكلف منّى مالا يُطيـقه ، وأما الأخطل فأشـدُّنا اجتراء وأرْمـانا للغرض ، وأما أنا فمـدينه الشعر » (٥) ، كمـا يروى عنه حكما نقـدياً خاصا بذى الرّمـة « قال أبو عمرو بن العلاء : قال جرير : لو خَرِسَ ذُو الرمّة بعد قصيدته :

* ما بالُ عينِكَ منها الماء ينسكِبُ *

---

(١) الأغانى ٨/٦٠.

(٢) الأغانى ٨/٥١ .

(٣) الأغانـى ٨/٥١ والخبر فى ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ١/٤٣٨ وينظر : العقد الفريد ٣ / ١٨٢ ، ٥ / ٢٨٢ فى أخبار مماثلة عن جرير يرويها أبو عمرو ، وينظـر كـذلك : حلية المحاضـرة ١ / ١٧٧ .

(٤) العمدة لابن رشيق ٢/٢٤٨ .

(٥) الأغانى ٨/٧٣

كان أشعرَ الناس » (١) ولاشكَّ أنّ أبا عمرو هو ناقل الوصف الشائع لشعر ذى الرمّة من أنه (نُقَط عروس وأبعارُ ظباء) عن جرير ، فأكثر الروايات تنسب هذا الحكمَ إلى جرير ، أما رواته فإنه مرويّ عن أبى عبيدة أكثر من مرة ، كما تولى الأصمعى شرحَه، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابنَ سلام يُسند هذا الحكمَ إلى أبى عمرو ، مع تواتر نقله عن جرير ، أدركنا أن أبا عمرو هو الحلقة المفقودة فى سلسلة الرواة بين جرير وبين الطبقة التالية من الرواة مثل الأصمعى وأبى عبيدة (٢) .

كذلك كان موقف أبى عمرو من الفرزدق ، فقد كان يقيّم شعره ، ويقول إنه يشبِّه من شعراء الجاهلية بزُهير (٣) . كما كان يروى عنه أحكامه النقدية ، فهو يروى عنه قوله عن النابغة الجعدى (إنه صاحب خلقان ، يكون عنده مُطرف بألف وخمار بوافٍ) هذا بينما يقوم الأصمعي – تلميذ أبى عمرو – بشرح عبارة الفرزدق (٤) .

ولم تقف رواية أبى عمرو بن العلاء لشعر (المحدثين) عند الطبقة الأولى من الإسلاميين وإنما كان يروى شعر ذى الرمة أيضا ، يقول ابن قتيبة « ومما صحف فيه من شعره (يعنى شعر ذى الرمة) قوله :

بَراهُنّ تفويزى إذا الآلُ أرقلَتْ ∴ به الشمس إِزْرَ الحزْورات الفوالك

رواه أبو عمرو (أرقلت) وقال الأصمعى : إنما هو (أرفلت) ومعناه أسبغت وغطّت » (٥) و « دخل ذو الرمة على بلال بن أبى بردة .. فأنشد بلال ....* يرى الخِمْسَ تعذيبا ... * فقال ذو الرمة : (يرى الخَمْصَ تعذيبا) ، وإنما (الخِمس) للإبل، وإنما هو خَمْص البطون ، فمَحك بلال .. وقال : هكذا أنشدنيها رواة طيّئ .. فدخل أبو عمرو بنُ العلاء ، فقال له بلال : كيف تنشدهما ؟ (يعنى البيتين) وعرف أبو عمرو الذى به ، فقال : كلا الوجهين : فقال : أتأخذُون عن ذى الرمّة ؟ قال : إنه لفصيح ،

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ١٧٢ .

(٢) الموشح ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٤٨ .

(٤) الموشح ص ٦٤ .

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٥٢١ .

وإنا لنأخذ عنه بتمريض . وخرجا من عنده ، فقال ذو الرمة لأبى عمرو : والله لولا أنى أعلمُك حَطَبْتَ فى حبلــه وقلتَ فى هواه لهجوتُكَ هجاءً لا يقعد إليك معه اثنان» (١) . ولنا أن نتصور مدلول هذا التهديد من جانب الشاعر ، الذى ينتمى إلى طبقة (المحدثين) – فيما يُروى عن أبى عمرو .

ونجد فى حلية المحاضرة أن أبا عمرو كـان يمثل للأبيات المحكمة القوافى من شعر ذى الرمة ، وأنه اختار من شعره أظرف بيت وهو قوله :

وتهجـــره إلا اختلاسًا بطرفهَا ∴ وكم من محب خشية العين هاجر (٢)

كذلك جاء فى حليـة المحاضرة فى حديث لأبـى عمرو مع الفرزدق ، أن العـالِمَ اللغوىّ الناقدَ كان يُبدى إعجاباً شديداً باستعارة ذى الرُّمّة فى قوله :

أقامتْ به حتّى ذَوَى العودُ فى الثّرى ∴ ولــفّ الثريّــا فى ملاءتــه الفجرُ

وفى خبـر (الحلية) اسـتطرادٌ له دلالته ، فالفـرزدق يصحّح الروايةَ لأبى عـمرو، ويقول إن الأصـــل (حتى ذَوَى العـودُ والثّرى) . ويقول ابنُ رشـــيق فى (العمــدة) « كان أبو عـمرو بن العلاء لايرى أنّ لأحدٍ مثلَ هذه العبارة ، ويقـول : ألا ترى كيف صيّر له ملاءةً ولا ملاءةَ له ، وإنما استعار له هذه اللفظة » (٣) .

وروى الأصمـعى عن أبىِ عَمْرو أنه قال : أغـزلُ بيتٍ قالته العـربُ قولُ عـمر بن أبى ربيعة :

فتضاحكْنَ وقد قُلْنَ لها ∴ حَسَنٌ فى كلّ عينٍ مَنْ تَوَدّ

هذا بينما كـان الأصمعى يخالفـه في هذا الاختيار ويرى أن أغـزل بيت هو قولُ امرئ القيس :

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٨٤ .

(٢) (حلية المحاضرة) للحاتمى ١ / ٣٧١ ، وانظر ١ / ٢٣٨ ، والبيت مما اختاره ابن قتيبة مما يستحسن من شعر ذى الرمة ، الشعر والشعراء ١/٥٢٠ .

(٣) حلية المحاضرة للحاتمى ١ / ١٣٦ ، والعمدة لابن رشيق ١/٢٦٩ .

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لتضربي .·. بسَهْميْكِ في أعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ (١) .

كذلك كان أبو عمرو يرى أنّ عمرَ بن أبى ربيعة وفُضالةَ بن شريك الأسدى وابنَ الرقيّات ممن يحتج بشعرهم ، وذلك على خلاف ما يروى عنه : فمِمّا نقله الأصمعى عنه فى (فحولة الشعراء) « قال [الكلام لأبى حاتم ناقل الحديث عن الأصمعىّ] : وعمر بن أبى ربيعة مولّد وهو حُجّة ، سمعتُ أبا عمرو بن العلاء يحتجّ فى النحْو بشعره ، ويقول : هو حجّة .... وفضالة بن شريك الأسدى وابن الرقيّات .. هؤلاء مولّدون وشعرهم حجّة » (٢) ، كما نراه يُعجبُ بشعر عَدِى ابنِ الرّقاع العاملى ، قال محمد بن عبّاد بن موسى : « كنت عندَ أبى عَمْرو أعرِض – أو يعرض عليه رَجُلٌ بحضْرتي – من شعر عدى بن الرقاع ، وقرأت – أو قرأ – هذه الأبيات (ثلاثة أبيات) فقال أبو عمرو : أحسنَ والله » (٣) وقال عمرو بن أبى عمرو : « كنت عند أبى ورجلٌ يقرأ عليه شعر عَدِىّ بن الرّقَاع ، فلما قرأ عليه القصيدةَ التى يقول فيها :

لولا الحياءُ وأنّ رأسىَ قدعسَا .·. فيه المشيب ، لزُرْتُ أمّ القاسِمِ

قال أبى : أحسَنَ والله عدىٌّ بن الرقاع » (٤) .

ويوردُ الحاتِمىّ فى (حلية المحاضرة) عدداً من الأبيات المشتملة على ذلك النوع من التشبيهات الذى أطلق عليه (التشبيهات العُقْم) ، وهى التى لم يُسبَق صاحبُها إليها ولم يُلْحَقْ فيها لُحوقا حَسَناً – وهى مما اختاره أبو عمرو ، ويونس وخلف، ونجد أن الاختيارَ لا يقتصر على شعراء الجاهلية وإنما يمتدّ ليشملَ الإسلاميين ومتأخّرى الإسلاميّين أيضاً ، فاختاروا لعدىّ بنِ الرّقاع قولَه فى قرن الظّبْىِ :

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ روْقِهِ .·. قَلَمٌ أصَابَ من الدَّواةِ مدَادَهـا

---

(١) الخبر فى (الحلية) ١ / ٣٧١ باختلاف بسيط ، وفى العمدة ١٢٠/٢ .

(٢) فحولة الشعراء للأصمعى ص ٣٢ .

(٣) الأغانى ٣١٠/٩ .

(٤) الأغانى ٣١٢/٩ .

كما اختارُوا للرّاعِي قولَه يصف إنساناً جَعْدَ الرأسِ :

جَدْلاً أَسَكَّ كأنَّ فَرْوَةَ رأْسِهِ .·. بُذِرتْ فأنبَتَ جانباهـا فُلفُلا

وقول الطرمّاح فى صِفَة الظّليم :

مجتابُ شَمْلَةِ بُرْجدٍ لسَراتِهِ .·. قَدْراً وأسْلَمَ ما سِواهُ البُرْجُدُ

وقول ذى الرمة :

ولَيلٍ كَجِلْبابِ العَروسِ ادّرَعْتُهُ .·. بأربعةٍ والشّخصُ فى العَيْنِ واحدُ (١)

وفى الأغانى خَبَرٌ آخرُ له دلالته : « قال مُعاذُ بنُ العَلاء أخُو أبى عَمرو بن العلاء : كان أبو عمرو إذا لم يحجّ استبْضَعَنى الحروفَ أسالُ عنها الحارثَ بنَ خَالدِ بنِ العَاصِ بنِ هشام بن المغيرة الشاعر (*) وآتيه بجوابها ، قال : فقدمتُ عليه سنةً من السنين وقد ولاّهُ عبدُالملك بن مروان مكة ، فلما رآنى قال : يامعاذ هات ما معك من بضائع أبى عمرو ، فجعلت أعجب من اهتمامه بذلك وهو أمير » (٢) .

لاشك فى أننا نُضيع وقتنا حين نُورد الشواهدَ على اهتمام بعض اللغويين بالشعر الإسلامى وتذوقهم له ، واتخاذ موقف منه على أساس حكم نقدى ، فهذا الاهتمام أمر مسلم به بين جميع اللغويين والنحاة نقادا وغير نقاد ، إذ قبل الجميع الاحتجاج والاستشهاد بذلك الشعر ، ولكن هذا الوقت تظلّ له قيمته حين يكون الحديثُ عن أبى عمرو بن العَلاء بالذات ، لأن ما يُروى عنه خلاف ما يُروى عن غيره فى هذه الناحية . فوفقا لما تصوّره الروايات - القليلة جدا والبعيدةُ الأثر فى نفس الوقت - كانَ ذلك

---

(١) النص فى الحلية بإسناده ممن ١ / ١٧٨ ، ونصّ الخبر عن الأصمعى « قال : أجمع أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر ويونس - وهؤلاء أهل العلم بالشعر - أن التشبيهات العقم ، التى انفرد بها أصحابها ولم يشركهم فيها غيرهم ممن تقدم ولاممن تأخر ، أبيات معدودات ... قول عنترة .. وقول عدىّ بن الرقاع ... وقول الراعى ... وقول بشر ابن أبى خازم .. وقول الطرمّاح ... وقول ذى الرّمة ... » والخبر فى العمد ١ / ٢٩٦ بدون إسناد .

* الحارث هذا أحدُ شعراء قريش الغزليين وكان يذهب مذهبَ عمر بن أبى ربيعة (الأغانى ٣١٢/٣) .

(٢) الأغانى ٣١٢/٣ .

الرجلُ يرفض الاحتجاجَ بشعر الإسلاميين وروايته ، إذ عدّهم – ابتداءً من طبقة جرير والفرزدق – مولَّدين ، وكان أيضا يرى أن العصرَ الذهبيّ للشعر العربى قد انقضى بانقضاء الجاهلية، التى سبق شعراؤها إلى كلّ شعر حسَن ، فلم يتركوا للمولّدين سوى كلّ نفاية رديئة ، وها نحن أولاء نراه ، يروى شعرَ الإسلاميّين وأخبار الشعراء ويجلس إليهم ليكتبَ عنهم ويروى عنهم أحكامَهم النقديةَ ويحتجّ بشعرهم ويصرح بذلك ، بل يرسلُ إلى بعضهم يستفتيه فى اللغة .

ولم يقف استحسانُ أبى عمرو وتذوقه للشّعر الحديث عند طبقة الإسلاميّين، وإنما يمتدُّ إلى مَنْ بعدَهم ، وبالذات إلى بشّار بن بُرْد زعيم المحدَثين ، ففى (حلية المحاضرة) يحكى أبو عبيدةَ عن أبى عمرو رأيه فى أحسنِ الابتداءات في العصور المختلفة ، فيُورد لامرئ القيس قولَه : (قفَا نَبْكِ من ذِكرىَ حبيبٍ ومَنْزلِ) وقولَه : (ألا عِمْ صَبَاحا أيها الطَّلَلُ البَالِي) على أنهما أحسن الابتداءات فى الجاهلية ، كما يُورد قول القطامي : (إنّا محيّوك فاسْلَم أيّها الطَّلَلُ) على أنه أحسنُ ابتداءٍ للإسلاميّين ، ثم يورد قول بشّار : (أبَى طَلَلٌ بالجزْعِ أنْ يتكلّمَا) كأحسنِ ابتداءٍ صنعه محدَثٌ (١) . وحدّث عبدالرحمن بن أخي الأصمعي « قال حدثنى عمّى قال : أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : رأيتُ بشّارا المرعّث يرثى بنيةً له وهو يقول :

يا بنتَ مَنْ لم يَكُ يهوَى بنْتــا ∴ ما كنتِ إلا خَمْسةً أو ستّــا

حتّى حلَلْتِ فى الحَشَا وحتّــى ∴ فتّتِّ قلبى مِنْ جوىً فانفَتّا (٢) .

وفي خبر عن قعنب بن المحرز الباهلي : « قال الأصمعى : لقِىَ أبو عمرو بن العلا بعضَ الرواة فقال له : يا أبا عمرو مَنْ أبدعُ الناس بيتاً ؟ قال : الذى يقول :

لم يَطُلْ ليلِي ولكنْ لــم أنَــمْ ∴ ونفَى عنّى الكرَى طَيْفٌ ألَــمّ

---

(١) الخبر بإسناده فى الحلية ١ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، وبدون إسناد فى العمدة ٢١٨/١ ، وفي الأغاني برواية عن على بن يحيى المنجّم يقول : سمعتُ من لا أحصى من الرواة يقولون .. يراجع : الأغانى ١٤٨/٣ .

(٢) الأغانى ٢٢٩/٣ .

رَوّحي عَنّي قليلاً واعلَمـــي ∴ أنني يا عَبْدُ مِـنْ لَحْـمٍ و دَمْ

قال : فمن أمدحُ الناسِ بيتا ؟ قال الذى يقول :

لمستُ بكفّي كفَّهُ أبتغِي الغِنَـى ∴ ولم أدْرِ أنّ الجُودَ من كفّهِ يُعـدِي

فلا أنَا منه ما أصاب ذوو الغنى ∴ أصبتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

قال : فمن أهجَى الناسِ ؟ قال الذى يقول :

رأيت السُّهيليْنِ استوىَ الجودُ فيهمَا ∴ على بعد ذا من ذاكَ فى حكم حاكم

سُهَيلُ بنُ عثمـان يجـودُ بمالــه ∴ كما جادَ بالوَجْعَا سُهيلُ بنُ سالــم

قال : وهذه الأبيات كلها لبشار »(١) .

هذا عن موقف أبي عمرو بن العلاء – روايته وإملائه ودرسه – لا لشعر الإسلاميّين فحسب ، وإنما لشعر المحدثين من المجددين أيضا .

ويشارك **خلفٌ الأحمرُ** (ت ١٨٠) أستاذَه فى الاهتمام بالشعر الإسلامى، ففى حلْية المحاضرة نراه يذكر بيتا لجرير على أنه من أحكــم ما سيّرته العربُ من الأمثال (٢) ، كما يشارك بالرأى والرواية فى اختيار عددٍ من التشبيهات لم يُسبقِ الإسلاميُّون إليها ، وسبَق أن رأينا أنّ الأصمعى كان يقرأ شعرَ جريرٍ على أبى عمرو وعلى خلَفٍ ، الذى نراه يكوّنُ إحدى حَلْقات الرواية لشعر جرير ولبعض الأحكام النقدية المرويّة عنه .

لكن ذلك كلّه ليس بغيتنا ، فلم يرتفع صوتُ خلَفٍ برفضِ الشّعر الإسلاميّ كما فعَلَ أبو عمرو – أو كما قِيلَ عنه – من هنا يجب التركيزُ على موقفه من المحدَثين . يحكي خَلاد الأرقط « قال : جاءَنا مروانُ بنُ أبى حَفصةَ إلى حَلْقة يونس ، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلف بيدي فقمنا ... فقال مروان لخلف : نشدتك الله يا أبا محرز إلا نَصَحْتني فى شعرى فإنّ الناسَ يُخْدَعُون فى أشعارهم ، وأنشده قولَه :

طرَقَتْكَ زائِرةً فَحَيِّ خيَالَهَا ∴ بيضاءُ تَخْلِطُ بالجَمَالِ دَلالَهَا

---

(١) الأغانى ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) حلية المحاضرة ١ / ٢٥٥ .

فقال له : أنت أشعرُ من الأعشىَ فى قوله : (رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوةً أجمالَهَا) ، فقال له مـروان: أتبلُغ بى الأعـشى هكذا؟ ولا كُلّ ذا! قـال وَيْحكَ ، إنّ الأعـشى قـال فى قصيدته هذه :

فأصَابَ حَبّةَ قَلْبِهِ وطحَالَها

والطِّحالُ ما دخلَ فى شىءٍ إلا أفسده ، وأنت قصيدتكَ سليمةٌ كلها » (١) .

ويقـول الأصْمعيّ : « كنتُ أشـهـدُ خَلَفَ بنَ أبى عـمـرو بن العَلاء ، وخلفاً الأحمـر يأتيان بشّارا ويسلّمـان عليه بغـاية التّعظيم ثم يقـولان : يا أبا مُعاذ مـا أحدَثْتَ ؟ فيـخبرهُمـا ويُنشدهما ويسـألانه ويكتبان عنه متواضـعَيْن له حتى يأتى وقتُ الظهـيرة ثم ينصرفان عنه ، ثم يروى قـصّةَ سؤالهما لبشار عـن قصيدته فى سَلم بن قتيبة « قالا بلَغَنا أنكَ أكثرت فيها من الغريب ، فقـال : نَعَمْ ، بلغنى أنّ سلماً يتباصر بالغـريب فأحبَـبْتُ أن أوردَ عليه مالا يعرفـه ، قالا فانشدْناهَا ، فأنشدَهُما :

بكّرا صاحبِيّ قبل الهَجِيرِ ∴ إنّ ذاكَ النّجاحَ فى التّبكيرِ

حتّى فـرغَ منهـا ، فقـال له خلف : لو قلتَ يا أبَا مُعـاذ مكان (إنّ ذاكَ النّجـاحَ): (بكّرا فالنّجاحُ فى التبكير) كان أحسن ؟ فقال بشار : بنيتُها أعرابيةً وحشيّة ، فقلت : (إنّ ذاكَ النجاحَ) كما يقول الأعرابُ البَدَويّون ، ولو قلت (بكّرا فالنّجاحُ) كان هذا من كلام المولّدين ولا يشبـه ذلكَ الكلام ولا يدخل فى معنى القـصيـدة ، فقامَ خلف فـقبّل بين عَيْنيه » (٢) .

ويقول خـلف : « كنتُ أسَمعُ ببشـارٍ قبلَ أن أراه ، فـذكرُوه لي يومـاً ، وذكروا أبياته وسرعة جوابه وجوْدة شعره ، فاستنشدتُهم شيئا من شعره فأنشدونى شيئا لم يكن بالمحـمـود عندى ، فقلت والله لآتينّه ولأُطأطِئَنّ منه » ، ثم يحكى خلفُ كيف صـادف ذهابهُ سـاعةَ غـضَبٍ من بشّار ، إذ اغتـابهُ البـعض عند الأمير فقـال شعـرا يهجُوه ، قـال خلف : « فارتعدتْ والله فرائصى واقشعرّ جِلْدِى ، وعظم فى عَينى جداً » (٣) .

---

(١) الأغانى ١٠ / ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الأغانى ٣/١٩٠ .

(٣) الأغانى ٣/١٩١ .

ولا يخلُ **يونُس بنُ حبيب البصري** (ت ١٨٣) بتفضيل مروان بن أبي حفصة في قصيدته التي مطلعها (طرقتكَ زائرةً فحيّ خيالها) على الأعشى في قصيدته (رحلت سميةُ غُدوةً أجمالَها) في خبر يُشبه ذلك الخبَر المَرويّ عن خَلَف الأحمر ، وفيه يقول يونس لمروان : « يا هذا اذهبْ فأظهر هذا الشعرَ ، فأنت والله فيه أشعرُ من الأعشىَ في قوله : (رَحَلَتْ سمَيَةُ) .....إلخ (١) .

ذلكَ هو تفضيلُ خَلَفٍ ويونس لمروانَ بنِ أبي حفصة الذى وصَفَه الأصمعي بأنه « كان مولّدا ولم يكنْ له علمٌ باللّغة » (٢) . وممّا له دلالة على تهافت مقياس التفضيل على أساس الزمن ، ذلك الخبرُ الذى حكاه أبو عبيدةَ عن يونس ، فقد «جاء رجل إلى يونس فقال له : من أشعــر الثلاثـــة ؟ قال : الأخطل . قلنا مَنْ الثلاثةُ؟ قال : أي ثلاثة ذُكِروا فهو أشعرُهُمْ » (٣) .

ويتابع **أبو عمرو الشّيباني الكوفي** (ت ٢٠٦) نفسَ الاتجـــاه في الاهتمام بشعر المحدثين ، ومن أشهر أولئك المحدثين أبو نواس الذى حظي بقدر قليل من اهتمام الرجل وتقديره ، فقد كان أبو عمرو يقول : « لولا ما أخذَ فيه أبو نُواس من الرفَث لاحتَجَجْنا بشعـره لأنه مُحْكمُ القول » (٤) ، وجاء في أخبار أبي نُواس لابن منظور : « كانَ أبو عمْرو الشّيباني يقول : أشعرُ النّاسِ في وصف الخَمْر ثلاثةٌ : الأعشىَ والأخطَل وأبو نُواس » (٥) .

ولاشكّ أن هذا التقديَر من أبي عمرو الشّيباني لشعر أبي نُواس يجب أن يحتل مكانا بارزا ، فهو يمثل شهادةً من رجل ينتمي إلى مدرسة الكُوفة في حقّ رجلٍ يدينُ بتعليمه لأساتذة المدرسة المنافسة ، مدرسةِ البَصرة ، من هنا كان صُدورُ مثل هذه الشّهادة من أبي عمْرو بمثابة إعلان عن الإعجاب الشديد الذى يقود إلى الحكم لصالح المنافس .

ويحكُون عن الشاعرِ ابنِ مُناذر أنه كان يتوسّل إلى **أبي عبيدة مَعْمَر بن**

(١) الأغاني ٨٢/١٠ .

(٢) الموشّح ٢٥١ .

(٣) الأغاني ٢٨٣/٨ ، وليس للخبر عندنا أكثر من الدلالة على سقوط معيار الزمن في الحكم .

(٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٢٠٢ .

(٥) ابن منظور ، أخبار أبي نواس ٥٨/١ .

المثنّى، أحد أعضاء المدرسة البصرية (١١٠ – ٢٠٧ أو ٢١٣) لكى يحكم بالعدل بين شعره وشعر الجاهليّين كعدىّ بن زيد ، وهذا هو دليل الاتّهام ضدّ أبى عبيدة ، غير أننا نجد نصوصا أخرى توضح حقيقةَ موقف الرجل ، فإلى جانب اهتمامه بالشعراء الإسلاميين من طبقة جرير والفرزدق والأخطل وذي الرمة وهو ما يتضح من روايته لأخبار جرير ومَنْ ناقضوه (١) ، وكذلك روايته لرأى الفرزدق فى شعره وشعر صاحبه (٢) ودراسته لاحتجاجات أنصار كلّ من الشعراء الإسلاميّين (٣) وروايته للنقد الذى وَجّهه جريرٌ لشعر ذى الرُّمة (٤) ، وكذلك ما نراه من إيراده مثالاً للتخلّص الحَسَن من شعر ذى الرمة (٥) ، إلى جانب ذلك نجد هذه الأخبارَ عن موقف أبى عبيدة من الشعراء المحدثين : حكى التوّزى قال: سألتُ أبا عبيدةَ عن اليوم الثانى من النحر ، ماذا كانت العرب تُسَمّيه قال : « ليس عندى من ذلك علم ، فلقيت ابنَ مناذر بمكة فأخبرته بذلك فعجب وقال : أيسقُطُ هذا عن مثل أبى عبيدة ؟ هى أربعة أيام متواليات كلها على الراء ... فحدثته – يعنى أبا عبيدةَ – فكتبه عن ابن مناذر » (٦). هذا ويرى أبو عبيدة أن بشارا والسيد الحِمْيَرى هما أشعر المحدثين ، ففي الأغانى : « حدثنا أبو حاتم قال : سمعت أبا عبيدة يقول : أشعرُ المحدثين السيّد الحِمْيَرى وبشّار» (٧) .

كذلك يفيد خبرٌ آخر أن أبا عبيدة كان يروى شعر السّيد ويستحسنه ففى الأغانى : «..حدثنا عُمرُ بنُ شبّةَ قال : أتيتُ أبا عُبيدة مَعْمر بنَ المثنّى يوما وعنده رجلٌ من بنى هاشم يقرأ عليه كتابا ، فلمّا رآنى أطبقه ، فقال له أبو عبيدةَ : إن أبا زيد ليسَ ممّنْ يحتشَم منه ، فاقرأ ، فأخذ الكتابَ وجعل يقرؤه فإذا هو شعرَ السّيد . فجعل أبو عبيدة يُعجَب منه ويستحسنه ، قال أبو زيد وكان أبو عبيدةَ يرويه » (٨) .

---

(١) الأغانى ٨/٦٨ .

(٢) الأغانى ٨ / ١١ ، ١٢ .

(٣) الأغانى ٨/٥ .

(٤) الأغانى ٨/٥٤ .

(٥) حلية المحاضرة ١ / ٢١٨ .

(٦) الأغانى ١٧/٢٧ ، ٢٨ .

(٧) الأغانى ٧/٢٣٢ .

(٨) الأغانى ٧/٢٣٦ .

وفى خبر آخر « أخبرني ابنُ دريْد قال : سُئل أبوُ عبيدةَ منْ أشعرُ المولَّدين ؟ قال السّيد وبشار » (١) ، ثم هو يروى عن بشّار قولَهُ : « لي اثنا عشرَ ألفَ بيتٍ عَيْنٍ ، فقيل له هذا مالم يَكنْ يدّعيه أحدٌ قطّ سواك ، فقال : لي اثنتا عشرةَ ألفَ قصيدة لعنها اللهُ ولعَنَ قائلَها إن لمْ يكنْ في كلّ واحدةٍ منها بيتٌ عينٌ » ومن هنا كان تفضيلُ أبي عبيدةَ بشّاراً على مروان ، قال أبو حاتم : « قلت لأبي عبيدةَ : أمروانُ عندكَ أشعرُ أم بشّار ؟ فقال : حكَمَ بشارٌ لنفسه بالاستظهار أنه قالَ ثلاثةَ عشرَ ألفَ بيتٍ جيد ، ولا يكون عددُ الجيّد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، ما أحسبهم برزوا في مثلها ، ومَروان أمدَحُ للملوك » (٢) .

ويتحدثون عن ميمية لبشار قالها في هجاء المنصور ثم حوّلها إلى هجاء أبي مسلم، قال أبو عثمان المازني : « سمعتُ أبا عبيدةَ يقول : ميمّيةُ بشّار هذه أحبُّ إليّ من ميميّتي جرير والفرزدق » (٣) وفي الأغاني ما يدلّ على أن أبا عُبيدةَ كان يروي شعرَ بشّار ويحققه : « .. حدثنا أبو غسّان دَماذ عن أبي عبيدة أن بشاراً أنشده :

إذا كنتَ في كُلِّ الأمور مُعاتباً ... صديقَكَ لم تلْقَ الذي لاتُعُاتِبُهْ

... قال : وأنشدتُها شُبَيْل بن عَزْرة الضُبعي ، فقال : هذا للمتلمّس ، فأخبرْتُ بذلك بشّارا ، قال : كذب والله شُبْيل ، لقد مدحتُ ابنَ هُبيرةَ بهذه القصيدة وأعطاني عليها أربعين ألفا » (٤) .

وأبو عبيدةَ ذلك المعجَبُ بشعر بشّار المتتبعُ له ، يوضّحُ الفرقَ بين غزل بشّار وغزل الطبقة الإسلامية من الغزلين مثل جميل وكُثيّر ، ويدرك أنه في هذا الفرق يكمُن السبب في منع المهديّ لبشّار من ذكر النساء « ... حدثنا أبو غسان دماذ قال : سألتُ أبا عبيدةَ عن السبب الذى من أجله نَهيَ المهديُّ بشارا عن ذكر النساء ، قال : كان أوّل ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره .. فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المَهديّ ، وأنشد المهديّ ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ،

(١) نفس الجزء والصفحة .
(٢) الأغاني ١٤٤/٣ .
(٣) الأغاني ١٥٨/٣ .
(٤) الأغاني ١٩٨/٣ .

وكان المهدىّ من أشد الناس غيرة، قال : فقلت له : ما أحْسَبُ شعرَ هذا أبلغ في هذه المعانى من شعر كثيّر وجَميل وعُرْوَةَ بن حِزَام وقيْس بن ذَريح وتلك الطّبقة ، فقال : ليس كلّ من يسمع تلك الأشعار يعرفُ المرادَ منها ، وبشّار يقارب النساء حتى لايخفىَ عليهن ما يقول وما يريد، وأىّ حرّة حَصَان تسمع قولَ بشار ، فلا يؤثّر فى قلبها ، فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التى لاهَمّ لها إلا الرجال ، ثم أنشد قوله :

قد لامَنِى فى خَلِيلَتى عُمَرُ ∴ واللّوْمُ فى غيْرِ كُنْهِهِ ضَجَرُ

(حوالى عشرين بيتا)

ثم قال له : بمثل هذا الشعر تميل القلوبُ ويلين الصعبُ » (١) .

إلى جانب ذلك يبدو أبو عبيدةَ ناقدا معجبا ببشار تتبع كلّ أخباره وبدايات قوله للشعر ، « .. حدثنا عمر بن شبةَ قال : قال أبو عبيدة : قال بشار الشعرَ ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحلم وهو مخْشىٌّ معرةُ لسانه : قال : وكان بشار يقول : هجوت جريرا فأعرضَ عنى واستصغرَنى ولوْ أجابنى لكنتُ أشعرَ الناس » (٢) .

ويمتد تفضيلُ أبى عبيدةَ إلى شاعر أحدثَ وأكثر ثوريّة وإثارةً للنقاد من بشّار ، ذلك هو أبو نُواس ، ففى الموشّح : « أن أبا عبيدةَ قال : – وذكر أبا نواس – هو بمنزلة بانٍ كَمُلتْ آلتُه ، ونقَصَ بناؤُه وكان ينبغى أن يكونَ بناؤه أجودَ » (٣) . لكن هذا التصريحَ الذى يبدو فيه عدمُ الرّضا إلى حَدٍ ما عن أسلوبِ أبى نُواس لا يمنعُ أبا عَبيدةَ من إنزاله منزلته التى يستحقّها بين معاصريه قال أبو عبيدةَ معمرُ بن المثنى « كان أبو نواس للمحدثين كامرئ القيس للمتقدمين » (٤) وفى أخبار أبى نواس لابن منظور: « كان أبو عبيدةَ يقول ذهبت اليمن بجدّ الشعر وهَزْله ، امرؤ القيس بجدّه ، وأبو نواس بهزله . وكان يقول : ذهبت اليمن بجيّد الشعر فى قديمه وحديثه ، امرؤ القيس فى الأوائل وأبو نواس فى المحدَثين . وكان يقول : شعراءُ اليمن ثلاثةٌ : امرؤُ القيس

(١) الأغانى ٣/١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) الأغانى ٣/١٤٣ .

(٣) الموشح ص ٢٦٣ .

(٤) نزهة الالباء ص ٤٩ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٢٣٨ .

وحسّان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أبو عبيدةَ أيضـا : أبو نواس فى المحدثين مثلُ امرئ القيس فى المتقدّمين ، نَتَجَ لهم هذه الفِطنَ ودلّهم على المعانى وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرُّف فى فنونه » (١) .

وهو لا يتردّد فى تفضيل المولّدينَ – متى استحقّوا ذلك – على الجاهليّين والإسلاميّين ، « قال المازنى : سمعتُ رجلاً يقرأُ على أبى عبيدةَ معمر بنِ المثنّى شعرَ بشار ، فمرت قصيدته الميمية التى أولها :

أبا جَعْفرٍ ماطولُ عيش بِدائِمٍ ∴ ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسَالِمِ

فقال له : هاتِهـا ، فـهى أوْزن من ميميّتَىْ جرير والفرزدق ، ولقصيدةُ مروان بنِ أبى حفصةَ أجودُ من قصيدة الأعشى ، ولقصيدةُ أبى نواس خير من قصيدة امرئ القيس التى أولها :

رُبَّ رامٍ مـن بَنـى ثُعَـلٍ ∴ مخرِجٍ كفيْه مـن سِتَـرهْ »

وجاء بعقبِ الخبرِ أنَّ قصيدةَ أبى نواس المقصودة هى التى أولها :

أيّهـا المنتـابُ مـن عُفُـرهْ ∴ لستَ من لَيْلى ولا سَمَرِهْ (٢)

ولاينكرُ **أبو زيد الأنصارى** (ت ١٤ / ٢٠٥) – أحدُ تلاميذ أبى عمرو ابن العلاء ، إعجابه ببيتٍ لبشار يعرضه عليه أبو حاتم السّجستانى (ت٢٥٥) ، ففى الأغانى « .. حدثنا أبو حاتم قال : كان بشار كثيرَ الولوع بدَيْسَم العنزى ، وكان صديقا له ، وهو مع ذلك يكثر هجاءهُ فقال فيه :

أَدَيْسمُ يا ابن الذئْب من نَسْلِ زَارِعٍ ∴ أتروِي هجائى سادِراً غير مُقْصِرِ

قال أبو حاتم : فأنشدت أبا زيد هذا البيتَ وسألتُه ما يقول فيه ، فقال : لِمَنْ هذا الشعر؟ فقلتُ لبشّار ، يقوله فى دَيْسم العنزى ، فقال : قاتَله الله ، ما أعلَمَه بكلام العرب » (٣)، ولايقلّل من دلالة هذا الخبر أن يقال إن سرّ إعجاب أبى زيد بالبيت هو ما يبدو فيه من

---

(١) ابن منظور ، أخبار أبى نواس ٥١/١ ، ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ١٥٧/١ – ١٥٩ .

(٣) الأغانى ١٥٢/٣ .

متانة لغة بشار أو ما يبدُو فيه من علمه بالغريب ، فمع افتراض صحّةِ هذا القول تَظَلّ للخبر دلالته التى تكمن فى استماع البيتِ والإعجاب به وتبيين موطن الإعجاب فيه ، وهى روحٌ تخالف المدّعى من سياسة (وضع الأصابع فى الآذان) عند إنشاد شعر المحدثين .

هذا ويتعدّى اهتمامُ أبى زيدٍ بشعر المحدَثين إلى تناول شعر بعضهم جملة ومقارنته بشعر غيره من المحدثين أيضا « قال الكرانى : قال أبو حاتم : وقلتُ لأبى زيد أيّما أشعر بشّار أم مروان ؟ فقال : بشار أشعر ومروان أكفر ، قال أبو حاتم : وسألتُ أبا زيد مرة أخرى عنهما فقال : مروان أجَدُّ وبشار أهزل ، فحدّثتُ الأصمعى بذلك فقال : بشار يصلح للجدّ والهَزْل ، ومروانُ لا يصلُح إلا لأحدهما » (١) .

ومن أشهر رواة الشعر ونقّاده اللغويين الذين اتُّهموا بالتعصّب على الشعر الحديث إلى حدّ الرجوع فى الحكم بالاستحسان على شعرٍ معيّن لمجرد العلمِ بأنه لمحدَث ، **أبو سعيد عبدالملك بن قُرَيْب الأصمعى** (ت ٥ / ٢١٧) من أعلام المدرسة البصريّة وأحدُ التلاميذ البارزين لأبى عمرو بن العلاء، كان هذا الرجلُ أحدَ ثلاثة أشير إليهم بإصبع الاتهام بسبب ما أُشيع عن تعصّبهم ضدّ الشعر المحدث ، وهم : أستاذُه أبو عمرو والأصمعىُّ نفسه وعالم كوفىٌّ هو ابنُ الأعرابى .

قلتُ إن الاعتدادَ بالروايات التى تبيّن إعجاب ذلك الفريق من العلماء بالشعراء الإسلاميين ليس له معنى كبير إلا فى حالة رجلٍ مثلِ أبى عمرو بن العلاء، بسبب ما أُشيع عنه من رفضه للشعر المحدث ، حتى فى العصر الإسلامى الذى عَدَّ شعراءه محدثين ومولّدين أيضا ، على أن شيئا من المنطق لا يزال يؤيّد هذه الروايات ،أو إيرادَنا لها – بعبارة أدق – لأننا فى معرض المخالفة لرأى يرى أن تفضيل أولئك القوم للشّعر كان على أساس الزمن ، على أساس القِدَم والحداثة فى ذاتهما ،من هنا تكون الروايات العديدة عن دراستهم، وتذوّقهم للشعر الإسلامىّ وتفضيل شعرائه ، والمقارنة بينهم وبين الجاهليّين ، لا بقَصْد الغضّ منهم ، هذه الروايات تصبح ذاتَ قيمة فى هذا الصدد بالذات ، على أن بعض هذه الروايات تَتَزَايَدُ قيمتُها حين تنقل إلينا تفضيلَ بعضٍ

---

(١) الأغانى ٣/١٤٩ ، الموشح ٢٥٢ .

أولئك الإسلاميّين على شعراء الجاهلية ، وأساس القيمة هنا هو أنّ مثلَ هذا الاعتراف يفنّد القولَ بوجود ذلك المقياسِ المزعوم القائم على أساس الزمن والذى اتُّهِم أولئك العلماءُ بتحكيمه فى الشعر .

من ذلك ما سبق أن أُشير إليه من تفضيل الأصمعى لبيتِ الطرّماح فى وصف الثور :

يبدُو وتضمره البلادُ كأنّــــهُ ∴ سيفٌ على شرَفٍ يُسَلّ ويُغمَدُ

على بيت النابغة فى الثور أيضا :

« من وَحْشِ وَجْرةَ موشِىٌّ أكارِعُهُ » (البيت) .

وكذلك تفضيلُه لبيت النّميْرى (١) :

فلَوْ كُنتُ بالعَنْقَاءِ أوْ بأسومهــا ∴ لخِلْتُكَ – إلاّ أن تَصُدّ – ترانـــى

على بيت النابغة :

« فإنك كالليْل الذى هو مُدْركى » (البيت) .

وبالمثل تفضيله لبيت عَدِى بن الرّقاع :

وَسْنَانُ أقْصَدَهُ النّعاس فرنّقَتْ ∴ فى عَيْنِه سِنَةٌ وليس بِنائِـــم

على بيت النابغة :

« نظرتْ إليكَ بحاجَةٍ لم تَقْضِها » (البيت) (٢) .

ومن هذه النصوص ما تتزَايدُ قيمتُه بدرجةٍ تفوق كلّ ما سبق ، لأنّها تتعلّقُ بتفضيل شعراء ممن أعلن الأصمعىّ نفسُه أنهم ليسوا محلّ ثقةٍ فى الاحتجاج بهم ، كالطِّرِمّاح مثلا الذى فضّله الأصمعى على النابغة ، ولعلنا نذكر ما جاء فى الأغانى من أن أبا عبيدة والأصمعى كانا يقولان عن بيتين للطرماح إنه أشعر الناس فيهما (٣) .

---

(١) النميرى صاحب البيت المشار إليه هنا هو : محمد بن عبدالله بن نمير بن خرشة بن ربيعة .. شاعر غزل مولد ومنشؤه بالطائف ، من شعراء الدولة الأموية ، والبيت يقوله للحجاج ، ونصه فى الأغانى :

فلو كانت العنقاء منك تطير بى ∴ لخلتك – إلاّ أنْ تصد – ترانى (الأغانى ٦/٢٠٠) .

(٢) النص كاملا في حلية المحاضرة ١ / ١٧٢ ، ١٧٣ ، وفي نضرة الإغريض ص ١٠٨ .

(٣) الأغانى ٦/٩٥ .

ونترك ما يروى عن الأصمعي من تفضيل للإسلاميين على الجاهليين ، محطما مقياسَ الزمن المزعوم ، لنرى موقفه من المحدثين عموما ، وبالذات تلك الطائفة التى عُرفت بالمولّدين ، والذين جمعوا إلى الحداثة عدَمَ خلوص نسبتهم إلى العرب . وفى هذا الصدد نسمع ما يروى عنه من أنه كان يختم الشعراء الذين يُحتج بهم بالشاعر إبراهيم بن هَرْمة (٩٠ - ١٥٠هـ) ففى الأغانى : « كان الأصمعى يقول : خُتم الشّعراءُ بابن هرْمةَ والحكمَ الخضْرى وابن ميّادةَ وطُفيْل الكِنانىّ ومكين العذرىّ » (١) ، وفى الأغانى أيضا عن عبدالرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال : الحكَم الخضْرى وابن ميّادة ورؤْبةُ وابنُ هَرْمة وطفَيْلُ الكِنانِى ومَكِين العُذرِى كانوا على ساقة الشعراء وتقدّمَهُم ابنُ هَرْمةَ بقوله:

لا أُمتعُ العُوذَ بالفِصَال وَلا .:. أبتَاعُ إلاّ قريبةَ الأجَــــلِ

« قالَ عبدُالرّحمن : وكان عمّى معجبـا بهذا البيـت مستحسنا له ، وكان كثيرا ما يقـول : أما تـرون كيـف قـال ! والله لو قال هذا حاتم لما زاد ولكان كثيرا » (٢).

وليس الأمر مجرد استحسان بيتٍ أو قصيدة ، فالأصمعي يروى شعر ابن هرْمةَ ويراجَعُ هذا الشعرُ على روايته ، ففي خبر ينقله أبو الفرج عن يحيى بن على بإسنادٍ له يصل إلى عامر بن صالح : « أنشدنى عامر بن صالح قصيدةً لابن هرْمة نحواً من أربعين بيتا .. ولم أجد هذه القصيدة فى شعر ابن هرمة » ثم يقول أبو الفرج : ووجدتُها فى رواية الأصمعى ويعقوب بن السكيت اثنى عشر بيتا » (٣) .

ذلك عن ابن هرمة ، وهو من مُخضرَمى الدولتين ، وقد جعله خاتمةَ الشعراء ، لكنه ما لبث أن ختمهم بشاعر آخر أحدث عهدا من ابن هرمة ، ذلك هو بشار بن برد (ت ١٦٨)ففى الأغاني: كان الأصمعي يقول: بشّار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرتْ لفضلته على كثير منهم (٤)، لذلك لانعجب أن نرى الأصمعى يتتبع أخبار بشار ومناسبات شعره يرويها ويسجلها ، وهو مصدر عدد غير قليل من أخبار بشار في

(١) الأغانى ٤ / ٣٧٣ والخبر فى ٥ / ٢٦٤ أيضا .

(٢) الأغانى ٥/٢٦٣ ، ٢٦٤ ، والخبر فى الشعر والشعراء ٢٠/٧٢٩ وطبقات ابن المعتز ص ٢٠ .

(٣) الأغانى ٤/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٤) الأغانى ٣/١٤٣ ، ٢٥٠ حيث يتكرر الخبر .

الأغاني ، وكذلك أخبار بعض المناسبات التي قال فيها شعره ، من هذا قصة عشقة لعبدة وما قال فيها من شعر ، ورواية بعض هذا الشعر (١) بل إنه يتتبع أوّليات شعره، أو بالأحرى أوليات اشتهاره بالشعر ، وكيف صار يهابه الناس بالبصرة منذ سن مبكرة (٢) ويروى قصة وفادته على ابن هُبَيْرة ومدحه له بقصيدته التي منها :

يخافُ المَنَايَا أنْ ترحَّلتُ صَاحِبِي ∴ كأنّ المَنَايَا في المُقَامِ تُنَاسِبُهْ

وكيف وصله بعشرة آلاف درهم فكانت أول أعطية سنية أُعطيها بشار ، ورفعت من ذكره (٣) .

وهو يعجب بشعره ويتتبع صداه في نفوس الناس وأثره ومدى إعجابهم به «قال الأصمعي : قلتُ لبشار : يا أبا معاذ إن الناسَ يعجبون من أبياتك في المشورة (يعنى أبياته في ميميته التي مدح بها أبا جعفر) فقال لي : يا أبا سعيد إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يشارك في مكروهه ، فقلت له : أنت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك » (٤) ، كما يعلن عن إعجابه بقدرته على التشبيه مع أن ظروفه المعروفة كانت تمنعه من رؤية الأشياء، لكنه كما يقول الأصمعي « كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لايقدر البصراءُ أن يأتوا بمثله » (٥) .

ولاشك أن ذلك الإعجاب بشعر بشّار والتنويه به كان نتيجةَ دراسةٍ واستقصاء بني العالمُ الكبيرُ على أساسهما رأيه في زعيم الشعراء المحدثين ، يقول أبو حاتم : « كان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ، ويقول : كان مطبوعا لا يكلّف طبعه شيئا متعذّرا ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وكان يشبه بشّارا بالأعشى والنابغة الذبياني ، ويشبه مروان بزهير والحُطَيْئة ، ويقول : هو متكلّف » (٦) ، ومما تجب الإشارة إليه أن تشبيه هذا الشاعر المحدث أو ذاك بشاعر أو أكثر من شعراء



(١) الأغاني ٣/٢٣٧ ، ٦ / ٢٤٢ .
(٢) الأغاني ٣/١٤٤ .
(٣) الأغاني ٣/٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٤) الأغاني : ٣/١٥٨ ويتكرر الخبر في ٣/٢١٤ .
(٥) الأغاني ٣/١٤٢ .
(٦) الأغاني ٣/١٤٩ .

الجاهلية أو المخضرمين لم يكن يعنى أنهم يفضلون من المحدثين من يسير على النهج القديم ويجارى القدماء فى كل شىء -كما هو الشائع لدى الدارسين المحدثين - فهذا الفهم لا يستقيم مع تعليل الأصمعى لتفضيله بشاراً على شاعر آخر من معاصريه هو مروان بن أبى حفصة (ت ١٨٢) جاء فى الأغانى «...حدثنى الرّياشىّ قال: سُئِلَ الأصمعى عن بشّار ومروان أيهما أشعر، فقال: بشار، فسئل عن السبب فى ذلك فقال: لأنّ مروان سَلَكَ طريقا كثُر مَنْ يسلكه فلم يلحق من تقدّمه وشركه فيه من كان فى عصره، وبشار سلك طريقا لم يُسلكْ وأحسن فيه وتفرد به، وهو أكثر تصرُّفاً وفنونَ شعر وأغزرُ وأوسعُ بديعا، ومروان لم يتجاوز مذاهب الأوائل» (١).

ولايقتصر اهتمام الأصمعىّ على زعيم الشعراء المحدثين، وإنما يمتدّ إلى غيره ممّن هم أحدث عهدا من بشار، فالسيد الحِمْيَرىّ (١٠٥ - ١٧٣) ذلك الشاعر الذى سلك طريقا خاصّا فى توجيه شعره إلى خدمة معتقَده الدينى، يحظى بإعجاب الأصمعى، ويروى التّوزى أنّ الأصمعى استنشده من شعر السيد، قال: «فأنشدتُهُ قصيدة ثم أخرى وهو يستزيدُنى ثم قال: قبّحه الله، ما أسلكَهُ لطريق الفحول، لولا مذهبُه، ولولا مافى شعره ما قدّمت عليه أحداً من طبقته» (٢). ويروى التّوزى الخبرَ بصورة أخرى، ولعلها فى مناسبة مختلفة، قال: «قال لى الأصمعى: أحبّ أن تأتينى بشىء من شعر هذا الحميرىّ - فَعَلَ اللهُ به وفَعَل - فأتيتُه بشىء منه فقرأه فقال: قاتله الله!، ما أطبَعَه وأسلكَهُ لسبيل الشعراء، والله لولا ما فى شعره من سبّ السّلف لَمَا تقدّمه من طبقته أحد» (٣).

وينال العباسُ بنُ الأحنف (ت ١٨٨) قدراً ملحوظا من تقدير الأصمعى وإعجابه، حكى الرياشىّ: «قيل للأصمعى - أو قلتُ - ما أحسَنَ ما تحفظ للمحدثين؟ قال: قول العباس بن الأحنف:

لوْ كُنتِ عاتبةً لسكَّنَ رَوْعتِى ∴ أملى رِضاكِ، وزُرتُ غيرَ مُراقبِ

---

(١) الأغانى ٣/١٤٧.
(٢) الأغانى ٧/٢٣٢.
(٣) الأغانى ٧/١٣٦.

لكنْ مَلِلْتِ فلم تكــنْ لِىَ حِيلَـةٌ ∴ صَدُّ المَـلولِ خِلافُ صَدِّ العَاتِبِ (١)

ويحكى أبو حاتم عن الأصمعى أنه أنشد للعباس بن الأحنف :

أتأذنونَ لصَبٍّ فــى زيارَتِكُــــــمْ ∴ فعنـدكُم شَهَواتُ السَّمْعِ والبَصَر

لا يُضمِرُ السُّوءِ إنْ طالَ الجلوسُ بــه ∴ عَـفُّ الضميرِ ولكنْ فاسِقُ النَّظرِ

« فقالَ الأصمعى : ما زالَ هذا الفتى يُدْخِلُ يَدَهُ فى جرابه فَلا يُخرج شيئاً، حتى أخرَجَ هذا ، ومنْ أدمن طَلَبَ شيئ ظـفر بـبعـضـه » (٢) . ذلك عن العبــاس بن الأحنف الذى يُعدُّ من الوجهة التقليدية بعيداً جداً عن طريق الأوائل (٣) .

ولقـد استـحـوذ أبو نواس (ت ١٩٩) على كـثـيـر من إعــجـاب الأصــمـعى وتقديره، ولعلّ فى تلك القـصـة التى ذكرها ابنُ المعتـز فى (طبقات الشـعراء) ما يدلّ على مكانة الشاعر الثائر فى نظر الناقد المتحـرِّر ، وتبدأ القصةُ بمنادمة الأصمعى للفَضْلِ بن يحيى البَرْمكى ، وأن الأصمعىّ أنشَدَ – على سبيل الاستشهاد على مـا تفعلُه الخمرُ بشاربها – بيتا لأبى نواس فى الخمر (٤) ثم ينشد القطعةَ بأكملها بناءً على طلب الفَضْلِ، ثم يقـول الأصـمـعى عن أبى نواس مخـاطبا الفـضل : « إنه مع ذلك بمكان من الأدب ، ولقد جالستُه في مجالس كثيرة قد ضمت ذَوى فنون من الأدباء والعلماء ، فما تجارَوا فى شيء من فنونهم إلاّ جـاراهم فـيه ، ثم برز عليـهم ، وهو من الشـعر بالمحلّ الذى قـد علمتَه ، أليسَ هو القائل :



---

(١) الأغانى ٨ / ٣٥٤ .

(٢) الأغانى ٣٥٦/٨ .

(٣) راجع مناظرة بين يحيى بن على المنجم وبين المتفقه الموصلي فى المفاضلة بين العباس بن الأحنف والعتّابى ، حيث يذكر يحيى بن علىّ من أسباب تفضيل العباس : استقلاله بفنّ واحد وإجادته فيه ، وهذا خلاف للنظرة الشائعة التى تعتدّ بكثرة فنون الشعر . الموشح ص ٢٩٣ .

(٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٢١٥ ، والبيت هو :

إذا ما أتَتْ دونَ اللّهاةِ من الفتى ∴ دَعَا هَمُّهُ من صدْرِه برحيلِ

وهو من قطعة أولها :

وخَيمةِ ناطورٍ بـرأسِ مُنيفــة ∴ تهمّ يدا من رَامَها بزَليــل

وراجع أيضا ص ٢١٦ من طبقات ابن المعتز .

ذكرتُمْ من التّرحالِ يوماً فغَمَّنَا .·. فَلَوْ قدْ فعَلْتُمْ صبّحَ الموتُ بعضَنَا »

ثم يندفع فينشدُ القصيدة كلها ، وهى فى مدح الفَضْل ، ومقدمتها ألْصَقُ بالمقدّمات الجديدة ، تقوم على الغَزَل ، وترفُضُ الرّحلةَ على الإبل ، وتنصّ على السّيرِ فوقَ النّعال. ومن يقرأ ماقرّره ابنُ قتيبةَ عن شروط المقدّمة التقليدية – والتى لم يتمسّكْ بها ابنُ قتيبة نفسُه – يعلم أىّ خروج صريح على التقاليد اشتملت عليه مقدمةُ القصيدة التى تمثّل بها الأصمعى ، وما كان ليفعلَ ، بل ما كان ليحفظها أو ليروىَ شيئا من شعره لو كان موقفُه من المحدثين على نحو ما يصوّره الدارسون فى القرن العشرين .

وفي (حِلْيةِ المُحاضرة) في رواية محمد بن يحيى عن محمد بن زكريا الغلابي عن أبى العَيْناء عن الأصمعى أنّ أحسنَ بيتٍ تخالع به شاعر هو لأبى نواس ، وهو يُوردُ له مقطوعةً يدعو فيها إلى ترك الجِدّ والانصراف إلى التبطّل ، ويذكر الأصمعي أن أحداً لم يسبقه إلى معناه (١) .

ولم يسلك أبو العتاهية (ت ٢١١) طريقَ الفحول من الشعراء ، وابتعد بقدر الإمكان عن القعقعة بالألفاظ ، ورأى أن يقول من الشعر ماكان سهلا مناسبا لروح العصر، ولم يتسبب هذا الأسلوب عند أبي العتاهية فى وضعه خارجَ دائرة اهتمام الأصمعي ، إذ نرى الأخير يستحسن شعرَه ويصفه وصفاً ينطبق على الشعر المثالى في تقديره ، ففى الأغانى « .. حدثنا الرياشى قال : سمعت الأصمعى يستحسن قول أبى العتاهية :

أنتَ ما استَغْنَيْتَ عَنْ صاحِبِكَ الدّهرَ أخُوه .·. فـإذَا احتَجْتَ إلَيْه سَاعَةً مجّكَ فُوه (٢)

ونقرأ في الأغاني وصفاً لشعرِ أبى العتاهية على لسان الأصمعيّ «.. حدّثنا مزيد الهاشمِي عن السّدْرى قال : سمعتُ الأصمعى يقول : شعرُ أبى العتاهية كساحَةِ الملوكِ يقَعُ فيها الجَوْهرُ والذّهب والتراب والخزف والنوى » (٣) ، وينبغى أن نفهمَ هذا



(١) حلية المحاضرة ١ / ٤٤٠ .

(٢) الأغانى : ٤/١١ .

(٣) الأغانى ٤/٤٠ .

الحكمَ فى إطار عصره وفي إطار فكرةِ الأصمعيّ عن الشعر المثالى – أو أحسن الشعر – فى رأيه ، وحاصِلُ وصْف الأصمعيّ لشعر أبي العتاهية أنه كان يرى فى هذا التفاوت دليلا على عدم التكلّف ، وهذا هو ما يُمكن فهمُه حين نذكر أنّ الأصمعيّ كان يعجبه شعرُ النابغة الجَعْدىّ الذى وُصِفَ بأنه (فيه مِطْرَف بآلاف وخِمَارٌ بواف) يقول ابنُ سلام : « كانَ الأصمعيُّ يمدحُهُ بهذا وينسبُه إلى قِلةِ التكلّف » (١) ، من هنا كان لنا أن نفهمَ هذا النصَّ على أنه ليس من قبيل الاستهجان لشعر أبى العتاهية ، بل على العكس من هذا فهو يدلّ على إيمان الأصمعي بشاعرية أبى العتاهية حين يصف شعره بوصف ينطبق على المَثل الأعلى للشّعر فى نظره .

وفى الأغانى ، في خبر يصل إلى الرياشى قال : « سمعتُ الأصمعي يقول : قال هذا الباهليُّ محمدُ بن حازم في وصف الشيب شيئا حسنا ، فقال له أبو محمد الباهلى : تعنى قوله :

كفَاكَ بالشّيبِ ذنْباً عندَ غَانيةٍ ∴ وبالشّباب شفيعاً أيّها الرّجُلُ

فقال : إياهُ عَنَيْتُ ، فقال له الباهلى: ما سمعتُ لأحد من المحدثين أحسنَ منه» (٢).

ومن أشهر من يُرمَوْن بتهمة التعصّب ضدّ الشعر الحديث والشعراء المحدثين **أبو عبدالله محمد بن زيادٍ المعروف بابن الأعرابى** (١٥٠ – ٢٣١) وهو ينتمى إلى المدرسة الكوفية فى اللغة والنحو .

وتقوم التهمةُ المنسوبة إلى ابن الأعرابى على أساس موقفه من شاعرين عباسيّين نُقلَتْ بعضُ الأخبار عن طعنه عليهما ، هما أبو نواس وأبو تمّام ، كما تقوم على تصريح ينسب إليه يدل على أنه كان يضع الشعرَ المحدث – عموما – في مرتبةٍ أدنى من مرتبة الشعر القديم .

وكما قلتُ ، فإن مثل هذه النصوص – على قلتها – ليست قاطعةَ الدلالة فيما أُريد الاستشهادُ بها عليه ، فهي تتسم بالعموم ، بل والتناقض فى كثير من الأحيان ، ومن هنا كانت أهمية اللجوء إلى المواقف المباشرة التى وقفها أولئك العلماء من الشعراء

---

(١) ابن سلام الجُمَحيّ ، طبقات الشعراء ص ١٠٥ .
(٢) الأغانى ١٤/ ١١٠ ، ١١١ .

المحدثين .

ونجد في الأغاني « .. حدثنا أبو العباس الأحول عن ابن الأعرابي أنه كان يقول : ختم الشعراء بابن هرمة »(١) ، على أننا نجده ، تارة أخرى ، يختتم الشعراء بشاعر آخر أحدث من ابن هرمة ، ذلك هو مروان بن أبي حفصة (ت ١٨٢) ، ففي الأغاني خبر عن أحمد بن الحارث الخراز يقول فيه : « كان ابنُ الأعرابي يختم به الشعراء (يعني بمروان) وما دوّن لأحد بعده شعرا »(٢) . وللخبر نفسه بقية تفيد أن ابنَ الأعرابي كان يقدّر ذلك الشاعر تقديرا غير قليل ، يقول الخراز : « حدثنا ابنُ الأعرابي أن مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفدَ على معن بن زائدة فأنشده قوله :

بَنُو مَطَرٍ يومَ اللّقاء كأنهمْ ∴ أسودٌ لها في بَطْنِ خفّانَ أشْبُلُ

قال : فأمر لي بصلة سنية وخلع عليّ وحملني وزوّدني . قال : ثم قال لنا ابنُ الأعرابي : « لو أعطاه كل ما يملك لما وفّاه حقّه »(٣) .

ويستمر ابنُ الأعرابي مُبْدِياً استحسانه لشعر معاصريه ، فنسمع منه ثناء على شعر العباس بن الأحنف (١٨٨) ، ففي خبر ينتهي إلى محمد بن عبدالله التميمي قال : كنا في مجلس ابن الأعرابي إذ أقبلَ رجلٌ من ولد سعيد بن سالم كان يلزم ابنَ الأعرابي .. فقال له: ما أخّرك عني ... قال : كنت مع مخارق عند بعض بني الرشيد فوهب له مائة ألف درهم على صوت غناه به ، فاستكثر ذلك ابنُ الأعرابي واستهاله وعجب منه ، وقال : ماهو ؟ قال : غناه بشعر عباس بن الأحنف :

بكتْ عيني لأنْواع ∴ من الحُزنِ وأوْجاع

وأنّي كلّ يوم عِنْـ ∴ ـدكم يحظى بيَ السّاعي

فقال ابنُ الأعرابي : أمّا الغناء فما أدري ماهو ، ولكن هذا والله كلام قريب مليح »(٤) .

(١) الأغاني ٤ / ٣٩٦ .

(٢) الأغاني ١٠/٩٠ .

(٣) الأغاني ١٠/٨٩ ، ٩٠ .

(٤) الأغاني ٨/٣٦٢ .

ويصدّر المرزباني – في الموشح – حديثَه عن مآخذ العلماء على الشعراء المحدثين بخبرين عن ابنِ الأعرابي يقول في أحدهما : « إنما أشعارُ هؤلاء المحدَثين – مثل أبي نواس وغيره – مثلُ الرّيحانِ يُشم يوما ويذوى فَيُرمَى به » ، وفى الثانى يبين كيف ناظر رجلٌ ابنَ الأعرابي فى شعر أبى نواس ، وسأله : « أما هذا من أحسن الشعر ؟ فقال ابن الأعرابى : بلى ، ولكنّ القديمَ أحبُّ إليّ » (١) .

وكما قلت ، فإن مثل هذه التصريحات الصادرة عن رجل تقوم مكانته العلمية على حفظ ورواية مالا يحفظه أو يرويه غيرُه لا يجب أن تستأثر بانتباهنا أكثر من اللازم، ففى حلية المحاضرة للحاتمي في خبرٍ عن محمد بن عبدالواحد عن أحمد بن يحيى قال : سمعت ابنَ الأعرابى يقول : أمدحُ بيتٍ قاله مولّد قولُ أبِي نُواس :

تغطّيتُ مِن دَهْرِى بظلِّ جناحِهِ ∴ فعينى تَرَى دَهْرِى وليسَ يَرانِى

فلو تُسألُ الأيامُ عنّي مادرتْ ∴ وأين مكانِى ما عَرَفْنَ مكَانِي (٢)

كذلك يروِى الحَاتمى فى (الحِلْية) عن أبى عمر عن أحمد بن يحيى عن أبى عبدالله القمّى قال : سمعتُ ابنَ الأعرابى غير مرة يقول : « ما ظننتُ أن أحدا فى زماننا يحسن أن يبتدئَ فيقول كما قال إسحق الموصلى ... ولا كما قال أبو نواس:

صِفةُ الطلول بلاغة القُدْمِ ∴ فاجْعلْ صِفَاتِكَ لابنةِ الكَرْمِ

تَصِفُ الطّلولَ على السّماعِ بِهَا ∴ أفذُو العِيَانِ كأنتَ في العِلْمِ

وإِذا نَعَتَّ الشيءَ متّبعا ∴ لم تَخْلُ من زَلَلٍ ومن وَهْمِ (٣)

وفى أخبار أبِي نُواس لابن منظور : « قال ابنُ الاعرابى يوما لِجلسائِه : ما أشعر ما قال أبو نواس فى الخمر ؟ فقال بعضهم : أشعرُ ما قاله فى الخمر قوله : ... وقال آخر : بل قوله .. وقال آخر : بل قوله ... (وذكر كلٌّ منهم بيتا مختلفا) ، فقال ابنُ

---

(٢) الموشح ص ٢٤٦ .

(٣) (حلية المحاضرة) للحاتمى ١ / ٣٤٢ ، والخبر فى العمدة نقلا عن الحاتمى أيضا ٢/ ١٤٠ .

(٣) (حلية المحاضرة) ١ / ٢١٠ ، والخبر في العمدة ١/ ٢٣٢ حيث يورد البيت الأول كمثال للافتتاحات التى ليس لها بسط من النسيب ، ويقول : وهو عند الحاتمى فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين .

الأعرابى : إن هذا كلّه لشاعرٍ انفردَ بالإحسان فيه ، وتقدم مَنْ سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا ينزلُ الليـــلُ حـــيثُ حَلّتْ .·. فَدهْرُ شرّابِها نَهـــارُ (١) .

وفى (زَهْرِ الآداب) فى خبر برواية أبى هفّان أن أبا عبدالله محمد بن زياد الأعرابى كان يطعن على شعرِ أبى نواس ويضَعفه ويستلينُه ، فجمع مع بعض رواة أبى نواس ... فقال له صاحبُ أبى نواس : أتعرف - أعزك الله - أحسنَ من هذا ؟ وأنشده بعض شعر أبى نواس ، وجعل ابنُ الأعرابى يستحسن الشعرَ ويسأل عن قائله على حين راحَ صاحبُ أبى نواس ينشد المزيد من الشعر ويأبَى أن يخبرَه بالقائل إلاّ أن يكتبه ، وفعلا كتب ابنُ الأعرابى الشعر ، وألحّ فى السؤال عن صاحبه ، فأخبره صاحبُ أبى نواس بأنه لذلك الشاعر - الذى يبالغ فى ذَمّه والعيبِ لشعره - أبى نواس، قال ابنُ الأعرابى : « اكتُمْ علىّ ، فوالله لا أعود لذلك أبدا » (٢) .

ولاشك أن المبالغةَ تكتنف مثلَ هذا الخبر ، فرجوعُ الناس عن أحكامهم لا يكون بهذه السهولة ، ثم إن عدمَ كتابة الشعر لا يدلّ على عدم تقبُّلهِ وعدم استحسانه، فالراوية قد يستحسن الشعر ويشيد به ثم لا يكتبه ، كما هو معروف عن موقف المبّرد من البحترى .

على أن هناك أخباراً تتسم بالواقعية والبعد عن المبالغة ، وهى في نفس الوقت تدل على عدم الجدّية فيما كان يُدلى به أمثالُ ابن الأعرابى أحيانا من أنهم لا يعتدّون بأشعار المحدثين . جاء فى (أخبار أبى نواس) لابن منظور « قال بعضهم : كنت ألقى أبا عبدالله محمد بن زياد الأعرابى عند ولد سعيد بن سَلْم الباهلىّ ، وكان عندَ ابن الأعرابى صحيفةٌ لا تفارق كمّه ، فكنا نحبّ أن نقف عليها ، فدخل يوما إلى المتهيَّأ ، وتركَ صحيفته تلك في مجلسه ، فنظرنا فإذا فيها كثيرٌ من شعرِ أبى نُواس فى الخمر، وقد كنّا إذا ذكرنا أبا نواس بحضرته استخفّ به وبذكره ، فأعدنْا عليه ذكره ، وعرف فى وجوهنا وقوفَنَا على ما فى الصحيفة ، فقال : أوقَدْ قرأتُم الصحيفةَ ؟ قلنا أجل ،

---

(١) ابن منظور ، أخبار أبى نواس ٦١/١ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧، وراجع ما نقله محقق (أخبار أبى نواس) لأبى هفان ص١٤١، ١٤٢ .

وعجبنا من ازدرائك بأبي نواس مع تدوينك شعرَه ، فقال : إنه من أشعر الناس ، وما يمنعنا من روايةِ شعره إلا تبذّله وسخفه . فكتبنا ما في الصحيفة لأمرين : أحدهما أن نكون راويةَ ابنِ الأعرابي ، والآخر لعلمنا أن ذلك من جيّد شعره لأنه اختيار ابنِ الأعرابي لنفسه » (١) .

وهكذا يبدو سلوكُ الرجلِ منطقيا تجاه الشاعر الذى اشتهر بالتعصبِ عليه ، وكما قلت ، فإن عدمَ الرواية للشعر وعدمَ كتابته لا يدّلان على عدم الاستحسان ، وإن ثبتَ - كما رأينا - أنه كان يكتب شعرَه ، بل إنه كان يناقش جلساءَه ، ويقارنِ بينه وبين سابقيه في الموضوعات المختلفة ، وحين كان يصرّح بتفضيل شاعر قديم، كان يسوق مبرراته بين يدى تفضيله (٢) .

وفى الأغانى ، فى خبر يصل إلى أبى العباس محمد بن أحمد ، قال : كان ابن الأعرابى يعيب أبا العتاهية ويثلبه ، فأنشدته :

كمْ من سَفِيهٍ غاظَنِي سَفَهًا ∴ فشفيتُ نفسي منه بالحِلْمِ (٣).

على أننا لا نلبث أن نجد ابنَ الأعرابى يشارك معاصريه فى إنشاد شعر أبى العتاهية وتذوّقه ونقده واستحسانه وتفضيله ، فيذكر أحمدُ بن أبى فنن أنهم كانوا عند ابن الأعرابى ، وأنهم ذكروا قول ابنِ نوفل فى هجاء عبدالملك بن عمير ، وأن ابن أبى فنن ذكر - مجاراةً للمناسبة - هجاء أبى العتاهية لعبدالله بن معن بن زائدة ، وكيف أخجله كما أخجل ابنُ نوفل عبدالملك بن عمير ، فلم يزد ابنُ الأعرابى على أن قال : اعجبوا العبد يهجو مولاه - يعنى هجاء أبى العتاهية لعبدالله بن معن - وكان ابنُ الأعرابى مولى بنى شيبان (٤) .

ومع ذلك لم يكن ابنُ الأعرابي يتأخر عن رواية شعر ذلك الشاعر الذى وصفه بأنه (عبد)، حكى عامرُ بن عمران الضبّى قال « حدثنى ابنُ الأعرابى قال : أجرى

---

(١) ابن منظور ، أخبار أبى نواس - ٥٨/١ .

(٢) راجع ، الموشح ص ٢٦٧ حيث يفضل ابن الأعرابي بيت الأعشى : (وكاس شربت على لذة ∴ وأخرى تداويت منها بها) على قول أبى نواس (وداونى بالتى كانت هى الداء) ويعلل تفضيله بأن الأعشى هو (الأول السابق) .

(٣) الاغانى ٤٦/٤ .

(٤) الأغانى ٢٧/٤ .

هارونُ الرشيدُ الخيلَ ، فجاء فرسٌ له يقال له المُشمّر سابقا وكان الرشيدُ معجبا بذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدرهُمْ أبو العتاهية فقال :

جاء المُشمّر والأفــراس يقدُمُهــا ∴ هوناً على رسله منها وما انْبَهَرا

وخلّفَ الريحَ حَسْرَى وهى جاهدة ∴ ومرّ يختطفُ الأبصار والنظـرا

فأجزل صلته ، وماجسر أحد بعد أبى العتاهية أن يقول فيه شيئا » (١) ، ويروى عن عبدالرحمن بن الفضل قال « حدثنى ابنُ الأعرابى قال : اجتمعتْ الشعراء على باب الرشيد فأذِنَ لهم فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد أبو العتاهية :

يامَنْ تبغّى زمناً صالحـــــاً ∴ صلاحُ هارونَ صَلاحُ الزّمَـــنْ

كلّ لسانٍ هو في ملكـــــه ∴ بالشكر فى إحسانه مرتَهَـــنْ

قال : فاهتز له الرشيد وقال له : أحسنتَ والله ، وما خرَج في ذلك اليوم أحدٌ من الشعراء بصلة غيره » (٢) .

قد لا تكون لهذه الأخبار دلالةُ الحكم النقدى بالمعنى المفهوم ، ولكنّ لها هذه الدلالة – وأكثر منها – في هذه القضية التى نحن بصددها ، والتى يبدو فيها أولئك اللغويون وكأنّ شعر المحدثين لم يخطر على بال أحدهم ، فضلا عن أن يرويَه ويحفظَه . ومع ذلك لم يقتصر ابنُ الأعرابى – فيما تدلّ الروايات المختلفة – على مجرد الرواية العادية لشعر أبى العتاهية وللمناسبات التى قيل فيها هذا الشعر ، وإنما تعدى ذلك كلّه إلى الدّفاع الصريح عن الشاعر وإظهارِ مزايا شعرِهِ والإشادة به فيما يشبه المناظرة ، ففى خبر يصل إلى أبى عكرمة قال : « وحُدِّثْتُ أن ابنَ الأعرابى حَدَّثَ بهذا الحديث (يشير إلى حديث أبياتٍ قالها أبو العتاهية فى مرض الرشيد ، نال بها مالا جليلا . أغانى ١٣/٤ ، ١٤) فقال له رجل بالمجلس : ما هذا الشعرُ بمستحقّ لما قلتَ ، قال : ولم؟ قال : لأنه شعرٌ ضعيف ، فقال ابنُ الأعرابيّ – وكان أحدَّ الناس – الضعيفُ والله عقلك لا شعرُ أبى العتاهية ، ألأبى العتاهية تقول : إنه ضعيف الشعر ؟ فوالله ما رأيتُ شاعراً قطّ أطبعَ ولا أقدرَ على بيتٍ منه ، وما أحسبُ مذهبَه إلا ضرباً من السحر ، ثم أنشد له :

---

(١) الأغانى ٤٣/٤ .

(٢) الأغانى ٤٢/٤ .

قَطَعْتُ منكِ حبائلَ الآمـــالِ .·. وحَطَطْتُ عن ظَهْرِ المَطِيِّ رِحَالِى

(حوالى تسعة أبيات)

ثم قال للرّجل : هل تعرفُ أحداً يُحسنُ أن يقولَ مثلَ هذا الشعر ؟ فقال الرجـل : يا أبا عبدالله ، جعلنى الله فداءك ، إنى لم أُرْدُدْ عليكَ ما قلت ، ولكنّ الزهدَ مذهبُ أبى العتاهية ، وشعرُه فى المديح ليس كشعرِه فى الزهد ، فقال : أفليسَ الذى يقول فى المديح :

وهارونُ ماءُ المُزنِ يُشْفَى بِهِ الصّدَى .·. إذا ما الصّدى بالرّيق غَصّتْ حَنَاجِرهْ

(ستة أبيات)

قال : فتخلّص الرجل من شرّ ابنِ الأعرابي بأن قال : القولُ كما قلتَ ، وما كنتُ سمعتُ له مثلَ هذين الشعرين ، وكتبهما عنه » (١) .

كان أبو العتاهية من الشعراء البارزين فى عصره ، مدَحَ الخلفاءَ وعرفته الأوساط الرسمية ، فليس غريبا أن يهتمّ به ابنُ الأعرابى ويروىَ شعره ، ويستحسنَه ويدافعَ عنه . على أن محمد بن حازم الباهلى (ت ٢١٥) لم يكن على نفس الدرجة من الشهرة ، وهو من شعراء الدولة العباسية ، كان كثير الهجاء للناس فاطُّرِحَ – كما يقول صاحب الأغانى – ولم يمدحْ من الخلفاء إلاّ المأمون ، ولا اتّصل بواحدٍ منهم فيكون له نباهةُ طبقته ، وكان ساقطَ الهمّة متقلّلا جدا يرضيه اليسير . ولم نشأ الترجمةَ لابن حازمٍ ذلك ولكننا قدّمنا هذه الصورة التى تدل على دُنُوّ منزلته بين شعراء عصره – على الأقل من ناحية المكانة الرسمية فى قصور الحكام ، والتى كانت كثيرا ما تتدخّل فى تحديد منزلته الفنية – ثم لندلّ أيضا على أن تلكَ المنزلة لم تكن لتمنَع عالما كابن الأعرابى من التنويه بشعر الباهلى والإعجاب به حين وجد فى هذا الشعر ما يستحق الإشادة والتفضيل .

ففى (حِلْيَةِ المُحاضرة) للحاتمى فى خبر عن محمد بن عبدالواحد ومحمد بن يحيى عن أحمد بن يحيى قال : « سمعتُ ابنَ الأعرابىّ يقول : ما بكتْ العربُ شيئا

---

(١) الأغانى ١٤/٤ ، ١٥ .

كما بكت الشبابَ ، وما بلغَتْ كُنهَهُ ، ولا أعرف فى التفجّع على الشباب وذمّ الشيبِ أحسن من قولِ محمد بن حازم الباهلى على قربه :

لا تكذبَنّ فما الدّنيا بـأجمَعهـا .·. من الشّباب بيوْمٍ واحـدٍ بَدَلُ
شَرْخَ الشباب لقدْ أبقيتَ لِي حَزَناً .·. ماجَدّ ذكرُكَ إلاّ جَدّ لِى ثُكَـلُ
كفاكَ بالشّيبِ ذَمّاً عنـدَ غَانيـةٍ .·. وبالشّباب شفيعاً أيّها الرّجُلُ (١)

ذلك هو مدى استحسان ابنِ الأعرابى لشاعر مغمور فى عصره . ولم يبخل بإبداء رأيه فى أديب آخر معاصر له هو إسحق بن إبراهيم الموصلي ، ففى خبر يصل إلى أحمد بن يحيى الشيبانى قال : « وقف أبو عبدالله بن الأعرابى على المدائنى ، فقال له : إلى أين يا أبا عبدالله ؟ فقال : أمضى إلى رجل هو كما قال الشاعر :

نَحْمِـلُ أشبَاحَنَا إلـى مـلِكٍ .·. نأخذُ من مالِه ومن أدَبِـهْ

فـقـال له : ومَن ذلك يا أبا عبـدالله ؟ قال : أبو محمد إسحق بن إبراهيم الموصلى » (٢) . وجاء فى الأغانى أيضا « .. قال حدثنى أحمد بن الحارث وأبو مسلم عن ابن الأعرابى ، أنه كان يصف إسحاقَ الموصليّ ويقرّظه ويُثنى عليه ويذكر أدبَه وحفظَه وعلمه وصدقه ، ويستحسن قوله :

هلْ إلى أن تنامَ عَيْنِى سَبِيـلُ .·. إن عهدِى بالنوْمِ عَهْدٌ طويلُ
غابَ عَنّى من لا أُسَمّى فعَيْنِى .·. كلَّ يوم وجداً عليهِ تَسِيلُ (٣)

وقد مرّ بنا الخبرُ الذى أورده الحاتمى فى الحلية عن عدّ ابن الأعرابى أوّلَ البيتين ، إلى جانب مطلع آخر لأبى نواس ، من أحسن الابتداءات التى قالها المحدثون (٤) .

---

(١) حليةُ المحاضرة ١ / ٤١٢ ، والخبر فى الأغانى ١٤ / ٩٤ برواية أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابى مع اختلاف فى بقية سلسلة الرواة ، ونصه : قال ابنُ الأعرابى : أحسن ما قال المحدثون من شعراء هذا الزمان فى مدح الشباب وذم الشيب ... (ثم يورد له ثلاثة عشر بيتا تضم الأبيات الثلاثة التى أوردها صاحب الحلية) .

(٢) الأغانى ٥/٢٧٤ .

(٣) الأغانى ٥ / ٣٣٢ .

(٤) الحلية ١ / ٢١٠ ، والخبر فى (نزهة الألباء) ص ١١٩ .

وتدور أحاديثُ الدارسين المحدثين حول عدد قليل من العبارات الغامضة المعمّمة التى يُروى أنها صدرت عن **إسحق بن إبراهيم الموصلى** (ت ٢٣٥) كأحكام نقدية تحمل طابع الغضّ من شعر المحدثين والتعصب عليه .

والواقع أن هذه الصورة التى يظهر بها إسحاق تثير موقفا فى غاية التعقّد، فإسحاق نفسه شاعر محدَث ، وهو – فيما يقولون – قد عانَى من نفس موقف التعصُّب ضدّ الشعر الحديث ، عندما رجع الأصمعىُّ عن حكمه على شعره بالاستحسان حين علم أنه له ، من هنا يبدو السؤال صعبا ، إذْ كيفَ يشكو إسحق من موقف التعصّب ضد المحدثين – وهو واحد منهم – ثم يقوم بدوره بالتعصب على غيره من المحدثين ؟ والعجيب أنّ بعض العبارات التى كانت تندّ عنه متعلقةً ببعض الملاحظات على أىّ شاعر من معاصريه كانتْ تَلقى – أو هكذا فُهِمَتْ فى العصر الحديث – من الذيوع والشهرة ومحاولات التضخيم ما يحوّلها إلى صورة عامّة تمثّل موقف جميع النقاد ضد جميع الشعراء المحدثين ، ونحن نذكر من أخباره فى هذا الصدد ما كان يأخذه على بشّار من تفاوت الأسلوب ، وما كان يصف به أبا نواس من أنه ليس بشىء وأنه لايرى فيه خيراً (١) ، ثم ما وجّهه إلى أبى تمام – عندما كان الشاعرُ يلقى بعض شعره – من قوله : ياهذا ، لقد شدّدت على نفسك ، ثم ما نجد أحيانا من نقد يوجهه إلى أبى العتاهية لتفاوت شعره .

على أننا نجد فى أخبار إسحقَ أنه كان على استعداد لاستحسان أشعار أولئك الشعراء المحدَثين الذين تعرّضوا لانتقاده ومؤاخذته ، فهو يسمع شعرا حسنا لبشّار ولا يملك لإحسانه دفعاً ، وهو – فيما أوْردَ ابنُ منظور فى أخبار أبى نواس – كان يتعصّب للشاعر ويحابيه فى قصر الخلافة ، كما كان يتعصّب للعباس بن الأحنَف ، وقبل ذلك كله كان يتعصب لمروانَ بن أبى حَفْصة ، كما نجد ما يدل على اهتمامه بأشعار المحدثين عموما وروايتها .

فهو يحكى عن نفسه أنه سامر الرشيدَ ذات ليلة « فجعلتُ أحدّثُه بأحاديث القيان والمغنّين طورا وأحاديثِ العرب وأيامِها وأخبارها تارة ، وأُنشده أشعار القدماء والمحدثين

---

(١) الأغانى ١٥٥/٣ ، ١٥٦ .

في خـلال ذلك » (١) . وفي خبر تتصل روايته بمحمد بن عمرو الرومي أن إسحاقَ اكتشف أن الحُسين بنَ الضحّاك قد نقل – في شعر له – كلامَ أبي العتاهية في الرشيد حتى جاء بألفاظه بعينها ، قال محمد بنُ عمرو : « فعجبتُ من رواية إسحقَ شعرَ المحدثين ، وإنما كان يروي للأوائل ويتعصّب على المحدثين وعلى أبي العتاهية خاصة »(٢). وفي خبر عن يحيى بن عليّ أن إسحقَ كان يطعن على بشّار فناظروه فيه ، وأنشدوه من شعره ما يبدو أنه حاز إعجابه ، فادّعى أنه ليس له ، فعرّفوه أنه له وأنشدوه بقيتَه ، ويقول الخبر : إنّ إسحق « لم يردّ ذلك بشيء » (٣) . ويدل خبر في (الموشح) على أنّ ما يُروى من تعصّب إسحق على أبي العتاهية كان معارضةً للرشيد الذي كان يقدّم أبا العتاهية ويتعصّب له تعصباً شديدا ، قال إسحق : « كان الرشيدُ يقدّم أبا العتاهية على العبّاس بن الأحنف ويتعصّب لأبي العتاهية تعصّبا شديدا ، وكنت أعارضه بعبّاس بن الأحنف » (٤) . وإذا كان هذا الخبر يحمل معنى تعصبه ضد أبي العتاهية فهو يحمل معنى تفضيله للعبّاس بن الأحنف وهو شاعر محدث متحرر من طرق القدماء .

ففي الأغاني عن حمّاد بن إسحق « كان أبي يقول : لقد ظرُف ابنُ الأحنف في قوله يصف طول عهده بالنوم :

قفـاَ خبِّراني أيّها الرّجـُلان .·. عن النوم إن الهَجْرَ عنهُ نَهَاني

وكيفَ يكونُ النومُ أمْ كيفَ طَعْمهُ .·. صِفاَ النومَ لِي إن كنتُماَ تَصِفَان (٥)

كذلك يوجد خبر عن إعجاب إسحاق بشعر لابن الأحنف ، حتى حَمَلَهُ الإعجابُ على القَول في رَويّه وقافيته » (٦) .

---

(١) الأغاني ٥/٣٠٠ .
(٢) الأغاني ٧/١٥٧ .
(٣) الأغاني ٣/١٩٨ .
(٤) (الموشح) للمرزباني ص ٢٦٢ والأغاني ٨/٣٧١ .
(٥) الأغاني ٨/٣٥٨ .
(٦) الأغاني ٨/٣٦٦ .

وفى أخبار أبى نواس لابن منظور أن إسحقَ الموصليَّ كان يتعصب لأبى نواس ويشيد بذكره ويَجهَر بتفضيله ويجلب له الرِّفْدَ من الرشيد (١) .

ولعل مما له دلالة فى هذا الصدد ما كان يُبديه إسحقُ من ارتياح لما يصفُه به الأعرابُ من سلوكه فى شعره طريقةً جديدة تدل على إبداعه . فهو يحكى عن نفسه أنه أنشد أعرابيا شعرا له « فقال : أقفرْتَ والله يا أبا محمد ، قلت : وما أقفرت ؟ قال : رعيتَ قفرةً لم تُرعَ قبلك .. يريد أبدعتَ » (٢) ، ويقول مرة أخرى : « أنشدت أبا الأشعث الأعرابى شعرا لى ، فقال ... إنك لَمِنْ طراز ما رأيت بالعراق شيئا منه» (٣).

ويقول مرة أخرى : « أنشدت بعض الأعراب شعرا لى أقول فيه :

أجَرتْ سوابقُ دمعِك المُهراقِ .·. لمّا جـرَى لَكَ سانحٌ بفراَق

(١٥ بيتا)

فقال لى : أفْلَيْتَ والله يا أبا محمد ، فقلت : وما أفليت ؟ قال : رعيت فَلاةً لم يرعها أحدٌ غيرك » (٤) .

قد تكون هذه الأخبار كلها عن وصف الأعراب له بالتفرُّد والإبداع موضوعةً أو كاذبةً ، وقد يكون المرادُ منها غيرَ ما حاول هو أن يفسِّرها به ، ولكن الذى لاشكَّ فيه أن إيرادَها بالمعنى الذى فهمه منها – أو حملَها عليه – يدلّ – على الأقل – على أنّ (رَعْيَ الفلاة التى لم يرْعَها الغيرُ) هو ما ينبغى أن يكون – إن كان لم يكن بعد ، وإذا كانت السرقةُ تدخل ضمن (رَعْيِ الفلواتِ المطْروقة) فإن إسحاقَ كان ينفيها عن نفسه بشدة ، ففى خبر عن عليّ بن يحيى أن إسحق كان يُعجب بَبيْتيْه اللذين قيل إن الأصمعيَّ وصَفَهُما بالتكلّف ، وهما :

هـــلْ إلىَ نظرةٍ إليكِ سَبِيلُ .·. يُرْوَ منها الصّدَى ويُشْفَى الغَلِيلُ

---

(١) ابن منظور (أخبار أبى نواس) ٢١٦/١ .

(٢) الأغانى ٥ / ٢٧٦ .

(٣) الأغانى ٣٢٨/٥ .

(٤) الأغانى ٤٠٣/٥ .

إنّ ما قـلّ منك يكثُر عنـدي ∴ وكثيـــــرٌ مِمّنْ تُحِبّ القَلِيــــلُ

وأنه كـان يكرّر معناهمـا في شـعره ، ويرى أنه مـا سُبِق إليه . وعندمـا أنشـده عليّ بنُ يحيى في نفس المعني لبعض الأعراب حَلَفَ له إسحاقُ أنه مـا سمع بذلك قط . قـال علي بن يحيى : « وصدق ، ما سمِـع بها » (١) .

ويشيـر القاضي الجرجـاني في (الوساطة) – في معـرض الثناء على أبي نواس – إلى قيام **أبي يوسف يعقوب بن السكّيت** (ت ٢٤٤) – وهو مـن علمـــاء النحـو واللغـــة ، أخـذ عن أبي عمـرو الشيبـاني وابن الأعـرابي – بتفـسيـر ديوان أبي نواس (٢)، وتؤكّد الأخبـارُ أن العـالم الكوفيَّ كـان يقـدُر أبا نواس حق قـدره ، « قـال ميمون : سألتُ أبا يوسف يعقوبَ بنَ السكّيت عما يختار لي روايتَه من الشعر ، فقال : (إذا رويتَ من أشعـار الجاهليّين فـلامرئِ القـيس والأعشى ، ومن الإسلامـيين فلجَرير والفرزْدَق ، ومن المحدثين فلأبي نُواس فحسبك) » (٣) .

وفي (أمالي المرتـضى) : « قيل **لأبي حاتم السّجستاني** (ت ٢٥٠) : مـن أشعرُ الناس ؟ قال : الذي يقول :

ولها مَبْسِم كثغــــــر الأقاحــــــي ∴ وَحديثٌ كالوَشْي ، وشْيِ البُرودِ

نزلتْ في السّواد من حبّة القلْـــــــ ∴ ـــــب ونالت زيادةَ المستزيــــد

عندها الصّبرُ عن لِقَائِي وعِنْـــــدِي ∴ زفَرَاتٌ يأكُـلْنَ صَبْرَ الجَليـــــد

يَعني بشّاراً ، وكانَ يقدّمهُ على جميع الناس » (٤) .

وألف **أبو هفّان عبدالله بن أحمد بن حرب** (ت ٢٥٥) كـتـابا في أخبار أبي نواس ، ينطق كله بإعجـاب الشاعـر اللغوي – الذي أخـذ عن الأصمـعي –

---

(١) الأغاني ٥/٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) القـاضي الجرجـاني (الوسـاطة) ص ٥٥ ، ونصّ حـديث القـاضي عن أبي نواس : « هو الشـيخ المقدّم والإمام المفضّل الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي ، وفسّر ديوانه ابن السكيت » . .

(٣) نزهة الألباء ص ٥٠ وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/٥٢ .

(٤) أمالي المرتضى ١/١٤١ .

بأبى نواس فى كل ما قال ، ويعد أبو هفان مصدرا لكثير من الروايات والأخبار التى تحدثت عن أبى نواس ، وحسبنا دليلا على مكانة الشاعر الكبير عند أبى هفان ذلك الخبر الذى ورد فى تهذيب ابن عساكر فى ترجمة أبى نواس « قال أبو هفان : استنشدت أبا نواس :

لاتَبْكِ ليلَى ولا تَطْرَبْ إلى هِنْدِ ∴ واشْرَبْ علَى الوَرْدِ من حَمْراءَ كالوَرْدِ

فلمّا فرغ منها سَجَدْتُ ، فقال : ألمْ أنهَكَ عن هذا ؟ والله لا كلمتُك مُدَّةً » (١) .

وليست بنا حاجةٌ إلى القول بأن القصيدةَ التى سجَد لهـا أبو هفّان - وكان راوية لأبى نواس وتلميذاً له - تمثّل دعوتَه التجديدية فى أصرح صورها .

وينتمى **أبو الفضل عباس بن الفَرَج الرِّياشى** (ت ٢٥٧) إلى المدرسة البصرية فى النحو واللغة ، وهو من تلاميذ الأصمعى ، حفظ كتبه وكُتُبَ أبى زيد ، وقرأ على أبى عثمان المازنى كتابَ سيبويه ، على أن تخصّصه بالنحو واللغة لم يحل بينه وبين المشاركة فى تذوّق شعر معاصريه ونقده والإشادة بالجيّد منه ، فهو يُشيد بشعر العباس بن الأحنف ، قال أبو الحسن الأسدى : « سمعت الرياشى يقول ، وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف ، والله لو لم يقل من الشعر إلاّ هذين البيتين لكفيا :

أُحْرَمُ منكمْ بما أقولُ وقَدْ ∴ نالَ به العاشِقُون مَنْ عَشقُوا

صرتُ كأنّى ذبَالةٌ نُصِبَتْ ∴ تُضيءُ للنّاس وهى تحترِقُ (٢) .

كذلك يتضح موقفه من أبى نواس من هذا الخبر الذى أوردَه ابنُ منظور فى (أخبار أبى نواس) ويذكر الخبرُ ، وهو مرويّ عن الحسن بن على الرّياحى ، أن الرياشىّ كان يهتم بإنشاد شعر أبى نُواس وحفظه ، وأنه سأل الرياحي أن ينشده قصيدة أبى نواس التى أولها : « أيادَارِها بالماء حتى تُلينَها » وتعجّب عندما وجده لايحفظها ، ثم راح يُمليها عليه من ذاكرته (٣) .

---

(١) نقلا عن بعض الأخبار التى رواها أبو هفان خاصة بأبى نواس ، والخبر من تهذيب ابن عساكر أورده محقق (أخبار أبى نواس) لأبى هفان ص ١٤٣ .

(٢) الأغانى ٨/ ٣٧٠ .

(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور ١/ ١١٨ .

وهو يقف نفسَ الموقف من معاصره الحُسين بن الضحّاك (ت ٢٥٠) حيث نراه يقوم بدور راوية أخباره ، ففي الأغاني بعض أخبار الحسين منقولة بإسناد ينتهى إلى الرياشيّ عن الحسين بن الضحاك ، ومن المسلّم به أن الراوية لا يلزم شاعرا يزدرى شعره ويرفُضه (١) . ومن هنا لم يقتصر دور الرياشى فى الإعجاب بالحسين بن الضحاك على رواية أخباره ، وإنما تعدّى ذلك إلى تذوّق شعره والإعجاب به ، روى عثمان بن عمر الآجرى قال : « سمعتُ الرياشيّ ينشد هذين البيتين ويستحسنُهما ويستظرفُهما جدّاً ، وهما :

إذَا ما الماءُ أمكنَنِـــى ∴ وصفـــوُ سُلافةِ العِنَبِ

صَبَبْتُ الفضّةَ البيـــضَا ∴ ءَ فوقَ قُراضَةِ الذّهـبِ

فقلتُ لَهُ : من يقولُهما يا أبا الفضل ؟ قال : « أرقُّ الناس طبعاً وأكثرهم مُلَحاً وأكملهم ظَرْفاً حسينُ بنُ الضحاك » (٢) .

وسجل الدارسون المحدثون على **أبى عبدالله محمد بن مسلم بن قتيْبة** (٢١٣ - ٢٧٦) ما أوجَبهُ على الشعراءِ المحدَثين من عدم الخُروج علَى مذهبِ المتقدمين فى أقسام القصيدة ، وفى رأيى ، وهذا ما سبق أن ذكرتُه ، أنّ دراسة النقد العربى ينبغى أن تتحرر من الوقوف عند النصوص المفردة والعبارات الشاردة يتفوّه بها هذا الناقدُ أو ذاك ، ثم لا يلبثُ أنْ يعدل عنها حين يجدُهـا غير ملائمة أو غير واقعية ... ولاشك أن عُدّتنا فى معرفة هذا النقد هى هذه العبارات نفسها، وإنما الذى أراه أن ينظر الدارسُ لذلك النقد أو أحد أعلامه إلى أبعد مدىً يمكنه النظرُ إليه حتى يستطيع أن يتبين الصورة العامة التى تطغَى على بعض العبارات الجامحة التى تندّ عن الناقد فى مناسبات مختلفة ، قد يرجع عنها فيما بعد .

ولستُ بهذا القول أتزعّم محاولة لا مبّرر لها لمعارضة الاتجاه السائد فى الدراسات الحديثة ، والتى تفيض باتّهام هذا الرّجُل بالرجعية فى الفكر ، وتحميله الشطرَ

---

(١) راجع الأغانى ١٥٩/٧ ، حيث يروى الرياشى خبر منادمة الحسين للواثق ، يذكر شعرا لأحمد بن يوسف أنشده الحسين فى تلك المناسبة .

(٢) الأغانى ١٥٤/٧ ، ١٥٥ .

الكبير من مسئولية ما قد يبدو فى الشعر العربىّ وكأنه من مظاهر المحافظة والرغبة فى تقليد القديم ، ولكننى على الرغم من هذا أجدني مضطرًا للنظر إلي موقف ذلك الرجل من الشعر الحديث والشعراء المحدثين نظرةً مخالفة على أساس ما أشرتُ إليه من الاعتماد على النظرة الكلية ، قبل أى شيء آخر .

لقد حدّدَ ابنُ قتيبةَ فى (الشعر والشعراء) وهو الكتاب الذى تضمّنَ النصّ الذى أُدينَ بسببه ابنُ قتيبة بتهمة الرجعية – حدّد مهمته بالإخبار « عن الشعراءِ وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم ... وعما يُستحسن من أخبار الرجلِ ويُستجاد من شعره ، وما أخذته العلماءُ عليهم من الغلَط والخطأ فى ألفاظهم ومعانيهم وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون » ، وقال إنه أخبر « عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التى يُختار الشعر عليها ويستحسن لها » (١) .

وعندما راح يعدّد أقسام القصيدة المدحيّة كما تُعورف عليها ، ويسرد مبرّراتِ مجيئها على هذا النحو أدلى بتصريحه اللافت من أنه « ليس لمتأخّرِ الشعراءِ أن يخرجَ عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام » (٢) ، وكانت هذه العبارة – وبعضُ ما شرحها به – أساسَ الحملة عليه ، وهى حملة لا تستند فى مبرراتها إلا إلى هذه العبارة بذاتها .

على أننا ننظر – بعد هذا – في كتاب الرجل وفى ترجماته للشعراء المحدَثين بوجه خاص ، فلا نجد أثرا تطبيقيا لما سبق أن أعلنه فى مقدمته ، وهذا ما يتضح من النظر فى ترجماته لبعض الشعراء المحدثين الذين قاموا بمحاولات تجديدية لافتة ، والذين جمعتهم صفة الحداثة والخروج على التقاليد المتوارثة للشعر القديم ، خاصة ما يتصل بنهج القصيدة كما حدّده ابنُ قتيبة ، ومن أولئك الشعراء بشّار وأبو نُواس ومُسْلِم بن الوليد ، ولقد عُرِفَ الأول بأنه من روّاد البديع، ووصفه الأصمعى بأنه سلك طريقا لم يسلكه الأوائل وتفرّد فيه وأبدع ، ووصفه الجاحظ بأنه « من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المفتنّين فى الشعر » (٣) ، وهو معروف كزعيم للشعراء المحدثين .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٨٢ .

(٣) الأغانى ٣/١٤٥ .

ولقد خالف بشار ما نصّ عليه ابنُ قتيبة فى نهج القصيدة من ضرورة الرحلة علىَ الإبل والإلمام بالغزل في مقدمات القصائد المدحية ، فترك كل وسائل الرحلة على البر ورحَلَ فى قصيدة يمدح بها المهدىَّ على سفينة وَصَفَهَا ووصف الرحلة عليها ، ومطلعها :

* تَجَالَلْتُ عن فِهْرٍ وعَنْ جَارَتَىْ فِهْرِ *

ثم رَاحَ يصِفُ السفينة :

وعـذراءَ لا تَجْرِى بِلَحْمٍ ولادَمٍ ∴ بَعيدَةِ شكْوَى الأينِ مُلْجَمةِ الدُّبْـــرِ
تُلاعِبُ نِينَانَ البُحُـــورِ ورُبَّمـــا ∴ رأيتُ نُفوسَ القَوْمِ من جَرْيِهَا تَـجْرِى
إلى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فـى نُبُـــوَّةٍ ∴ ومِنْ حِمْيَرٍ فى المُلْكِ والعَدَدِ الدَّثْرِ (١)

وأعلنَ بشار إقلاعه عن الغَزل فى بعض قصائده – نزولا على رغبة المهدى – أعلنَه فى القصيدة التى أشرنا إليها الآن ، وفى غيرها ، والغزل من مقوِّمات المقدِّمات التقليدية ، ومع كل هذا لا نجد في حديث ابنِ قتيبةَ عن بشار ما يُشير بكلمةٍ واحدة إلى هذا الخروج ، والمفروض أنْ يُعد من أخطائه ، وإنما يلفتنا فى حديثه عن بشار قوله : إنه « أحدُ المطبوعين الذين كانوا لا يتكلّفون الشعر ولا يتعبّون فيه وهو من أشعر المحدثين » (٢) ، ثم يسجّل له السبقَ إلى بيته المشهور :

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنَا ∴ وأسيافَنَا ليلٌ تهاوَى كواكبُه (٣)

وعلى الرغم من أن مسلمَ بنَ الوليد لم يعلن دعوةً مماثلة لدعوة أبى نُواس فى وجوب ترك المقدمة التقليدية القائمة على الغزل بالبدويات وذكر الأطلال والرحلة على الإبل ... إلخ ، فإنّ مسلما مارس هذا الحقّ ، أو – بعبارة أدق – هذا التجديد، بتوسّع لعلّه يفوق ما صنعه أبو نواس ، إذا أخذنا عدد قصائد الشاعرين فى الاعتبار وذلك باستثناء المجاهرة بالدعوة إلى الطريقة الجديدة ، وجارى مسلم بن الوليد بشاراً فى

---

(١) الأغانى ٣/٢٤٢ ، ٢٤٣ .
(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢/٧٣٣ .
(٣) ابن قتيبة ، المرجع السابق ٢/٧٣٥ .

الرحلة على سفينة (١) ، ثم راح فى مقدّماته - كما أوضح عبدالقادر القط - يتحدث عن لذاته وحياته الحديثة اللاهية دون أن يُعير اهتماما -إلا قليلا - للطريقة القديمة فى افتتاح القصائد . ومع ذلك لا توجد إشارة من ابن قتيبة إلى هذا التعدّى من جانب مسلم ، ولا نسمع منه إلا قوله عنه إنه « أوّل من ألطفَ المعانى ورقّق فى القول ، وعليه يعوّل الطائىّ فى ذلك وعلى أبى نواس » (٢) .

ولاشك أن ابنَ قتيبةَ كان على بيّنةٍ من الدعوة التى أعلنها أبو نُواس للخروج على المقدمة التقليدية للقصيدة ، والقارئُ لما صرّح به ابنُ قتيبة فى مقدمة (الشعر والشعراء) من وجوب عدم الخروج على النهج التقليدى للقصيدة خاصة فى افتتاحها ، يشعر كأن ذلك الناقدَ كان يعنى أبا نواس عندما أدلى بهذا التصريح ، ومع هذا لا نجد أثرا لإشارة من ابن قتيبة إلى تلك الدعوة ، وفيما عدا بعض ملاحظات جزئية بسيطة ، فإننا لا نجد فى ترجمته لأبى نواس سوى عبارات الاستحسان والتقريظ ، فأبو نُواس « أحد المطبوعين » و « كان متفنّنا فى العلم ، قد ضرب فى كلّ نوع منه بنصيب » ، وهو يورد له مجموعةً من القطع المختارة ثم يصرح بأنه « قد سبق إلى معان فى الخمر لم يأت بها غيرُه » (٣) ، ويسجّل له عدداً غير قليل من هذه المعانى التى سبق إليها .

ويبدو أن الدارسين المحدَثين قد تأثروا - إلى أبعد الحدود - فى نظرتهم إلى ابنِ قتيبةَ بهذا التصريح الذى صَدَرَ عنه ، وبالتالى تصوّروا - فيما يبدو - أنه لا يمكن أن يكونَ نصيبُ شاعر كأبى نواس من حديث ابنِ قتيبة سوى الطّعن والتهجين ، على أساس أنّ الشاعرَ قد وقع تحت شروط المخالفة لما قرره الناقد .

وهذا - فيما أتصور - هو الذى دفع طه إبراهيم إلى التصريح بأن ابنَ قتيبة لم يقل فى محدَث بعد بشار : « ومما سَبَقَ إليه فأُخِذَ منه » ثم تساؤله عما إذا كان من أسباب ذلك أنّ ابنَ قتيبة كان يرى أنّ من شأن المحدثين ألاّ يُبدعوا وألاّ يخترعوا ، ورأى هدّارة أن اعترافَ ابن قتيبة لبشار بالسبق والاختراع كافٍ فى الدلالة على إيمانه بقدرة المحدثين على الابتكار والإبداع ما دام قد اعترف بهذه القدرة لزعيم المحدثين بشار.

(١) ابن قتيبة المرجع السابق ٨١٤/٢ .

(٢) ابن قتيبة ، المرجع السابق ٨٠٨/٢ .

(٣) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٧٧٢/٢ ، ٧٧٣ ، ٧٨٣ .

والواقع أنّ ابنَ قتيبة اعترف بالقدرة على الابتكار والاختراع للمحدثين من الطبقة الثانية ممن تلوا طبقةَ بشار ، وصرح بهذا الاعتراف فى ترجمته للشاعر الثائر أبـى نـواس حيث سجّل له وجوها من السبق والابتكار لعله لم يسجِّلْ مثلَها من حيث العدد لغيره من الشعراء المتقدمين أو المحدثين .

يقول ابن قتيبة : « وقد سبق إلى معانٍ فى الخمر لم يأتِ بها غيره ، كقوله فى وصفها:

وخَدينِ لذّاتٍ معلِّل صاحـــبٍ ∴ يقتـــاتُ منه فُكاهـــةً ومزاحَا

قال :ابغنِى المصباحَ قلتُ له : اتّئدْ ∴ حَسْبِى وحَسبُكَ ضوؤُها مصباحَا

فسكبْتُ منها فى الزّجاجةِ شَرْبةً ∴ كانـتْ له حتّى الصّباحِ صباحَـا

ثم يوردُ له عدةَ مقطوعاتٍ وأبيـات فى هذا المعنى تستغرق أكثر من صحيفتين(١) يقول بعدها : « وله فى تصاوير الكؤوس معنى سبقَ إليه ، وهو قوله:

تـــدورُ علينا الرّاحُ فى عَسْجَدِيّةٍ ∴ حبتْها بأنواعِ التّصـــاوير فارسُ

(٣ أبيات)

ويعقب ذلك بمثالين آخرين فى نفس المعنى ، ثم يقول : « ومما سبق إليه فى الخمر قوله:

من شرابٍ ألذَّ من نظرِ المعْـــــ ∴ شُوقِ فى وجهِ عاشقٍ بابتسامِ (٢)

كذلك أورد له قوله فى امرأة ، قال : « ومما يُستحسَن له قوله فى امرأة » (ضمن أربعةِ أبيات) :

أراكِ بقيّةً من قومِ موسَـــــــى ∴ فهم لايصبرون على طَعَـــامِ

---

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٨٠٨ - ٨١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٨١١ .

وقال : « أخذه منه العبّاس بن الأحنف » ، ثم أورد بيتين للعباس فى هذا المعنى (١) .وهكذا يسجّل ابنُ قتيبةَ السبقَ لأبى نواس ، تأكيداً لاعترافه بهذه المقدرة للمحدثين بعد بشّار ، كما يسجّل قيام العبّاس بن الأحنف بالأخذ من أبى نواس .

ويبدو أن السببَ فى عدم التفات طه إبراهيم وهدارة إلى تنويه ابن قتيبةَ بأبى نواس وسبقه ، هو ما سيطر على تفكيرهما من أنه لا يمكن أن يحتوى حديث ابن قتيبة عن أبى نواس إلا على النقد والمؤاخذة .

ويتابع **أبو العباس محمد بن يزيد المبرد** (٢١٠ – ٢٨٥) – رأسُ نحاة البصرة فى زمانه – نفسَ الروح فى تقبّل شعر المحدثين والمساواة بينهم وبين القدامى ، وتفضيل الجيّد من الفريقين ، بصرف النظر عن عصره ، يقول : «وليس لقِدَم العَهد يُفضَّلُ القائل ، ولا لحِدْثان عهدٍ يُهتَضَمُ المُصيب ، ولكن يعطَى كلٌ ما يستحقّ . ألا ترى كيفَ يفضل قولُ عمارةَ ، على قرب عهده :

تبحثتُم سُخْطِى فغيّرَ بَحْثُكـمْ ∴ سخِيلةُ نفس كانَ نصْحاً ضميرُها (٢)

(٣ أبيات)

وها هو ذا يشيد بابن مناذر « قال أبو العبّاس : ومن حُلو المراثى وحَسَنِ التأبين شعرُ ابن مُناذِر ، فإنه كان رجلا عَالماً مقدّما شاعرا مُفلقا وخطيبا مِصْقَعاً ، وفى دهر قريب ، فله فى شعره شدّة كلام العرب بروايته وأدبه ، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته ، ولا يزال قَدْ رَمَى فى شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل ، والقول المتّسق النبيل » (٣) .

وفى حديث أبى الفرج الأصفهانى عن العباس بن الأحنف ، يقول فى سياق

---

(١) الشعر والشعراء ٢ / ٨١٦ ، وتجدر الإشارة إلى أن الصفحات من ٨٠٨ – ٨٢٦ تحتوى كلّها نماذج مما اختاره ابن قتيبة من جيد شعر أبى نواس وما سبق إليه ، باستثناء ملاحظات جزئية بسيطة سبق أن تعرضنا لها .

(٢) الكامل للمبرد ٢٩/١ .

(٣) الكامل ٢٨٨/٢ .

حديثه : « وقدّمه أبو العبّاس المبرد فى كتاب (الروضة) على نظرائه وأطنَب فى وصفه ، وقال : (رأيت جماعةً من الرواة يقدّمونه) قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخُلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ... وذلك بيّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسعَ الكلام كثير التصرّف فى الغزل وحدَهُ ولم يكن هجّاء ولا مدّاحا » (١) .

ويفوز أبو نواس – صاحب الدعوة الثائرة – بنصيبه من تنويه المبرد وإشادته ، فهو يوردِ مثالا من التشبيه الجيّد قولَ أبى نواس :

فكأنّى بما أُزينُ منها ∴ قعَدِىٌّ يزين التحكِيمَا

ثم يوُردُ القطعةَ التى منها هذا البيت حتى ينتهي إليه ، ويبيّن سبَب قولها من أنّ الخليفة تشدّد عليه فى شرب الخمر ، ثم يختم حديثَه بتقرير أنّ هذا المعنى لم يَسبق إليه أحد (٢) . وجاء فى (الموشّح) للمرزبانى حكايةً عن المبرد أنه قال : « وقوله (يعنى قول أبى نواس) :

لا تُعرِّجْ بدارِسِ الأطلالِ ∴ واسْقِنِيها رقيقةَ السِّربالِ

هذا المصراعُ فائق فى جودته جدًّا ، رقةً ولطافةً وسلَسا وسهولة ، وتمامه غير مرضى ، وهو قوله :

ماتَ أربابُها وبادَتْ قُرَاهَا ∴ وبَراها الزمانُ بَرْىَ الخِلال (٣)

ونحن إنما نرمى من وراء هذا المثال إلى بيان كيف أن المبّرد ، العالمَ اللغوىَّ الذى وُصِفَ بأنه من تلاميذ علماء القرن الثانى من حيث التعصبُ للقديم ضد الحديث، ذلك المبرد نفسه يورد مطلعا خمريا ثائرا يشيد به ، ويتجاوزه ليحدّد الخطأ فى البيت التالى له ، دون أن يتفوّه بكلمة نقدٍ واحدة يوجّهها نحو مبدأ الافتتاح بالخمر .

ذلك عن أبى نواس ، أما معاصره الحسين بن الضحاك ، والذى امتدّ به العمر

---

(١) الأغانى ٨/٣٥٢ .

(٢) الكامل ٢/٩٣ ، ٩٤ .

(٣) الموشح ص ٢٧٠ .

إلى حوالى (سنة ٢٥٠ هـ) فقد نال من المبّرد لقب (أشعر المحدثين) ، ففى الأغانى « حدثنا على بن العباس بن أبى طلحة الكاتب قال : سمعت أبا العباس محمد بن يزيد الأزدى يقول : حسين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أىّ دِيبَاجَةِ حُسْنٍ ∴ هيّجتْ لوعةَ حُزنى (١)

(٨ أبيات)

ويدلّ خبر فى الأغانى على اهتمام المبّرد بأخبار ذلك الشاعر ، والمناسبات التى قال فيها شعره ، مما جعله مصدراً لبعض أخبار الشاعر الخليع (٢) .

وهناك خبر أورده الصّولى فى (أخبار أبى تمام) يطلب فيه محمد بن يزيد المبّرد من عبدالله بن المعتز أن يعينهَ فى الحصول على أبيات لأبى تمّام بَعَثَ بها إلى الحسن بن وهب يستسقيه نبيذا ، أنشدها الحارثىّ عند القاضى إسماعيل ، ويصف المبّرد الشعر قائلا « لم أرَ أحسنَ منه فى معناه » ويقول : إنه كَرِهَ أن يستعيده ، أو يقول له اكتبه ، لحال القاضى ، ويقول ابنُ المعتز : « فأنشدتُه الأبيات – وكنت أحفظها – فكتبها بيده » (٣) .

ولا تنكر الأخبار أن المبّردَ كان فى أول أمره منحرفا عن أبى تمّام ، ولكنها تشير بقوة إلى رجوعه فى رأيه وأخذه فى استحسان شعره بعد ذلك ، إذ يحكى عبدالله بن المعتز كيف كان المبّرد فى البداية لا يوفّى أبا تمام حقه ، وكيف أن رجلا من الكتاب أنشده شيئا من شعر أبى تمام بحضرة ابن المعتز ، « فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعتُ أحسن من هذا قط ، ما يهضم هذا الرجلَ حقه إلا أحد رجلين ، إمّا جاهلٌ بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، وإما عالم لم يتبحّر شعره ولم يسمعه . قال أبو العباس عبدالله بن المعتز : وما مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله ، مقرّ بفضل أبى تمام وإحسانه » (٤) .

---

(١) الأغانى ١٥٢/٧ .

(٢) الأغانى ٢٠٨/٧ ، ٢٠٩ .

(٣) الصولى ، أخبار أبى تمام ص ١٨٤ .

(٤) الصولى أخبار أبى تمام ص ٢٠٤ .

أما تقدير المبرّد للبحتري وإعجابه بشعره فقد بلغ حدًّا لفت معاصريهما ، إذ يحكي أن المبرد – وكان متكبّرًا – لم يكن يقوم لأحد إلاّ للبحتري ، وأنه كان يعظمه ويتخلّى له عن مجلسه ، وكان إذا أنشد من شعره قال : « أنشدنا شاعرُ دهره ونسيجُ وحده البحتري » (١) .

وفي (حلْية المحاضرة) خبر مؤدّاه أن البحتري أنشد المبرد قطعة من شعره جعلت اللغوي الكبير يتعجب من حسنها ، وذلك بحضور عدد من الأدباء ، حيث راح البحتري يتساءل في زهو عما إذا كان قد سَبَق الجميع في معنى تلك القطعة ، وكان المبرد يجيب بالموافقة ويبدي استحسانه وإعجابه (٢) ، وهو كثير التنويه بالبحتري ، وفي نفس الوقت لم يكن يحمل على أبي تمام ، بل وقف منه موقفا موضوعيا معتدلا ، واعترف بأنّ له إحسانا كثيرا ، وهو موقف أبعد ما يكون عن صفة التعصب .

أكثر من هذا أنه صرح بأن للطائيين من المحاسن ما لعلّه يفوق ما في شعر الأوائل، ففي (أخبار أبي تمام) للصولي : « حدثني أبو العباس عبدالله بن المعتز قال : جاءني محمد بن يزيد المبرد يوما فأفضنا في ذكر أبي تمام ، وسألته عنه وعن البحتري، فقال : لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحتري ، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع ، وشعر البحتري أحسن استواء وأبو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي كان أعجبَ إلى الأصمعيّ . وما أشبّه أبا تمام إلا بغائص يخرج الدرّ والمَخْشَلَبَة ، ثم قال : والله إن لأبي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وُجدَ فيه مثله » (٣) .

هذا ، ومن المعروف أن المبرّدَ قد أفردَ المحدثين بكتاب خاصّ هو (الرّوْضة) (٤)،

(١) أخبار البحتري للصولي ص ٥٠ – حاشية المحقق ، نقلا عن (أمالي المرتضى) و (إنباه الرواة) وابن عساكر

(٢) حلية المحاضرة للحاتمي ١ / ٢٢٠ ، ٢٢١ . وفي الخبر أن المبرّد قد غضب على ابن درستويه (ت ٣٤٧) – راوي الخبر – لموقفه المتحامل على البحتري ، والخبر نفسه في (زهر الآداب) ٢ / ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

(٣) أخبار أبي تمام للصولي ص ٩٦ ، ٩٧ ، ذيل أخبار البحتري ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤) الفهرست لابن النديم ١ / ٦٥ ، الأغاني ٨ / ٣٥٢ ، تاريخ بغداد ٣ / ٣٨٦ ، إرشاد الأريب ١٩ / ١٢١ .

قال ابنُ عبدربه : إنه « قصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين » (١) ، كما أفردَ لهم بابا فى كتاب (الكامل) ، وقال : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولّدين ، حكيمة مستحسنة ، يُحتاج إليها للتمثّل ، لأنها أشْكَلُ بالدهر » (٢) .

وفى هذا الباب تتردد أسماء بشّار ، وعبدالصّمد بن المعذّل ، وأبى العتاهية ، ومحمود الورّاق ، وأبى نواس ، وعبدالله بن محمد بن أبى عيينة ، وصالح بن عبدالقدّوس ، ودِعْبِل بن على الخُزاعى ، وأبى تمام ، وغير هؤلاء ممن اختار من أشعارهم (٣) .

ثم عقد بابا آخر (من التشبيه المصيب للعرب والمحدثين) ، وبعد أن يستوفى شطرًا من تشبيهات العرب يقول : « ثم نذكر بعد هذا طرائفَ من تشبيه المحدثين وملاحاتهم ، فقد شرطناه فى أول الباب ... ومن أكثرهم تشبيهًا لاتّساعه فى القول وكثرة تفنّنه واتّساع مذاهبه الحسَنُ بنُ هانئ » .. ثم يورد عددًا من تشبيهاته وآخرَ من تشبيه بشّار ومسلم بن الوليد وعبّاس بن الأحنف وأبى العتاهية وعبدالصمد بن المعذّل (٤) .

ولم يكن **أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب** – رأس مدرسة الكوفة فى عصره – (٢٠٠ – ٢٩١) بمعزل عن تيار التذوق والنقد لشعر المحدثين ، والمشاركة فى استحسان ذلك الشعر والتنويه بقائليه ، ويلقانا فى هذا الصدد قصة تفضيل ثعلب لمسلم بن الوليد على أبى نواس ، ففى خبر عن علىّ بن العباس قال : « حضرتُ مع البحترىّ مجلسَ عبيد الله بن عبدالله بن طاهر ، وقد سأل البحترىّ عن أبى نواس ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ؟ فقال البحترى : أبو نواس أشعر ، فقال عبيدالله : إن أبا العباس ثَعْلبا لا يطابقُك على قولك ، ويفضل مسلما » (٥) .

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٨٠ .

(٢) الكامل ١ / ٢٣٣ .

(٣) الكامل ١ / ٢٣٣ – ٢٤٧ .

(٤) الكامل ٢ / ١٠٥ – ١١٣ ، وينظر كتاب : (المبرّد : حياته وآثاره) لمحمد عبدالخالق عضيمة ص ٥٠ ، ٥١ حيث يتحدث عن موقف المبرد من الشعراء المحدثين .

(٥) الباقلانى ، إعجاز القرآن ص ١٧٦ .

ويقول الصولى : « ولقد حدثنى بنو نَيْبَخْت – وما رأيت أبا العباس أحمد بن يحيى ، على جلالته ، عند أحد أجلّ منه عندهم – ... أنه قال لهم : أنا أعاشر الكتاب كثيرا وخاصة أبا العباس بن ثوابة ، وأكثر ما يجرى في مجالسهم شعرُ أبى تمام ، ولست أعلمه ، فاختاروا لي منه شيئا ، فاخترنا منه له ، ودفعناه إليه ... قال : فكان ينشدنا البيتَ من شعره ثم يقول : ما أراد بهذا؟ فنشرحه له ، فيقول : أحسن والله وأجاد » (١) .

وفي الأغانى « أخبرنى على بن العباس ، قال أنشدنا أبو العباس ثعلب ، قال أنشدنى حمّاد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك ، قال أنشدنى حسين لنفسه :

لا وحُبّيكَ لا أُصـــــا ∴ فحُ بالدّمْعِ مدْمَعـــــا
من بكَى شَجْوهُ اسْتَــرا ∴ حَ وإنْ كانَ مُوجَعَـــا
كَبِدِى مِنْ هواكَ أسْـــ ∴ ـــقَمُ من أنْ تَقطّعـــا
لم تدَعْ سَوْرَةُ الضّنَـــى ∴ فِيّ للسقْم مَوْضِعـــا

قال : ثم قال لنا ثعلب : ما بَقِيَ مَنْ يُحْسِنُ أن يقُولَ مِثْلَ هذا » (٢) .

وحكى الصّولى قال : « أنشدَ بعضُ الكتاب أحمدَ بنَ يحيى ثعلبا قولَ البحترى للحسَن بن وهب :

وإذا دَجَتْ أقلامُه ثم انتَحَـــتْ ∴ بَرقتْ مصابيحُ الدُّجَى فى كُتْبِهِ
فاللّفظ يقرُبُ فهمُه من بُعـــدِهِ ∴ منّا ويبعُدُ نَيْلُه فى قُربِـــــــهِ
حِكَمٌ سحَائبُها خلالَ بنَانِـــــهِ ∴ هطّالَةٌ وقَلِيبُها فى قَلْبِــــــهِ
كالرّوض مُؤتَلِفاً بحُمْـــرةِ نَوْرِهِ ∴ وبياضِ زَهْرتهِ وخُضرةِ عُشْبِهِ
وكأنّها والسّمعُ معْقُودٌ بِهــــا ∴ وجهُ الحَبيبِ بَدَا لعَينِ مُحِبِّـــهِ

---

(١) رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك ص ١٦ .
(٢) الأغانى ٧/١٧٤ ، ١٧٥ .

واستعادها أبو العباس حتى فهمَها ، ثم قال : لو سمع الأوائلُ هذا الشعر لما فضلوا عليه شعرا » (١) .

تلك بعضُ مواقف اللغويين والنحاة ممن اتُّهموا بالتعصب للقدماء ضد المحدثين، ولم يكن هناك قصدٌ إلى تتبع هذه المواقف ، ولا قُمتُ بإحصاء مارُوِىَ عنهم فى هذا الصدد وإنما هى نصوص وأخبار وجدَتْ عفوا فى سياق أخبار الشعراء ، وهى تدلّ على أن موقف أولئك اللغويين لم يكن فيه أدنى قدر من العصبية ضدّ المحدثين من الشعراء . فهم يروون أشعارَهم ، ويتذوقونها ، وينقدونها ويحكُمُون لها أو عليها كالشعر القديم سواء بسواء .

على أنه علت فى خلال ذلك كله أصوات كثيرة من خارج ميدان اللغويين والنحاة تفضل الشعرَ الحديثَ ، وتشيد به ، وتشجّعه ، وكانت هذه الأصوات من رجال شتى : أدباء وشعراء ومتكلمين وفقهاء ... الخ .

وعلى سبيل المثال : دافع **الجاحظ** (ت ٢٥٥) عن الشعراء المحدثين ، ونوّه بكثير منهم ، وقدّم الكثيرَ من أشعارهم المختارة ، وتحدّث عن المطبوعين من المولّدين ، فذكر منهم بشاراً والسيّد الحميَرىّ وأبا العتاهية وابنَ أبى عُيَيْنَةَ ، ثم وصف بشّاراً بأنه « أطبعُهم كلّهم »(٢) ، وبأنه « من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع » (٣) ، وقال : إن « بشّاراً مع العيُّوق ، وليس فى الأرض مولّد قروىّ يُعدّ فى المحدث إلاّ وبشّارٌ أشعرُ منه » (٤) .

كما نوّه بالعتّابى ، وقال : إنه « ممن كان يجمع بين الخطابة والشّعر الجيّد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن ... وعلى ألفاظه وحَذْوه ومثاله فى البديع يقول جميعُ مَنْ يتكلّف ذلك من شعراء المولّدين ، كنحو منصور النَّمَرىّ ومسلم بن الوليد الأنصارى ، وأشباههما » ، وقال : إنه « كان يحتذى حذو بشّار فى البديع ، ولم يكن

---

(١) نيل أخبار البحترى ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) الأغانى ١ / ٥٠ ، وينظر ٣ / ٨٤ .

(٣) الأغانى ٣ / ١٤٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٤٥٤ .

فى المولّدين أصْوبُ بديعًا من بشّار وابن هرمة » (١) .

ونحن نلاحظ أن خطّ التطوّر البديعى كان واضحًا فى ذهن الجاحظ ، الذى يبدو مُمْسكًا بالخيط الذى التقطه من بعده صاحب (كتاب البديع) ، ممّا يدلّ على اهتمام واضح بشعر المحدثين روايةً ودرايةً كما يقول أصحابُ علم الحديث .

وفى هذا السياق يفوز أبو نواس بإعجاب الجاحظ وتنويهه ، خاصةً فى شعره الطَّردى ، قال : « وصفات الكلاب مستقصاةٌ فى أراجيزه ، هذا مع جودة الطّبع وجودة السّبْك ، والحذق بالصنعة ، وإنْ تأمّلتَ شعره فضّلته » (٢) . وقد فضّله هو بالفعل فى أبياته التى يصف فيها إطراقَ الناس فى مجلس كُلَيْب وائل على مُهَلهِلِ بن ربيعة – شقيق كُلَيْب – فى أبياته التى تصف نفس المشهد (٣) .

وقد أبْدى ابنُ عبدِ ربّه إعجابه بما اختاره الجاحظ من شعر أبى نواس حين اجتلب ذكره فى (كتاب الموالى) حيث وصفه بأنه « من أقدر الناس على الشّعر وأطبعهم فيه » (٤) .

وإضافةً إلى ما سبق يردّ الجاحظ على من يُبَهْرجون أشعار المولّدين ، قال : « ولم أرَ ذلك قطّ إلاّ فى راويةٍ للشّعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصرٌ لعرَفَ موضع الجيِّد ممّن كان وفى أى زمان كان » (٥) .

ذلك موقف الجاحظ الناقد من شعر المحدثين (٦) .

وألف أديبٌ شاعر هو **ابنُ المعتز** (ت ٢٩٦) كتابَه فى (البديع) ، وإذا كان قد استهدف تبيينَ أنّ البديعَ لم يسبِق إليه المحدَثون فإنه لم يستهدف ذمّ البديع فى ذاته ولا ذمَّ مَسْلَك المحدثين فيه ، كما لم ينعَ على أبى تمام أسلوبه الجديدَ فى البديع ، وكل

---

(١) الأغانى ١ / ٥١ ، وينظر ٣ / ٥٦ .

(٢) الحيوان ٢ / ٢٧ .

(٣) جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى ٧٩ .

(٤) العقد الفريد ٦ / ٨٠ .

(٥) الحيوان ٣ / ١٣٠ .

(٦) ينظر كتاب : النقد ، لشوقى ضيف ص ٥١ .

ما أخذه عليه هو الإفراط الذى يؤدى إلى الإساءة ، ولقد ألّف ابنُ المعتز كذلك كتابه (طبقات الشعراء) وهو قد روَى شعرهم وأشاد بهم دون أن يُلزمهم بمنهج أو أسلوب تقليدىّ . وعندما ألف كتابا خاصّا عن أبى تمام لم يكن الكتابُ قاصرا على مساوئ أبى تمام ، وإنما كان فى مساوئه ومحاسنه ، فهو يعترف بأن له نصيبا من المحاسن ، وتدلّ الروايات على أنه كان يتّخذ موقف الدّفاع عن أبى تمام ضدّ من يعيبون شعره ، فهو يجادلُ إبراهيم بن المُدبّر ويردّه عن حَطِّه من أبى تمام ، ويظل ينشده من شعره الحسن حتى يُفحَمه (١) . ونراه يهاجم بشدة أولئك الذين يرفضون الأشعار الحسنة مثلَ أشعار أبى تمام (٢) وهو يحفظ شعر أبى تمام ويُملى منه على المبرّد حين أعجب المبّردُ بقطعة لأبى تمام لم يذكر منها إلا شطرا من مطلعها (٣) .

ولربما قيل إن هذه الأخبارَ يرويها الصّولي وهو مَنْ نعرف تعصُّبا لأبى تمام وتحيُّزا له ، فليس هناك ما يضمن سلامة هذه الأخبار ، أو على الأقل نسبتها لابن المعتز ، لكن لنرجع إلى كتاب ابن المعتز نفسه (طبقات الشعراء) وبدون استثناء ، لن نجد فى حديثه عن أبى تمام كلمة واحدة تغض من الرجل ، تماما كالمفاجأة التى نحسها حين نقرأ ترجمةَ ابن قتيبة لأبى نواس ، فنحن نجد فى حديث ابن المعتز عن أبى تمام نصوصا كالآتى :

« ومما يستحسن من شعره – وشعره كله حسن – داليّتُهُ فى المأمون ... (٤)
« وكذلك كلّ ما نذكر من قصائده هاهنا ، فإنا نقتصر على ذكر أوائلها نحو قوله.. » ، ويذكر له مطالعَ ثلاث عشرة قصيدة . ثم يقول : « ولو استقصينا ذِكْرَ أوائل قصائده الجياد التى هى عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك ، وإن لم نذكر منها إلا مصراعا ، لأنّ الرجلَ كثيرُ الشعر جدا ... وأكثر ما له جيد ، والردىء الذى له إنما

---

(١) أخبار أبى تمام ص ٩٧ – ٩٩ .
(٢) أخبار أبى تمام للصولي ص ١٧٥ – ١٧٦ .
(٣) أخبار أبى تمام للصولى ص ١٨٤ .
(٤) ابن المعتز ، طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

هو شىءٌ يستغلق لفظه فقط ، فأما أنْ يكون فى شعره شىء يخلو من المعانى اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا » (١) .

ذلك رأى ابن المعتز ولعلّه أكثرُ صراحة فى قبول (جديد) أبى تمام من قُدامة .

على أنّ احتمال تأثر ابن المعتز بالفكر الأرسطى لا يزال قائما ، وأمام هذا الاحتمال الذى يرفضه – رفضا قاطعا– رجل مثل كراتشكوفسكى فى دراسة له عن (البديع عند العرب) حيث يرى عدمَ تأثّر ابن المعتز بالبلاغة الأرسطية (٢) ، فإننا لا نزال نجزم بأنه لا دخلَ للفكر اليونانى فى قبول ابن المعتز لأبى تمام – كممثّل للجديد فى عصره – وهذا الرأى نسوقه مطمئنين ، حتى مع افتراض تأثّر ابن المعتز بخطابة أرسطو ، ذلك أن هذا التأثر ، لو وُجدَ ، فإن مجاله معروف ، أعنى أن احتمال تأثر ابن المعتز بخطابة أرسطو مقصور على الجانب البلاغىّ من مؤلفات ابن المعتز ، وهو الجانب الذى تضمنه كتاب (البديع) .

ومن ناحية أخرى فإن النقادَ قبل ابن المعتز وبعده واصلوا الترحيب بالجديد والتنويه به ، أما قبله فيصادفُنا تصريحُ ابنِ قتيبةَ بأن اللهَ « لم يقصر .. العلمَ والشعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمن ، ولاخصّ به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كلّ دهر » (٣) ، كما يصادفنا ماسبق من تصريح المبرّد من أنه « ليس لقدم العهد يُفضّل القائل ، ولا لحدْثان عهد يُهتضم المصيب » (٤) . وأمّا بعده فتلقانا كلماتُ ابنِ عبد ربّه : « إنّى رأيتَ آخرَ كلّ طبقة ، وواضعى كلّ حكمة ، ومؤلّفى كلّ أدب أعذبَ ألفاظًا وأسهلَ بنيةً وأحكمَ مذهبًا وأوضحَ طريقًا من الأول ، لأنه ناكصٌ متعقب ، والأولُ بادىء متقدّم » (٥). وقد بلغ الأمرُ إلى الحد الذى جعل

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨٦ .

(٢) راجع بحثا بعنوان (البديع عند العرب فى القرن التاسع) ضمن مجموعة بعنوان (دراسات فى تاريخ الأدب العربى) للمستشرق الروسى أغناطيوس كراتشكوفسكى ص ٣٧ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٦٣ .

(٤) الكامل ١ / ٢٩ .

(٥) العقد الفريد ١ / ١٦ .

رجلا مثل الثعالبى (فى القرنين ٤ ، ٥) يعلن أنّ « أشعارَ المحدثين ألطفُ من أشعار المتقدمين ، وأشعارَ المولّدين أبدعُ من أشعار المحدثين ، وكانت أشعارُ العصريين أجمعَ لنوادر المحاسن ، وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ، لانتهائها إلى أبعد غايات الحُسن ، وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظّرف ، تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز ، ومن حدّ الشعر إلى السحر » (١) .

وهكذا تتوالى حلقاتُ السلسلة مطردة متسقة ، ويتوالى باطّرادها قبول أعلام النقد العربى للشعر الحديث وإعجابهم به وإكبارهم له . ومن الغريب أن نرى باحثا ممتازا مثل المرحوم الأستاذ طه إبراهيم يضع المبّرد وابنَ المعتز فى صف واحد يرفض الحديث ويهاجم الجديد على الرغم من اعترافه بانتماء المبرّد إلى طائفة اللغويين والنحاة وانتماء ابن المعتز إلى طائفة الأدباء ، ومع ذلك رأى أنهما يصدُران عن مقياس واحد فى النقد ، وأنهما يعيبان شعر أبى تمام لخروجه عن سنن القدماء ولأن فيه عناصر مرذولة (٢) ، ولقد رأينا أن المبّردَ تحول إلى الإعجاب بأبى تمام . وأما ابن المعتز فعلى الرغم من رسالته فى محاسن شعر أبى تمام ومساوئه فإن الرجل لم ينسَ المحاسن ، ومن ناحية أخرى فإن ما نُقل عنه ، وما تأكدت صحتُه من واقع ترجمته لأبى تمام فى (طبقات الشعراء) يؤكد قبولَ الرجل لشعره وإعجابه به ، إلى أقصى درجات الإعجاب .

وإذا كان أولئك النقاد – ممن عرضنا لهم – قد قبلوا الجديد ، ولم يتعصبوا ضده، بل وقبلوا منه ما علموا أنه مخالف كلَّ المخالفة لمذاهب القدماء ، وذلك دون أن يتعرضوا لأى أثر من آثار الفكر الأجنبي ، فإننا نقرر مطمئنين أن قدامةَ لم يكن أولَ من صرّح بقبول الجديد ، ولم يكن قبول الجديد متوقّفا على دخول تيار من الفكر الأجنبى إلى العقلية العربية . ولولا أن هذه العقلية بطبيعتها مستعدة لقبول الجديد لما كان فى الإمكان أن تكون الغلبةُ فى النهاية لمذهب أبى تمام فى البديع – وإن حدث فيه بعض التعديل – وهو المذهب الذى سيطر على الشعر العربى من القرن العاشر الميلادى إلى

(١) الثعالبى ، يتيمة الدهر ١/١٦ ، ١٧ .

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه إبراهيم ص ١٢٤ .

القرن العشرين ، كما يقول عبدالقادر القط، والذي لم يكن أبو تمام خلاصة له كما تصوّر الآمدي ومعاصروه ، بقدر ما كان نقطة للبداية . (١) .

وقد يكون هذا الجديدُ الذى احتفل به النقادُ العرب شيئا تافها ، وقد يكون انتصارُ مذهب أبى تمام أكثر ضررا مما لو قُضِىَ عليه ، ومع ذلك فنحن نناقش المبدأ: هل ظل قبولُ الجديد معدوما ؟ أو مشروطا بشروط لا تتيح القبول إلا لما كان كالقديم– حتى طرأ العنصرُ الأجنبى متمثّلا فى قدامة ، فحرر النقد العربى من رفض الجديد ؟. ونحن نترك الإجابة للنصوص السابقة .

ونعود إلى موضوعنا فنرى أن التصوّرَ القديم لموقف قدامى اللغويين والنحاة من الشعر الحديث ، وهو التصور الذى يتهم أولئك العلماء برفض الجديد والتعصب للقديم – هذا التصور لا يستطيع أن يقدّم حلولا مقنعةً للمشاكل السابقة، وهى :

١ – مشكلة النصوص الوفيرة التى يُشيد فيها أولئك النقاد بالشعر المحدث حتى مع عِلْمهم بخروج بعضه صراحةً عن المنهج المألوف ، بل إنهم ليفضلون كثيرا الشعر المتحرر من سيطرة القديم على الشعر الذى سار فى ركابه .

٢ – مشكلة ما يقال من رفض اللغويين الاحتجاجَ ببعض أشعار الجاهليين وأوائل الإسلاميين وهى مشكلة يوجدها القولُ بأن أولئك اللغويين حكموا الزمن فى الشعر ، ولم يقبلوا منه إلا ما كان قديما ، وذلك حين نراهم يرفضون بعض القديم أيضا.

٣ – التناقض الذى يسبّبه هذا التصور فى مسار الفكر النقدى عند العرب ، كيف ظل النقد لفترة – تزيد على قرنين – يرفض كل ماهو جديد ويتعصب لكل ماهو قديم ، ثم راح بعدها ولا همّ له إلا تسجيل الجديد والمفاضلة على أساسه ، وفتح الأبواب فى الكتب لدراسته ؟ .

---

(١) Elkott (A), Arab Conception of Poetry as Illustrated in Kitab Al - Muwazanah Bayna Abi Tammam Wal - Buhturi, P . 18 .

٤ – ما تثيره محاولة تعليل التحول السابق – إزالة للتناقض – بعزوه إلى عنصر أجنبي جاء إلى الفكر العربي والنقد العربي بالذات عن طريق دعاة النقد اليوناني ، ومن المعلوم أنّ مجردَ الإعلان عن رأى ما لا يكفى لشيوع هذا الرأى وانتشاره ، إذ يلزمه المناخ المهيأ لقبول هذا الرأى ، المستعد –بطبيعته– لتبنّيه والدفاع عنه ، ولولا ذلك لاختنق فور إعلانه .

ورغم كل تلك المشاكل ، ورغم ما تفيض به الكتبُ القديمة من نصوص قاطعة فى قبول قدامى النقاد للشعر الحديث ، فإن الدّارسين المحدثين ظلّوا – بلا استثناء – على ترديد القول بتعصب أولئك النقاد للشعر القديم ، ومهاجمتهم للحديث .

والغريب أن أصحاب التصوّر القديم هؤلاء ، لا يملكون من الأدلة على تأكيد هذا التصور سوى عدد قليل جداً من النصوص لا يمكن أن يقوم دليلا على ما حاولوا أن يؤكدوه فى كل المناسبات .

فالأصمعي يروى أنه جلس إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ، أو ثمانى حجج فى رواية أخرى ، فما سمعه يحتج ببيت واحد إسلامى ، وقد وقف عند هذا النص طه حسين وطه إبراهيم وأحمد أمين وغيرهم ، وقال أبو عمرو « لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية لما فضّلت عليه أحدا » ، هذا النص استشهد به كل من طه إبراهيم ومحمد مندور ومحمد مصطفى هدارة . وقال ابنُ الأعرابى: «إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبى نواس وغيره – مثل الريحان يُشمّ يوما ويذوى فيُرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا » ، وهذا النص أورده طه إبراهيم وهدارة . ويحكون عن ابن الأعرابى أيضا أنه أعجب بأرجوزة لأبى تمام عند سماعها على أنها لشاعر من هذيل ، وأنه أمر بكتابتها ، فلما علم أنها لأبى تمّام قال : خَرِّقْ ، خَرِّقْ ، وقد أورد هذا الخبر مندور وهدارة ، وهو يقول عن شعر أبى تمام : « إنْ كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل » والنص موجود عند مندور وهدارة . بل يحكون عن أبى عمرو بن العلاء ما ليس له دلالة فى الموضوع إطلاقا ، كقوله عن الفرزدق وجرير « لقد كثّرَ هذا المحدثُ وحَسّنَ حتى لقد هَمَمتُ بروايته » . وهذا النص واردٌ عند طه إبراهيم ومندور .

وإسحاق الموصلى نفسه – وهو شاعر محدث – يُستشهد بأقواله على أنه من أنصار القديم ، فهناك خبر فى الموشح للمرزبانى يقول « كان إسحاق الموصلي لا يعُدّ أبا نواس شيئا ، ويقول : هو كثير الخطأ ، وليس على طريق الشعراء » والنص استشهد به طه إبراهيم وهدارة . ويقول إسحق لأبى تمام « ما أشد ما تتّكئ على نفسك » يعنى أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله ، ويقول طه إبراهيم : إنه كان يرى أن بشّارا كثير التخليط ، وأن شعرَه متفاوت ، وأنه كان يفضّل مروانَ لاستواء شعره ، كذلك يورد قصة خلَف الأحمر مع ابن مناذر الذى طلب من خلَفٍ أن يُفاضل بين شعره وشعر الجاهليّين فرماه بصَحْفَة مملوءة مرقاً ، وأيضا قصة ابن مناذر مع أبى عبيدة حين بعث إليه الأول : أن اتّق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهليّ وهذا إسلامى ، وذاك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين لا بين الشعرين .

وينقل هدارة عن (الوساطة) للجرجانى خبرَ تعصّب أبى رياش القيسىّ على المحدثين خاصة البحترى وأبا تمام .

***

تلك هى مجموعة النصوص التى يستند إليها الدارسون المحدثون فى تأكيدهم لرفض قدامىَ النقاد واللغويين للشعر المحدَث ، وكما نرى ، فإن معظمها نصوصٌ عامة غير قاطعة فى دلالتها ، ولا تعبّر عن اتجاهات مستقرة لدى أصحابها ، وماذا يمكن للباحث أن يستخلص – على سبيل المثال – من نصّ أبى عمرو الذى يطلق فيه على طبقة الفرزدق وجرير صفة « المحدثين » ؟ ثم ماذا يمكن للباحث أن يستخلص من قول إسحاق الموصلى عن أبى تمام : إنه يتّكئ على نفسه ؟ .

ولقد سبق أن أشرت إلى ظاهرة التعسّف فى اختيار النصوص وبتْرها بغَرض تحميلها الفكرة التى يريدها الباحث ، ومن الأمثلة على ذلك الخبر المروى عن تعصب أبى رِياشٍ القيْسىّ ضد المحدثين وبالذات ضد البحترى وأبى تمام ، هذا الخبر استشهد به هدّارة ووقف بسياقه عند النقطة التى تكفُلُ له تأييدَ فكرته - التى آمن بها بعيداً عن النصّ - ومع ذلك فالخبر كما ورد فى الوساطة (ص ٥١) له بقية ، فإن أبا رياش سمع شعرا للبحترىّ فأعجب به وسألَ عن صاحبه فأخبروه ، فرجع عن رأيه وحضّ الناسَ على رواية شعره . ومن الطريف أن نذكر أن هؤلاء الدارسين وقفوا طويلا عند ما يُروى عن ابن مُناذِرٍ وإلحاحه على خلَف وأبى عبيدة ليحكما بينه وبين عدِىّ بن زيد ، واعتبر ذلك دليلا ضد الناقدين ، وتدل رواية فى (فحولة الشعراء) للأصمعي على أن ابنَ مناذر ذلك - وليس خلف أو أبو عبيدة - هو الذى كان لا يعْدِلُ بعدىّ أحدا ، وأنه كان يفضله على جميع الشعراء ، بحيث يصبح ما يدّعيه على الناقدين من تفضيلهما لعدىّ ضربا من التهكم عليهما والسخرية بهما[1] .

• • •

بقيت هناك مسألة أخيرة تتعلق ببعض النصوص التى تُعدّ صريحة فى تخصيص الشعر المحدث ببعض أوجه النقد ، من ذلك ما يُروى عن أبى عمرو بن العلاء ، وقد سئل عن المولدين فقال « ما كان من حَسَنٍ فقد سُبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمطُ واحِداً : ترى قطعةَ ديباج وقطعة مَسيح وقطعة نِطْع »[2] ، وهناك نص فى الأغانى حيث يقول الأصمعى عن إبراهيم بن هَرْمة ، بعد أن يعلن إعجابه الشديد به وبشعره « ما يؤخره عن الفحول إلا قربُ عهده »[3] .

ويصرح ابنُ الأعرابي - فيما نقل صاحب الموشّح - بأن « أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبى نواس وغيره - مثل الريحان ، يشم يوما ويذوى فيرمَى به ، وأشعار القدماء مثل المسْك والعنْبر كلما حركته ازداد طيبا » ، وينقل عنه صاحب الموشح أيضا قوله ، وقد سأله رجل عن بعض شعر أبى نواس : « أمَا هذا من أحسَنِ الشعر؟ فقال :

---

(١) فحولة الشعراء ، للأصمعى ١٩ ، ٢٠ .

(٢) العمدة ١/٩٠ ، ٩١ .

(٣) الأغانى ٥/٢٦٤ .

بلى ، ولكنّ القديمَ أحبُّ إليّ » (١) .

في هذه النصوص صفتان أساسيتان وصُفَ بهما الشعرُ الحديث ، ويمكن الوقوف عندهما :

الأولى ، صفةُ التفاوت ، التي عبّر عنها أبو عمرو بقوله : « ليس النّمطُ واحدا ... الخ » وحتى لانزعجنا هذه الصفة ، فنتصور أنها كانت مأخذاً خطيرا يمكن أن يتسبب في رفض شعر جيل بأكمله أو أجيال ، نشير إلى أنه كان هناك ما يشبه الإجماع على اتّصاف شعر النابغة الجَعْدي بهذه الصفة ، وذلك عندما يصفون ذلك الشاعر بأنه « صاحب خُلقان ، عنده مِطْرَف بألف وخَلَقٌ بدرهم » (٢) فيما يحكي الأصمعي عن بعضهم ، وقد حكاه مرة أخرى عن الفرزدق الذى قال عن النابغة «صاحب خُلقان يكون عنده مِطرف بألف وخِمار بَوافٍ » (٣)ومرة أخرى يروى الخبر عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن الفرزدق ، ويعقّب الأصمعي بقوله : « وصدَق الفرزدقُ ، بيْنَا النابغةُ في كلام أسهلَ من الزّلال ، وأشدَّ من الصّخر ، إذْ لانَ فَذَهَبَ » (٤) ثم يمثّل لهذا التفاوت بشعر له من قصيدة واحدة تتفاوت بين الجزالة واللين . وينقلون عن محمد ابن سلام قوله : « كان الجَعْديّ مختلفَ الشّعر » (٥) ، أكثر من هذا فإنّ ابن سلام يحكي أنّ الأصمعي كان يُعجب من النابغة بتلك الصفة ويمدحه بها « وكان الأصمعي يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلّة التكلّف فيقول : عنده خِمار بوافٍ ومطْرف بآلاف » (٦) ويقول ابن قتيبة : « وكان العلماءُ يقولون في شعره: خِمارٌ بوافٍ ومطرفٌ بآلاف ، يريدون أن في شعره تفاوتــا ، فبعضه جدٌّ مبرّز ، وبعضه رديءٌ ساقط » (٧) .

---

(١) الموشح ص ٢٤٦ .

(٢) الموشح ص ٦٤ .

(٣) الخبر فى الموشح ، وفى الأغانى ٢٨/٥ .

(٤) الموشح ص ٦٤ .

(٥) الموشح ص ٦٥ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠٥ .

(٦) ابن سلام ، طبقات الشعراء ص ١٠٥ .

(٧) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢٤٩/١ .

والصفة الثانية : التى وُصفَ بها شعرُ المحدَثين جاءت على لسان ابن الأعرابى ، فهو يرى أن أثرَ هذا الشعر سريعُ الزوال ، وأن روعته تبدُو للوهلة الأولى ثم تتلاشىَ ، على عكس الشعر القديم الذى يحتفظ بروعته بصفة دائمة . والوصف بالروعة فى الظاهر ، والأثر المؤقت يُحدثُه الشعرُ ثم لا يلبث أن يَتلاشَى ، هذا الوصف قديم ، عُرف به شعرُ شاعر مشهور هو ذو الرمّة ، فأبو عبيدة يحكى عن جرير وصَفه لشعر ذى الرمة بأنه « نُقطُ عروسٍ وأبْعارُ ظباء » (١) ويذكر محمد بن سلام عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « إنما شعر ذى الرمة نُقطُ عَرُوس تضمحِلّ عن قليل ، وأبْعارُ ظباءٍ لها مَشَمّ فى أول شمّها ثم تعود إلى أرواح البَعْر » ، ويُحكى مضمون الخبر أيضا عن الفرزدق ، وعن جرير فى موضع آخر ، ويعقّب الأصمعى على ذلك كله بأن « شعر ذى الرمّة حلوٌ أولَ ما تسمعه فإذا كثُر إنشاده ضَعُف ، ولم يكن له حُسْن » (٢) .

وهذا هو مضمون النقد الذى وجهَهُ ابنُ الأعرابى إلى شعر المحدثين ، وهو ما يمكن تسميته بسرعة زوال الأثر الذى يُحدثه الشعر ، إلى جانب صفة التفاوُت التى قال بها أبو عمرو ، والتى أجمع النقاد – كما رأينا – على اتّصاف شعر النابغة الجَعْدى بها، وكان أبو عمرو نفسه إحدى حلقات سلسلة الرواة الذين نقلوا الخبر عن الفرزدق ، أحَد مَنْ وَصَفُوا شعرَ النابغة بذلك الوصف . ولاشك أن الرأى حازَ قبول أبى عمرو ، بدليل أنه لم يعارضْه ، وحازَ أيضا قبولَ الأصمعىّ ، الذى تولّى شرحه ، كل ذلك دون أن يُنْفىَ الجعدىُّ من سجل الشعراء ، ودون أن يُرفض شعره على أى من المستويين الفنى واللغوى .

وبالمثل يمكن أن يُقال فيما وصف به ابنُ الأعرابى شعرَ المحدثين من عدم العمق وسرعة زوال أثره ، فقد وُصف شعر ذى الرمة بنفس الوصف فى ألفاظ أخرى ، لقد قيل عن شعره إنه نقَطُ عروس تزول بسرعة ، وأبعار ظباء تتلاشى رائحتها (التى وصفوها بالطّيب) هى الأخرى بسرعة ، فهو حلوٌ أولَ ما تسمعه ، فإذا كثر إنشاده ضعُف ، كشعر المحدثين ، فيما وصفه ابنُ الأعرابى ، حين قال إنه كالريحان يُشمّ يوما

---

(١) الموشح ص ١٧٠ .

(٢) الموشح ص ١٧١ .

ويذوى . ومع ذلك لم يُطردْ ذو الرمة من جنة الشعراء ، ولم يرفَضْ شعرُه ، حتّى على الرغم من قول الأصمعى « ليس شعره يشبه شعر العرب .. إلا واحدة تشبه شعرَ العرب ، وهى التى يقول فيها :

* والبابُ دونَ أبى غسّانَ مَسْدودُ * . (١)

وهكذا يتضح أن الوصف بالتفاوت ، والوصف بسرعة زوال الأثر ، لم يكونا ليرفضا شعرا ، خاصة إذا كان شعر أجيال عديدة فى أمة مترامية الأطراف .

وتجدر الإشارةُ هنا إلى بعض نصوص للجاحظ تتعلّقُ بالموقف من المحدَثين، والرجلُ غيرُ متّهم بالعصبيّة عليهم ، وسبق أن رأينا إعجابَه الواضحَ ببشّار وأبى نُواس ، كما رأينا تتبُّعَه لمجرى الشعر المحدَث وتطوّره الفنّى المتمثّل فى تيّار البديع، ومع ذلك نجد من المناسب أن نقفَ عند بعض تصريحاته التى قد تُفهم فى ظاهرها على غير وجوهها .

فهو يقرّرُ فى أحد المواضع « أنّ عامّة العربِ والأعراب والبدْو والحضَر من سائر العرب أشعرُ من عامّة شعراء الأمصار والقرى من المولّدة » ، ثم يشفعُ ذلك بقوله : « وليس ذلك بواجبٍ لهم فى كلّ ما قالوه . وقد رأيتُ ناسًا منهم يُبهرجون أشعارَ المولّدين ويستسقطون من رواها ، ولم أرَ ذلك قطّ إلاّ فى راوية للشعْر غيرِ بصيرٍ بجوْهر ما يروى ، ولو كان له بصرٌ لعرف موضعَ الجيّد ممّن كان وفى أىّ زمانٍ كان » (٢).

وتمثّلُ نهايةُ النصّ صياغةً طيّبةً للموقف الذى يمكن الاطمئنانُ إلى صدوره من الجاحظ ، أعنى عدمَ تحكيم جنس الشاعر أو زمنه فى الحكم عليه ، وفى ضوء هذا الموقف يمكن أن يُحمل تصريحُه بأن عامّةَ العرب أشعرُ من عامّة المولّدين – مع اعترافه بأنّ ذلك ليس بواجب دائما ، كما يجب أن يُحملَ على غُلوّه المعهود فى الدفاع عن العرب ضدّ الشعوبيّة ، كأنْ يقررّ أن : « البديعَ مقصورٌ على العرب » (٣). أو أن

---

(١) الموشح ص ١٧٠ .

(٢) الحيوان ٣ / ١٣٠ .

(٣) البيان والتبيين ٤ / ٥٥ .

الارتجال خاصيّة فيهم ... الخ .

وأما شهادته بأن هناك من كان يُهرج أشعار المولّدين فيجب حملُها على ماصرّح به فى (البيان والتبيين)من اختلاف غايات الرّواة من رواية الأشعـار ، وهو ما سنعرض له فيما بعد [1] . فمثل هذه الفئات لايُنتظر منها الاهتمـامُ بأشعار المحدثين ، لا لأنها غير جديرة باهتمامهم ، ولكن لأنها خارج نطاق مَهَامِّهم ، وهو فى حقيقته مسلك بعيد عن التعصّب ، للشعر أو عليه ، استنادًا إلى مجرّد عامل الزمن .

من هنا فنحن فى النقد القـديم أحوج – كما قلت – إلى أن نبـحث عن اتجاهات عامة ، ونتائج تؤدى إليها هذه الاتجاهات على ضوء ملابسات متعددة ، أكثر من حاجتنا إلى التمسك بحرفيّة هذا النصّ أو ذاك ، لأن التمسكَ بالنصوص الجزئية – منفصلةً عن ملابسـاتها التـاريخيـة ، وعن غيـرها من النصوص – يحـول دون شمولِ النظـر ، ويحول بالتالى دون دقة الحكم .

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .



الباب الثالث
دراسة لطبيعة دعوة
أبي نُواس ومذهب أبي تمّام

مقدمـــــة :

بعد هذا العرض لتصور الدارسين المحدثين لموقف قدامى النقاد من الشعر المحدث ومن حركات التجديد فيه بصفة عامة ، وهذا ما دار حوله الباب الأول ، ثم عرض المشاكل التي يثيرها هذا التصور ، وهو ما دار حوله الباب الثاني ، يبدو من المناسب أن نعرض لحقيقة موقف أولئك النقاد - كما نراها - من أشهر محاولتين للتجديد في الشعر العربي ، وهما دعوة أبي نواس ومذهب أبي تمام . ويدفعنا إلى القيام بهذا العمل أسباب منها :

١ - ما رأيناه من اضطراب تصور الدارسين المحدثين لموقف النقاد العرب من هاتين المحاولتين .

٢ - أننا لا نوافق على النغمة السائدة في هذه الدراسات والتي تذهب إلى القول بأن حركات التجديد كانت عرضة للهجوم من فريق من النقاد تزعم التعصب للقديم وقدر له الانتصار في النهاية .

٣ - أننا بعدم موافقتنا على آراء غيرنا نكون ملزمين بتبيين حقيقة الصورة على النحو الذي تبدو لنا عليه ، حتى تتضح الحقيقة ، ويتضح بالتالي الأساس الذي نستند إليه في رفض التصور القديم للموقف .

ويوجد إجماع على أن المحاولتين المشار إليهما هما أشهر محاولات التجديد في الشعر العربي ، وإجماع أيضاً على أن مذهب أبي تمام تعرض للهجوم باعتباره مذهباً جديداً قام أنصار القديم بمحاربته (١) ، وأما دعوة أبي نواس فاختلفوا فيها ، فرأى البعض أنها قوومت وتعرضت للهجوم من جانب أنصار القديم الذين مثلهم

---

(١) راجع في هذا : تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه إبراهيم ص ١٠٤ ، ١٠٥ . النقد المنهجي عند العرب لمندور ص ٧٤ . شكري عياد ، كتاب أرسطو طاليس في الشعر ... ص ٢٤٨ ، حركات التجديد في الشعر العباسي لعبد القادر القط ص ٤١٩ . وراجع إبراهيم سلامة في عرضه للحوار حول أبي تمام كما نقله صاحب (الموازنة) ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٩٩ وما بعدها .

الرواةُ واللغويون (٢) ، أو مثَّلهم الأئمة وعلماءُ الدين (٣) ، ورأى آخرون أنها لم تُهاجَمْ ولم تقُمْ حولَها خصومةٌ على النَّحو الذى حدَث حول أبى تمام .

ما السببُ فى عدم قيام خصومةٍ حول دعوةِ أبى نواس ؟

يجيب مندور والقطّ بأنَّ السببَ هو أنّ تجديدَ أبى نُواس - كما دعا إليه - لم يكن تجديداً حقيقيًا ، وإنما كان يتناول مسائلَ فرعيةً ، ثم هو لم يكن مخلصا فى دعوته، كما يقول مندور (٣) ، ولم يقم بثورة فنيةٍ على تقاليد الشعر وإنما كانت دعوتُه نوعاً من الدفاع عن لون من السلوك الخُلُقى كما يقول القط (٤) ، هذا على الرغم مما يقرره مندور من أنّ مذهبَ أبى تمام إنما قام على ضربٍ من التجديد فى الصياغة وأنه كان تجديدا سطحيا، وما يقرره القط من أن تجديد أبى تمام جاء محدودا فى داخل الإطار التقليدى .

هناك إذن محاولتان للتجديد كلٌّ منهما سطحية لم تحاول أن تسلك بالتجديد طريقا جادًا يتناول جوهر الشعر ويغيّر من روحه ، وإن كانت إحدى المحاولتين قد مرّتْ دون مهاجمةٍ بينما اشتعلت الخصومةُ حول المحاولةِ الثانية فأوْجدتْ حركةً نقدية ضخمة اتّخذت طابعَ الصراع بين الجديد والقديم .

على أن القولَ بسطحيّة تجديد أبى نُواس ، أو سطحية دعوته بالذات ، محلُّ نظر، فهناك من يرَوْن أن تلك الدعوة كانت أعظَم ما شهدته حياةُ الشعر العربى من محاولاتِ تجديدِ هذا الشعر ، لقد كان أبو نواس يريد - كما يقول طه حسين - أن ينهج بالشعر منهجا جديدا لم ينهجْه المتقدمون ، أو قل : إنهم نهجوه ولكنهم لم يشعروا بذلك ولم يتّخذوه عقيدةً أو مذهبا فى الأدب ... وهو لم يكن يدعو إلى تجنُّب أساليب القدماء فى وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها ، وإنما كان يدعو إلى تجنب سنَّة القدماء فى المعانى والألفاظ جميعا ، كان يريد ألاّ يستعيرَ المحدثون معانىَ

---

(١) راجع : مشكلة السرقات فى النقد العربى ، لهدّارة ص ٢١٢ .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ١٠ ، ١١ .

(٣) مندور ، النقد المنهجى ... ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) عبد القادر القط ، حركات التجديد ... ص ٤١٦ .

القدماء لأنَّ لهم معانيَهم ولهم حياتَهم ، وكان يريد ألا يُسرفَ المحدثون فى استعارة ألفاظ القدماء لأن لهم ألفاظَهم ، أى لأنّ لغتَهم تطورت كما تطورت حياتهم ، أو لأن حياتهم تطورت فيجبُ أن تتطور اللغةُ لتلائمَ هذه الحياة ... ومن هنا نفهم أن أبا نواس كان أشدَّ الناس إلحاحا فى تغيير الأسلوب الشعرى وتجديد اللفظ والمعنى (١) ، ويقول طه إبراهيم إن « أبا نواس ناقد فَذّ ، ناقد وحيد فى تاريخ النقد الأدبى ، ناقد يبحث فى الصلة بين الأدب والحياة ، ويحاول أن يلائم بينهما » (٢) .

وإذا كنا لا نجد فى تاريخ النقد العربى خصومةً ونزاعا حقيقيين حول تلك الدعوة ، فإن السؤالَ الأساسى يظل قائما : لماذا لم تَقُمْ ثورة حول دعوة أبى نواس أيضا؟ إن القولَ بأنّ تلكَ الدعوةَ تعرّضتْ للهجوم - على نحو ما يذهب هدّارة - يمكن أن يقّدم حلاً سهلاً للموقف ، غير أن عددا من الحقائق الهامة تُلحُّ فى عدم دقته، فأبو تمام تعرّض للهجوم من جانب (أنصار القديم) وكان أنصار القديم ، أو مَنْ سُمُّوا كذلك، يقفون فى صف البحترى ، والبحترى على هذا الأساس هو ممثل الأسلوب التقليدى الذى حافظ على عمود الشعر ، وهو - على هذا الأساس - شاعر يسير فى ركاب القدماء ، وقد حاز إعجاب خصوم أبى تمام، أى خصوم الجديد لهذا السبب ، لكن تصوير الموقف على هذا النحو لا يلبث أن يتعدل ، وبالتالى يتزعزع التصوّر القديم الذى استقر عليه الدارسون المحدثون حين نطرح مثل هذا السؤال :

هل كان البحترى حقًّا شاعرا قديما تقليديا ، لم يخرج على أى شىء من السمات التقليدية للشعر العربى ؟

يقول طه حسين إنه كان هناك نوعان من الاختلاف بين أنصار القديم وأنصار الحديث « اختلاف فى اللفظ .. واختلاف فى المعنى نشأت عنه مدرسة أبى نواس التى أخرجت البحترى وغيرَه من أولئك الشعراء الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد » (٣) ، وقسّم طه إبراهيم الشعراءَ إلى طائفتين : إحداهما تحتذى القدماء ..

---

(١) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١١٢ .

(٣) طه حسين ، حديث الأربعاء ٢ / ٨ .

والثانية مالت إلى التجديد ، ومن شعرائها البحترى [١] ، ويذكر القط « أنّ شعر البحترى كان يمثل كلّ ما طرأ على الشعر العربى عامة من تطور حتى العصر العباسى ... وما كان لشاعر كبير كالبحترى تقلّد زعامة الشعر طول حياته أن ينسلخ عن طبيعة عصره ، ولو فعل لما استطاع أن يظفر بتلك المكانة التى بلغها حينذاك » [٢] كذلك صرح مندور بأنّ أبا تمام والبحترى إنما يمثلان معا الكلاسيكية الحديثة [٣] .

والواقع أن القدماءَ أنفسَهم قد أحسُّوا بانتماء الشاعرين إلى نفس الروح، روح الأخذ بالجديد والجرى وراء البديع – وإن سجّلوا الفرقَ فى تناول كلٍّ منهما له – فصرح أبو الفرج بأن البحترى كان يتشبَّه بأبى تمام فى شعره ويحذُو حذوَ مذهبه فى البديع [٤] ، وصرح صاحب (الموازنة) بأن كثيرا من الناس قد جعلوا « البحترى وأبا تمام طبقة » [٥] ، وجعلهما ابنُ رشيق معا من أصحاب التصنيع الذين يحرصون على البديع فى شعرهم [٦] ، وذهب إلى نفس الرأى ياقوت الذى نقل عن أبى الفرج حديثه فى الموضوع [٧] ، وكذلك فعل البديعى فى (هبة الأيام) [٨] .

لم يكن البحترىُّ إذن شاعرا تقليديا بالمعنى المفهوم ، وكان ذلك مفهوما لدى القدماء أنفُسِهم حتَّى مَنْ وقفوا فى صَفِّه ضد أبى تمام ، وهم من أُطْلِقَ عليهم (أنصار القديم) وهكذا تتعقّد المشكلةُ أكثر ؟

فالخلاف قائم حول تعرُّضِ دعوةِ أبى نواس لهجومِ أنصار القديم ، وقائمٌ أيضا حول القيمة التجديدية لدعوته . لكن الإجماع قائم على وجود الهجوم من أنصار القديم ضد أبى تمام .

---

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى ص ١٠٢ .

(٢) عبدالقادر القط ، حركات التجديد فى الشعر العباسى ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٣) النقد المنهجى ٢٥٨ .

(٤) أغانى ١٨ / ١٦٨ ساسى .

(٥) الموازنة ١ / ٦ .

(٦) العمدة ١ / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) ياقوت ، إرشاد الأريب ١٩ / ٢٤٩ .

(٨) هبة الأيام ليوسف البديعى ١٢ .

غير أن أصحابَ هذا الرأى يقررون أن تجـديد أبى تمام لم يتجاوزْ الصياغة، وأنه كان تجديدا سطحيا ، ومع ذلك تعرض للهجوم .

لكن شاعراً مجدِّدا آخر – أحْدَثَ زمنا من أبى تمام – هو البحترى ، لم يتعرض للهجوم بل حاز إعجاب الثائرين على أبى تمام .

وسلسلة الشعراء المجدِّدين – الذين سُلطت عليهـم الأضواء – ليست مقـصورة على أولئك الشعراء الثلاثة ، فهناك مسلم بن الوليد ، الذى كان لتجديده جانبان : –

الأول : أنه صنع فى مقدمات قصائده صنيعًا يشبـه صنيع أبى نُواس من حيث التحرّر من المقدمات التقليدية (١) .

الثانى : أنه كان الرائد المباشر لمذهب أبى تمام فى البـديع . ومع ذلك لم يهاجَمْ مسلم ، كما لم يُهاجَمْ أبو نواس أو البحترى ، وذلك على العكس مما حدث مع أبى تمام .

هنا يصبح السؤال : ما (الشىء) الذى هاجَمَه خصومُ أبى تمام ، ما دام أحدٌ لم يهاجِمْ روحَ التجديد أو الدعوةَ إليه عند الشعراء الآخرين ؟

الواقع أن تبيُّن هذا (الشىء) الذى كان عُرْضةً للهجوم عند ذلك الشاعر من جانب مهاجميه هو بُغْيَتُنا فى هذا الباب لأنّ الوصولَ إليه هو الذى يُوضِّحُ ما إذا كان العَداءُ للجديد هو سبب الهجوم أو أنَّ أمورا أخرى كانت هى السبب .

* * *

---

(١) عبد القادر القط ، حركات التجديد فى الشعر العباسى ص ٤١٠ .

(١)
موقف النقاد من أبى نواس

إذا كُنا قد حصرْنا هدفَنا إلى هذا الحَدّ ، فإن الوفاَء بعرضِ رأينا عرضًا صحيحا لا زال يتطلب كلمة حاسِمةً فى موقف النقاد من أبى نواس .

يسلك هدّارةُ أبا نـواس ضِمن الخارجين على نهج القصيدةِ وعمود الشعر ، ويرى أن دعوتَه كانت مشُوبةً بروح الواقعية ، ويرفض رأىَ مندور الذى لايرى فى دعوةِ أبى نـواس أىّ تجديد (١) ، ويرى أن تجديدَه لم يكن قاصرا على إحلال وصفِ الخَمر محلّ وصف الأطلال فى أول القصائد ، ولكنه خرج فعلا على عمود الشعر فى ألفاظه ومعانيه وأوزانه فى قصائده البعيدة عن شعر المدح ... التى كان الشاعر ينطلق فيها مع سجيّتِه وطابعه الفنى دون حدود أو قيود .

ويستدلُّ على رأيِه بما ذهب إليه من تحامُل الرواةِ على أبى نُواس واتهامِهم له بالخروج عن المألوف من شعر العَرب كقول ابن شرَف : إن أبا نواس أوّلُ الناس فى خَرْم القياس ، وقول إسحاق : إنه ليس على طريق الشعراء ... إلخ (٢) .

والحقيقة أن لكلام هدارة عن دعوة أبى نواس وشعره جانبين :

الأول : أنه خرج على عمود الشعر ونهْج القصيدة .

الثانى : أن الرواةَ والنقادَ ثاروا عليه ، وهى الثورة التى يرى هدارة أنّ من نتائجِها رجوعَ الشاعر عن دعوته لأن الرواة كانوا سيُخْملونه حتما إذا ساير دعوته فى مدائحه (٣) .

---

(١) هدارة ، مشكلة السرقات فى النقد العربى ص ٢١٢ وراجع محمد مندور ، النقد المنهجى ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) هدارة ، المرجع السابق ص ٢١٢ .

أما عن دعوة أبى نواس للخروج على نهج القصيدة فهى أمرٌ مسلَّم به فى قصائده الخمرية المعروفة . لكن ذلك لم يتسبَّبْ فى ثورة النقاد عليه أو على مسلم بن الوليد أو أىّ من الشعراء الذين هجروا المقدمةَ الطللية سواءً فى الجاهلية أو الإسلام(١) ، ونحن بهذا لا نقلِّل من قيمة دعوة أبى نواس – دعوته لا تجديده – فهى فى ذاتها عظيمةُ الأهمية ، وحسبه مجرد الرفْض لما ظَلَّ – من الوجهة النظرية المعلَنَة – شيئاً مسلَّما به فيما بعد إلى عصر ابن قتيبة ، أعنى ضرورةَ الافتتاح بوصف الأطلال ، حسبُه مجرَّدُ إعلان المبدأ ، وهو فى هذا يختلف عن مسلم وغيره ممَّن غيروا مقدماتِ قصائدهم فى صَمْت . فأهميةُ حركةِ أبى نُواس تتمثلُ فى دعوته أكثرَ مما تتمثل فى تطبيقه ، ومع ذلك فإن مجرد الدعوة ليس أمراً قليل الأهمية .

ولا تشيرُ المصادر القديمة إلى وجود هجوم عنيف على أبى نواس ، هناك مآخذُ بالطبع ، ولكنها مآخذُ عادية ، بعضها لا يُعتَدّ به مثل تهمة الكفر فى الشعر(٢) ،

---

(١) يقول عبد القادر القط « حين نستقرئ شعرَ ذلك العصر نتبيّن أن تلك المطالعَ التقليديةَ لم تكن الطابعَ الغالبَ على الشعر حين ذاك ، وأنّ معظمَ الشعراء كانوا قد تخلّوا إلى حد كبير عنها وأخذوا يبدأون قصائدَهم بالغزل فى كثير من الأحيان أو بالحديث ، دون مقدمات ، عن موضوع القصيدة أحيانا أخرى ، وتتضح هذه الحقيقة بجلاء إذا استقرأنا ديوانَ أحد الشعراء المعاصرين لأبى نواس مثل مسلم بن الوليد ، فسنرى أن من بين قصائده ذات المطالع التمهيدية ثمانيا وعشرين قصيدة تبدأ بالغزل أو الحديث عن مجالس الخمر بينما لا تزيد القصائد التى تبدأ ببكاء الأطلال على ثلاث . ويّطرد هذا الاستقراء – على اختلاف فى الدرجة – حتى فى العصر الأموى » (حركات التجديد فى الشعر العباسى) للقط ص ٤١٠ . وذهب يوسف خليف إلى أن الشعراءَ الصعاليك فى العصر الجاهلى قد غلب عليهم إغفال المقدمة التقليدية ، راجع (الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى) ص ٢٦٦ ط دار المعارف ١٩٥٩ ، وراجع بحثا له بعنوان (صور أخرى من المقدمات الجاهلية) المجلة العدد ١٠٤ أغسطس ١٩٦٥ ص ٤ .

(٢) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٨٢ ، حيث يسجّل ابنُ قتيبة عدداً من الأبيات التى اتهمه فيها بالكفر . والموشح ص٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ .

وبعضها لا يتّصل بالشعر كفن . وإنما هو خاص باللّحن والخطأ فى الكلام (١) ، كما أخذت عليه صفة (الإفراط) فى عدد من الأبيات (٢) ، وكذلك الخطأ فى الوصف خطأ ناتجا عن الإخلال بمطابقته للموصوف ، وبالمثل الخطأ في التشبيه ، لتشبيهه الأقوى فى الصفة بالأضعف فيها (٣) ، كذلك أخَذَ عليه العتابىُّ التمادىَ فى حُبِّ البديع وطلَبِه (٤) ، كما وصفه إسحاق المَوْصلى بأنه : « كثير الخطأ وليس على طريق الشعراء » (٥) ، ومر بنا وصفُ ابن الأعرابىّ لشعره – ضمن أشعار المحدثين – بسرعة زَوال الأثر (٦) .

وليس فى هذه المآخذ شيء غيرُ عادى ، وإنما سُجِّلَ كثيرٌ منها على شعراءَ آخرين لهم وزنُهم عند الجميع ، فلم تتسبب فى ثورة النقاد عليهم ، ولا ادُّعِيَ عليهم بسببها الخروج عن سنن الشعراء .. وعلى سبيل المثال سُجِّل اللحنُ على الفرزدق (٧) ،

---

(١) راجع الموشح للمرزبانى ص ٢٦٨ حيث يصفه المبرد بأنه كان لَحَّانة ، ص ٢٧٣ حيث يسجل عليه علىُّ بنُ المبارك الأحمر خطأيْن فى اللغة ، ص ٢٨٠ حيث يأخذ عليه محمد بن هاشم السِّدْرى خطأ نحويا ، ص ٢٧٩ حيث يأخذ عليه الكسائى خطأ فى اللغة وص ٢٨٣ حيث يصفه أبو على البصير بأنه كثير اللّحن .

(٢) فى مثل قوله :

حتّى الذى فى الرَّحْمِ لم يَكُ صورة ∴ لفؤادِهِ من خَوفِهِ خَفَقَانُ

وقوله :

وأخفْتَ أهلَ الشرْكِ حتّى إنّه ∴ لتخافُكَ النُّطَف التى لم تُخْلَقِ

(٣) الشعر والشعراء ٢ / ٧٧٥ ، ٧٧٦ .

(٤) الموشح للمرزبانى ص ٢٧١ ، ٢٨٦ .

(٥) الموشح ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٦) الموشح ص ٢٤٦ .

(٧) الموشح ص ٩٩ حيث أخذوا عليه جرَّ كلمةٍ كان حقُّها الرفع ، وغير هذا ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

وعلى ذي الرُّمة (١) ، وأخذَ الإفـراطُ على بشّار (٢) ، وأُخِذَ الخطأُ في الوَصْف على امرىء القَيْس ذاته (٣)، وأما المبالغة في طلب البديع فلم يكن أبونُواس أوّل مَن أخذ بها ولا أول مَنْ شُهِرَ باستخدام البديع ، وقد وُصِفَ بذلك – قبله – مسلمُ بن الوليد (٤) ، وكذلك بَشّار (٥) ، ومع هذا لم يتعرض أحدهما للهجوم كما لم يتعرض له أحدٌ من فريق الرّواد الذين عدّدَهم الجاحظ (٦) .

أما دعوتُه إلى نَبْذِ الأطْلال في مقدّمات القصائد فحسبُنا دليلاً على أنها لم تتعرّض للهجوم من أحد .. ما سبقَ أن أشرْنا إليه من قِصّة منادمة الأصمعي للفضل ابن يحيى البَرْمكي وإنشاده إحدى قصائد أبي نُواس مما خَرَجَ فيها على المقدّمات التقليدية (٧)، وما كان الأصمعيُّ ليفعلَ لو كان في ذهنه أيّ رفضٍ لما فعله أبو نواس ، ونحن نذكر ما صرّح به ابنُ الأعرابي من تنويه ببعض مقدّمات الشاعر مما يحمل الدعوةَ إلى نَبْذِ الأطلال ، ونذكر بالذات تنويههُ ببيت الافتتاح في قوله :

صفةُ الطُّلولِ بَلاغةُ القُدْم ∴ فاجْعَلْ صِفاتِكَ لابنَةِ الكَرْم

---

(١) الموشح ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبه ٢ / ٧٣٦ ، وقد لا يكون الإفراطُ عيبا ، بل قد يقترن بالإجادة ، فابن المعتز يورد البيتين اللذين مثّل بهما ابن قتيبة لإفراط بشّار ، على أنهما " مما أجاد فيه وأفرط " طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٠ .

(٣) الموشح ص ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ .

(٥) البديع لابن المعتز ص ١ ، والموازنة ١ / ١٣٥ .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٥١ .

(٧) البيت الذي بدأ الأصمعي بإنشاده هو :

إذا ما أتَتْ دونَ اللّهاةِ من الفتى ∴ دَعَا همُّه من صَدْرِهِ برحيل

وهو من قطعة مطلعها :

وخَيْمَةِ ناطُورٍ بـرأسِ مُنِيفَةٍ ∴ تَهُمُّ يَدا مَنْ رَامَهـا بزَلِيلِ

راجع طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

كذلك مَرّت بنا قصةُ سجودِ أبي هِفّان عند سماعه لإحْدَى قصائِدِ الشاعر فى نفس الموضوع ، ومطلعها :

لا تَبْكِ لَيْلَى ولاَ تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ ∴ واشْرَبْ عَلَى الوردِ مِنْ حَمْرَاءَ كالْوَرْدِ

ولقد تناول المبرِّدُ شيئا من شعر أبى نُواس بالنقد ، وبعضُه من قصائِدِه التى تحملُ معنى الدعوة إلى عدم الوقُوف بالأطلال ، حيث ينعى على العرب تلك العادَةَ البالِيةَ ، ومع ذلك ينصرفُ المبردُ إلى توضيح موطنِ النقد ، وتحديده – فى أكثر من خبر – دون أن ينتقدَ بكلمةٍ واحدةِ الدعوةَ إلى ترك الأطلال والانصراف إلى اللّهو ، أكثر من ذلك نراه يُعْجَبُ ببيتِ الافتتاح فى قصيدةٍ يَحُثُّ فيها الشاعر على عدم الوقوفِ بالأطلال ، والانصراف إلى شرب الخمر وهو قوله :

لا تُعَرِّجْ بِدَارِسِ الأَطْـلاَلِ ∴ واسْقِنِيهـا رَقِيقَةَ السِّرْبَالِ

يقول المبرد : « هذا المصراعُ فائقٌ فى جودته جدا ، رِقّةً ولَطافةً وسَلَسًا وسهولة، وتمامُه غيرُ مَرْضِيٍّ وهو قوله :

مَاتَ أَرْبَابُها وبادَتْ قُرَاهَا ∴ وبَرَاهَا الزّمانُ بَرْيَ الخِلاَلِ (١) .

ويمكن استخلاصُ نفس الدلالة حين يسجِّل المُبرِّدُ على الشاعر خطأً صرفيا فى قوله :

* اهْجُ نِزَارا وأَفْرِ جِلْدَتَهَا *

دون أن يُشيرَ بالنقد إلى مطلع القصيدةِ نفسِها – وقد أورده – وهو :

لسْـتُ لِدَارٍ عَفَتْ وغَيَّرَهَا ∴ ضرْبانِ مِـن قَطْرِهَا وحَاصِبِهَا

هذا فضلا عمّا يُوحِي به الشطرُ الذى كان موضِعًا للنقد الصَّرْفِيِّ من كل أمارات الدعوة الثائرة (٢) .

فليس بينَ الأخطاء والمآخذ التى أوردَها صاحب (الموشّح) مِمّا سجَّلَهُ العلماءُ على

---

(١) الموشح ص ٢٧٠ .
(٢) الموشح ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

أبى نُواس كلمةُ تعنيفٍ أو نقدٍ على الدعوة إلى الافتتاح بالخمر والإخلال بالمقدمات التقليدية لقصائد المدح ، ممـا يجعل القولَ بأنّ النقادَ هاجموا تلك الدعوة ، وأن ذلك الهجوم المفترَض كان وراء ما صرّح به الشاعر من رجوع إلى الافتتاح بذكر الأطلال، قولاً على غير أساس ، لأننا نعلم أنّ السلطانَ – وليس النقاد – كان وراء تصريح الشاعر بالرجوع عن دعوته ، مراعاةً لاعتبار دينى وسياسى تحرِصُ الخلافة دائما على التذكير به (١) ، ولا داعى للقول بأن أشعاره الأُخرَى التى انطلق فيها مع نفسه وأفصحَ عن مكنونها لقيتْ مقاومةَ النقاد ، لأن ما قاله فى ذلك ليس أكثَر مما قيل فى مثله عند الشعراء الآخرين .

---

(١) يتضح ذلك من قوله فى عدة قصائد ، منها ما فى قصيدته :

أعِرْ شعَركَ الأطلالَ والمنزِلَ القَفْرا ∴ فَقَدْ طالَما أزْرَى بِهِ نعتُكَ الخَمْرا

وقوله :

أعاذِلَ أعتَبْتُ الإمامَ وأعْتَبـــا ∴ وأعرَبْتُ عماً فى الضمِيرِ وأعْرَبَا

وقوله :

أيّهَا الرائِحَان باللّوْم لُومـــا ∴ لا أذُوقُ المُدَامَ إلاّ شَمِيمـــا

ففى القصائد المفتتحة بالأبيات السابقة ما يشير إلى أنّ الإمام هو الذى منَعَهُ من وصف الخمر وشُرْبِها .

(٢)
طابع الخصومة حولَ أبى تمّام

وإذا كنا لا نستطيع أنْ نسجل ثورةً أو خصومةً حقيقيةً حول أبى نواس، فقد بقى علينا أن نُجيب على سؤالٍ صعب حاول كثيرون ممَّنْ تعرّضوا للنقد القديم الإدْلاَء برأيٍ فيه ، ذلك السؤال هو : لماذا قامت الخصومةُ حولَ أبى تمام ومذهبه ولم تقُمْ حولَ أبى نُواس ، مع أنَّ الأخير كان يعلِن صراحة خروجَه على ما اعتُبِرَ - وَهْمًا ومن الناحية النظرية فقط - من مقدَّساتِ الشعر العربى ؟ هذا السؤال نفسه هو الذى سيقودُنا إلى الإجابة عن سؤالٍ جوْهرى آخر هو : هل خَرجَ أبو نُواس على ما سمَّوْهُ بعمودِ الشعر ؟

ونحن نوجه هذا السؤالَ لسببين متَّصلين :

الأول : أن مندورًا يقرّر أن أبا نواس قد دعا إلى التجديد فى المعنى والتجديد فى العبارة ، وأنه شارك فى تنمية مذهب البديع على النحو الذى انتهى إليه عند أبى تمام ، ومع أنه قد رتَّبَ على مثل هذه الأسباب ثورةَ النقاد على أبى تّمام ، فإنه لم يرتّبْ نتيجةً مماثلةً فى حالة أبى نواس. فقد قرر - خلافا لهدّارة- أنه لم تقُمْ ثورةٌ ضدّ أبى نُواس ، ولكنه التمس لذلك أسبابا تتعلق بمدى القيمة الحقيقيّة لتجديدِ ذلك الشاعر ، وإن اعترفَ بخروجه على عمود الشعر كما يُفهم من عبارته ، وهذا نفسه ما ذهب إليه هدّارة ، وقد رأينا أن الشاعرَ خرج فعلا على نهْج القَصيدة ورأينا أنه لم توُجَدْ ثورة حقيقيةٌ ضدّه وبالتالى فلابد من معرفة ما إذا كان قد خرَجَ على عمودِ الشعر أيضا ، فيكون النقادُ قد قَبلُوا منه هذا الخُروجَ كما قَبلُوا إخْلالهُ بالنهْج التقليدىّ للقصيدة ، أم أنه لم يخرج عن شرائط ذلك العمود ، وفى هذه الحالة يلُوحُ لنا احتمَالُ أنْ يكوَن إبقَاؤُه على عمود الشعر هو السرُّ فى عدم ثورة النقاد عليه .

وهنا يبدو الارتباطُ بين هذا السَّبب **والسبب الثاني**،ذلك أننا نعرفُ من تاريخ الخُصومة بين أنصار أبي تمّام وأنصار البحترى أن الأولَ اتُّهِمَ بالخروج على عَمُودِ الشّعر بينما قيل عن الآخر إنه حافَظَ على هذا العمود، وكانَ تمسُّكُ البحترى بعمود الشعر محلاًّ لإعجاب النقاد بقدر ما كان خروجُ أبي تمام على هذا العمود محلاًّ لسُخْطِهم .

هنا يتحوّل سؤالُنا ليصبحَ على النحو الآتي : هل كانَ عدمُ ثورةِ النقادِ على أبي نُواس مصدرُه أنّه حافَظَ على عمودِ الشعر رغْمَ دعوته إلى تجديدِ مقدمة القصيدة ؟

إن السؤالَ الذى تكادُ الإجابةُ عنه تضع حدًّا لكثير من الأقوال المتضاربة عن موقف قُدامى النقاد من دعوةِ أبي نواس وتفسيرها تفسيراتٍ مختلفة حسب تصوُّر كلِّ دارس لطبيعة ذلك الموقف – يبدو منطقيًا جدا حين نعلم أن الخصومةَ بين أنصار أبي تمامٍ وأنصارِ البحترى لم تكن كما تصوَّر البعضُ خصومةً بينَ أنصارِ الحديثِ يمثّلهم فريقُ أبي تمام وأنصارِ القديم يمثّلهم فريقُ البحترى ، بل إنها كانت خصومةً بين أنصار شاعرين محدَثين لم يكن أقلُّهما حداثةً المتمسكُ بعمود الشعر .

وعلى ذلك يبدو عمود الشعر وكأنه شيءٌ لا علاقةَ له بالقدَم والحداثة وإنما هو شيءٌ ذو طبيعة مختلفة ، وما شاع عن عَدِّ المتمسِّك به أميلَ إلى القديم ناتجٌ عن صُدْفَة كان لابُدَّ من وقوعها وهى أنَّ خصائصَ هذا العمود – كما حدَّدوها – تتمشى مع الأسس العامّة للصّياغة القديمة البسيطة ، هذه الصياغة التى لم يقتَصِرْ قَبُولها على أنصارِ البحترى ، أو من سُمُّوا بأنصار القديم ، وإنما قبِلَهَا النقّاد العَرَبُ جميعا ، أولئك الذين رَفَضُوا بدورهم من أبي تمّام عبارتَه المُلْتَويةَ غيرَ المفْهُومَةِ ، فى عَدَدٍ محدود من أبياته وهو ما عُرِفَ بخروجه على عمود الشعر .

المفهوم الحقيقى لعمود الشعر

فى حديث طه إبراهيم عن الخُصومة بين القدماء والمحدثين يشير إلى أن تجديد المُحدَثين انصرف إلى (الديباجة) يعنى ما فعله أبو نواس فى مقدمة القصيدة ، وإلى (الصياغة) (١) ، ثم يتساءل فى موضع آخر : فيم يتَلَخّصُ طعن القدماء على المحدثين؟

---

(١) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٢ .

ويجيب : فى أمور ترجع إلى الصياغة وإلى المناحى القديمة التى أخل بها المحدثون (١) ، ويقول محمد مندور عن أبى تمام : إنه «لم يغير شيئًا فى الأصول الفنّية للشعر العربى ولم يخرج إلاّ على عموده ، كما يقولون ، ومعنى العمود عندهم ، فيما يبدو ، هو الصياغة» (٢) ، ويتحدث عبد القادر القط عن نشأة الأسلوب الجديد ، وأسباب تطوره فيرى أن عدد المتجادلين فى كل جانب - يعنى المعارضين والمؤيدين لذلك الأسلوب - يدل بوضوح على أنه كان كيفيةً جديدةً فى النظم A New Mode Of Versification (٣) .

هذه لمحةٌ عن فهم المحدثين لعمود الشعر ، وأيضا لمحةٌ عن إحساسهم بأنّ الخروج عليه كان هو الشىء اللاّفت عند أبى تمام ، وأنه هو الهدفُ الأول للهجوم .

على أن سوءَ الفهم الذى عانَى منه هذا الاصطلاح فى استخدام البعض له- شأن كثير من مصطلحات النقد العربى - قد شارك إلى حد كبير فى الربطِ بين الخُروج على عمودِ الشعر وبين التجديد ، وبالتالى فى الربط بين المحافظة على هذا العَمود وبين السيْر فى ركاب القديم ، إذ شاعَ فى كتابات العصر الحاضر إطلاقُ الوصْف بالتمسك بعمود الشعر أو بالشعر (العمودى) على إنتاج الشعراء ممن تمسّكوا بأوزان الشعر وقوافيه فى صورتها التقليدية ، ومن ناحية أخرى خلَط البعض بين عمود الشعر وبين النهج التقليدى للقصيدة القديمة فيما يتعلق بأقسامها من مقدمةٍ وغرض وخاتمة .... إلخ كما خلَطَ البعضُ الآخر بينه وبين التمسُّك بنوع معين من مفردات اللغة ، هى المفردات الخاصّة الرصينة، بحيث اعتُبِرَ تسهيلُ اللغة ضربا من الخروج على عمود الشعر .

والواقع أن أحدًا من أعلام النقد العربى لم يُردْ بعمود الشعر شيئا من ذلك،

---

(١) طه إبراهيم ، المرجع السابق ص ١١٢ .

(٢) محمد مندور ، النقد المنهجى ص ٦٩ .

(٣) EIKOtt (A) Arab Conception of poetry as Illustrated in Kitab Al- Muwazanah P.18 .

ولم يقصد الآخذون على أبى تمام خروجَه على عمود الشعر أنّه خرجَ على بحور الخليل أو قافية القصيدة الموحدة ، بل إننا نعلم أن كثيرا من صور الخروج على الوزن والقافية الموحَّدَيْن قد وُجدت منذ وقت مبكر دون أن يشار إليها أو أن توصف بأنها خروج على عمود الشعر . كذلك فإن أحدًا لم يصف بهذا الخروج تلك الكثرة من القصائد التى أخلّ أصحابُها بالشرائط التقليدية لأقسام القصيدة ، أو أشعارَ أولئك الشعراء الذين لجأوا إلى اللغة السهلة الدارجة كأبى العتاهية .

ولعلّنا نستطيع فهْمَ قضية عمودِ الشعر وكيف عَابَ النقادُ شاعراً مثلَ أبى تمّام بالخُروج عليه ، حين نستعرضُ تلك المآخذ التى عدَّدَهَا خصومه لنعرفَ من خلالها طبيعةَ الخَلَل الذى أحْدَثَه أبو تمام واستوجب بسببِه الهجومَ عليه . ذلك أنّ عناصرَ عمود الشعر - كما وضَّحَها المرزوقى فى مقدمَةِ شرحه لديوان الحماسة - تتضمّن بعضَ النواحى التى يبدو أن النقادَ تسامَحُوا فيها ولم يَرَوْا إخضاعَها لشىء سوى العَقْل أو الذهن الصحيح بينما تمسكُّوا ببعضها الآخر وعدُّوا الخروجَ عليه أمرا يستدْعى المقاومةَ والتقويم .

عناصر يجب استبعادها من النقاش

ولكىطيع تحديدَ موطنِ الهجوم على أبى تمام ، نرى أن هناك عناصرَ ينبغى أن تُستبعد من ميدان الخصومة حتى تتّضح تماما العناصرُ التى كان إخلالُ أبى تمام بها مثارا للهجوم عليه ، وهناك سببٌ آخرُ هو التّثبُّتُ من صحة ما نفترضه من أن خصومَ أبى تمام لم يستهْدِفُوا فى هُجومِهِمْ عليه ما اعتبروه تجديدا حقيقيا وإنما قاوَمُوا ما قاوَمُوه تحت شعار مقاومة الفساد فى اللغة .. أما العناصر الواجب استبعادها فهى :

١ - أخطاء الإعراب والوزن والقافية :

فقد صرّح أصحابُ البحترى بأنهم لا ينعَوْن على أبى تمام الأخطاء من هذا القبيل لأنها مما « لايكاد يعرَى منه أحد من الشعراء المحدَثين ، ولا سلمَ منه شاعر من شعراء الإسلاميين ، وقد جاء فى أشعار المتقدمين » وقالوا : « إنّا لم

نتتبعه ، ولاعبناه ، لمَا وصفنا فى باب اللحن وكثرته فى أشعار المتأخرين » (١) ويوافق أنصارُ أبى تمام على هذا المبدأ ، وقالوا : إن « ما بوّبَهُ النحويون من عيوب الشعر فى الإقواء والإكفاء والسِّناد وغير ذلك مما هو عَيْبٌ فى اللّفظ دون المعنى فليَستْ بنا حاجة إلى ذكره ، لكثرته وشهرته ، وكذلك ما أخذتْه الرواة على المتأخرين من الغلطِ واللّحون فاش أيضاً ... فلم يكن أحد ... فى خطئه ولا سَهْوه ولا غلطه بمجهول الحق» ، فمثل هذه الأخطاء ، ومن بينها اللّحن ، لم تكن سببا للغضّ من قديم ولا متأخر (٢) .

٢ - استخدام البديع والإكثار منه :

وهذا هو العنصر الثانى الذى نود استبعاده من ميدان النزاع ، أعنى تصوّر أن يكون النزاع بينهما على استخدام البديع فى ذاته - حتى مع الإكثار منه والإفراط فيه- وهذه النقطة تُعَدُّ مصدرا للّبس عند كثير من الدارسين المحدثين ، إذ يُفْهم من كلام مندور وكذلك إبراهيم سلامة أن من الفروق الجوهرية بين أبى تمام وسابقيه إكثارَهُ من البديع ، وأن ذلك كان من أسباب الهجوم عليه (٣) ، وينقل إبراهيم سلامة قولَ أصحاب أبى تمام إنه انفرد بمذهبٍ اخترعه ... ثم يقول : « هذا المذهب ، وهذه الطريقة ، لم يكونا إلا (البديع) الذى نحن بصدده » (٤) ، ثم يقرر أن حوار الخصمين يدلّ على أن النقادَ قد برموا بالبديع وثاروا ضدّه ، ثم يقول : « ومن السَّهل أن نفهم أن ما أُخِذَ على أبى تمام أمران ، الأول : تعمّقه فى المعانى ، الثانى تعمّده (البديع) فى الإيراد ، على عكس ما كان عليه البحترى الذى جرى على طريقة العرب ولم يفارق عمود الشعر ... فالنقد الذى شاعَ فى القرن الرابع كان من قبيل رَدِّ الفعل أو العمل الانعكاسى ضدّ البديع وضد الفلسفة ، للرجوع بالأدب إلى طبيعته مع قليلٍ من المحسنات لا يؤثّر فى المعني ولا يغمّضه » (٥).

---

(١) الموازنة للآمدى ١ / ٢٩ ، ٣٢ .

(٢) الآمدى ، المرجع السابق ١ / ٥١ .

(٣) مندور ، النقد المنهجي ص ٥٣ .

(٤) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٢٩٧ .

(٥) إبراهيم سلامة ، المرجع السابق ص ٢٩٩ - ٣٠١ .

ولاشك أن كلاً من مندور وإبراهيم سلامة يستمد تصويره لمذهب أبى تمام من نفس الاتجاه الذى يجعل الفرق بين مذهب أبى تمام وغيره فرقا فى الدرجة ، وبالتالى فإن كل ما أتى به هو التوسع فى البديع ، وإن هذا التوسع هو كل الفرق بينه وبين سابقيه من روادِ البديع وهو أيضا أساس الهجوم عليه .

والواقع أن الاستخدامَ التلقائى للبديع – حتى مع الإكثار منه – لم يكن محلا للنزاع في يوم ما سواء عند سلسلة الشعراء الذين عددهم النقاد كرواد لمذهب البديع [١] ، أو عند البحترى نفسه ، ويتضحُ هذا من رد أصحابه على ادّعاء أصحاب أبى تمام اختراعه لمذهبه فى البديع « ليس الأمر فى اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم ، ولا هو بأوّلٍ فيه ، ولا سابقٍ إليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم واحتذى حذوه » [٢] .

وما كان أنصار البحترى لينفُوا اختراعَ أبى تمام لمذهبه فى البديع لو أنهم نظروا إلى البديع على أنه ظاهرة رديئة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنهم يقررون أنّ صاحبهم نفسَه يستخدم البديع ، وهو موجود فى شعره ومع ذلك لم يفارق عمود الشعر، فقد « حصل للبحترى أنه ما فارق عمودَ الشعر وطريقته المعهودةَ مع ما نجده كثيرا فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة » [٣] . وقد اعترف الصولى نفسه للبحترى بـ « كثرة الطباق والمماثلة والتجنيس والاستعارة فى شعره » [٤] .

٣ – السرقات :

وكما أخرجنا الأخطاءَ النحويةَ واستخدامَ البديع من ميدان الخصومة ، نرى من الضرورى استبعاد مسألةِ السرقات أيضا كعامل من عوامل الثورة على أبى تمام ،

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ١ / ٥١ .

(٢) الآمدى ، الموازنة ١ / ١٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٨ .

(٤) الخبر وارد ضمن مجموعة من أخبار البحترى التى رواها الصّولى ، جمعها محقق أخبار البحترى فى آخر الكتاب وسمّاها (ذيل الأخبار) ص ١٧٥ ، وفى مقدمة الصولي لديوان أبى نواس بروايته ص ٥ . نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وكأحَد بنود النزاع عموما ، ونحن نستبعدهُا على الرغم من أنهـا أُثيرتْ ، وأن مؤلفاتٍ غير قليلة تناولت التأثير والتأثر بين هذين الشاعرين ، وتناولتْ أيضاً سرقات أبى تمام والبحترى من غيرهما من الشعراء ، إلاّ أنّ استبعادَنا لها يقوم على أساس أنها عنصر رأى الجميعُ أنه ليس محلا لكبير فضلٍ بالنسبة للمأخوذ منه ، كما أنه لا يغض من شاعرية الآخذ ، وبالتالى وافق أنصارُ البحترى على ما ادعاه أصحاب أبى تمام فى قولهم إن البحترىّ « عن أبى تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى » (١) ، وقالوا : إننا « لاننكر أن يكون قد استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمعَ البحترى من شعر أبى تمام فيعلق شيئا من معانيه ، معتمدا للأخذ أو غير معتمد . وليس ذلك بمانع من أن يكون البحترى أشعرَ منه ، فهذا كُثير قد أخذ عن جميل وتتلمذ له ، واستقى من معانيه ، فما رأينا أحداً أطلق على كُثير أن جميلا أشعرُ منه ، بل هو – عند أهل العلم بالشعر والرواية – أشعر من جميل » (٢) .

وهكذا اعترف أصحاب البحترى على صاحبهم بالأخذ من أبى تمام ، لكنهم رأوا أن هذا ليس عيبا ولا بمانع من أن يكون البحترى أشعرَ ، وإذا كانوا قد اعترفوا بأخذِ صاحبهم على النحو السابق ، وقرّروا أن الأخذَ لا يعنى دائما أن الآخذ أدنَى فى درجة الشاعرية ، فمن المنطقى ألاّ تصبحَ تهمةُ السرقة سلاحا يصوّبونه إلى أبى تمام ، لأن السرقة لا تقدح فى شاعرية الآخذ ، ولأن صاحبهم قد وقع فيها . وقد كانوا منصفين – فعلا – فى هذا الصدد ، فصرحوا – كما يقول الآمدى – بأن السرقات

---

(١) الموازنة للآمدى ١ / ٨ ، ومما يدل على تهافت الرأى الذى يربط بين اشتعال مشكلة السرقات وبين الخصومة بين القدماء والمحدثين ، أن هدّارة يقرر أن دراسة السرقات اتسّعَتْ كمظهر من مظاهر تلك الخصومة وأن أنصار القديم كانوا يتهمون المحدثين بأخذ معانيهم من القدماء ، مع أن النقاش بين أنصار البحترى وأنصار أبى تمام يدل على خلاف ذلك ، فممثّل القديم – البحترى – هو المتهم – هنا – بالأخذ من ممثل الحديث ، وهو أبو تمام . راجع : مشكلة السرقات ص ٢١٥ ، يُضاف إلى ذلك مانراه من استبعادهم لمسألة السّرقات من النقاش حول الشاعرين .

(٢) الموازنة ١ / ٩ ، ١٠ .

ليســت من كـبيـر عـيوب أبى تمـــام ، لأنـها «باب مـا يَعْرَى منه أحـدٌ من الشعـراء إلاّ القليل»[١] .

٤ - التجديد والمعانى الجديدة :

ولعل ذلك أهم العناصر التى نحرص على استبعادها - أعنى (تهمة) التجديد - هل هاجم أنصار البحترى ما تصوروا أنه جديد جيد عند أبى تمام؟ بعبارة أخرى : هل كان أنصـــار البحترى أنصارا لكـــل قديم ، معارضين لكلّ جديد ؟

يكاد جميع الذين تـعرضوا لتلك الخصومـة أن يصفُوها بأنها خصومـة بين قدماء ومحدثين [٢] ، وهو وصف أقل ما يفهم منه أن أنصار البحـترى هاجموا أبا تمام لوجود عناصر تنعدم فى شـعر صاحبهم الذى هو فى نظر هؤلاء شاعـر تقليدى يجارى الذوق القديم ، ويميـلُ إلى طريقة القـدماء ، ولا يؤمن بالابتـداع ، ولاشك فى أن هذه النتيـجة وهذا الفهم يبدوان منطقيّين فى نظر كل من يقول بتقليدية البحترى وتجديدية أبى تمام.

على أن بعـض النصـوص القــديمة والمتـواترة قـد تعـدل هذا الحكـم ، وتعـدل ، بالتـالى، من تصـورنا لطبيـعـة الموقف بـين أنصــار كل من الشــاعـرين حين تُظهـر لنا أن وصف ذلك النزاع - أو أطرافِه - بأنهـم قدمـاء ومحـدثون لم يكن دقـيـقا ، بل لعلّهـا

---

(١) الموازنة ١ / ١٣٤ ، وراجع أيضـا ١ / ٢٩١ حـيث يصـرح الآمـدى بأنّ مَنْ أدركـه من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير مساوىء الشعراء ، وخاصة بالنسبة للمتأخرين ، ويبدو أن هذا كان نوقا شائعا لدى النقاد حتى فى القرن الثانى ، وقد صرح الأصمعى بأن تسعةَ أعشار شعر الفرزدق سرقة ، ومع ذلك لم ينف شاعرية الفرزدق . راجع الموشح ١٠٥ .

(٢) راجع : طه ابراهيم (تاريخ النقـد) ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ حـيث يقـرر أن اللغـويين وفصحاءَ الأعراب فى القرن الثالث كانوا من أنصار القديم ، ص ١١٨ حيث يؤكد أن لغويِّى القرن الثالث من تلاميذ اللغويين السابقين والممثلين لآرائهم وأنواقهم فى الأدب واللغة ، ويمثل لهم بالمبرّد ص ١٢١ فى كتاب الكامل ، ويقرر فى ص ١٢٢ أنهم من أنصار القدماء كما كان أسلافهم من قبل يؤثرون الشعر القديم ، وراجع محمد مندور (النقد المنهجى) ص ٦٩ ، ٧٤ حيث يذكر أن الخصومة الحقيقية بين القدماء والمحدثين كانت حول أبى تمام . ومحمد مصطفى هدارة (مشكلة السرقات) حيث يشير إلى تلك الخصومة ويجعل معارضى أبى تمام فى صف أنصار القديم ص ٢١٠ وما بعدها .

تعدّل من توزيع الوصف بالوقوف فى صفّ القديم أو صفّ الحديث على نحو آخر . يقول الصولى فى مقدمته لديوان أبى نواس بروايته : « وحدثنى أبو الغَوْث بن البحترى قال :

كان أبى يقول : لا أرَى أن أكلّم فى علم الشعر من يفضل جريرا على الفرزدق ، ولا أعده من العلماء بالشعر ، فقيل له : كيف ؟ وكلامك أشد انتسابا إلى كلام جرير منه إلى كلام الفرزدق ؟ فقال : كذا يقول من لا يعرف الشعر ، لعَمْرى إن طبعى بطبع جرير أشْبه، ولكن من أينَ لجرير معانى الفرزدق وحسنُ اختراعه ؟ جرير يجيد فى النسيب ثم لا يتجاوز هجاءَ الفرزدق بأربعة أشياء : بالقَيْن وقتل الزُّبير رحمه الله وبأخته جِعْثِن وبامرأته النّوار ، والفرزْدق يهجوه فى كل قصيدة بأنواع هجاء يخترعها ويبدع فيها» (١) ، وقد أمّنَ الصّولى على هذا التصريح .

هذا هو رأىُ البحترىّ ومعيار التفضيل عنده ، أساسُه جِدَّة الأفكار والمعانى ، وهو أيضا رأى أنصاره الذين قدّروا هذه الصفةَ عند أبى تمام ، يقول الآمدى : إن «أهل النَّصَفَة من أصحاب البحترى لايدْفعون أبا تمام عن لطيف المعانى ودقيقها والإبداع والإغراب فيها والاستنباط لها » ، وهم بهذا « قد سلّموا له الشىءَ الذى هو ضالة الشعراء ، وطلبتُهُم وهو لطيف المعانى ، وبهذه الخَلّة – دون ما سواها – فُضِّل امرؤُ القيس ، لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق مافى أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام . . . ألا ترى أنّ العلماء بالشعر إنما احتجُّوا فى تقديمه بأنْ قالُوا هو أول من شبَّه الخيل بالعِصِىِّ وبالوحش والطير وأول من قال (قيْدُ الأوابد) وأول من قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقديم إلاّ من أجل معانيه ؟ » (٢) .

(١) راجع مقدمة ديوان أبى نواس برواية الصولى ص ٥ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (١٣٥٦٨ ز) والخبر نفسه وارد فى ذيل أخبار البحترى ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، وهو فى (الموشح) للمرزبانى ص ١٢٤ بإسناد آخر ، ومما له دلالة هنا ما جاء فى (سر الفصاحة) ص ٢٧١ من أن البحترى كان أحد الذين يسوون بين المحدثين والقدماء ، ولايَرَوْن الفضلَ للمتقدم لقدمه .

(٢) الموازنة للآمدى ١ / ٤٢٠ .

من هنا جعل الآمدى كثرةَ بدائع أبى تمام واختراعاته سببا فى تقديمه على سائر من انتحى مذهبَ البديع باستثناء مسلم (١) .

وهكذا تتأكد هذه الحقيقة ، وهى أن أحداً من الفريقين لم يرفض الجديدَ من المعانى ، ولا الإبداع والاختراع فيها .

تلك مجموعة من الحقائق ليس لنا فى عرضها سوى النقل والترتيب ، ولقد اتّضح أنه لا اللّحن ولا استخدامُ البديع ولا السرقة ، أهم من ذلك كلّه مبدأ التجديد والإبداع فى ذاته ، لم يكن شىء من ذلك محلاً للخصومة ، بل إن تلك العناصرَ كلّها كانت موضع اتّفاق من الطرفين ، فاللّحن يتسامح الجانبان فيه ، لأنه مأخذ شائعٌ ولا يغُضّ من الشاعرية . والبديع لم يقتصر استعماله على أبى تمام ، بل استعمله غيره ومنهم البحترى ، والسرقة من عيوب الشعر حقا ، لكنها لم يَخْلُ منها شاعر ، فلا داعى للاتّهام بها من أىّ من الجانبين ، إذ إنها مأخذٌ مشترك ، أما صفة الإبداع والاختراع – وهى صفة يعتزّ بها كل أنصار الجديد – فإنها كانت محلا للتقدير من الجانبين ، وعلى وجه الخصوص من جانب أصحاب البحترى ذلك الذى جعل منها معيارا للمفاضلة بين الشعراء ، وأكد – كما أكد أنصاره وأنصارُ أبى تمام – وجودَها عند كل من الشاعرين .

الموطن الحقيقى للنزاع :

يقول الآمدى : « الذى أرويه عن أبى محمد بن العلاء السجستانى . . . أنه قال: سُئِلَ البحترىُّ عن نفسه وعن أبى تمام فقال : كان أغْوَصَ على المعانى [منّى] وأنا أقْوَمُ بعمود الشعر [منه] » (٢) ، ولعل فى هذا التصريح ما يُؤْذِنُ بأن الطعنَ على أبى تمام سيدُور حول الخُروج على عَمُود الشعر الذى وصف البحترى نفسَه بأنّه أقومُ به من أبى تمام ، ويحكى محمد بن القاسم بن مهروبه عن أبيه قوله : إن أبا تمام « سلك طريقا وعرا واستكره الألفاظَ والمعانى ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونَشِفَ ماؤه » (٣) ، وكذلك يذكر أصحاب البحترى قولَ ابن المعتز « إنّ الطائىّ تفرّع فيه » ، يعنى فى البديع ،

(١) الموازنة للآمدى ١ / ٦ .

(٢) الموازنة ١ / ١٢ .

(٣) الموازنة ١ / ١٨ .

« وأكثر منه ، وأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ، وتلك عُقْبى الإفراط وثمرة الإسراف »(١) .

وحين يبرِّر أنصارُ أبى تمام هجومَ عالم كابن الأعرابى عليه بأنّ ابن الأعرابى لم يَفْهَمْ شعره ، فعَدَل إلى الطعْنِ عليه ، يقول أصحاب البحترى : إن ابنَ الأعرابىّ « لا يلحَقُهُ نقصٌ فى قصور فهمه عن معانى شاعر عَدلَ فى شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المُخْرِجَة للكلام إلى الخطأ أو الإحالة ، بل العَيْبُ والنقصُ فى ذلك يلحَقان أبا تمام ، إذ عَدل عن المحجَّة إلى طريقة يجهلها ابنُ الأعرابى وأمثاله »(٢) ، ويقولون فى موضع آخر : « إن أبا تمام تعمّد أن يدُل فى شعره على علمه باللغة وبكلام العرب ، فتعمّد إدخال ألفاظ غريبة فى مواضع كثيرة من شعره » ، ثم يصفونه فى فعله ذلك بأنه « حضَرِىٌّ تشبّه بأهل البدو ، فلم يَنْفُقْ فى البادية ولا عند أكثر الحاضرة »(٣) .

ويقولون مرة أخرى « وإنما عبناه بخَطائه فى معانيه وإحالاته وبعد استعاراته وكثرة ما يورده من الساقط والغَثّ والبارد مع سوء سبْكِه ورداءة طبعه وسخافة لفظه »(٤) ، وحين يُحْصى أصحابُ أبى تمام بعضاً من أخطاء الشعراء الآخرين – تبريرا واعتذارا عن أخطاء صاحبهم – يقول أصحاب البحترى : إنّ السَّهْوَ والخطأ كان يرد عند المتقدمين فى البيت الواحد والبيتين والثلاثة ، وربما سَلِمَ الشاعرُ المكثرُ من ذلك ألْبتَّة وتعرَّى منه . . . « وأبو تمام لا تكادُ تخلو له قصيدةٌ واحدةٌ من عِدّة أبياتٍ يكونُ فيها مخطِئاً أو مُحيلاً ، أو مُبْهِماً بسوءِ العبارة والتعقيد حتى لا يُفهَم »(٥) ، وبالمثل يذكر الآمدى أن مذهبَ أبى تمام فى عُظْمِ شعره يقوم على سوءِ التأليف ورداءَةِ اللفظ مما يذهب بطَلاوة المعنى ويفسده(٦) .

---

(١) الموازنة ١ / ١٨ ، وراجع : البديع لابن المعتز ص ١ .

(٢) الموازنة ١ / ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٥ ، ٢٧ .

(٤) الموازنة ١ / ٣١ .

(٥) الموازنة ١ / ٥٠ .

(٦) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

تلك تقريبا هى المآخذ والاتّهامات التى ركّز عليهـا أصحابُ البحترى فى هجومهم على أبى تمام وقد استبعدنا منها العناصر التى وافق الطرفان على تنحيتها من المناقشة (١) .

وحين نحلّل هذه الاتهامات نستطيع أن نميّز فيها عدةَ أقسام : فمنها مثلا الإفراط فى استخدام البديع ، على أنه ليس مقصودا بالهجوم لذاته ، بل لما ترتّب عليه من آثار ، ولقد كانت نتيجةُ مبالغة أبى تمام فى استخدام البديع – كما رآها أنصارُ البحترى – هى خروجُه عن مذهَبِ العرب أو طريقتهم ، فأبو تمام « زالَ عن النهْج المعروف والسَّنَنِ المألوف » و « سلك طريقا وعْرًا » وقد « عَدَلَ فى شعره عن مذاهب العرب المألوفة » . ولا ينكر أنصارُه أنفسهم أن يكون « قد أوهم فى بعض شعره ، وعَدَلَ عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه » (٢) .

فإذا رُحنا نستعرضُ مظاهرَ ذلك كلّه – أو نتائجَه – من واقع ألفاظهم ، وجدنا معظمَ أقوالهم تنصب على استخدامه الجرىءِ للّغة وعلى ما اعتبروه إجحافا بها قصداً إلى التعقيد والإغراب فيها . وهذا واضحٌ فى كل ما وُجّه إليه سواء من الخروج على طريقةِ العرب فى كلامهم ، أو ماسَمَّوْهُ باستكراه الألفاظ والمعانى ، حيث ربطوا بين هذه الصفة ومبالغته فى طلب الطِّباقِ والجناس ، أو فى ما أطلقوا عليه اسم الإحَالة ، وكذلك الأمر فى إبعاده فى الاستعارة أو سوء نسجِه وتعقيده أو استعمال الوَحْشِىِّ الغريب أو التكلّف الشديد . . . . إلخ .

وهذا نفسُه ما يؤيِّدُه النظرُ فى الأبيات التى أوردَها الآمدى تحت اسم (ما غلط فيه أبو تمام من المعانى والألفاظ) حيث تنصبّ المآخذ فى معظمها على الناحية اللغوية

---

(١) ذكر الآمدى من مساوئ أبى تمام : السرقات ، وما فى شعره من الزحاف واضطراب الوزن ، ولم نهتم نحن بهذين المأخذين حيث أخرجهما أنصار الشاعرين من موضوعات النزاع – وإن أشاروا إليهما – وليس هناك تناقض بين ذكر الآمدى لهذين المأخذين وبين استبعاد أنصار الشاعرين لهما، فالآمدى ناقد يريد الموازنة العادلة والإحاطة بكل شىء ، بما فى ذلك المآخذ التى سجلت على كل من الشاعرين . وهذا يختلف عن حوار أنصار الشاعرين ، حيث كان الهجوم غالبا من جانب أنصار البحترى ، فحاولوا طرح العناصر المشتركة ، والتركيز على المآخذ التى انفرد بها أبو تمام.

(٢) الموازنة ١ / ٣٧ .

والخروج بالعبارة – من حيث التركيب أو المعنى – عن الاستعمال المألوف بطريقة تطمس المعنى وتعميه ، وتُسيء فى نفس الوقت إلى جمال العبارة وسلاستها .

وعلى سبيل المثال يأخذ عليه الآمدى جعله (الصبا) غيرَ (القَبول) مع أنهما لمسمّى واحد (١) ، كما يسجّل عليه أيضا أنه جعل (الكَعاب) ضد (الثيِّب) مع أنّ الكَعاب هى التى كَعب ثديُها ، فقد تكون بكرا وقد تكون ثيّبا . وأيضا ذكر لفظ (الأيِّم) وهو يريد (الثيِّب) ، وهو خطأ ، لأن الأيِّم هى التى لا زوجَ لها بكرا كانت أو ثيّبا ، والآمدى يوافق على تخطئته فى الأيِّم ، فأما إيراده (الكَعابَ) مقام (البكر) فيرى أنه ليس بغلط « وقد جاء مثلُه فى أشعار العرب » (٢) .

وقد يكون الخطأ اللغوىُّ فى التركيب ، فهو يسجل عليه فى قوله :

دارٌ أُجِلُّ الهوَى إن لَمْ أُلِمَّ بهَا ∴ فى الركْبِ إلاَّ وعيْنِى من مَنَائِحِهَا

أن « هذا اللفظ مُحَالٌ عن وجهه ، لأن (إلاّ) ههنا تحقيق وإيجاب ، فكيف يجوز أن يكون عينُه من منائحها إذا لم يلمَّ بها ؟ وإنما وجه الكلام أن يقول :

(دَارٌ أُجِلُّ الهوَى عَنْ أنْ أُلِمَّ بِها) » (٣) .

على أن التخطِئَةَ فى المعنى لا تنفصل عن تخطِئَة اللّفظ ، بل قد يكون الجهلُ بمعنى اللّفظ سببًا فى ارتكاب خطأ المعنى ، كما فى قوله :

مَهَا الوَحْشِ إلاَّ أنَّ هاتَا أَوَانِسٌ ∴ قَنَا الخطِّ إلاَّ أنّ تلْكَ ذَوابِلُ

---

(١) فى قوله : (الموازنة ١ / ١٥٨) .

قسَمَ الزمانُ ربوعَها بيْنَ الصَّبا ∴ وقَبُولِها ودَبُورِهَا أثْلاثَا

(٢) راجع الموازنة ١ / ١٦٦ ، ١٦٧ والبيت هو :

حلّتْ مَحَلَّ البِكْرِ من مُعْطى وقد ∴ زُفّتْ من المُعْطى زِفافَ الأيِّمِ

وراجع أمثلة للأخطاء اللغوية عند أبى تمام فى الموازنة ١ / ٢٠٦ ، ١ / ٢١١ ، ١ /٢١٤، ١ / ٢٢٤ ، ١ / ٢٢٥ ،١ / ٢٢٦ ، ١ / ٢٣٣ ، ١ / ٢٣٥ ، ١ / ٢٣٨ .

(٣) الموازنة ١ / ٢١٥ .

« وإنما قيل للرماح (ذوابل) للينها وتثنّيها ، فنَفَى ذلك عن قُدُودِ النساء التى من أكمل أوصافها التثنّى واللّين والانعطاف » (١) .

وهناك بعض الأبيات التى أوردها الآمدى ضمن أخطاء أبى تمام فى المعانى والألفاظ ، يرى الآمدى أن الخطأ فيها أساسه استعمال الألفاظ التى تدلّ على المبالغة فى تجسيم المجرّدات غير المجسّمة ، وأيضا فإنه يسجل – وهذا هو الأساس – أن الشاعرَ استعملها استعمالا يُفضى إلى الالتواء باللفظ وعدم الوصول إلى المعنى المراد ، ومن الأمثلة على ذلك هذا البيت :

بيَوْمٍ كطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْضٍ مثله ∴ ووَجْدِىَ منْ هَذَا وهَذَاكَ أطْوَلُ

يقول الآمدى « فجَعل للدهر – وهو الزمان – عَرْضا ، وذلك مَحْضُ المُحال، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجةٌ ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : (كطول الدهر) فأتى على الغَرَض فى المبالغة . فإن قيل : لِمَ لا يكون سَعَةً ومجازاً ؟ قيل هذه الألفاظ صيغتها صيغةُ الحَقائق ، وهى بعيدةٌ من المَجاز ، لأن المجازَ فى هذا له صورةٌ معروفةٌ، وألفاظٌ مألوفة معتادة ، لا يُتَجَاوَزُ النطقُ بها إلى ما سِواها ، وهى قول الناس (عِشْنا فى خَفْضٍ ودَعَةٍ زمنا طويلا ، وما زلنا فى رخاء ونعمة الدهرَ الطويلَ العريض) وكذلك إذا وصفوا ما ليس له طول ولا عرض على الحقيقة فإنما يريدون التّمامَ والكمال ، ألا ترى إلى قول الشاعر ، وهو الراعى :

أنتَ ابنُ فرْعَىْ قُرَيش لو تُقَايِسُهَا ∴ فى المَجْد صَارَ إليكَ العَرْضُ والطُّول

فكان بهذا اللفظ كأنه يَذْرع ثوبا ، أو يَمْسَح أرضا ، أو يصف بالاجتماع والتدوير رجُلا » (٢) .

والواقع أن هذا المثالَ يوضّح فكرتَهم عن الاستعارة ، والمجاز بصفة عامة ، بل عن

---

(١) الموازنة ١ / ١٥١ ، وراجع أيضا هذا البيت :

أمرَ التّجلّدَ بالتلَدُّدِ حُرقةٌ ∴ أمرَتْ جُمُودَ دمُوعِهِ بِسُجُوم

الموازنة ١ / ٢٢٢ . وأحب أن أنبه إلى أن النقل لرأى الآمدى لا يعنى الموافقة عليه دائما .

(٢) راجع الموازنة ١ / ١٩٦ – ١٩٩ .

العلاقة بين طرفى الإسناد أيضا ، وكيف أن لكلٍّ حدودًا لا يجب أن يُتوسَّعَ فى الاستعمال بعدها ، وأيضا فيبدو من كلامه أن التجوُّزَ فى الاستعمال إلى أبعد من القدر المسموح به بما قد يُخلّ بالفهم ، هو - فى المقام الأول - خروجٌ على اللغة ، ومن هنا يبدو حديثُهم عن قُبح الاستعارة - وهو عيب رُمِىَ به أبو تمام كثيرا - حديثاً فى اللغة يتّصل اتّصالاً أكيداً بالاستعمال المناسب للكلمات ، وإلى أىّ مدى يمكن الإبعاد بها فى الاستعمال المجازى وذلك من خلال الشرط الذى وضَعُوه للاستعارة وهو شرط المناسبة ، أو القُرب ، بين المُستَعار والمُستَعار له ، وإذا كان البلاغيون المتأخّرون يرجون من وراء هذه المناسبة سهولة الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى ، فإن الآمدى ينصُّ على سبب مكمِّل وهو تحقيق الكلام للفائدة المطلوبة ، ولاشك أن الهدفين متّصلان ، وهما جميعا يتحقّقان بتوافُر صفة المناسبة بين المستعار والمستعار لـــه . يقول الآمـــدى : « وإنما تُستعار اللفظةُ لغير ما هى له ، إذا احتملت معنًى يصلُح لذلك الشىء الذى استُعيرَتْ له ، ويليقُ به ، لأن الكلامَ إنما هو مبنىٌّ على الفائدة فى حقيقته ومجازه ، وإذا لم تتعلقْ اللفظةُ المستعارةُ بفائدةٍ فى النطق فلا وجه لاستعارتها » (١) .

ولعل من المفيد أن نتذكّر أنّ كلَّ هذا الحديث عن الاستعارة إنما ساقه الآمدى من خلال حديثه **عما غَلِطَ فيه أبو تمام فى المعانى والألفاظ** ، وهو بذلك إنما يَدْعَمُ رأينا فى أنهم اعتبروا ما سمَّوْهُ بقبح الاستعارة ضربا من الخطأ اللغوى فى بعض صوره ، يؤدى إلى عدم التعبيـــر السليم عن المعنى المراد .

ويمكننا التأكُّدُ من احتمال صواب هذا الرأى إذا عَبرْنا أغلاطَ أبى تمام فى الألفاظ والمعانى - كما سجّلها الآمدى - ونظرنا فى الأبيات التى أوردها ضمن (باب ما فى شعرِ أبى تمّام من قبيح الاستعارات) فهو يُورِد عددا من الأمثلة ، يعقّب عليها بقوله : « فجعل - كما ترى - مع غثاثة هذه الألفاظ ، للدهر أخدعا ، ويداً تُقْطَع من

---

(١) الموازنة ١ / ١٩١ .

الزّند (١) ، وكأنه يُصَرَع ، وجعله يَشْرَقُ بالكرام ويفكّرُ ويبتسم ، وأنّ الأنام بنونَ له ، والزمان أبْلَق ، وجعل للمَدْح يَدًا ، ولقصائده مزامرَ إلاّ أنها لا تُنْفَخُ ولا تزمر ، وجعل المعروفَ مُسْلما تارة ومرتدًا أخرى ، والحَادث وَغْدا ، وجَذَبَ نَدَى الممدوح بزعْمه جَذْبةً حتى خرَّ صريعا بين أيدى قصائده ، وجعل المَجْدَ مما يَجوز عليه الخَوْف وأنّ له جَسَدًا وكبدا ، وجعل لصُروف النّوى قَدًّا ، وللأمن فرشا وظنّ أنّ الغَيْثَ كان دهرًا حائكا ، وجعل للأيام ظَهْرًا يُرْكَب ، والليالى كأنها عَوَارِكُ ، والزمان كأنه صُبَّ عليه ماء ، والفَرَسَ كأنه ابنُ الصباح الأبلق ، وهذه استعارات فى غاية القباحة والهَجانة والغَثاثة والبُعْد من الصواب » (٢) .

والسرُّ فى قبح هذه الاستعارات – كما يراه الآمدى – هو البعد وعدم المناسبة بين المستعار والمستعار له ، ويبدو أنه هاله ما فيها من تشخيص وتجسيم ، وقد رأينا أنه استقبح ما تُوحى به الألفاظ من تجسيم الزمان فى قول أبى تمام :

* بيومٍ كطولِ الدّهرِ فى عَرْضِ مثله *

وهو هنا يُبدى نفْس الرأى ، ويسجِّل نفسَ العَيب ، إذ يأخذ على أبى تمام أنه جعل للدّهْرِ أخدعا فى قوله :

سأشْكُرُ فرجةَ اللَّبَبِ الرَّخِيّ ∴ ولينَ أخادِعِ الدّهْرِ الأبِيّ

فيقول : « فأىّ حاجَةٍ إلى الأخادع حتّى يستعيرَها للدهر ؟ وكان يمكِنُه أنْ يقول :

---

(١) يقصد قوله :

يا دَهْرُ قَوّمْ مِنْ أخدَعَيْكَ فَقَدْ ∴ أضْجَجْتَ هَذَا الأنام من خُرُقِك

وقوله : * ولين أخادِعِ الدهر الأبِيّ *

وقوله : * فضربْتَ الشتاءَ فى أخدعَيْه *

وقوله :

ألاَ لا يَمُدُ الدهرُ كفاً بسَيّئٍ ∴ إلى مُجْتَدِى نَصْرٍ فتُقْطَعْ مِنَ الزَّنْدِ

راجع الموازنة ١ / ٢٤٥ وما بعدها .

(٢) الموازنة ١/ ٢٥٠ ، والأبيات المحتوية على الاستعارات المشار إليها موجودة فى الجزء الأول من الموازنة من ص ٢٤٥ – ٢٥٠ .

(ولينَ معاطف الدهر الأبى) أو (لين جوانب الدهر) أو (خلائق الدهر) كما تقول (فلان سهلُ الخلائق لينُ الجانب) فإن هذه الألفاظ . . . كانت أولى بالاستعمال فى هذا المَوْضع ، وكانت تنوب له عن المعنى الذى قصده ، ويتخلص من قبح الأخادع ، فإن فى الكلام متَّسَعا . . وإنما قَبُح الأخدع لَمّا جاء به مستعارا للدهر ، ولو جاء به فى غير هذا الموضع أو أتى به حقيقة ووضعه فى موضعه ماقَبُح ، نحو قول البحترى :

* وأعتقْتَ من ذُلِّ المَطَامع أخدَعِى *

ونحو قوله :

* ولا مَالَتْ بأخدَعِــك الضيَّاعُ * (١)

وهو يستنكر قوله أيضا :

تَحَمَّلْتُ ما لَوْ حُمِّل الدَّهْرُ شَطْرَهُ .·. لَفكَّرَ دَهْرًا أىُّ عِبْأَيْه أثْقَلُ

« فجعلَ للدهر عَقْلاً وجعله مفكرا فى أىِّ العبأين أثقل ، وما شىءٌ هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى ، لَمّا قال (تحملتُ ما لوْ حُمِّلَ الدهرُ شَطْرَه) أن يقــول (لتَضَعْضَعَ أو : لانْهَدَّ أو : لأَ مِنَ الناس صـــروفه ونوازله» (٢).

والآمدى يُفصح مرة ثانية عن تمسُّكه بمبدأ المناسبة بين طرفى الاستعارة، إذ لابد أنْ « تكون اللفظةُ المستعارة . . . لائقةً بالشىء الذى استُعيرت له ، وملائمةً لمعناه نحو قول امرىءِ القيس :

فقلتُ لهُ لَمّا تَمَطَّى بصُلْبِه .·. وأرْدَفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

ويقُول الآمدى إنه فى غاية الحُسن والجَوْدة والصحة ، ويصفه بأنه أقربُ الاستعاراتِ من الحقيقة لشدَّةِ ملاءمةِ معناها لمعنى ما استُعيرت له (٣) .

---

(١) الموازنة ١ / ٢٥٤ .
(٢) الموازنة ١ / ٢٥٥ .
(٣) الموازنة ١ / ٢٥٠ .

وهـــذا يـدلُّ على أنه لم يكن مجرَّدُ التجسيم أو التشخيص فى ذاته هو الـــذى يزعجُ الآمــدى ، وإنما كـــان يزعـجـه فى المقـام الأول عَدمُ القُرب بين المســتعــار والمستعار له ، مما يُدخل الاستعارة فى بعض صور الخطــأ فى استعمال الكلمات (١) .

ولكى نطمئن إلى أن صفةَ الخطأ اللغوى هى التى كانت مـاثلة فى أذهان أولئك الناس عند ذكر قُبْح الاستعارة أو بُعدها ، نـذكر أن أنصار أبى تمام حاولوا أن يعتذروا عن صاحبهم فى بعض أغلاطه فلجأوا – على عادة كثير من النقاد القدماء – إلى ذكر بعض مـا عِيب على الشــعـراء قـبله من أخطاء فى اللفظ والمعنى وأخطـاء فى الوصف وغيـرها ، وكان من مجمـوع ما ذكروه عـددٌ من أمثلة الاستعـارة القبيـحة كاستعـارة (الأظلاف) للقـدمين ، واستعارة (المشـافر) للشّفـاه ، أكثـر من هذا أنهم أوردوا نفسَ البيت الذى مثّل به قدامة – كما سنرى فيما بعد – للمعاظلة (فما رقد الولدان . .)– البيت ، وقالوا « سَمَّى رِجلَ الإنسان حافرا ، وهذه استعارةٌ فى نهاية القبح » (٢) ، وهذا كله يدل على إحساسهم – أعنى أنصارَ أبى تمام أنفسهم – بأن الاستعارات المستقبحة إنما تنتمى إلى جنس الأخطاء القائمة على استعمال اللفظ فى مقام غير مناسب ، أو فى معنى تصعب دلالة اللفظ عليه حتى ولو كان فى سياق مجازى.

والآمدى نفسـه كثيرا مـا يَقْرِنُ حديثَه عن أمثلة الاستـعارة القبيحـة بالحديث عن العُدول عن الوجـه الصحيح فى الاسـتعـمال اللغوى وقـد أورد المثال الأخير من قـبيح استعارات أبى تمام ، وهو :

---

(١) لعلّ مما يوضّح هذا بصورة قاطعة قولَ الآمدى « وليس الشعرُ عند أهل العلم به إلاحسن التأتّى وقُرب المأخذ واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ فى مواضعها ، وأن يوردَ المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل فى مثله ، وأنْ تكون الاستعاراتُ والتمثيلاتُ لائقةً بما استعيرت له ، وغيرَ منافرة لمعناه » الموازنة ١ / ٤٢٣ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٤ والأبيات المحتوية على الاستعارات المشار اليها منها :

قول الشاعر :

سأمْنعُهَا أوْ سوْفَ أجعلُ أمرَها ∴ إلى ملكٍ أظلافُه لم تَشقَّـــــق

وقوله :

قَرَوْا جارَكَ العَيْمانَ لماَّ جفوْتَـهُ ∴ وقلّصَ عَنْ بردِ الشرَابِ مَشَافِرُهْ

جارَى إليهِ البَيْنُ وَصْلَ خَريدَةٍ .·. ماشَتْ إليهِ المَطْلَ مَشْيَ الأكْبَدِ

وقال « يُريد أنّ البينَ ووَصْلَ الخريدة تجارَيا إليه ، فكأنّه أراد أن يقول : إن البينَ حالَ بينَه وبين وصلْها ، واقتطعها عن أنْ تصلَه ، وأشباه هذا من اللفظ المستعمل الجارِي فى العادة، فعدَلَ إلى أنْ جعلَ البيْنَ والوصلَ تجارَيا إليه كأنّ الوَصْلَ فى تقديره جرَى إليه يريدُه ، فجَرى البينُ ليمنَعَهُ ، فجعلهما متجاريَيْن ، ثم أتى فى المِصراع الثانى بنحوٍ من هذا التّخْليط ، فقال (ماشَتْ إليه المطلَ مَشْيَ الأكبد) . فالهاء هنا راجعةٌ إلى الوصل ، أى لما عزمت على أنْ تصلَه ، عَزَمَتْ عزم مُتثاقلٍ مُماطِلٍ ، فجعل عزمها مَشْياً ، وجعل المَطْل مُماشيا لها . فيا معشرَ الشعراء والبلغاء ، ويا أهلَ اللغة العربية ، خبِّرونا كيف يجارى البينُ وصلَها ، وكيف تُماشِى هى مَطْلَها » (١) .

ويبدُو أنّ ذلك الذّوْقَ فى رفض العلاقة الواهية بين طرفى الاستعارة – نتيجةً للبعد بينهما – كان شائعا وأصيلا ليس بين نقّادِ القرن الرابع فقط ، بل أيضا عند من قَبْلَهم، كما يبدُو أن شهرةَ أبى تمّام بارتكاب هذا النوع من الخطأ كانت شائعةً جدا ، فالآمدى ينقلُ عن ابن المعتزِّ فى كتابه (سرقات الشعراء) أنه أنشد لِسلْم الخاسِر يَعيبُه بردىءِ الاستعارة ، فى قوله يرثى موسى الهادى :

لَوْلاَ المقَابِرُ ما حَطَّ الزّمانُ بِهِ .·. لاَ بَلْ تَوَلّى بأنْفِ كَلْمُه دَامِى

« وقال (يعنى ابن المعتز) هذا ردىءٌ كأنه من شعر أبى تمام الطائى » . ويقول الآمدى معقّبا : « وليتَ لم يكن لأبى تمام من ردىءِ الاستعارة إلاّ مثل استعارة سَلْم هذه أو نحوها » (٢) .

ولعلّنا – الآن – نستطيع أن نؤكد أن ما سمُّوْه بقبيح الاستعارة عند أبى تمام ، إنما نظروا إليه من زاوية لغوية بحتة ، ولقد رأوا أن استعارَة الكلمة فى مكان لا تناسبه، تمثل نوعا من الإخلال بمعنى الكلمة والغرض من استعمالها ، وهو ما لم يتسامحوا فيه مع متأخر ولا متقدم .

(١) الموازنة ١ / ٢٦٤ .

(٢) الموازنة ١ / ٣٦٨ .ويجب أن نشير هنا إلى أن عيب ابن المعتز لهذا المنحى من الاستعارات المعقدة عند أبى تمام ، وعند غيره ، لا يناقض تقديره لأبى تمام ، ودفاعه عنه فى المواطن التى يحسن فيها ، وهى كثيرة باعتراف ابن المعتز نفسه كما مرّ بنا .

ومن الجَلىِّ أيضا أنهم لم يثُوروا على الاستعارة فى ذاتها ، بدليل أنهم لم يعَيبُوها عند غيره ، ولم يعيبوها عنده دائما ، وإنما عابوا ما جاء منها بصورة تُفضى - كما قلت من قبل - إلى الالتواء باللفظ والغموض فى المعنى .

ويبدو أن الفكرةَ الكامنة وراءَ تلك النظرة كانت فى أذهانهم على النحو التالى : إن الجمع بين طرفى الاستعارة ينبغى أن يكونَ على أساس من التقارُب بينهما ، ولا شك أن الذى يجمع بين طرفين لا يوجد بينهما القَدْرُ الكافى من إمكانية المقاربة يُعَدّ مُخلاً بمعانى الألفاظ ، من حيث إنه إذا كان قد استباح الجمعَ بين هذه الألفاظ -وهى التى لا يُجمع بينها إلا عن طريق المقاربة فى المعنى - فكأنه إنما خَوَّلَ لنفسه التحويرَ فى معانيها حتّى صارت على درجةٍ من التقارب تمكّنه من هذا الجمع . وكأن الدليلَ المادى لديهم على حدوث التحوير فى معانى الكلمات، هو ورودُ الألفاظ مجموعًا بينها ، وكأن هذا الجَمْعَ فى ذاته يمثّل ادّعاءً بوجودِ التقارب بين معانيها ، وإذ كان هذا التقاربُ غيرَ ممكن فى الأصل ، صارَ الجمع بينهما ضربًا من الالتواء بالمعنى وهو ما لا يبيحه العرف اللغوى أو النقدى .

وبنفس النظرة نستطيع أن نكتشف موطنَ العيب عنده فى استعمال التَّجْنيس ، ومن المعلوم أن التجنيسَ كفنٍّ لم يُعَبْ به أبو تمام ، وإنما عابوا عليه الكيفيّةَ التى تناوله بها، حيث أدّته إلى نوع من الإجحاف باللغة ، من مظاهره استعمال الكلمات فى مواطن ليست هى أنسبَ المواطن لاستعمالها ، وأيضا فربّما تُؤدّى الرغبة فى إقامة التجنيس إلى قيام نوعٍ آخرَ من الصور البيانية التى قد لا تكون - بدورها - فى أحسن أوضاعها ، ونكتفى فى هذا الصدد بمثال واحد مما أورده الآمدى من قبيح التجنيس فى شعره ، يقول الآمدى : « فأما قوله :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وانْشَتَرتْ .·. بالأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فاصْطُلِمَا

فإن انشتارَ عُيُونِ الشِّرْكِ فى غاية الغَثاثَة والقَبَاحة ، وأيضا فإن انشتار العين ليس بموجب للاصطِلام »(١) .

---

(١) الموازنة ١ / ٢٨٥ .

وفيما يبدو ، فإن نقطةَ البداية فى ذهن الشاعر هى : المكان المسمى (قرّان) والمكان المسمى (أشتر) والشاعر يريد المجانسة ، وبالتالى توجد (عين قرّت) أما (الأشتر) أو (الأشترين) ، فيناسبه (الانشتار) وهو مرض يُصيب العين ، فمن الممكن أن ينسب إليها أيضا ، وهكذا نجد (عينًا قرّت) و (عينًا انشترَتْ) فلتكن الأولى (عين الدين) ولتكن الثانية (عين الشرك – أو عيونه) ، وهنا يتحقق للشاعر ضرب من المقابلة بين الدِّين – والمقصود به الإسلام – وبين الشرك ، وأيضا بين(قرّتْ) و (انشترتْ) وإذا كان الشركُ قد انشترت عيونُه فلا مانعَ من أن يُصْطَلَم أيضا (١) .

ولا يخفى هنا ما فى محاولة إقامة الجناس وعقْد المقابلة أو ما يوهم المقابلة من جَوْرٍ على اللغة ، مصدره – من وجهة نظرهم – إخضاعها لنوع من التوسّع فى الاستعمال لم تألفْه ، والمثال يوضّح أيضا الصلة بين قُبح الجناس وغيره من ألوان البديع وما يؤدى إليه من سوء الاستعارة ومن بعض الظواهر اللغوية التى رفضوها صراحة .

تلك هى نتيجةُ الاستخدام السيّئ للجناس ، وهى ما عبّر عنه الآمدى بقوله إن « الطائىَّ استفرغ وُسْعَهُ فى هذا الباب ، وجَدَّ فى طلبه ، واستكثر منه ، وجعله غرضه ، فكانت إساءتُه فيه أكثرَ من إحسانه ، وصوابُه أقلَّ من خطئه » (٢) .

ويمكن الذهابُ إلى نفس النتيجة فى استعماله للطباق ، فالآمدى يقرّر أنه لم يقتصرْ فى هذا الفن على ما اتّفَقَ له من حُلْوِ اللفظِ وصحيح المعنى (٣) .

وكذلك الأمر فيما قيل عن (سوء نسْجِه وتعقيده ووحشىِّ ألفاظه) وهذا واضح فى قوله :

---

(١) راجع أيضا : إبراهيم سلامة (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) ص ٣٠٢ حيث استشهد بالبيت نفسه على الوقوع فى التكلف نتيجة مراعاة الجناس ، وينظر سرّ الفصاحة ١١٤ فى تحليل جيد لابن سنان يبيّن فيه السبب فى قبح الاستعارة فى هذا البيت ، ويكشف عن ذوق الناقد العربى وموقفه فى قضية المقاربة فى الاستعارة ، وتنظر ص ١٨٨ من نفس الكتاب حيث يرد البيت كمثال للجناس القبيح . .

(٢) الموازنة للآمدى ١ / ٢٧١ .

(٣) الموازنة ١ / ٢٧٣ .

يَوْمٌ أَفَاضَ جَوَىً أَغَاضَ تَعَزِّياً .·. خَاضَ الهَوَى بَحْرَىْ حِجَاهُ المُزْبِدِ

« فجعل اليوم (أفاضَ جوىً) والجوى (أغاضَ تَعَزّيـا) والتعزى موصولا بـه (خاضَ الهَوى) إلى آخر البيت ، وهذا غايةُ ما يكون من التعقيد والاستكراه ، مع أن (أفاض) و (أغاض) و (خاض) هى ألفاظ أوقعها فى غير مواقعها ، وأفعال غير لائقة بفاعلها وإن كانت مستعارة ، لأن المستعمل في هذا أن يقال : قد عُلِمَ ما بفلانٍ من جوى ، وظهر ما يكتمُه من هوى ، وبان عنه العزاءُ والتعزّى . فأما أن يقال (فاض الجوى) . . . أو (غاض التعزى) . . . فإنه – وإن احْتَمَلَ ذلك على سبيل الاستعارة – قبيحٌ جدا، وكذلك (خوْض الهوى بَحْرَ التَّعزّى) معنى في غاية البُعْد والهَجانة ، ثم اضطر إلى أن قال (بحرَىْ حجاه المُزْبد) وخفضه وكان وجهُه أن يقول (المزبدَيْن) صفة للبحرين، فجعله صفة للحجَى . . . وهذا وإن كان يُتَجاوزَ فى مثله ، فإنه الوجه الأرْدأ عَدَلَ بِهِ إليه خُبْثُ الطريقة عن الوجه الأوضح » (١) .

ولعل من السهل الآن أن نستخلص أنّ كلَّ ما قيل فى الهجوم على أبى تمام كان يَصدُر عن نظرةٍ واحدة ، ويقومُ على مبدأٍ واحدٍ هو رفض الخُروج على ما تحتمله اللغة فى الاستعمال ، سواء فى التركيب أو معانى الكلمات ، وفيما عدا هذه الناحية لم يتعرضْ أبو تمام لأىِّ من ألوان الهجوم أو النقد . لقد كان الحديث كما اعترف مندور دائرا حولَ اختلافِ الشّاعريْن فى طريق الصياغة فحسب (٢) ، ويذكر شكرى عياد أن مشكلةَ اللفظ والمعنى ، التى ارتبطت ارتباطا وثيقا بالخصومة بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى ، « كانت تدورُ فى الواقع حول درجةِ الحريةِ المسموح بها للشّاعر أو للأديب فى التعبير عن معانٍ هى فى أصولها واحدة ، فكان أنصارُ المعنى هم أنصار الحرية فى التعبير ، وأنصارُ اللفظ هم أنصار التقيد فى التعبير » (٣) .

وقبل أن نوضّح حدودَ قبولنا لهذا الرأى نودُّ أن نعيد إلى الأذهان مجموعة

---

(١) الموازنة ١ / ٢٩٦ .

(٢) مندور ، النقد المنهجى ٢٥٨ .

(٣) شكرى عياد (كتاب أرسطو طاليس فى الشعر . . .) ص ٢٨٨ .

من الحقائق :

فأولا : لم يقصد النقادُ العرب بكلمة (المعنى) - غالبا - ما هو عادى من الأفكار ، وإنما دارَ تفكيرهم كثيرا حول ما أطلقوا عليه المعانى (النادرة) أو (الرائعة) أو (المبتكرة) . . . إلخ ، وهذا واضح على الأقل من حديث البحترى نفسه عن مفهوم ما سموه (بالإخلاء) فى الشعر فقد فسّره بأنه خُلُوّ الشعر منَ المعانى النادرة ، وفسره الحَاتمى بعده بحوالى قرن من الزمان بأنه الخلو من المعانى المبتكرة(١) .

وثانيا : أنه فيما يتعلق بالنزاع بين أنصار البحترى وأنصار أبى تمام لم تكن مسألة المعانى ظاهرةً على السطح - كموضوع من موضوعات النزاع - بل لم تكن موضعَ جدالٍ بالمرّة ، وقد سبق أن بيّنا أن أنصار البحترى ، والبحترى نفسه، يعترفون بقيمة المعانى المبتكرة ، فى ذاتها وعند أبى تمام ، ويؤكد البهبيتى أنهم « لم يُنكروا المعانى قط ، بل إن المعنى اللطيفَ والحكمةَ الغريبة عندهم زائدةٌ فى بَهاءِ الكلام . . . وهم فى الحق أقربُ ما يكون إلى أن يكونوا متأثرين بما يقوله أرسطو عن الاستعارة ووجوب قُربها ، وعن استعمال اللفظ فيما يدل عليه ، وهم لا يمتنعون تماما عن تقبّل الحكمة فى الشعر ، ولكنهم يأبَون أن يستحيل الشعر فلسفةً . . . وهم ينكرون إنكاراً عنيفا ذلك التجوزَ فى استعمال الألفاظ استعمالا يُخرجها عن أصول ما وُضِعَتْ له . . . . »(٢) .

فالفرق بين أنصار البحترى ممّنْ عُرِفُوا باللفظيّين وأنصار أبى تمام ممن عُرِفُوا بأصحاب المعانى كان فى الثورة على المُواضَعات والرُّسوم المقرَّرة فكلاهما يقبلان المعانِىَ الجديدة ، ولكنما ينفرد اللفظيُّون بطلب الاعتدال والاستجابة للطبع، وعدم الخُروج بالشعر إلى ميدان الكتابة (٣) ، ويذكر إبراهيم سلامة أن المعانى لم تُهْمَلْ فى

---

(١) الرسالة الموضحة للحاتمى ص ٢٦ .

(٢) البهبيتى (أبو تمام الطائى) ١٨٧ .

(٣) البهبيتى ، أبو تمام الطائى ١٩٣ .

حديث أصحاب البُحتري عن شروط الشعر الجيد ، وأن الغرابة قد اعتُرِفَ بها أيضا(١) .

فالجدال كان قائما حول ما أثاره أصحابُ البحتري من أنَّ في الإمكان تحقيقَ الابتداع والاختراع مع المحافظة على عمود الشعر ، وقد اتّضح مما قدمنا عن عناصر النقد الذى وجّهُوه إلى أبى تمام أنهم لم يتمسَّكُوا من عمود الشعر ذلك إلا بما يتّصِلُ باللغة وضرورة تناولِها فى حدود ما تحتمل من وجوه الاستعمال ، وأنهم عندما وصفوا أبا تمام بالخروج على ذلك العمود لم يكونوا يعنُون غير هذا الخروج على ما تحتمله اللغة فى المعانى والتراكيب ، الخُروج الذى يَحُولُ دونَ فهم المراد ، وهو ما يُخلُّ بهدفِ الشاعر ، أو القائل عموما ، من الأساس . من هنا وضعوا هذه القاعدة المقبولة من النقاد العرب جميعا من أنه « إذا اعتمد الشاعر الإبداعَ فمن سبيله ألاّ يخرجَ من سنن القوم ، فإنه لم يُحْظَرْ عليه مستغرَبُ المعانى ومستطرَفُها » (٢).

عمود الشعر كما صوّره المرزوقى :

لقد حدّد المرزوقى سبعةَ عناصر يتكون منها عمود الشعر هى :-

١- شرفُ المعنى وصحّته .

٢- جزالة اللفظ واستقامته .

٣- الإصابة فى الوصف .

٤- المقاربة فى التشبيه .

٥- التحام أجزاءِ النظم على تخيُّرٍ من لذيذ الوزن .

٦- مناسبةُ المستعارِ منه للمستعار له .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ٣١٨ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٩٥ .

٧- مشاكَلَةُ اللفظ للمعنى وشدةُ اقتضائِهما للقافية (١) .

وباستثناء العنصر الخامس ، وهو يمثّل لونا من ألوان الإحساس بأهميَّةِ الوحدة فى القصيدة - وهى وحدةٌ مصدرُها اتّساق الألفاظ قبل كل شىء - نجد أن بقيةَ العناصر يمكنُ أن تنقسمَ إلى قسمين :

الأول : يعتمد على العقل ، ويقوم على التمييز الشّخصى ، ويتكوَّنُ هذا القسم من العنصرين الأول والثالث أعنى (شرفَ المعنى وصحته) و (الإصابة فى الوصف) .

ويلوح لنا أنهم لم يعتبروا الخطأ فى عنصرى هذا القسم فادحا بدرجة كبيرة وليس لنا من دليل فى هذا الرأى سوى أنهم جعلوا معيار التمييز فيهما - أعنى عنصرى القسم الأول - هو - على حد تعبير المرزوقى - (العقل الصحيح والفهم الثاقب) و(الذكاء وحسن التمييز) ، وهو - كما نرى - معيار نسبى إلى أقصى الحُدود ، ونسبيّته نابعةٌ من كونه ذاتيا ، وبالتالى لا يرقى الخطأ فى هذا القسم إلى درجةِ الإخلال بما هو عامٌّ ومتعارفٌ عليه (٢) .

ومهما يكن البريق الذى يرسله اصطلاح (شرف المعنى) فإنهم لم يتمسّكوا قَيْدَ شعرة بهذا (الشرف) أيا كان مدلول هذه الصفة من معنىً خُلُقىٍّ أو دينىٍّ أو حكمة أو .. أو . . . . إلخ . وحسبنا أن نذكر أنّ أحدَ الدعاةِ إلى (شرف المعنى) هذا - وهو القاضى الجرجانى - يقرّر فى (الوساطة) أنَّ « سوء الاعتقاد ليس سببا لتأخُّر الشاعر » وأنَّ « الدين بمعزل عن الشعر » (٣) ، هذا على حين يقول الصولى « وما

---

(١) المرزوقى ، مقدمة شرح ديوان الحماسة ص ٨ ، وراجع (الوساطة) للجرجانى حيث يشيد بالعناصر الأربعة الأولى باعتبارها من صفات الشعر الجيد : « وكانت العربُ إنما تفاضِلُ بين الشعراءِ فى الجوْدَة والحُسن بشرف المعنى وصحتِه ، وجزالةِ اللفظ واستقامته ، وتُسلِّمُ السَّبْقَ فيه لِمَنْ وصفَ فأصاب ، وشبَّه فقارب ، وبَدَهَ فأغزر ، ولمن كثُرتْ سوائِرُ أمثالهِ وشوارِدُ أبياته » الوساطة ص ٣٣ ، وراجع نصاً يلمس هذه النواحى أيضا فى الموازنة ١ / ٤٠٠ .

(٢) فى رجوع الحكم على المعانى إلى « العقل والعلم وصفاء الذهن » يراجع : سر الفصاحة لابن سنان ٢٢٦ .

(٣) الوساطة للجرجانى ص ٦٤ .

ظننتُ أنّ كفراً ينقص من شعر » (١)، وقد وضعَ قدامةُ بن جعفر، معاصرُ الصولى، نهايةً لهذه المسألة حيث قرر أن « المعانى للشعر بمنزلة المادّة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة . . . وعلى الشاعر إذا شرَع فى أىّ معنى كان من الرفعة والضعة والرَّفث والنّزاهة والبذَخ والقناعة والمدْح وغير ذلك من المعانى الحَميدة أو الذّميمة أن يَتَوخّى البُلُوغَ من التجويد فى ذلك إلى الغّاية المطلوبة » (٢).

هذا عن شرف المعنى، والذى لا وُجودَ له من الناحية العمَلية على الإطلاق والذى ليس له وجودٌ من الناحية النظرية إلاّ فى عبارات البعض كالقاضى الجرجانى فى الوساطة وكالمرزوقى فى مقدمة شرحه للحماسة (٣).

أما عن الإصابة فى الوصف، فإنها لا تعنى أكثر من دقته وانطباقه على الموصوف، وهو أمرٌ يمكن التأكُّدُ منه بمعرفة مدى هذا الانطباق (٤)، عن طريق المقارنة بين الوصف وموضوعه.

وتشير بعضُ الدلائل إلى أنّ بعضَ حالات الخطأ فى الوصف تعود إلى اعتباراتٍ لغوية أساسُها الجَهْل بالكلمات التى تعبِّر عن الصفة المناسبة، فالأصمعى يقول عن عدىّ بن زيد إنه لا يحسنُ أن ينعَتَ الخَيل ويأخذ عليه قوله فى الفرس (فارهاً مُتَتَابِعا) وقال: لا يقال للفرس (فارهٌ) إنما يقال (جَواد) و (عَتيق) ويقال للكَوْدَن والبغل والحمار (فارهٌ) (٥).

وباختصار، لَمْ يكنْ هذا القسم – بعنصريه – محلاً للكثير من النقاش، فمعْيارُ الحُكم فيه ذاتىٌّ، وهم لم يتمسكوا به غالبا، فإن وُجد ما يمكن الرجوع فيه إلى معيارٍ موضوعى فلنْ يكون سوى ذلك الجانبِ اللغوى، والذى يعود إلى الدقّة فى استخدام أنسبِ الألفاظ للتعبير عن صفةٍ معينة يتّسمُ بها موصوفٌ معيّن، وهذا الجانب

(١) أخبار أبى تمام للصولى ١٧٢.

(٢) نقد الشعر لقدامة ص ٤.

(٣) المرزوقى، مقدمة شرح ديوان الحماسة ص ٨.

(٤) نقد الشعر لقدامة ص ٤١ حيث يتحدث عن (نعت الوصف).

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١ / ١٨٢.

يدخلُ تحتَ القسم الثانى من القسمين اللذين تنقسم إليهما عناصر عمود الشعر ، وهو ما سنعرض له الآن .

القسم الثانى : من عناصر عمود الشعر – كما حدَّدها المرزوقى – هو القسم الذى يعتمد على قوانين مقرَّرة وراسخة ، هذا القسم يتكون من العناصر ٢ ، ٤ ، ٦، ٧، والقوانين التى نذهب إلى أن هذا القسمَ يحتكِم إليها ، هى ، ببساطة ، قوانينُ اللغة، فلا شكَّ أنَّ الاحتكامَ إلى الروايةِ ، والاستعمال ، أو إلى طولِ الدُّربة ودوام الممارسة ، إنما يقول بوضوح بأن عيارَ التمييزِ هنا هو العُرف اللغوى ، فعلى أساسِه يمكنُ القياسُ وإليه يمكن الاحتكامُ . ولستُ فى حاجةٍ – بعدما تأكَّد من فهمهم للصلة بين قُبح الاستعارة، أو البُعدِ فيها ، وبين الخطأ اللغوى فى صورته المركَّبة – إلى القول بأن العنصرين ٤ ، ٦ وهما المقاربة فى التشبيه والمناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، يخضعان لنفس القاعدة أو العرف اللغوى ، فقد اعتُبرَ البعدُ بين المشبَّه والمشبَّه به وكذلك البعدُ بين طرفى الاستعارة ، ضربا من الجمع بين كلماتٍ متباعدةٍ لا يتوافر المبرِّرُ الدّلالى الكافى للجمع بينها ، ونحن نعرف أن البلاغيين العرب قد خصّصوا – فيما بعد – علما كاملا – هو (علم البيان) – لمساعدة الأديب على تجنب الوقوع فى هذا النوع من الأخطاء .

يقول المبرِّد عن التشبيه البعيد : إنه الذى « يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام » (١) ، وهو يربط بين صفة البُعد هذه وصعوبة فهم المراد من التشبيه ، لعدم ملاءمة الكلمة المجتلبة للتشبيه بها ، وهذا واضح من المثال الذى ساقه للتشبيه البعيد « وأما التشبيه البعيد الذى لا يقوم بنفسه ، فكقوله :

بَلْ لَوْ رأتنِى أُخْتُ جيرَانِنَا .:. إذْ أنَا فِى الدَّارِ كأنِّى حِمَار

فإنما أرادَ الصحّةَ ، فهذا بعيد ، لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره ، وقال الله جل وعزّ – وهذا البيِّنُ الواضح – : (كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) والسِّفر الكتاب، وقال (مثل الذين حُمِّلُوا التوراةَ ثم لمْ يحملُوها كمَثَلِ الحِمَارِ) فى أنهم قد تعاموا عنها، وأضربوا

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ٨٧ . وربما كانت كلمة (أخشن) محرفة عن (أخسّ) ، من الخِسّة.

عن حُدودِها وأمرِها ونهْيِها حتى صـــاروا كـالحـمار الذى يحـمل الكتبَ ولا يعلم مـا فيها » (١) .

فـلابُدَّ من عَلاقةٍ بين طرفى التـشبيه ، وهـى عَلاقةٌ تسـاعد على فـهم المراد به من ناحـيـــة ، وتقـوم – مـن ناحـيـــة أخــرى – على مـــا بين اللفـظين من صلة فى المعنى أو الاسـتخـدام أو الصـفـات . . . . . إلخ . ويؤكِّد هذا مـا قرره الجـاحظ من أنه «إن قـام الشىء مقـــام الشىء أو مـقـامَ صاحـبـــه فـمن عـادة العرب أن تـشبِّه به فى حـالات كثيرة » (٢) ، وكـان قد أدخل الصـور البيـانيةَ فى الـلَّفظ بمعناه الواسع – كمـا لاحظ بحق شوقى ضيف (٣) – عندما عرَّف الشعرَ بأنه صياغة وضرب من التصوير .

ونحن لا ننكر أن يكون فى التـشبيه والاسـتعارة مـا يعود التمـييز فـيه إلى الذهن وإلى الذوق – أى إلى معيارٍ نسبى ذاتى – بل ربما كان هذا هو الأساس السليم للحكم فـيهـمـا ، غـير أننا ننظر الآن إلى الموضـوع من خـلال النقد العـربى القديم ، وقـد غلبت النظرةُ اللغـوية إلى هذه الـفنون على ذلك النقـد ، بل إن تلكَ النظرة انـتهت إلى اعتبـار التشبيه والاستعارة ضمن مباحث علم البيان ، وهو العلم الذى يبحث فى (طرق التعبير وضوحـا وخفاء) ، وهو الوضوح والخفاء الذى تحدِّده درجة القـربِ أو البُعد بين طرفى التشبيه أو الاستعارة ، أو المجاز بصفة عامة .

وجدير بالذكر أن هذه النظرَة إلى طبيعة العلاقـة الواجبة فى الاستعمال المجازى ليست قاصرةً على أنصار البحترى أو مَنْ عُرفوا بأنصار القديم ، فالواقع أنها تمثل نظرة المشتغلين بالنقد العربى جميعا ، سواء من ربُّوا على الثقافة العربية أساسا أو من خَضَعوا لتأثيرات أجنبية .

فمن قبـل الآمدى : كان **ابنُ طَبَاطَبا** يُوجِـب على الأديب أن « يسـتعـمـــــل من المجـــاز مـا يُقارب الحـقيقـة ولا يَبْعُدُ عنها ، ومـن الاستعــــارات ما يليق بالمعـانـــى

---

(١) الكامل للمبرد ٢ / ٨٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٤ / ٢٧٣ .

(٣) شوقى ضيف ، البلاغة : تطور وتاريخ ص ٥٢ .

التى يأتى بها » (١) .

وجعل **قُدامةُ بنُ جعفر** من عيوب اللفظ ما سمّاه بـ (المعاظلة) ، تلك التى فسّرها أبو العباس ثعلب بأنها « مداخَلةُ الشىء فى الشىء » ، فقال قُدامة : « من المُحال أنْ تُنكرَ مداخلةُ بعضِ الكلام فيما يُشبهه من وجهٍ ، أو فى ما كان من جنسه ، وبَقِىَ النكيرُ إنما هو فى أن يدخلَ بعضُه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائقٍ به ، وما أعرف ذلك إلاّ فاحشَ الاستعارة مثل قول أوْس :

وذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا .·. تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فسَمّى الصَّبِىَّ تولبا وهو ولَدُ الحمار ، ومثل قول الآخر :

وما رَقَدَ الوِلْدَانُ حتّى رأيْتُه .·. علَى البَكْرِ يَمْرِيهِ بسَاقٍ وحَافِرِ

فسمّى رِجْلَ الإنسان حافرا ، فإنَّ ما جَرى هذا المَجْرى من الاستعارة قبيح لاعُذْر فيه » (٢) ، وهو يجيز استعارةَ امرئ القيس فى بيته (فقلتُ له لمّا تمطّى بصلبه) (٣) ويقول إن « ما جرَى هذا المجرى مّما له مجازٌ كان أخفّ وأسهلَ مما فحُش ولم يُعرفْ لهُ مجاز ، وكان منافرا للعادة بعيدًا مما يستعمل الناسُ مثلَه » (٤) .

وقدّم **أبو على الحاتمى** فى رسالته التى سمّاها (الموضحة) تفسيرًا لمصطلح (المعاظلة) أوضحَ فى تأكيد الصلة بين قبح الاستعارة وبين الخطأ اللغوى المذموم ، يقول للمتنبى عن بيته :

شرَفٌ ينْطَحُ النُّجُومَ بِرَوْقَيْـ .·. ـــهِ وعِزٌّ يُقَلْقِلُ الأَجْبالاَ

إنك أخذتَه من بيت لأبى تمام [يذكره] وأفسَدْتَه ، فيسأله المتنبى عن وجه الفساد فيه فيقول الحاتمى : « لأنك جعلتَ لشرفِ الرجُل قَرْنين . . والرَّوْقان : القَرنان ، قال : أجَلْ، إنها استعارة ، فقلت : لعَمرى إنها وإن كانت استعارةً ، ولكنها استعارةٌ خبيثة ، جاريةٌ فى المعاظلة التى نفاها عمرُ بن الخطاب – رضوان الله عليه – عَن زُهيْر ، وذكرَ

---

(١) عيار الشعر ١١٩ .

(٢) نقد الشعر ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) نقد الشعر ص ٦٧ .

(٤) نقد الشعر ص ٦٨ .

اجتنابهَ إيَّاها ، فقال : كان لا يعاظِل بين الكلمتين ، أى لا يداُخِل الكلمةَ في الكلمة إذا لم تكن إحداَهمـا من جنس الأخرى ولا كانت مناسبةً لهـا ، ولا مشتقةً منهـا .. والمعاظلة المذمومة أخصُّ الاستعارة كما قال أوس :

وذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَواشِرُهَا .·. تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلَباً جَدِعَا

فجعل للمرأة تَوْلبا ، والتَّوْلَبُ : ولد الحمار ، كما جعلتَ أنتَ للشرَّف قرنين ، وهذا من أبعد الاستعارات وأشدِّها مباينةً لمذاهب حُذَّاق الشعراء » [1] .

هذا الوجه من الإجحاف باللغة هو نفسه الذى سجَّله الآمدى على أبى تمام، كما يبدو من أمثلته التى أوردها ، وكما يبدو من مناقشته لها ، وهو الذى عناه أنصارُ البحترى بحديثهم عن الاستعارات القبيحة عند أبى تمام أو كما سموها أحيانا ، الاستعارات البعيدة .

وقد سلكَ القاضى الجرجانى نفسَ الطريق فى تسجيل مثل هذه المآخذ سواء على المتنّبى أو أبى تمّام ، وإن كان قد حبّذ أن « يُحمل ماجاء من ألفاظ المحدثين وكلام المولّدين زائلا عن ... السَّنَـــن على وجوه تقرّبهـــم من الإصابة وتقيـــم لهم بعضَ العذر » [2]. ولكنّ المهمَّ عنده هو اعترافه بأنّ هذه الوجوه من شأنها أن تؤدّى إلى فساد الشّعر واللغة معًا ، لأنها « أمورٌ متى حُملت على التحقيق وطُلب فيها محضُ التقويم أُخرجتْ عن طريق الشعر ، ومتى اتُّبع فيها الرُّخَص وأُجريتْ على المسامحة أدّت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام » [3] . لذلك فإنه على الرغم من تصريحه النظرىّ بإمكان التساهل مع المحدثين ... لايتردّد القاضى فى تخصيص (تفاوت شعر أبى تمام) و (الرّدىء من شعره) بحديث خاص [4] .

---

(١) أبو على محمد بن الحسن الحاتمى : الرسالة الموضحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) الوساطة ٤٣٢ .

(٣) الوساطة ٤٣٣ ، ويراجع : سرّ الفصاحة ص ١١٩ حيث ينقل كلام الجرجانى ، وإن كان ابن سنان لايقبل هذه التفرقة فى الحكم بين القديم والمحدث .

(٤) الوساطة ص ٦٥ ، ٦٧ ومابعدها .

وأورد **الثعالبى** مجموعةً من بعيد استعارات المتنبى كجَعْله للطِّيب والبَيْض* واليَلَب قُلوباً ، وللسَّحاب حُمَّى ، وللزمان فؤادا ، وللكبد شيبا ، ووصفها بأنها « لم تَجْرِ على شَبَه قريب ولا بعيد » ، وقال : « إنما تصحُّ الاستعارةُ ، وتحسن على وجه من الوجوه المناسبة وطرق من الشبه والمقاربة » (١) .

وجاء **ابنُ سنان** – وتأثُّره بالبلاغَة اليونانية لا يحتاج إلى إيضاح – فجعل من أصول حسن التأليف وضعَ الألفاظ موضعَها حقيقة أو مجازا « لا ينكره الاستعمال ولا يُبعِدُ فيه » (٢) ، وقد جعل من وضع الألفاظ فى موضعها حُسْنَ الاستعارة ، وهى عنده على قسمين : قريب مختار ، وبعيد مُطَّرَح ، والأول ما كان بينه وبين ما استُعير له تناسبٌ قوى وشَبَهٌ واضح ، أما البعيد المطَّرحُ فهو إما لبُعْده عما استُعير له فى الأصل أو لأنه استعارةٌ مبنيّةٌ على استعارة فتضعف لذلك (٣) ، وهو يُعطِى أمثلة لحُسْن الاستعارة وقُبحِها من شعر أبى تمام ، بل وفى استعارة لفظةٍ واحدة فى موضعين ، وأساسُ الحسن والقُبح عنده هو توافر أو انعدام الشبه أو الصلة بين الطرفين (٤) ، ومرةً أخرى يُعيدُ إلينا ما قام به القاضى ، والصاحبُ بن عبّاد ، من انتقادِ البعيد من استعارات المتنبى ، مع نفس الأمثلة تقريبا (٥) .

واللافتُ عنده هو عدمُ موافقته القاضىَ الجرجانى فى قوله بوجوب التماسِ العذر للمحدثين فى مثل هذه الأحوال : فقوله – يعنى القاضى الجرجانى – « إنما يُحمل ماجاء من ألفاظ المحدثين وكلام المولّدين زائلا عن السَّنن على وجوه تقرِّبهم من الإصابة وتقيم لهم بعض العذر ، فكأنه بهذا القول يخصّ المحدثين من المتقدمين ، وليس بينهم من هذا الوجه فرق ، وكما يُلتمس من المتأخر الحسَنُ الصحيح ، كذلك يُلتمس من المتقدّم ... وما أحسب أن أحداً ... يحتاج فى اختيار الاستعارة إلى

* المقصود بـ (البيْض) فى السياق : جمع بيْضة ، وهى الخوذة التى يضعها الفارس على رأسه .

(١) اليتيمة ١ / ١٦٢ ، وجدير بالذكر أن الثعالبى ينقل فى هذا الموضع عن الوساطة ، تنظر ص ٤٢٩.

(٢) سر الفصاحة ١٠٣ .

(٣) سر الفصاحة ١١١ ، ١١٢ .

(٤) سر الفصاحة ١١٦ .

(٥) سر الفصاحة ١١٨ .

معرفةِ صاحبها وزمانه حتى يكون حكمه على من تقدّم مولدُه يخالف حكمه على من قرُبَ عهده » (١) .

وبالمثل يرفض « إقامةَ العذر للمتنبّى وترك الإنكار عليه ... لأنّ القولَ فى استعارة أبى الطيّب إذا كانت بعيدةً غير مرضية كالقول فى كلّ استعارة كذلك ، سواء كانت لمتقدّم أو لمتأخرّ ، وليس يتميّز قبحها بإضافتها إلى رجل من الرجال ولازمان من الأزمنة » (٢) .

ونصّ **عبدُ القاهر** صراحةً على أن « احتمالَ اللفظِ شرطٌ فى كلّ ما يُعْدَلُ به عن الظاهر » (٣) ، واشترَطَ فى اللّفْظِ المنقولِ عن أصله فى المجاز « شرطا : وهو أنْ يقع نقلُهُ على وجهٍ لا يَعْرَى معه من ملاحظة الأصل ، ومعنى الملاحظة : أن الاسم يقع لما تقول إنه مجاز فيه بسببٍ بينه وبين الذى تجعلُه حقيقةً فيه » (٤) ثم راح يؤكد أن المقصودَ بقولنا (المجاز) « أنّ للّفظِ أصلا مَبْدُوءًا به فى الوضع ومقصودا ، وأن جريه على الثانى إنّما هو على سبيل النقل إلى الشىء من غيره ، وكما يعبقُ الشىءُ برائحةِ ما يُجاورُه وينصبغ بلون ما يدانيه » (٥) .

وقد يُقال إنّ فكرة (المقاربة) هذه فكرةٌ عربيّة فحسب ، لمْ يكن بإمكان قدامةَ أو ابن سنان أو عبدِ القاهر التخلصُ منها ، لكننا نجد الفكرةَ نفسها فى تلخيص ابن سينا لخطابة أرسطو ، ففيه « ينبغى أن يُستعمل من الألفاظ الموضوعة – أى المطابقة– والمتغيِّرة – أى المستعارة وما يجرى مجراها من المجاز – ما يليق بالشىء ، لا كيف اتفق . . . وينبغى للخطيب إذا أراد أن يستعير . . . أن يأخذ الاستعارة . . . من جنس مناسب لذلك الجنس (٦) ، محاكٍ له ، غير بعيد منه ولا خارج عنه « فأنجح ضروبِ

---

(١) سرّ الفصاحة ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) سرّ الفصاحة ١٢٠ .
(٣) الأسرار ٣٦٣ .
(٤) الأسرار ٣٦٥ .
(٥) الأسرار ٣٦٦ .
(٦) خطابة ابن سينا ٢٠٥ .

التغييرات ما كان المستعارُ منه يعادل المستعار لـه ويحاكيـه محاكاةً تامـة » (١) .

وقد استمرت هذه النظرةُ – على المستوى النظرى – قائمةً ، فصرّح **العلوى** (ق٧، ٨) ، بوجوب إقرار المجازاتِ اللغويةِ حيثُ وردَتْ ، وعدَمِ تعدِّيها « إلاّ بإذنٍ وتوقيفٍ من جهة اللغة » لأنها واردة على خلاف الأصل والاستعمال ، ويمثِّلُ باستعارةِ لفظِ الأسد للرجل الشجاع ، ويقول إن وجَه الاستعارة بينهما المشاركةُ فى معنى الشجاعة ، فيجبُ إقرارُه حيث ورَدَ ، ولو جاز تعدِّيه لجاز إطلاق اسم الأسد على الرجل الأبْخَر وهو المتغيِّر الفَم ، فلو كانت المشابهة كافيةً فى حِلِّ الإطلاق لجاز ما ذكرناه (٢) .

وليس من شك فى أن ما دار حوله حديثُ أولئك النقاد هو نفسه ما عناه **الآمدى** بإيجابه أن تكونَ الاستعاراتُ والتمثيلاتُ لائقةً بما استُعيرت له ، وغيرَ منافرةٍ لمعناه ، لأنّ «الكلام لا يكتسى البهاءَ والرونقَ إلاّ إذا كان بهذا الوصف» (٣)، وكذلك بإيجابه وضعَ الألفاظ مواضعَها ، وهو نفسه ما دار حوله حديث المرْزوقى فى القسم الثانى من القسمين اللذين قسَّمْنا إليهما عناصر عمود الشعر .

فإذا علمنا أن صاحب (الموازنة) قد أعقب نصَّه السابقَ بقوله : إن « تلك طريقةُ البحترى » وقوله إن « سُوءَ التأليف ورداءَةَ اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويُفسده ويعمِّيه ، حتى يُحْوِجَ مستمعَه إلى طول تأمل » وأن « هذا مذهبُ أبى تمام فى عُظْم شعره » (٤) ، رأينا – بسهولة – المذهبين المتقابلين ، وعرفنا ما استُحْسِنَ فى أحدهما ، وما هُوجم فى الآخر ، وتأكد لنا أن الهجومَ على أبى تَمَّام – حينَ وُصِفَ بالخروج على عمود الشعر – كان سببُه الخروجَ على هذا القسم الثانى من قسمى العمود ، الخروج الذى يتمثَّل فى الإخلال بالشرائط التقليدية البسيطة للعبارة الشعرية التى رَسَمها الآمدى ، ووصفها بأنها طريقة البحترى .

---

(١) المرجع السابق ٢٢٩ .

(٢) الطراز ١ / ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) الموازنة للآمدى ١ / ٤٠٠ .

(٤) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

وليس عند أبى تمام ما رُفِضَ غير هذا ، حتى المعانى الدقيقة والحكمة وما عُرِفَ بأنه معانٍ فلسفية ، وهذه كلّها تجديدات عنده ، لم يرفَضْ شىءٌ من ذلك لذاته، وإنما بسبب مايورثُه من تعسُّف النَّسْج واضطراب اللّفظ مما يجعل لقب الفيلسوف أو الحكيم أليقَ بالمتكلم من لقب الشاعر [١] ، « لأنّ لطيف المعانى إذا جاء فى غير بلاغة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن كان ذلك مثلَ الطراز الجيد على الثوب الخَلَق أو نقشِ العبير على خد الجارية القبيحة الوجه » [٢] ، فإذا كمُلت للأديب شرائطُ العبارة الجيدة واتّفق له أنْ يُحدثَ فى صنعته معنى لطيفا مستغربا... فذلك زائدٌ فى بهاء الكلام [٣].

يقول **البهبيتى** عن أنصار البحترى : إنهم « لا يمتنعون تماما عن تقبُّل الحكمة فى الشعر ، ولكنهم يأبوْن أن يستحيلَ الشعر فلسفةً ، ويقولون إن للفلسفة آلةً فلتصْطَنَع لها آلتُها » [٤] ، فليس صحيحا – إذن – ما يذهب إليه طه إبراهيم من أن النقّاد العرب قد رفضوا عند أبى تمام والمتنبى الحكمة والمعانى الفلسفية لذاتها [٥] ، لأننا نعلم أن رفضَهم لها كان مسبّبًا بما ينتُجُ عنها من سوءِ العبارة ، فإذا جاءَتْ هذه الحِكمُ والمعانى فى عبارة جيدة وجدناهم يقبلونها بغير تردد ، حدث ذلك عند الآمدى ، وحدث عند غيره فى القرن السابق عليه ، فقد كان المبردُ معجَباً بشعرِ أبى عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن العَطَوى الذى ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام – وكان معتزلياً ، ووُصِفَ بأنه أحد المتكلمين الحُذّاق – ويذكر محمد بن داود أن شعره خَفَّ على كلِّ لسان ، ورُوِى ، واستعمله الكُتّاب ، واحتذَوْا معانيه وجعلوه إماما ، ويذكر المبرد أنهم كانوا يتهادَوْن شعرَه الذى يَرِد عليهم [٦] .

ومرة أخرى نعود من حيث بدأنا ، لنطرح من جديد هذا السؤال : على أىِّ

---

(١) الموازنة ١ / ٤٠١ .

(٢) الموازنة ١ / ٤٠٢ .

(٣) الموازنة ١ / ٤٠٤ .

(٤) البهبيتى ، أبو تمام الطائى ١٨٧ .

(٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٦) راجع الأغانى ٢٠ / ٥٩ ساسى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ٤٣٣ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ٩٢/٥.

شيء كانت تدور المناقشة إذن ؟ وحول أيّ محور دار هجوم أنصار البحترى على أبى تمام ؟ ومرة أخرى لا نجدُ سوى نفس الإجابة : إنها صياغة أبى تمّام ذات الطابع الخاص فى أماكنَ من شعره وهو ما اعتُبر فى نظر النقاد ضربا من الغموض والتقعّر والإجحاف باللغة .

فهل رفضَ أنصارُ أبى تمام تلك التهمة ؟ . . . الواقع أنهم اعترفُوا بها ، وحاولُوا الاعتذارَ عنها فقالوا : « لسنا نَدْفعُ أن يكون صاحبُنا قد أوهم فى بعض شعره ، وعَدلَ عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه » (١) ، ولكنهم رأوا أن من الواجب « أن يُسامَح فى سهْوه ويُتَجاوَزَ له عن زلله ، فما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام سَلِم من الطعن ولا مِنْ أخْذِ الرواة عليه الغلطَ والعَيْب » (٢)، ثم راحوا يسردون عددا من مآخذ العلماء على الشعراء قبل أبى تمام ، وكثيرٌ منها من نوع الأخطاء اللغوية بأخص معانيها ، كما أن عددا منها يدخل فيما سماه أنصار البحترى بقبح الاستعارة ، وما عرف عند قدامة والحاتمى بالمعاظلة ، ومن الأمور ذات الدلالة فى هذا الصدد أن كثيرا من هذه الأخطاء مرويٌّ عن الأصمعى (٣). ولعل فى نوع هذه الأخطاء وانتمائها إلى الأخطاء اللغوية ما يدل - بجلاء - على تصوُّرهم لطبيعة الأخطاء التى سجّلها أنصارُ البحترى على صاحبهم .

وهل دفعَ أنصارُ أبى تمام عن البحترى ما تباهَى به أنصارُ الأخير من صفة الإتقان للّفظِ والسَّبك فى العبارة أو عابوها عليه ؟ يصرِّح الآمدى بأن : «أكثر أنصارِ أبى تمام لا يدفعون البحترىَّ عن حُلْوِ اللفظِ وجودَةِ الرّصف ، وحسن الدّيباجة ، وكثرةِ الماء ، وأنه أقربُ مأخذًا وأسلمُ طريقا من أبى تمام » (٤) ، وهكذا يلتقى - فى النهاية - أصحابُ الشاعرين ، فى الاعتراف بقيمةِ المعانى المبتكَرة والعبارة الرائعة ، وهذا ما لاَحظَه إبراهيم سلامة ، فقرر أن أنصار الشاعرين « اتفقوا على شىء واحد فى النهاية يجمع المعنى وسمُوَّه ، والعبارةَ ومُلاءَمَتَها لهذا السّمُوّ . . . فقد قالوا جميعا

(١) الموازنة ١ / ٣٦ .

(٢) الموازنة ١ / ٣٦ .

(٣) راجع الموازنة : ١ / ٣٦ ، ٤٢، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) الموازنة ١ / ٤٠٠ .

(إن حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء ، وحسنا ورونقا ، حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد) . وهذا الحكم الأخير إن صفق له أنصار البحترى ، فما يغضب له أنصار أبى تمام ، لأن المعانى لم تهمل فى الحكم ، ولأن الغرابة قد اعترف بها ، ويرضى أنصار أبى تمام فى النهاية أن تكون المعانى والغرابة أدبية لا فلسفية ، وإلا جافى الشعراء طبيعة الأدب » (١) .

وهذه النتيجة تدل – فى الواقع – على طبيعة موقف أنصار أبى تمام من البحترى، فالحقيقة أنه لم يكن هناك هجوم بالمعنى الصحيح على البحترى من جانبهم ، وكل ما قالوه عنه يمكن حصره فى نواح ثلاث : أخذ البحترى من أبى تمام ، وكونه عاريًا من فضيلة العلم بالشعر ، وكذلك كونه عاريا من فضيلة اختراع مذهب يعرف به (٢).

وقبل أنصار البحترى المأخذين الأولين ، ولكنهم رفضوا أن يكون ذلك سببا لانحطاط شاعرية صاحبهم ، بل استمدوا منهما سببا للقول بأنه أشعر من أبى تمام، كذلك قبلوا المأخذ الثالث ، أعنى كون البحترى عاريا من اختراع مذهب خاص به ، ولكنهم سلبوا هذه الفضيلة ذاتها عن أبى تمام أيضا ، وفرقوا فى هذا الصدد بين عدة أمور :

١– استخدام البديع – مجرد الاستخدام – ولم يكن أبو تمام أول من فعل ذلك.

٢– التوسع فى استخدامه – مع الإحسان – وقد كان مسلم بن الوليد أول من توسع فى استخدامه وكان أصح سبكا منه .

٣– التوسع فى استخدامه مع الإساءة إلى اللغة والتعسف فى هذا الاستخدام بما يؤدى إلى التعقيد وسوء الفهم نتيجة للخروج عن مألوف العبارة فى صورتها السهلة البسيطة ، وهذا هو ما التزمه أبو تمام : أفرط فى البديع وأساء ، فصار إفراطه من الذنوب لا من المحاسن .

---

(١) إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو ٣١٨ .

(٢) راجع فى مآخذ أنصار أبى تمام على البحترى ووجوه الطعن عليه ، الموازنة ١ / ٨ ، ١٤ ، ٢٤، ٢٦ ، ٢٧ .

أما ما تباهى به أصحابُ أبى تمام فهو أنّ صاحبهم أشعرُ لكثرة جيدهِ وتفوقِه على جيد البحتـــرى ، ولأن البحترىَّ أخذ منه ، ولأنه عالمٌ بالشعر وأنه انفرد بمذهب اخترعه (١) ، ثم دافعوا عما أوهم فيه من شعره وما عَدَل فيه عن الوَجْه الصحيح من معانيه قائلين إن هذا إنما يُغْتَفَرُ له بجانب إحسانه الكثير ، وما نتج من المحاسن وولّد من البدائع . . . « وإذا كان كلُّ جيدٍ دون جيّده فلا يضره ما يُؤْثَرُ من رديئه » (٢) .

ويبدو من استعراض أقوالِ الفريقين أنّ أصحاب أبى تمام كانوا يمثّلون الجانب الأضعفَ فى تلك المحاورة ، وكلَّ ما أوردوه فى التنويه بصاحبهم أو الدفاع عنه أو الهجوم على البحترى أمورٌ عامة لا ترقى إلى التحليل والبسط والتفصيل وهو ما اتّسَمَ به حديثُ أنصار البحترى .

وهكذا تكونُ صورةُ تلك المحاورة – كما نراها – على النحو الآتى :–

– الفريقان يستحسنان اشتمال الكلام على المعانى المبتكرة والغريبة .

– الفريقان يفضّلان حلاوةَ اللفظ وجودة السبك .

– إن تعسّف أبى تمام وإجحافَهُ بعبارته هو الذى أثار الخصومةَ ضده ، لا مِنْ فريقٍ بعينه بل مِنْ كل المشتغلين بالنقد . ولم يكن ردُّ أصحابه قائما على رفض التهمة وإنما كان قائما على الاعتذار والتبرير .

وهكذا لم يكن حديثُ أصحابِ البحترى – الذى تسنده النظريةُ الأدبيةُ عند العرب – كلّه هجوما على ما تصوَّروه جديداً جيّداً أتى به أبو تمام ، ولم تكن تلك المحاورةُ صراعا بين أنصارٍ للجديد يمثّلهم فريق أبى تمام ، وأنصارٍ للقديم يمثلهم فريقُ البحترى . فالبحترى – كما صرح بذلك الكثيرون قدماء ومحدثين – كان شاعراً حديثا ، وربما كان أكثر انفكاكا عن الماضى من أبى تمام .

وفطن بعض النقاد – فى القرن الرابع – إلى محاولة أبى تمام التّشبُّه بالبدو ومحكاة الأوائل مما أداه إلى التّصْعيب والتعسُّف ، فإنه – كما يقول القاضى الجرجانى

(١) راجع فى تنويه أنصار أبى تمام بشاعرهم ، الموازنة ١ / ٨ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٩ .

(٢) راجع فى اعتذار أصحاب أبى تمام عن أخطائه وإساءاته ، الموازنة ١ / ١٩ ، ٢٢ ، ٥١ .

- « حاول من بين المحدثين الاقتداءَ بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصَل منه على توعير اللفظ ، فقبُح فى غير موضع من شعره . . . فتعسَّف ما أمكن وتغلغل فى التصعُّب كيف قدر » (١) ، ووصفَه فى موضع آخر بأنه يتعجرف أحيانا ويتشبّه بالبدو ، وينسى أنه حَضَرىٌّ متأدِّب وقروى متكلف (٢) .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يقولُه أنصار البحترى عن أبى تمام من أنه «حضَرى تشبّه بأهل البدْو فلم ينفُق فى البادية ولا عند أكثر الحاضرة » (٣) ، وما بررُّوا به ما قيل عن إنكار بعض العلماء لشعر أبى تمام مع قَبولهم شعرَ الأعراب ، بالقَوْل بأن شعرَ الأعراب محتذًى على غير مثال ، أما المتحضِّرون المثقَّفون أمثالُ أبى تمام فإنّ شعرَهم محتذًى على الأمثلة . وغيرُ المحتذَى على الأمثلة أفضلُ (٤) ، وما يقولُه الآمدى من أن أبا تمام كان يُقيم محاولات الإغراب عنده على الإكثار مما وَرَدَ على قلّةٍ مما استغربَه فى أشعار الأوائل (٥) وأنه - أى الآمدى - قد وجد لدَى القدماء نظائرَ قليلةً لما وقع فيه أبو تمام من رَذْلِ الألفاظ وساقطِ المعانى فعلِمَ أنه بذلك اغترَّ وعليه فى العُذر اعتمد ، طلبا منه للإغراب والإبداع ، وميلا إلى وحشىِّ المعانى والألفاظ (٦) ، وهو ما حدا به إلى التعمُّل لإدخال الغريب فى شعره بدرجة تُستَهْجن من الأعرابى القُحِّ الذى لا يتعمَّل له ولا يطلبه ، مما يجعل مجيءَ مثله من المحدَث الذى ليس هو من لغته ولا من ألفاظه أحرى أنْ يُستهجن (٧) .

إذا ذكرنا كلَّ ذلك علمنا أنَّ من الصعب التفكيرَ فى أنها كانت معركة بين قديم أنصارُه فريق البحترى وجديدٍ أنصاره فريقُ أبى تمام . إذْ إننا أمام نصوص يهاجم

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ١٩ .
(٢) الوساطة ص ٧٢ .
(٣) الموازنة ١ / ٢٦ ، وراجع جرونباوم (نشأة الشعر العربى وتطوره) ص ١٤٨ حيث ينعت حركة أبى تمام بأنها حركة رجعية .
(٤) الموازنة ١ / ٢٣ .
(٥) الموازنة ١ / ٢٥٦ ، ٢٨٤ .
(٦) الموازنة ١ / ٢٤٣ .
(٧) الموازنة ١ / ٢٨٦ .

فيها الاقتداءَ بالقدماء أولئك الـذين ادُّعِيَ عليهم أنهم أنصارُ القديم ، بينما يفخرون بأن شاعرَهم الذى نـشأ فى البادية استطاع أن يطوّر نفسه ويتحضّر ، وأنه لم يحـاولْ التقعُّر فى لغتـه ولا محاكـاةَ الأعراب الجُفاةَ فى وحشِىِّ ألفاظهم ، بل جاءتْ عبارته سـمْحةً سهلة (١) .

الموقف من واقع المصطلحات

ومـثل هذا الموقف يقطع – من ناحـية – بأن أنصـارَ البـحتـرى لم ينظروا إلى أنفـسهم باعـتـبارهم خـصومـا لجديدِ أبـى تمام ، ويقطع – من ناحيـة أخرى – بوجودِ تصورٍ راسخ لديهم عن مـبدأ التجديد والطريق السَّوىّ إليه ، وهذا ما يوضّحه النظرُ فى بعض المصطلحـات التى استخدمَها ذلك الفريق من النقاد خاصة مصطلحى **(الطبع)** و**(التكلّف)** ، فقـد دأب أنصارُ البـحتـرى على وصف صاحبـهم ووصف شعره بـأنه (مطبوع) ، وفى نفس الوقـت راحـوا يصـفـون أبا تمـام وشـعـره بـ(التـكلُّف) يقـول الآمـدىّ : إنّ البـحـتـرىَّ « أعـرابىّ الشّعـر مطبـوع ... فـهـو بأن يُقـاسَ بأشجع السُّلمى ومـنصور النَّمرىّ وأبى يعـقوب المكفوف وأمـثالهم من المطبـوعيــن أوْلــى » (٢). أمـا أبو تمام فــهــو « شـديدُ التـكلّف صـاحب صنعة » (٣) .

ويعزو عبد القادر القط إلى الدارسين فى العصر الحديث فهم مصطلحى الطبع والتكلف على أن الأول يعنى : البساطة Simplicity والطبيعيّة Naturalness بينما يعنى الثـانى :الصناعيـة Artificiality وإن تكن بمفـهـوم غـيـر سـيِّئ ، ثم يرفض أن يكون القدماء قد فَهِموا من المصطلحين هذا الفهم ، فقد فهم القدماء كلمة الطبع على أنها تعنى : القدرةَ على الارتجال Improvisation بينما فهموا التكلف على أنه يعنى

---

(١) الموازنة ١ / ٢٦ ، وراجع جرونباوم ، الموضع السابق .
(٢) الموازنة ١ / ٤ .
(٣) الموازنة ١ / ٤ .

: الرَّوِيَّة contemplation (١) ، ثم ينقل كلمات ابن قتيبة وأحكامه فى هذا الصدد وهى مما يؤيد وجهة نظره (٢) .

والواقع أن كُلاً من هذه الوجوه فى فهم المصطلحين واردٌ عند القدماء ، وما يعزوه القط إلى الدارسين المحدَثين فى فهم مدلول المصطلحين عند القدماء هو – فى الواقع – خلاصة مذهب الأصمعى ، وأيضا – ومن زاوية معينة – خلاصة مذهب الجاحظ .

فمن أقدم الأقوال فى هذه المسألة ما ينسب إلى **الأصمعى** الذى وصف زهيرا والحُطَيْئَةَ بأنهما من عبيد الشعر لأنهما نقَّحاه ولم يذهبا به مذهب المطبوعين(٣) ، وينقل الجاحظ وصفه للحطيئة بأنه (عَبْدٌ لشعره) وقال إنه « عاب شعره حين وجده كلَّه متخيَّرا منتخَبا مستويا لمكان الصنعة و التكلّف والقيام عليه»(٤)، كذلك نقلوا عنه إعجابه بصفة التفاوت بين الجزالَةِ واللّيونة فى شعر النابغة الجَعْدِىّ ، وقد ذكر ابنُ سلاّم أنّ الأصمعيَّ « كان . . يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلة التكلُّف » (٥) ، وتدل المصادرُ على أنّ مثلَ هذه الصفات – أعنى التفاوُتَ وعدمَ العناية بالتنقيح والتّهذيب – كانت وراء إعجابه بشعر بشّار وأبى العتاهية أيضا (٦) .

وواضح أنّ الأصمعيَّ يربط بين (التكلف) وبين مراعاة قواعد الصنعة وتنقيح الشعر ، كما يربط – ضمنا – بين الطبع وبين إغفال هذه القواعد أو عدم التشبُّثِ بها ، وكذلك عدم العناية بالتنقيح والتهذيب المُفْرِطَيْن . ولا يبتعد التكلفُ

---

(١) Elkott (A.) Arab Conception of Poetry as Illustrated in kitab Al- Mu- wazanah P.21.

(٢) راجع أقوال ابن قتيبة التى يشير إليها القط فى الشعر والشعراء ١ / ٣٤ ، ٣٧ ، وراجع أيضا ٢ / ٧٧٣ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٩٤ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦ .

(٥) ابن سلام ، طبقات الشعراء ١٠٥ ، والشعر والشعراء ١ / ٢٤٩ ، والموشح ٦٤ .

(٦) الأغانى ٣ / ١٤٩ ، ٤ / ١١ ، ٤٠ .

بهذا المعنى عن معنى الوقوع فى التقليد ، كما أنَّ الطبعَ يكتسبُ بهذا الاستعمال كثيرا من سمات الأصالة .

وحديثُ **الجاحظ** فى هذه الناحية أكثرُ تفصيلاً ووضوحا فى الكشف عن الدلالة التى فُهِمَ بها المصطلحان حتى القرن الثالث على الأقل – وهى الفترة التى احتوت حياةَ الشاعرين والتى شهدتْ أيضا كثيرا مما قيل حولهما مما تضمنته المؤلَّفاتُ اللاحقة .

وهو يشير فى (الحَيوان) إلى أنّ بنى حنيفة « معَ كثرةِ عددهم وشدّة بأسهم وكثرةِ وقائعهم . . . لم نَرَ قبيلةً قطّ أقلّ شعرا منهم ، وفى إخوتهم عِجْل قصيدٌ ورجزٌ، وشعراء ورجّازُون ، وليس ذلك لِمكانِ الخصْب وأنهم أهل مَدَرٍ وأكّالُو تَمْر ، لأنّ الأوسَ والخزرجَ كذلك ، وهم فى الشعر كما قد علمت ، وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة ، وثقيفٌ أهلُ دارٍ ناهيك بها خِصبا وطيبا ، وهم وإن كان شعرهم أقلّ ، فإن ذلك القليل يدل على طبعٍ فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قِبَلِ رداءةِ الغذاء ولا من قلّة الخصب الشاغل والغِنَى عن الناس ، وإنما ذلك عن قَدَر الله لهم من الحُظوظِ والغرائز والبلاد والأعراق . . . وبنو الحارث بن كعب . . لم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظٍّ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مُفْلِقون »(١) .

وأبسط ما يمكن أن نفهم به هذا النصَّ هو تذكُّرُ تعليل ابن سلاّم لقلة الشعر – فى الجاهلية – فى مكة والطائف وعُمان حيث أرجع تلك القلةَ إلى عدَم وجود الحروب والفتن بين أحياء تلك الأقاليم (٢)، وإذا جاز لنا القولُ بأن ابنَ سَلاّم يعوِّل على الدافع الخارجى ، وُجوداً وانعداما ، فى تعليل كثرة الشعر وقلته ، ثم رأينا الجاحظَ لا يُهمل فحسب دَوْرَ هذا العامل ، وإنما يؤكد قلةَ الشعر فى بنى حنيفةَ مع وجودِه ، أى أنه يُنكِرُ دوْرَ هذا الدافع فى كثرة الشعر وقلته ، أدركْنا أنه يقفُ بلا شكٍّ عند سبب آخرَ أو عامل آخرَ وراء نفس الظاهرة التى وقفَ أمامهَا ابنُ سلام ، وأن هذا العامل – فيما

---

(١) الحيوان ٤ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٢) ابن سلام ٢١٧ .

يبدو – ليس خارجياً عن نفس الشاعر .

وتصادفنا فى محاولة تبين رأيه فى الموضوع كلمات مثل (الطبع) ومثل (قدر الله . . . من الحظوظ والغرائز) . . . . الخ .

ولعل حديثه فى (البيان والتبيين) – فى رده على الشعوبية – عن الطبع والتكلف كفيل بتوضيح معنى كل من هذين المصطلحين من خلال الاستعمال فى محيط النقد القديم فى تلك الفترة .

لقد كانت الشعوبية تعيب على العرب « تركَ اللفظ يجرى على سجيّته . . حتى يخرجَ على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف . . . ولا تكلّف وزن » (١)، ويرد الجاحظ بأن « الذى تجودُ به الطبيعة وتُعطيه النفسُ سَهْوا رَهْوا مع قلّة لفظه وعَدَدِ هجائه أحْمَدُ أمراً وأحسنُ موقعا من القلب . . . من كثير خرج بالكَدّ والعِلاج » (٢) ، وكلام النبى نفسه يوصَف بأنه « جلّ عن الصّنْعة ونُزّهَ عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قُلْ يا محمّدُ (ومَا أنَا مِنَ المُتَكَلِّفين) » (٣) ، «فنزّهَ اللهُ رسولَه ، ولم يرغّبْه فى صنعة الكلام والتعبّد لطَلَب الألفاظ والتكلّف لاستخراج المعانى . . . فإذا رأتْ مكانَه الشعراءُ ومَنْ قد تعبّد للمعانى وتعوّد نَظْمَها وتنضيدَها . . . واستخراجَها من مدافنها وإثارتَها من مكامنها علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم ممّا قد استفرغهم ، واستغرق مجهودَهم . . . قليلا مما يكون معه على البَداهة والفُجاءة ، من غير تقدّم فى طلَبه ، واختلاف إلى أهله » (٤) ، فالتكلّفُ يعنى التعمّقَ فى الصنعة ، كما يقابل القولَ على البَداهة والفُجاءة ، أى أنه يدلّ على التَّروّى والتّنقيح ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى يرتبط مفهوم التكلّف عند الجاحظ بادّعاء الإنسان ماليس فيه، وكونه غيرَ أصيل فيما يدّعيه من الصّفات ، ويصرّح الجاحظُ بأنّ العربَ لم يكونوا « يذمّونَ المتكلّف للبلاغة فقط ، بل كذلك يرونْ المتظرّفَ والمتكلّف للغناء ،

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٦ .

(٢) المرجع السابق ٤ / ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ٢ / ١٦ ، ١٧ .

(٤) المرجع السابق ٤ / ٣٠ .

ولا يكادون يضعون اسمَ المتكلّف إلاّ في المواضع التي يذمّونها ، قال قيسُ بن الخطيم :

وإنّي لأغنى الناسِ عنْ متكلّفٍ .·. يرى النّاسَ ضُلاّلاً وليْسَ بمُهْتَدِ

وقال ابنُ قَميئة :

وحَمّالُ أثْقَالٍ إذَا هِيَ أعْرضَتْ .·. عَنِ الأصْلِ لا يَسْطِيعُهَا المُتَكَلّفُ (١).

ويقابلُ التكلُّفَ عندَه أكثرُ من مصطلَح مثل (البديهة) و (الارتجال) و (الإلهام) و (الطبع) ، ولعلّ أهمَّها وأدقّها هو الأخير . وهو – عنده – يعني الاعتمادَ على النفس في القول والاستسلامَ لمقتضَيات التعبير عن الذّات والموضوع دونَ تعمُّلٍ أو استعانة بشيء خارجي ، حتى ولو بالتراث ، وهذه – أي صفات الطبع والقدرة على القول بديهةً وارتجالاً – هي ما امتازَ به العرب ، وليس كذلك الفُرس ، إذ إنّ « كلّ كلامٍ للفرس وكلَّ معنىً ، فإنما هو عن طُولِ التفكير ومدارسة الكُتُب ، وحكاية الثاني علمَ الأول وزيادة الثالثِ في عِلم الثاني ، حتى اجتمعت ثمارُ تلكَ الفِكَرِ عند آخرِهم » ، هذا بينما « كلّ شيء للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناةٌ ولا مكابدةٌ ولا إجالةُ فكرٍ ولا استعانة » وإنما تأتي الواحدَ منهم « المعاني أرْسالاً ، وتَنْثَالُ عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيّدُه على نفسه ، ولا يَدْرُسُهُ أحداً من ولده ، وكانوا أميّينَ لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلّفون . . . وكل واحدٍ في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفعُ ، والكلامُ عليهم أسْهَلُ ، وهو عليهم أيْسَرُ من أنْ يفتقِروا إلى تحفُّظ ، ويحتاجُوا إلى تدارس ، وليس هم كمَنْ حفِظ علم غيره واحتذى على كلامِ مَنْ قبلهُ ، فلم يحفظوا إلاّ ما عَلِقَ بقلوبهم والتَحَم بصدورهم واتّصَلَ بعقُولهمْ من غير تكلُّفٍ ولا قَصْدٍ، ولا تحفُّظ ولا طلب » (٢) .

ويبدو أن هذا الموقفَ من الجاحظ هو ردُّ فعل على غير قليل من الحماس في مواجهة ما عابه الشّعوبيّون على العرب ، وهو حكم يستضيء بما يبدو عنده في موضع

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٨ .

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ ، ٢٩ .

آخر من تنويه وتقدير لقيمة وَعْيِ العرَب بتراثهم وحفظهم لأشعارهم[١]، وكذلك ما قرّره من أن ذلك الإعجاب بالتراث والاستيعابَ له ليس ممّا يُخلّ بالمقدرة الابتكارية للشاعر ، إذ نراه يصف بشارًا – وهو مَنْ هو تحصيلاً للشعر العربى والثقافة العربية – بأنه من « المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع » [٢] .

وتدلُّ القرائنُ على أنه كان يفرّق فى النظر إلى التراث والانتفاع به بين موقف النقل والتقليد والاتّباع – على نحو ما كان يصنع الفُرْسُ – وبين مجرّد الاستضاءة بالتراث واتخاذه وسيلةً لصقْل الموهبة والمِران وهو ما كان يصنعه العرب [٣] .

فالطبع – كما تدلّ نصوصُ الجاحظِ والأصمعى – نقيضُ التكلّف ، وإذا كان المصطلح الأخير يعنى :

- الحفظ والانتفاع المباشر بكلام الغير .
- التعمّق فى الصنعة والتعمّل لاجتلابها .
- القول على الرويّة والاهتمام بالتنقيح والتهذيب .
- عدم الصدق ، والكَذِب فى ادّعاء ما يتصّف به الإنسان .

فإن الطبعَ يعنى عكسَ ذلك كله : يعنى عدمَ الاحتذاءِ لكلام الغير ، وعدمَ الجرْىِ وراءَ الصنعة ، وهو ما قد يدلّ عليه – فى رأى عدد من نقاد العرب – القدرةُ على القولِ بديهةً وارتجالاً ، وكذلك يعنى الصدقَ فى القول وفيما يُخبِرُ به الإنسان عن نفسه ، فالطبْعُ يدلّ على أنّ كلام القائل منبثقٌ من ذاته ، مستقِلٌ عن سابقيه ، لأنه لم يعتمد فيه بصورةٍ مباشرة على أحدٍ منهم ، كما لم ينحرفْ عن الصدقِ بالجرْىِ وراءَ متطلّبات الصنعة أو بالإخبار عن أمورٍ كاذبةٍ غيرِ نابعةٍ من إحساسه وذاته .

وتتجلى كلٌ من الصفّتين فى شعر صاحبها ، أما الطّبع فتتجلّى نتيجتُه – كما عند البحترىّ مثلا – فى « حلاوة اللفظ وحُسن التخلّص ووضْع الكلام فى مواضعه

---

(١) المرجع السابق ٣ / ٣٦٦ .

(٢) أغانى ٣ / ١٤٥ ط دار الكتب .

(٣) راجع فى هذا الفهم لدور التراث فى تكوين الأديب : البيان والتبيين ١ / ٤٤ .

وصحّة العبارة وقرْب المأتى وانكشاف المعانى » وتجنّب « التعقيد ومُستكرَه الألفاظ ووحشىّ الكلام » (١) . وأمـا التكلّف فيظهر – فى المقابل – عند أبى تمّام فى «غموض المعانى ودقّتها وكثرة مايورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج » ، وكذلك فى استكراه الألفاظ والمعانى ، وما فى شعره من « الاستعارات البعيدة والمعانى المولّدة » (٢).

وقد أجمل القاضى الجرجانى مظاهر التكلّف فى شعر أبى تمـام ، فقال : « إنه حاول من بين المحدثين الاقتداءَ بالأوائل فى كثير من ألفاظه فحصَل منه على توْعير اللفظ ، فقبُح فى غير موضع من شعره ... فتعسّفَ ما أمكن ، وتغلغل فى التصعُّب كيف قَدَرَ ، ثم لم يرضَ بذلك حتى أضاف إليه طلبَ البديع ، فتحمّله من كلّ وجه ، وتوصّل إليه بكلّ سبب ، ولم يرضَ بهاتين الخلّتين حتى اجتلبَ المعانى الغامضة ، وقصدَ الأغراضَ الخفيّة ، فاحتمل فيها كلَّ غثٍّ ثقيل ، وأرْصَدَ لها الأفكارَ بكل سبيل، فصار هذا الجنسُ من شعره إذا قَرَع السّمعَ لم يصل إلى القلب إلاّ بعد إتعاب الفكر وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة ... وتلك حالٌ لاتهشّ فيها النفسُ للاستماع بحسنٍ ، أو الالتذاذ بمستطرَف ، وهذه جريرةُ التكلّف » (٣) .

وقد يكون من المناسب – فى سياق الحديث عن مصطلحى (الطبْع) و(التكلف) – أن نقفَ على رأى أبى تمام نفسه فيما عرف بشعر الطبع والشعراءالمطبوعين – ومنهم البحترى – وحسن رأيه فى هذا الأخير معروف ، إذ هو الذى خرجه وزكاه وقدمه فى أول حياته ، مع ماهو معروف عن اختلاف مذهبيهما ؛ وأما موقفه من شعر الطبع عموما فيمثله رأيه فى شعر ابن عيينة ، ومعروف أنه من المطبوعين ، يقول الصولى : « وكان ابن أبى عيينة عند أبى تمام – مع هذا التباعد

---

(١) الموازنة ١ / ٤ .

(٢) الموازنة ١ / ٤ ، ٥ .

(٣) الوساطة ص ١٩ ، وجدير بالذكر أن القاضى يستدرك فى أعقاب هذا الكلام بأن هذا الحكم لايعمّ جميع شعر أبى تمام ، وإنما هو خاصّ بالمواضع التى أساء فيها ، والتى باستثنائها يحظى أبو تمام وشعره بكل التقدير والإعجاب . انظر ص ١٩ ، ٢٠ .

بينهمـا – شاعرًا مـجيداً ، ثم يروى الخبر عن وصف أبى تمـام لشعر ابن أبى عـيينة بأنه مختار كله(١) .

وهكذا يكونُ بإمكاننا عن طريق المراجعةِ والفهم – من زاويةٍ تاريخية – لهذيْن المصطلَحيْن اللذين شاعَ استخدامُهما على لسانِ أصحاب البحترى أنْ نفهَمَ حقيقةَ موقفِهم من قضيةِ التجديد بصفةٍ عامة ومن أبى تمـام وما نُسِبَ إليه من تجديدٍ بصفة خاصة ، وإذْ قد رأينا ما دأبوا عليه من استخدام كلمة (الطبع) والربط بينها وبين عدَم الاحتذاءِ بشتّى صوره ، ثم وصفهم صاحبهم بأنه (مطبوع) ، وأيضا ما دأبوا عليه من استخدام كلمة (التكلف) وربطهم بينها وبين التقليد واحتذاء السابقين فى أفكارهم وأساليبهم ثم وصفهم لأبى تمام بأنه (متكلّف) ، أدركنا أن فكرة المقاومةِ للجديد لم تكن فى أذهانهم وهم يتناولون بعض شعر أبى تمام بالنقد والتقويم ، إذْ كان العكس هو الصحيح ، أعنى أنهم كانوا يصفون أبا تمام بالتقليد ومحاولة التشبّه بالبدو والاحتذاء على أمثلة الغير .

باختصار كان ما أخذَهُ أصحاب البحترىّ على أبى تمّام هو ما أخَذَه عليه النقّاد وأصحاب اللغة جميعا ، وقد انصب حديثهم لا على شعرِ أبى تمّام فى جملته ، وإنما على مجموعةٍ من الأبياتِ يعترفُ الدارسُون المحدَثون أنفسُهم بتعسفه وسوء عبارته فى كثير منها .

وهذا تقريبا هو ما أخَذَهُ النقادُ على أبى تمام ، وما قصدوه عندما قالوا (إنه خرج على عمود الشعر) ، وسواءٌ صحت تلك النظرة ، أو أنها كانت خاطئة ، أو أنَّ النتائج التى ترتبت عليها كانت على خلاف ما توقّع أصحابُها ، فإننا يجبُ أن نحدّد ميدان الحديث ، وأن نفرق بين الرأى ، والنتيجة التى ترتبت عليه .

***

---

(١) ذيل أخبار البحترى ص ١٦٥ ، ١٦٦ ومقدمة شرح المرزوقى على الحماسة ١ / ١٤ .

(٣)
عَودٌ إلى حقيقةِ الموقف من أبي نُواس

هكذا نرى أن الجدلَ حولَ أبي تمّام لم يكنْ تحت شعار أنه مجدِّدٌ مبدِع ، إذ اعترف له خصومُهُ بهذه الصفة وقدَّرُوها ، ولكن حديثَهم دارَ حول قضية أخرى هي ما عُرف بالخُروج على عمود الشعر .

وسبقَ أن قُلنا إنه لم يَقُمْ حول أبي نواس جَدَلٌ مماثِل ، وأنّ ما ينْسبه الدارِسُون المحدَثون إلى أبي نواس من محاولات التجديد أمران :

الأول : الدعوةُ النظريّةُ والخروجُ العمَليّ على المقدمة التقليدية للقصيدة العربية.

الثاني : أنه كان ضمن مقدمات أسلوبِ أبي تمّام في البديع . ومن هؤلاء الدارسين — مثل هدّارة — من قالَ بخروجه على عمود الشعر كما حدَثَ عند أبي تمام .

وإذْ رأينا أنّ البديعَ في ذاته لم يكن موضِعًا للهُجوم كما لم تُهاجَمْ دعوة أبي نُواس إلى تطوير مقدّمةِ القصيدة ، فقَدْ بَقِيَ علينا أن نختَبِر حالةَ أبي نواس على ضوء مسألةِ الخُروج على عمود الشعر : هل خرجَ عليه ولم يُهاجم ؟ فيعودُ الاضطرابُ إلى الموقف من جديد بحكم أنّ نفسَ الخروج كان مَدْعاةً للهجوم على أبي تمام ؟ أو أنه لم يُهاجَمْ لأنه لم يخرُجْ على عمودِ الشعر في نفس الجانب الذي يثير الخروجُ فيه ثائرةَ النقاد ؟

يقول محمد مندور : إن تجديد أبي تمام كان في الصياغة ، وإنه لم يجدد في المعاني وهذه حقيقة فطن إليها ابنُ المعتز (١) .

---

(١) النقد المنهجي لمندور ص ٦٠ .

ومندور يشير هنا إلى نص ابن المعتز فى كتاب (البديع) الذى ذكر فيه أن البديع موجودٌ فى كلام العرب قبلَ أبى تمام ، وأن الطائىَّ لم يفعل أكثر من أنه تفرّع فيه وأكثر منه ، وكأنَّ مندورا قد عاد ليرى أن خاصيَّةَ مذهب أبى تمام هى الإكثار من البديع والإفراط فيه ، ولا شك أنه يقرر هذا حين يؤمِّنُ على كلام ابن المعتز فى ردِّ تنمية مذهب البديع - كما انتهى عند أبى تمام - إلى عددٍ من الشعراء منهم أبو نواس الذى وصفه مندور بأنه قصد إلى التجديد فى المعنى والتجديد فى العبارة على السواء[1] .

كيف إذن هوُجِمَ أبو تمّام بينما لم يهاجَمْ أبو نواس ؟ يقول عبد القادر القط : إن تجديد أبى نُواس « كان . . . تجديدًا فى إطار محدود ، فلم يُحسّ معاصروه بأنه قد خرج على مقوّمات الشعر المعروفة ، أو أتى ببدْع ينكرهُ المتعصّبون للقديم . لذلك لم تُثِرْ حوله خصومة بين القديم والجديد ، ومع أن كثيرا من النقاد القدماء قد عدُّوه فيما بعد رائدًا من روّادِ مذهب أبى تمام فإنهم قد قصَرُوا دوره على ما فى شعره من مجازات وتشبيهات كثيرة ولم يكن مذهبُ أبى تمام مقصورا على الإسراف فى تلك الألوان الخاصة ، وإنما يتمثّل على حقيقته . . . فى طريقةِ استخدامِ تلك الألوان »[2] .

ومع الاحتفاظ بحقّ مناقشة ما سُمِّيَ بموقف أنصار القديم من مثل دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام ، ومع الاحتفاظ برأينا فى أهميّة دعوة أبى نواس التجديدية ، نرى أن الفارقَ الحقيقىَّ بين البديع عند أبى تمام وبينه عند غيره هو طريقة استخدام أبى تمام للبديع - كما يقول القط - وليس مجرد استخدامه أو الإفراط فى هذا الاستخدام . من هنا ندرك عدم دقة وصفِ ابنِ المعتز - فى كتاب (البديع) - لمذهب أبى تمام ، وتفسيره بأنه استمرارٌ لتيّار البديع قبله مع شىءٍ من الإفراط فى استخدامه ، فهذا الوصف كما يقول شكرى عيَاد : « وإن اتفق مع تفسير هذا المذهب بالبديع من بعض الجهات فإنه لا يساويه تماما ، فلو نظرتَ فى شعر أبى هلال العسكرى مثلا ،

---

(١) النقد المنهجى لمندور ص ٥٠ .

(٢) (حركات التجديد فى الشعر العباسى) عبد القادر القط ٤١٩ .

ذلك الذى يُورِدُه لنفسه فى الصناعتين ، لرأيته مُثقلا بالزينة البديعية أكثرَ من شعر أبى تمام ، والفرق بين الطريقتين – مع ذلك – واضح » (١) .

ولعلّ مما يكمل تفسير ابن المعتز لمذهب أبى تمام – ويصحّحُه فى نفس الوقت – ما ذكره فى (طبقاته) من أن الرديءَ الذى لأبى تمام « إنما هو شىء يستغلق لفظُه فقط » ، ولا شكَّ أنها الرداءةُ التى وصفَ مصدرَها فى (كتاب البديع) قائلا إنها عُقْبىَ الإفراطِ وثَمَرةُ الإسراف ، ولا شكَّ أنها الرداءةُ التى كانت محورَ الهجوم على أبى تمام ، وهو صريح فى :

١ – أنّ ما أُخِذَ على أبى تمام كان من قبيل الخطأ اللغوى واستغلاق اللفظ والتعقيد.

٢ – أن مجرَّدَ استخدام البديع – أو التوسّع فيه – لم يكن فى ذاته موضعا للهجوم، وإنما أثره فى لغة الشعر (٢) .

وتدلُّ الروايات التى حملتْها إلينا كتب الأدب والنقد على أن أبا نواس لم يكن هدَفًا للطعن من هذه الناحية ، بل على العكس من ذلك ، نجدُ أنهم كثيرا ما كانوا يُشيدون بعلمه وثقافته اللغوية ، ومتانة أسلوبه ، من ذلك ما سمعناه من حديث ابن قتيبة عنه (٣) ، وما قاله أبو هفان من أنه كان آدَبَ الناس ، وأعرفَهم بكلّ شعر (٤) ، كذلك سبقَ أنْ رأينا تنويهَ الأصمعيّ به وإشادته بعلمه وأدبه وشاعريته أمام الفضل البرمكى (٥) .

وإلى جانب هذا الحديث العام عن علمه وأدبه ، نجدُهم يشيرون بصفة خاصة إلى حفظه للكثير من الشعر . فيُقال إنه كان يحفظ دواوين ستّين امرأةً من العرب فضلا عما يحفظ من أشعار الرّجال (٦) ، وإنه كان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرَمين

---

(١) شكرى عياد كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ص ٢٧٩ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٦ .

(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢ / ٧٧٢ ، ٧٧٣ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٩٥ .

(٥) المرجع السابق ٢١٦ .

(٦) المرجع السابق ١٩٤ .

وأوائل الإسلاميين والمحدَثين (١) ، وهناك أخبارٌ أخرى كثيرة فى تعدُّدِ وجوهِ ثقافته التى لم تكن قاصرةً على الشعر أو الأدب عامّةً ، وقد عكف بصفةٍ خاصة على اللُّغويّين أمثال خلف الأحمر (٢) ، وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، كما نظر فى نحو سيبويه (٣) ، من هنا كان تنوية العلماء أمثال الجاحظ وإبراهيم بن سيّار النظام وأبى هِفان وأبى عمرو الشّيْبانى وابن السكيت بعلْمه باللغة وبإحكامه لقوله ، بل صرّح بعضُهم بأنه كان يُستَشْهَدُ بشعره (٤) .

كلّ تلك الثقافة ، وذلك الإلمام الواسعُ بعلوم اللغة والشعر والرواية والحفظ والنحو والغريب هو الذى جعل عالما مثل ابن قتيبة يطمئن إلى أن المواطن التى أُخذَ فيها اللحنُ على أبى نواس إنما يمكن الاحتجاج لها بما يُوجد فى كلام العرب والشعر المتقدم مما يشبهها (٥) .

هذا التفوق البارز فى علوم اللغة وأثره فى شعره ، لاحظه كثيرون من المحدَثين، فطه إبراهيم يُشيد بعلم أبى نواس الفسيح الغزير المتشعّب ، وبتمام آلته فى العربية ، ويُعجب كيف اقتصر تجديدُه على الديباجة وعند مجرَّد إدخال البديع (٦) ، ومندور نفسه يتساءل – فى بعض المواضع – عن السرِّ فى عدم ثورة النقاد عليه : «هل ذلك لأن النقدَ لم يكن قد نما بعد . . . أم كان لأن أبا نواس – رغم أنه مولَّد أعجَمِىّ – كان يُجيد اللغة العربية ويحذِق الكتابة فيها ، فجاء شعره عربيا أصيلا لم يخرج فى شىء عن عمود الشعر ؟ لا ريبَ أنَّ فى كل من هذه الأسئلة شيئاً من الصحة » (٧) ، وبالمثل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١ ، وأيضا ١٩٤ ، وأخبار أبى نواس لأبى هفان ص ١٠٩ .

(٣) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٤٩ .

(٤) نزهة الألباء ٤٩ ، ٥٠ ، أخبار أبى نواس لأبى هفان ص ٢٢ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، وطبقات ابن المعتز ٢٠٢ ، والوساطة ٥٥ .

(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٢ / ٧٩٤ .

(٦) طه إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١١٠ .

(٧) مندور ، النقد المنهجى ٧٠ .

يشير عبد القادر القط إلى تماسك بناء قصائده فى كثير من الأحيان (١) .

لنقف الآن عند هذه الحقيقة ، ونقرر أن أسلوبَ أبى نُواس ولغتَه – وفى نفس المواطن التى اتُّهِم أبو تمام بالخروج فيها على عمود الشعر – لم يكن فيها ما يُشير النقادَ عموما ، وليس مَنْ سُمُّوا بأنصار القديم فحسب . وإذا كان الخُروجُ على ذوق اللغة – وليس الابتداع فى المعانى أو الابتكار فيها – هو الذى أثارَ النقادَ ضدَّ أبى تمام ، فإن رَصانَةَ الأسلوب والتمسُّكَ بما تحتمله اللغة من وجوه الاستعمال هو الذى جنَّب أبا نُواس مثلَ تلك الثورة .

وتشير النصوصُ القديمة إلى أنّ فى الإمكان الاطمئنانَ إلى هذا التعليل الذى تعزِّزُه مقارنةُ النصوص ووضعُ بعضِها بجانب بعضها الآخر ، مثلا النصوص التى تنوِّه بإحكام لغة أبى نواس وأسلوبه ، وتلك التى تصف أبا تمام بعكس ذلك ، فعلى ضوء هذه النصوص يمكننا أن نتبيَّن أن طريقَةَ أبى تمام فى الصياغة الملتوية – والتى زادها التواء غرامُه بالبديع وحرصُه على تحقيقه – هى سرُّ الهجوم عليه ، وليس ما أتى به من جديد فى المعانى والأفكار، وأنَّ محافظَةَ أبى نواس على متانة العبارة وعلى الصِّياغة السَّهلة المبسطة هى التى جنَّبته – رغم دعوته التجديدية الواضِحة – ما كان يمكن أن يتعرَّضَ له لو أنه سلك طريقة أبى تمام فى الصياغة .

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر أنَّ صحةَ العبارة واستقامة التركيب هى نفسها التى حالت بين مسلم بن الوليد – الرائد المباشر لأبى تمام فى الإفراط فى استخدام البديع – وبين قيام ثورة ضدَّه كتلك التى قامت ضد أبى تمام ، فقد لاحظ النقادُ سلامةَ أسلوبِ مسلم – على الرغم من إكثاره من البديع – وقارَنُوا فى هذه الناحية بينه وبين أبى تمام ، ثم جعلوا أبا تمام أدنَى مرتبةً لأنه – كما يقول الآمدى – « ينحط عن درجة مسلم ، لسلامة شعر مسلم وحُسْنِ سَبْكه وصحة معانيه » (٢) ، ولأن مسلما على الرغم من تتبُّعِه لأنواع البديع وتوشيح شعره بها « وضعها فى موضعها » (٣) ،

(١) عبد القادر القط (حركات التجديد فى الشعر العباسى) ٤١٨ .

(٢) الموازنة ١ / ٦ .

(٣) الموازنة ١ / ١٧ ، ١٨ .

وذكر ابنُ رشيق «أنّ مسلما أسهلُ شعرا من حَبيب، وأقل تكلّفا» (١)، وأوضح ابنُ شُهَيْد القضية بصورةٍ أُخرى، فقال وهو بصدد الحديث عن إسراف أبى تمام فى البديع: إن «التوسُّط فى الأمر أعْدَلُ، ولذلك فضَّلَ أهلُ البصرة صريعَ الغوانى على أبى تمام لأنه لبسَ ديباجةَ المُحدثين على لأمَةِ العرب، فتركّب له من الحُسْنِ بينهما ما تركّب» (٢)، ومن الطريف أنْ نجد من الأخبار ما يدلُّ على كراهية مسلم نفسه لصورٍ من التجاوز المُجْحف باللغة (٣)، من هنا نجد مسلما وأبا نواس كثيرا ما كاناً يُوضَعان فى طبقة واحدة (٤).

هكذا يتضح أمامنا السببُ فى سكوتِ النقاد عن أبى نواس وغيره من الشعراء ذوى النزعات التجديدية، وهو تمسُّك أولئك الشعراء بالأسلوب السّهل فى تناول اللغة وهو ما كان الانحرافُ عنه سببا للهجوم على أبى تمام. أما مقاومة ما اعتُقِدَ أنه جديدٌ صالحٌ فلم تكن واردة فى أذهان أولئك النقاد وهذا واضح من موقفهم من أبى تمام ومن دعوةِ أبى نواس على السواء.

والذين يعلّلون عدم الهجوم على أبى نواس بالغَضِّ من دعوته أو تجديده يلتَمسون للأشياء عِللاً غير عِلَلِها الحقيقية، لأنه ببساطة يلزمهم أنْ يُقِرُّوا بأن ما قام به أبو تمّام من تعقيد العبارة والالتواء بها كان تجديدا جوهريا بحيث استدعى الهجومَ عليه.

وقد يمكن القولُ بأن تحقيق أبى نواس لتجديده، لم يكن على درجة من

---

(١) العمدة ١ / ١٣١.

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣، ومما له دلالة فى كلام ابن شُهَيْد مما يتصل بالموقف من أبى نواس ما صرح به من تقبُّل البصريين لأسلوب مسلم، ذلك أنَّ أبا نواس نفسه كان بصريا، ومعروف أن المدرسة البصرية هى التى تزعمت الدفاع عن اللغة فى صورتها القياسية.

(٣) الموشح ٢٨٤، ٢٨٥، حيث يعيب مسلم بيتا لأبى نواس ويقرنه إلى بيت أبى العذافر:

باضَ الهوَى فى فؤادى ∴ وفَرّخ التّذكارُ

(٤) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٣.

الخُطورة وأنّ ما صنَعه من الحديث عن الخَمر فى بعض قصائده ليس تجديدا يُعتَدُّ به، قد يكون ذلك صحيحا ، وقد تكون دعوةُ أبى نُواس فى نظرنا نحن المحدثين مجرّدَ فَوْرَةٍ نفسيةٍ من رَجل تسلطت عليه الرغبةُ فى المخالفة جريا وراء الشهرة . . . قد تكون ، وقد يكون وراءَها شيءٌ من السخرية بالعرب أو أىّ دافع آخر ، لكن الذى لا جدال فيه هو وجوبُ قياس مدَى أهمية الدعوة لاَ بما انتهتْ إليه من تجديد ، أو بما كان لها من أثر فى شعر صاحبها ، وإنما يجب أن تُقاس بمقارنتها بما كان سائدا فى الأوساط النقدية فى عصرها .

يقول ابنُ رشيق : إن « من الشُعراءِ من لا يجعل لكلامه بسْطًا من النّسيب، بل يهجم على ما يريده مكافَحَةً ، ويتناوله مصافَحةً ، وذلكِ عندهم هو : (الوثب) و(البَتْر) و (القَطْع) و (الكَسْع) و (الاقتضاب) » [1] ، وواضح من سياق حديث ابن رشيق أنه يقصد قصائدَ المدح ، إذ يمثّل لانتقاد افتتاح القصائد بالغزل بقول أبى الطيب :

* إذَا كَانَ مَدْحٌ فالنَّسيبُ المُقَدَّمُ *

ويدلّ هذا النصُّ على أنَّ النقادَ كانوا على يقظة لأى تغيُّر فى مقدمة القصيدة ، وإن لم يعارضوه ، لكنهم عَرَفُوا أن هناكَ قصائدَ عاديةً يُبتدأُ فيها بالنسيب والحديث عن الأطلال ، وهى البدايةُ التقليدية ، وقصائدَ أخرى ليس لها بَسْط من النسيب ، هى التى أطلقوا عليها الأسماء التى ذكرها ابن رشيق فى نصه السابق .

ولم يعارضْ أحدٌ من النقادِ أىَّ محاولة للتغيير فى مقدمة القصيدة ، غير أنّ ذوقا خَفيا ، برَّرُوه تبريرا عمليا ونفسيا يتفق مع فنِّ المدح نفسه والغاية التى يسعى إليها المادح ، وكذلك الأحاسيس والصُّور التمثيلية التى يجب على الشاعر أن يرسمها فى قصيدته حتى يبعث كَرَم الممدوح وسخاءَه ، حين يذكر المشاقَّ التى تكبّدها فى الرحلة إليه ، هذا الذوق غير المتعصِّب هو الذى جعلهم يُشيرون على الشاعر بالإلمام بالمُقدِّمة التقليدية ، التى ارتبطت غالبا بقصيدة المديح .

---

(١) العمدة ١ / ٢٣١ .

أكثر من هذا أننا نجد الممدوحين أنفسهم هم الذين يحضّون على تمسّك الشعراء بهذه المقدّمة ، فالحجّاج – مثلا – يسأل جريرا عن تشبيب قصيدة مدحَهُ بها [١] دون أن يبدأ بتشبيب . وكذلك سألَ الوليدُ بن يزيد شاعرَه يزيدَ بن ضبّة أن يصنَعَ لقصيدته في وصف فرس الوليد تشبيبا يُغنّي فيه [٢] ، وعندما تركَ أشجعُ السُّلمي في مدْحَةٍ له في الرشيد إنشادَ تشبيبها – خوفاً من أنْ يُدركَهُ وقتُ الصلاة – يطلب منه الرشيد أن يُنشد التشبيب [٣] ، بل يقولون إن المأمونَ لم يكن يستمع من القصيدة إلاّ إلى التشبيب أو الوصف ، فإذا انتقل الشاعر إلى المدح لم يسمع منه إلاّ بيتين أو ثلاثة ثم يقول للمنشد : حَسْبُك [٤]. وقد تنبّه جرونباوم إلى إحساسهم بالرّابطة بين وصْفِ الرّحلة – بما فيها من مخاطر وأهوال ومشاهدَ طبيعية – وبين مكانَةِ الممدوح [٥] .

ولمْ يكن ابنُ قتيبة – الذى أوجب على متأخر الشعراء ألاّ يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه المقدمة [٦] – هو المسئولُ عن هذا الذوق الذى لم يتمسّكْ به هو أو الشعراءُ مِمّنْ عاصروه أو سَبَقُوا عليه ، إذ هو يحكى ما سمعه (عن بعض أهل الأدب). ويتضحُ من مجموعة الابتداءات التى اختارها أبو عمرو بن العلاء أن الذوق العامّ بين النقاد كان الافتتاح بالأطلال [٧] .

على أنه كما قلنا كان ذوقا اختياريا ، لم يتّخذْ شكل الفرْض والإجبار ، من هنا رأينا رحلةَ بشار – أكثرَ من مرة – إلى الممدوح فى سفينة ، وكذلك فعَل مسلم . ثم جاءَ أبو نواس فلم يَسْلُكْ سبيل التجديد فى صَمْت ، وإنما أعلن عن دعوته ، واتّخذ منها مذْهبا ينافحُ عنه – ضدّ لا أحَدٍ بالطبع – اللّهم إلاّ الشعراء الذين استمروا فى الوقوف بالأطلال ، على أنّ إعلانه هذا جعل لقضية المقدمة التقليدية طابعا مختلفا ، أو لعلّ

---

(١) أغانى ٤ / ٢٥٧ .

(٢) أغانى ٧ / ١٠٢ .

(٣) أغانى ١٧ / ٣١ ساسى . ومعاهد التنصيص ٥٢٥ .

(٤) أغانى ١٨ / ٩٢ .

(٥) جرونباوم (الاستجابة للطبيعة فى الشعر العربى) ١٦١ .

(٦) الشعر والشعراء ١ / ٢١ .

(٧) الأغانى ٣ / ١٤٨ .

الأصوبَ أن نقول إنها غيّرت تصورُنا للنقد العربى القديم ، فلولا تلك الدعوة لما كان باستطاعتنا أن نحكم على مدَى تقبُّل النقاد صراحةً لتجديد ديباجة القصيدة ، ذلك القبول الذى كان موجودا قبلَ أبى نُواس وإن لم يتّخذْ شكل الدعوة المعلنة ، والذى استمر بعده فى مجال الإنشاء حيثُ راحَ الشعراء يبحثون عن موضوعاتٍ جديدةٍ لمقدِّماتهم ، أما النقاد فقد دأبوا على رفع أصواتهم بوجوب التخلّى عن الابتداء بذكر الديار ، إذ لا معنى لذكر الحَضَرى الديارَ إلاّ مجازا – كما يقول ابنُ رشيق – وجاء الوقتُ الذى أصبح من الأسباب التى يُذَمُّ من أجلها الشعرُ وقوفُ الشعراء عند الدّيار ووصفِ الآثار والرواحل . ودخل فى المسألة عنصرٌ جديد هو (الصدق) ، فأهل الحاضرة لا يمكنهم الحديثُ عن القِفار وغيرها من موضوعات القدماء ، لأن هؤلاء لم يرَوْها ، ولم يعد غريبا أن يسمع البعضُ شاعرا من (زِنجان) ينشد قصيدةً يذكر فيها الأطلال فينشده – سخريةً به :

إذَا سمعتَ فتىً يَبْكى عَلَى طَلَلٍ .·. مِنْ أَهْلِ زِنْجَانَ فاعلَمْ أنّه طَلَلُ[1] .

وربما قيل إن دعوةَ أبى نُواس مَرَّتْ كغيْرِها دون أن يلاحظها أحد ، وبالتالى دون أنْ يأبَهَ بها ، وإنَّ هذا هو السر فى عدم الهجوم عليها ، ولو أن ذلك حدث بالفعل لكانَ له نفسُ الدلالة ، إذ سيكون صدورُ تلك الدعوةِ عن أبى نواس ثم عدمُ الالتفاتِ إليها دليلاً على أنه لم يَدْعُ إلى جديد وإنما كان يدعو إلى أمر واقع ، حيثُ لم يكنْ الشعراءُ متقيِّدِينَ بشىء مما يدعو إلى التحرُّر منه ، ولن تكون هذه الصورة أقلَّ دلالةً – بالطبع – على تقبُّل النقاد للجديد ، من الموقف الآخر الذى يُحسُّون فيه بالجديد ولا يعارضونه .

غير أن النصوصَ القديمةَ صريحةٌ فى أنّهم أحسُّوا بأن دعوة أبى نُواس دعوةٌ جديدة ذاتُ طابع خاصٍّ وأن أبا نواس هو صاحبها .

كان أبو نواس ناقدا – كما أطلق عليه نِكُلْسُن – وناقدًا فذًا كما وصفَهُ طه إبراهيم ، وأهميته تتركز فى دعوته التى نلمس إحساسَ النقاد – خاصة اللغويين – بها ، ممّا صرح به **أبو عبيدة** – مثلا – من أنّ أبا نواس « فى المحدثين مثل امرئِ القيس فى

---

(١) إعجاز القران للباقلانى ص ٤٢٥ .

المتقدمين » وهو التصريح الذى يؤكّد الربط بين إعجاب ذلك الناقد بأبى نواس من ناحية والإحساس بالمكانة الرائدة لدعوته – من ناحية أخرى ، وهو نفس الإحساس الذى جعل **ابنَ شرف القيروانى** يصفه بأنه : « أولُ الناس فى خَرْم القياس » (١) ، وخَرْمُ القياس فى أىِّ ناحية غير الخروج أو الدعوة إلى تغيير المقدمة ليس له معنى ، لأن كلَّ ما وصفه ابن شرف من طريقة أبى نواس موجودٌ عند غيره من الشعراء ، فلا يبقى إلا أن تكون دعوتُه إلى إحلال الخمر محلَّ الطلل هى التى لَفَتَتْ ابنَ شرف فوصفَهُ بخرم القياس . بل إن علانية دعوة أبى نواس تبدو وكأنها حجبَتْ عن انتباه النقاد ما أحدثه الشعراء غيره فى مقدّمات قصائدهم بحيث صرَّحوا بنسبة السَّبْق فى هذه الناحية إلى أبى نواس دون سواه . فصرّح **ابنُ رشيق** بزعمهم « أنّ أولَ من فتح هذا الباب ، وفتق لهم هذا المعنى أبو نواس ، بقوله :

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا تَطْرَبْ إلى هِنْد .·. واشْرَبْ علَى الوَرْدِ مِنْ حَمْراءَ كالوَرْدِ

وقوله – وهو عند الحاتمى فيما روى عن بعض أشياخه – أفضلُ ابتداءٍ صنعه شاعرٌ من القُدَماءِ والمحدثين :

صِفَةُ الطُّلُولِ بَلاَغَةُ القُدْم .·. فاجْعَلْ صِفَاتِكَ لابْنَةِ الكَرْمِ (٢) .

هكذا ، كانت دعوةُ أبى نواس لافتةً للنقاد فأحسُّوا بها وقَبِلوها ، ولقد رأينا أنها كانتْ محَلَّ قبولِ ناقدٍ من أشهر من اتُّهِمُوا بمعاداة الجديد – وهو ابنُ الأعرابى – وحتى ابن قتيبة صاحب التصريح المشهور ، لم يتمسك به قيد شعرة . وقد صرح جرونباوم – الذى تصوَّر أن تصريحَ ابن قتيبة كان مُلْزِماً – بأن ذلكَ الناقد قد أخْفَقَ فى تحريم بعضِ التجْديدَاتِ مثل وصفِ الوَرْدِ والنرجس بدلا من نباتات الصحراء ، حتى إنَّ عصره تميز بوصفِ الأزهار والتفوق فى هذا الوصف (٣) .

---

(١) ابن شرف القيروانى ، أعلام الكلام ٢٢ .

(٢) العمدة ١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٣) (الاستجابة للطبيعة فى الشعر العربى) ١٧١ ، وراجع ص ١٦٨ من نفس المرجع حيث يشير جرونباوم إلى محاولات الشعراء وصف الأبنية (المهدّمة) – دون الأطلال – وأيضا ١٧٠ حيث يشير إلى تحوّل الشعر العباسى عما هو جافٍ مستكره من وصف الطبيعة ، على الرغم مما بدا أنه معارضة من ناقد كابن قتيبة .

بقيت مسألة أخيرةٌ وهامّة ، لقد وصف القدماءُ البحتريَّ بعدم الخروج على عمود الشعر ثم رأينا أن أبا نواس أيضا لم يخرج على عمود الشعر .

وهى ملاحظة يؤيدها ما ذهب إليه طه حسين من جعله كُلاًّ من أبى نواس والبحترى ضمن ذلك الفريق من الشعراء « الذين آثروا اللفظ القديم والمعنى الجديد » .

فهل معنى هذا أن كلاً من أبى نواس والبحترى ، وسائر الشعراء الذين وُصِفُوا بالمحافظة على عمود الشعر - والذى هو أمر يعود إلى الصياغة - لم يكونوا مجدِّدين فى لغتهم ، وأن ما وُصِفُوا به من تلك المحافظة على عمود الشعر يعنى بقاء لغتهم مماثلةً للغة القدماء ، لا تتغيّر ولا تتطور ؟ وفى هذا الصدد توجد عدة ملاحظات :

فمن المؤكد أن لغةَ الشعر العربى كانت فى تطوّرٍ مستمرّ ، وهو تطور اتخذ طابع الانتقاء والتهذيب والصّقْل عن طريق تجنّب الوعر والخشن من الألفاظ ، ولا شك أن الحياةَ الحضَريّة ولينَ العيش الذى غمر فئاتٍ من المجتمع الأموى ثم غمر المجتمعَ العباسِىَّ ، كان له دخلٌ فى ذلك ، بحيث جاءَ اليومُ الذى كانت تهمة التصعيب والتقعُّر ومحاولة التشبُّه بالبدْو تلحَق الشاعر الذى يستخدم الكلمات الجافية الصعبة ، والذى يتخذ لنفسه أسلوبا غامضا - على نحو ما حدث مع أبى تمام .

كذلك فإن لغةَ الشعر شهِدَتْ نماذجَ ممتازةً فى سهولتها وصفائها منذ أوقاتٍ مبكرة ، عند أولئك الشعراء الذين اتّسموا بخفة الروح مثل عدىّ بن زيد فى العصر الجاهلى ، والوليد بن يَزيد فى العصر الأموى ، كما لم تعدْم عددا غير قليل من القصائد على جانب كبير من سلامة اللغة وسهولتها ودقتها عند عدد كبير من الشعراء الآخرين .

وفى العصر العباسى شهدت لغةُ الشعر محاولةً جريئةً للمَيْل بها نحو السهولة والرقة ميلا ملحوظا ، فيه شىءٌ من الجرأة ، وذلك عند شاعر مشهور فى ذلك العصر هو **أبو العَتاهِية** الذى جعل من اللغة السهلة طابعا عاما يتسم به كل شعره .

على أن هناكَ من الشعراء من لم يندفعوا فى تسهيل ألفاظ الشعر اندفاعَ أبى العتاهية ، وحاولوا أن يُبْقُوا لغةَ شعرهم على شىء من المتانة والقوة مع المحافظة على

السهولة إلى حدٍّ ما ، وذلك فى بعض الفنون التى طغت عليها روحُ الشكلية والصناعية، كفنّ المدح ، وإنْ مالوا إلى تسهيل لغتهم بصورة أوضح فى بقية الفنون ومن هؤلاء **أبو نواس** الذى أخذ بنصيب ضخم من هذه الفنون .

وتبدو لغة شاعر كالبحترى فى المدح – وهو الفن الذى غلب عليه – وكأنها نتاجٌ لتلك المحاولات السابقة من التطوّر ، إذ تعُمُّ السهولةُ شعره فى ذلك الفن بدرجةٍ أكبر مما عند أبى نُواس فى مدحه وطرديّاته ، بحيث نرى القاضى الجرجانى – فى القرن الرابع – يجعل من البحترى نموذَجا لاستعمال الألفاظ الرشيقة العذبة البعيدة عن الاستكراه .

وسواءٌ كانت المحاولات السابقة للتطور بلغة الشعر عن عمد أو غير عمد ، فإن أحدًا لم يُشِرْ إلى أىّ منها على أنه خروج على عمود الشعر ، مع أنه كما قلنا شىءٌ شديد الصلة بالصّياغة واللغة – من هنا تبدو هذه الحقيقة ، وهى أنّ سهولَة ألفاظ الشعر أو صعوبتها شىءٌ خارجٌ عن فكرة عمود الشعر ، فلا شك أنّ ألفاظ أبى تمام كانت – فى جملتها – أشدُّ وأصعبَ كثيرا من ألفاظ أبى نواس والبحترى وأبى العتاهية ، ومع ذلك اتُّهم أبو تمام بالخروج على عمود الشعر ، ولم يُتَّهَمْ أبو العتاهية – أبعدُهم فى محاولة تسهيل اللغة – بهذا الخروج ، مما يؤكد ما قلناه من أن المحافظة على هذا العمود أو الخروج عليه ، لا علاقة لهما بسهولة الألفاظ أو صعوبتها .

وقد ثبت أن أحدا لم يَثُرْ على التجديد فى المعانى ، وإذًا كانوا لم يعدُّوا تطويرَ اللغة الشعرية – فى مفرداتها – خروجًا على شىء قرروه ، فإننا نخرج من هذا إلى أن جهودَ أبى نُواس فى تطوير شعره ، سواء فى ألفاظه أو معانيه ، لم تكنْ محلّ سُخْطِ من أحد ، لأن نفسَ الجهود عند غيره لم تتعرضْ لأى لون من ألوانِ النقد ، ولا كان هناك من يحارب التجديد فى المعنى أو التأنق فى اللفظ .

ولا شك أن ما عنَوْه بمَيْل البحترى إلى الأسلوب التقليدىّ لم يكن صعوبةَ لغته أو بداوتَها أو قِدَمها ، بالعكس ، لقد كانت ألفاظ البحترى أسلسَ كثيرا وأسهلَ وأرْشقَ من كثير من شعر أبى تمام ، ونحنُ نذكر تعبيرَ أصحاب البحترى لأبى تمام بالتقعّر والتشبُّه بالبدو واصطناع لغة متعجْرِفَة ، ومع ذلك وُصِفَ البحترىُّ بالمحافظَةِ على عمود الشعر ، ولم يكن ذلك الوصف يعنى أكثرَ من الاستمرار فى تناول اللغة مع

الإبقاء على علاقاتها الممكنة فيما يتعلق بطرق الإسناد والتركيب ، وهى تشمل حدود الاستخدام المجازى أيضا ، الذى كان ضربا من ضروب الإسناد فيما تصوروا .

حافَظَ البحترىُّ على ذلك ، وحافظَ عليه أبو نواس ، وحافظ عليه إلى حدٍّ كبير مسلمُ بن الوليد وبشّار وغيرُهم من زعماءِ الشعراء المجدِّدين ، فلم يهاجمْهُمْ أحد ، وعندما خرج أبو تمام على هذه النواحى نفسها كان نصيبُه المقاومة التى لا شك أنها أفلحت إلى حدٍّ كبير فى ردِّ الشعر إلى الأسلوب البديعيِّ المبسط وتخليصه – إلى فترة – من الأسلوب البديعى المعقَّد الذى اتّسم به قدْرٌ من شعر أبى تمام .

من هنا ندرك السرَّ فى انفرادِ أبى تمام بالاتّهام بالخروج على عمود الشعر ، وأيضا السرَّ فى عدم مقاومة النقاد لأبى نواس الذى لم يكن أقل من أبى تمام سعيا لتطوير ألفاظه ومعانيه ، هو وشعراءُ كثيرون غيره .

وهكذا يكون بإمكاننا أن نلخّص موقف النقد العربى من هاتين الحركتين فيما يأتى :

* أنّ النقد العربى قد عرف فى دعوةِ أبى نواس دعوةً تجديديةً فعلا ، ولكنه لم يهاجمها .
* أن النقد العربى لم يهاجِم أى نزعة تجديدية عند أبى تمام . . بالعكس رحّبَ بجهود الشاعر فى هذا المجال ، ولم يكن ترحيبه ذلك نتيجة للتأثر بأية أفكارٍ أجنبية .
* وإذا كان هناكَ كلامٌ حول ذلك الشاعر فإن موضوعَه لم يكن ما أتى به من جديد ، بل كان موضوعُه شيئا آخر ، هو التواءُ العبارة وتعقّدها وغموض المعنى وخفاؤه . ولم يكن ذلك النوع من المآخذ مقصوراً عليه ، أو جديدا ، وإنما أخذ على غيره من السابقين واللاحقين .
* ولم يكن النقد الذى وُجِّه إليه صادرا عن فريقٍ محدَّدٍ هُمْ أنصار البحترى الذين شاعت تسميتهم بأنصار القديم ، وإنما كان مصدرُه جمهور النقد العربى العريض الذى وافقَتْ مقاييسه فى الحكم على ذلك الشاعر مقاييسَ أخرى هى مقاييس النقد اليونانى، الذى ادُّعِيَتْ له المبادرةُ إلى

قبـول الجديد الـذى أتى به أبو تمام وهو الذى لم يرفض أنصـارُه شيئـا مما أُخذَ عليه ، وإنما لجأوا إلى الاعتذار والتبرير .

* أكـثـر من هذا أننا نـلاحظ أن النقـاش يكادُ أن ينقلب – فـى النهـاية – إلى اتهـام أبى تمام – الشـاعر المجـدِّد فى نظر الدراسـات الحـديثة – بالـتقليـد والاحـتـذاء ، وهـو المأخـذ الذى أكّدَ أصـحـابُ البـحـتـرى – الـشـاعـر التقليدى فى نظر هــذه الدراسات – عَدَمَ وقوع صاحبهم فيه .

ونخلُص من هذا إلى أنه لم يُوجـد بين النقادِ العـرب من وقَفَ فى وجه الجـديدِ يحاربه ويرفضه ، ويتعصَّب عليه ، سواءً بالـنسبة للرعيل الأول من المجدِّدين أمثال بشار ، أو الرعيل التالـى كمسلم بن الوليد أو بالنسبة لدعوةِ أبى نواس السافـرة ، أو لما امتاز به أبو تمام من الإبداع فى المعانى والاستنباط لها ، فلّمـا أدّاه الحرصُ عليه إلى التواء العبارة وغمـوضها وجـدَ من النقاد مَنْ وقفـوا فى وجه ذلك المسلك ، فانتـقدوه ، ووجَدُوا من مشجِّعى الشاعر موافقةً لهم فيما انتقدوه عنده، وإن حاولوا أن يعتذروا عنه .

كـيف ، إذَنْ ، وقع الدارِسُون المحدَثُون فى هذا اللبـس ، أعنى القولَ بمهـاجمـة النقد العربى لشـعرِ المحدثين وحركات التـجديد ؟ وما طبيعة النّصـوص والأخبار التى أوقعَتْهُم فـيه ؟ ثم : ماحقـيقةُ وأبعادُ مـوقف قدامى النقاد – رواةً ولغويّين – من شـعر المحدثين فى ضوء هذه النصوص والأخبار ؟ .

هذا ما يوضّحه الباب الرابع .

* * * *

الباب الرابع
تفسيـــر وتعليـــل

مقدمة :

رأينا فى الفصول السابقة أنّ أحداً من قُدامى النقاد لم يقف من مبدأ التجديد موقفاً عدائيا ، إذ قَبِل الجميع شعرَ المحدثين ومحاولاتِ الشعراء للتجديد فيه بصدور رحبة ، ورأينا الدارسين فى العصر الحديث وقد أغرتهم فكرةُ معاداةِ أولئك النقاد لمبدأ التجديد فى الشعر ولصفة الحداثة فيه ، بحيث كانت الصورةُ الحقيقية تلوح للواحد منهم بين وقت وآخر ، فلا يلبث أن يغُضَّ طرفَه دونها لعدم مُواءمتها للإطار العام الذى انطلق منه ، بل الذى انطلقوا منه كلُّهم تقريبا .

لقد أشار نكلسُنْ مثلا إلى أنّ تحيُّزَ اللغويين للشعر القديم كانت وراءَهُ اعتباراتٌ لغوية ، وقال : إن القصائدَ القديمة كانت تُدْرس باعتبارها مصادر للغة الفصحى النقية وأن تقييمها كان فى المقام الأول من وجهة النظر النحوية (١) .

وليس من شك فى أن طه حسين اقترب من بعض الزوايا التى كانت كفيلة بحل لغزِ الصورة القديمة ، حين راحَ يسجّل تنويهَ علماءِ الدّين والحديث بأبى نُواس ، وبالذات فى شعرٍ له فى الغَزَل واللهو ، وأهم من ذلك حين سجّل عددا من أقوالِ علماء العربية فى عصره يُشيدون فيها بداعيَةِ التجديد الثائر ، لقد كان فى مقدوره حينئذ أنْ يسلّم بأنّ أحداً لم يعارض الجديد الحقّ ، وأن أحداً تزعّم محاولة للمكابرة بتفضيل القديم لمجرد سبقه الزمنيّ لم يُوجَد ، إلى جانب أنّ مسألةَ التجديد فى المعانى وديباجةِ القصيدة والتعبير عن حياة الناس لم تكن محلَّ أخذٍ ورد لأنها أمورٌ مقبولة ، فهى لم تناقش لهذا السبب ، لا لأنّها ليست هامة .

وكان فى إمكانه أن يعطِيَ بعضَ أسبابِ تفضيلهم له أو رضاهم عنه ، مثل إتقانه للُغَتِه ، وتمكنه منها ، بحيث لا يبدو فى أسلوبه تفكّكٌ أو التواء ، وأنّ ذلك كان السببَ وراء عدم الثورة ضدّه ، على حين كان نقيضُه ، أعنى التواءَ الأسلوب والتعسُّف فى استعمال اللغة – كان السبب فى الهجوم على أبى تمام .

كذلك وضع طه إبراهيم يده على كثير من مفاتيح الموقف ، ومن ذلك ماذكره من أنَّ من أُسس التفضيل للقديم أساساً لغوياً مرجعُه أن أولئك اللغويين كانوا يهتمون

---

(١) Nicholson (R.A.) A Literary History of the Arabs, P. 285.

فى الشعر بالشاهد النّحْوىّ واللغوى ، وأيضا ماتنبّه إليه من أنّ طعنَ اللغويين على المحدثين كان يقومُ على أمورٍ تتصل بالصياغة . لقد كان من شأن ذلك كلّه أن ينبّهَهُ إلى طبيعة موقف اللغويين من شعر المحدثين وأنه لم يكن موقفَ الطّعن اللانّهائىّ والرفض المطلَق ، بل كان وراء ذلك عواملُ تتصل بما يسميه يُوهان فكْ (التنقية اللغوية) ، كما كان من شأنه أن ينبّهـهُ إلى أن الأساس الزمنى بالمعنى الحقيقى فى تفضيل الشعر لا وجودَ له ، وأن القولَ بالزمن والقولَ بقديم وحديثٍ لم يكن إلا إشارةً أو رمزا للفترة التى توفّر فيها شرطٌ أهم ، هو شرط النقاء اللغوى ، فكأن تقدُّمَ الزمن كان يعنى عدم اختلاط العرب بغيرهم ، فاطمأنوا إلى الاحتجاج بشعرهم .

كذلك عثَر على مفتاح هام جدا ، لم يُعِرْه أدنى اهتمام ، ولم يُبْدِ حيالَه إلاّ أشدَّ علامات الدهشة ، وذلك حين وجد الأصمعىَّ يفضل بشّارا – الذى شُهِر بأنه من روّاد الجديد، على مروان الذى عُرِفَ عنه السيرُ فى ركاب القديم ، لقد كَانَ من المَنْطِقىّ أن يتساءل حينئذ عما إذا كانَ صحيحا أن الأصمَعىَّ – وغيرَه من اللغويين – يهاجمون الجديد ؟ وعندئذ كان يمكن أن يقودَه السؤالُ إلى إعادة النظر فى موقف أولئك الفريق بغيةَ معرفة الحقيقة ، وربما كانت النتيجةُ – لو فعل – قريبةً مما تبيناه . ولكنه ، وفى غمار الصورةِ القديمة ، مضى يؤكّد وجودَ التعصُّب ضدَّ الشعر المحدث وهو تعصُّبٌ قام – فيما زعم – على أسس متعددة .

ولاشك أننا نظلِم أولئك الناسَ كثيرا حين نُصِرُّ على ما يقوله مندور من أنهم فضّلوا القديمَ لمجرد سبقه الزمنى ، فمما لاشك فيه أنهم حين اهتموا بجمع الشعر القديم كان لهم غرضٌ فى ذلك ، وهو غرض واضح أشار إليه مندور نفسه ، هو حاجتهم إلى الشاهد والمثَل النقيَّيْن ، وبالتالى فإن اختيارهم للقديم لم يكن لمجرّد السبق فى ذاته ، بل كان لأنه الأصلح للشاهد والمثَل ، ومن الطبيعى أنّ هذه الحقيقة كان يمكن أن تُلقىَ الضوء على طبيعة موقف اللغويين من شعر المحدثين ، أى أنها تشكّل مفتاحا من مفاتيح الموقف لم يُستَغَل كما ينبغى ، فانعدمت فائدتُه فى غِمار الإهمال لكل ما يخالف التصور القديم .

وعثر مندور على مفتاحٍ آخر ، وذلك عندما تساءل عن السبب فى عدم قيام ثورةٍ أو خصومة حولَ دعوة أبى نُواس ، وعندما طَرَحَ هذا السؤال على سبيل الافتراض :

«فهل ذلك لأن النقدَ لم يكن قد نَماَ بعد ... أم كان لأن أبا نواس – مع أنه مولَّدٌ أعجَميٌّ – كان يجيد اللغة العربية ويحذق الكتابة فيها فجاء شعره عربيا أصيلا ، لم يخرج فى شيء عن عمود الشعر ؟» ، وسلّم مندور بأنَّ فى كل هذه الأسئلة شيئا من الصحة . وهكذا كان فى إمكانه الوصولُ إلى شاكلة الصواب فى موقف النقاد من حركات التجديد فى الشعر العبّاسيّ ، ولو أنه تابع بقيةَ الخيط الذى عثَر على طرفه حين تساءل عما إذا كانت الصياغةُ اللغوية عند أبى نواس والتى تتّسم بغير قليل من الإحسان والروعة ، سببا في عدم قيام الخصومة حوله ، فإنه لو فعل ذلك ، فلربما استطاعَ الوصولَ إلى حقيقةِ الموقف، والتى تقوم على أنَّ أحداً ممَّنْ سُمُّوا بأنصارِ القديم – أو مِنْ خصوم أبى تمام – لم يكن يرفض تجديدَ الشّعرِ ولا الإبداعَ فيه أو حتى تغييرَ جزء من أجزاء القصيدة .

ولقد تنبّه مندور إلى أن أحداً لم يهاجم أبا نواس ، وكان هذا حريًّا – لو أنه علَّله بعلته الحقيقية – أن يقودَه إلى الرأى السليم ، ولكنه تحت تأثير الصورة القديمة لجأ إلى التقليل من شأنِ دعوة الشاعر كعلّةٍ لعدم الهجوم عليه .

ومن اللافت أن يقف إبراهيم سلامة على قول أنصار البحترى الذين وُصِفُوا بأنهم أنصار الدعوة إلى شعر الأوائل ، إن «**الذى يوردُه الأعرابى– وهو مُحتَذٍ على غير مثال – أحلَى فى النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحقُّ بالرواية والاستجادة مما يوردُه المحتذِى على الأمثلة**» (١) ، ومع ذلك لا يتبيَّن فى عباراتهم سوى مناصرةِ القديم ، حتى لو كان تفضيل هذا القديم مستندا إلى كونه غيرَ محتَذٍ على مثال ، أعنى أن نظرةً إلى الأصالة جديرةً بالإعجاب كانت تحتَ يدِهِ ولكنه لم يرَ فيها غيرَ تفضيل القديم ، وهى فعلا تحمل شيئا من هذا المعنى فيما يتصل بالعبارة ولكنّها تبرر التفضيل على أساس أصالة القديم وعَدم احتذائه على الأمثلة ، وهو خيْط كان تتبّعُهُ والتنبُّه إليه خليقاً بأنْ يغيّرَ نظرتَنا إلى ما أُشيعَ من أنّ مهاجمى أبى تمّام كانوا من المتعصّبين للقديم ، وما أشيع من أنّ أنصارَ القديم أولئك كانوا يقارِنون بين المحدثين – إن قارنوا – ويفاضلون بينهم – إن فاضلوا – على أساس مدى اقتدائهم بالقدامى .

ولعلَّ أخطر خيوط الموقف – فيما نتصوّرُه – كان فى يد شكرى عيّاد ، عندما

(١) الموازنة ١ / ٢٣ ، إبراهيم سلامة ، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٠٦ .

أشار إلى أنَّ تركَ روايةِ الشعر الحديث عند ابن سلّام وزملائه من قُدامى اللغويين والنحاة كانَ أساسُه عدمَ اطمئنانهم إلى السلامة اللغوية لذلك الشعر ، حيثُ نشأ أصحابُه فى فترةٍ من شيوع اللحن واضطراب اللغة ، هذا بينما توافرَ عنصرُ السلامةِ والنقاء اللغوى فى الشعر الجاهلى والإسلامى الذى حَظِىَ بروايتهم له . لقد كان التّمَسُّكُ بهذا الخيط والمضىُّ معه إلى آخر الشوْط حيث يؤخَذُ فى الاعتبار تاريخُ حركة جمْع اللغة وتنْقيتها ، كفيلاً بأن يكشف عن المواطن التى رُفض فيها الشعرُ الحديث ، والتى كانَ ، باستثنائها، محلاً للقَبول والاستحسان من الجميع .

كذلك فقد لمَس خيطاً آخر ، وهو ما أشارَ إليه من هُجُوم أنصار البحترى على أبى تمام متزعّمين الدفاعَ عن اللّفظ والسّبْك ، لقد كان الوقوفُ على هذا المنفذ الذى انطلق منه أنصار البحترى إلى الهجوم على أبى تمام كفيلاً بأن يوضّح أن فكرة مهاجمة الجديد لأنه جديد – على الأقل فى المعانى – كانتْ أبعد ما تكون عن ذِهن أنصار البُحترى ، وبالتالى يصبح من المشكُوك فيه وصفُ أنصار البحترى بأنهم أنصارٌ للقديم ، كما يصبح من المشكوك فيه أيضاً أنْ يكون الحوار بين أنصارِ الشاعرين معركةً بين أنصارِ اللفظ – يمثّلهم أصحابُ البحترى – وأنصار المعنى – يمثلهم أصحابُ أبى تمام ، إذ لم تكن مسألة المعانى والتجديد فيها محل نقاش أو اعتراض من أحد .

كما عثَر على خيط ثالثٍ تأتى أهميتُه من أنه يتناول الحكمَ على الفكرِ العربى بصورة عامة ، هذا الخيط هو ما أشار إليه من وجود تناقُضٍ فى موقفِ النقادِ العرب حين طالَبُوا باتّباع القديم ، والتحرُّرِ من القديم – عن طريقِ رَصْد السرقات ومهاجَمتها – فى وقت واحد ، ونحن لا نرى أن هذا التناقضَ كان موجودا، لأن لنا نظرتَنا إلى الموقف كله دفعةً واحدة ، ولكن الأهمية التى نُشير إليها فى الخيط الذى لمَسَهُ أستاذُنا هى : أن تَنبُّهه لما اعتقَدَ أنه تناقض فى موقف أولئك النقاد كان يمكن أن يدفع إلى إعادة النظر فى صورة النقد العربى مراتٍ ومراتٍ ، إذ ليس من السهل الوقوفُ عند مجرَّد تسجيلِ الظواهر دون البحثِ لها عن عِلَل كافية، وهو البحث الذى كان يمكن أن يؤدّىَ إلى التغافل عن بعض الظلال الواهية فى الصورة والتى تبدُو متناقضةً

مع بقية الأجزاء . أعنى أنه كان فى الإمكان التنبهُ إلى أنّ قُدامى النقادِ لم يهاجموا الجديد أصلا، ولم يطالبوا بالاقتداء بالأوائل .

تلك كلُّها مفاتيحُ كانت فى أيدى الدراسين المحدثين ، وكان النظرُ إليها بإمعان ومحاولةُ التعرف على كلّ أجزاء الصورة كفيلا بإزالة اللبس الذى ظل قوياً بحكم سيطرة التصوُّرِ القديم الذى قام – فيما نعتقد – على أساسين :

الأول : عدم تبين الدارسين المحدثين لمقتضيات المهام المتعدّدة لقدامى النقاد من الرواة واللغويين .

الثانى : أساس تاريخى غامض .



يقول أستاذنا شوقى ضيف ، معلّلا ماتصوّره من تعصّب قدامى اللغويّين والرواة على شعر المحدثين : « وإنّما جاءتهم هذه العصبيّةُ من وظيفتهم ، فقد كانوا يعدّون أنفسَهم حماةَ اللغة والحرَسةَ على تراثها ، ولم يكن يُهمهم من الشّعر إلاّ المثلُ والشاهدُ فى الأساس . وكان ينبغى أن يفرّقوا بين الصّحة اللغويّة والصحّة الفنيّة ، فالشّعر ليس من أسباب جودته أن يكونَ موثوقا به من الجانب اللغوىّ ، بل إنّ ذلك أمرٌ لايُهمّ إلاّ اللغويّين الذين يريدون اللغةَ نفسَها أو يريدون النحوَ والإعرابَ ، أما النقّادُ فينبغى أن يفصلوا بين القيمةِ اللغويّة والقيمة الفنية » (١) .

وفى رأينا أن اتخاذَ فريق اللغويّين والرواة من الشّعر القديم مادّةً للاستشهاد والاحتجاج فى مجالات اللغة والنّحو ، والأخبار والأنساب ، لاينبغى أن يُطلَق عليه أنه (عصبيّة) طالما أن للأمر - باعتراف أستاذنا - أسبابَه ومبرّراته من مهمّتهم اللغوية ، أو - إذا أردنا الدقّة - من مهامّهم العديدة التى من بينها المهمّة اللغويّة .

أمّا ما أوجبه من ضرورة التفرقة بين الصحّة اللغويّة والصحّة الفنيّة ، أو بين القيمة اللغويّة والقيمة الفنيّة فنظرةٌ صحيحة تمامًا ، غير أننا نضيف هنا حقيقةً ذات شقّين :

أحدهما : أن ذلك الفريقَ من اللغويّين والنحاةِ والرواةِ كان يضطلع بمهام النّظر النقدى ، والبحث اللغوى والبحث فى التاريخ والأنساب والأيّام ، بحيث تصدق عليهم التسميةُ بالنقاد ، والتسمية باللغويّين أو النحاة أو الرواة أو المؤرخين أو النسّابين فى نفس الوقت .

---

(١) النقد لشوقى ضيف ص ٤٠ .

الآخر : أن ذلك الفريقَ كان على وعْي كـامل بهـذه التّفرقـة المطلوبة أثناء مباشـرته لهاتين المهمّتين أو لتلك المهام المتعدّدة ، وأنه أقام قبوله أو رفضه للشّعر على أساس الصّلاحية أو عدم الصلاحية لتلبية حاجة هذا المجال أو ذاك .

ومن هذا نرى أن اللبسَ الذى وقع فيه الدارسون المحـدَثون حول موقف قدامى اللغـويّين والروّاة من الشـعر المحـدث يعـود فى أهم جوانبـه إلى رؤية الصـورة من زاوية واحدة دون بقـيّة الزاويا ، وإلى عدم الأخـذ فى الاعتبـار تلكَ المهامَّ العـديدةَ التى كان على نقّاد القرنين الثانى والثالث أو يقوموا بها ، والتى تطلّبَ العـديدُ منها معرفةً دقـيقةً بالشّعر القـديم وروايته وحفظه ، ومن هـذه المهامّ ماعُرف بـ (حـركة التنقيـة اللغويّة) ، ومنها ما تعلّق باسـتخدام الشعر القـديم كوثائق تشتمل على حـوادث التاريخ والحروب والمعرفة بالأنساب والمعرفة بحياة العرب وظروف معيشتهم فى العصور القديمة ، ثم ما ترتّب على هذه المهـمةِ وتلك من الإعـلاء من شأن رواية الشـعر القديم والإدلال بـكثرة المحفوظ منه ، كل ذلك دون غضّ من الشّعر المحدَث أو الحطّ من شأنه .

وإذا كان الجـاحظ لم يعترف لـذلك الفريق من النقّاد بالقدرة عـلى تمييز الشـعر من الناحيـة الفنيـة ، وقـصَرَ دورهم على بحثـه من ناحية الإعـراب والغـريب والتـاريخ والأنساب ، وأخرج هذه الجوانبَ والعنايةَ بهـا من نقد الشّعر ، أو من (علم الشعر) - كمـا هو المصطلح المعروف فى وقـته (١)- فإنّ قـدامةَ قـد جعلَ كلاً مـن هذه الجوانب قسـمًا من علم الشعر ، إلـى جانب تمييـز الجيّد من الردىء (٢) ، وبذلك عادَ إلى مـاكان عليه الأمـر فى تفكير ذلك الـفريق من العلمـاء الذين جمعـوا فى كثير من الأحـيان بين النظر النحـوىّ واللغوىّ والتـاريخى والفنّى ، واعين بما بين هذه المجالات مـن فروق ، من حيث الغايةُ ومنهـجُ النظر ، وكذلك من حيث المادة التى يقـوم عليـها البـحث فى هذا المجال أو ذاك .

---

(١) للجاحظ أكثر من نصّ فى هذا الموضـوع ، أحدها - على سبيــل المثال - فى البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

(٢) راجع مقدمة نقد الشعر ص ١٥ .

١ - حركة التنقية اللغوية

قلتُ إنه كان على أولئك الفريق من النقّاد - مثل أبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وخلف الأحمر والأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى ، وغيرهم - القيامُ بدور النقاد ، فى الوقت الذى يباشرون فيه مهامَّ حركة التنقية اللغوية ، والتى كانت تنظر إلى نماذجها نظرةً تختلف عن نظرة الناقد الفنّى المتكفّل بمهمة التحليل والتقييم أو الحكم ..... الخ مراعيا كلَّ عناصر العمل الفنى وحاملا عيوبَه على محاسنه بحيث يُصدرُ عليه حكما كليّا يمثل حصيلة جمع المحاسن إلى العيوب .

وكان عليهم - حين يتصدَّوْن للعمل اللغوى - أن يرفضوا كلَّ مالا يصلح للاحتجاج فى هذا المجال ، وكان كثيرٌ ممّا يرفضونه ينتمى للعصور المتأخرة وذلك بحكم انعدام شرطِ النَّقاء اللغوى ، فى شعر المتأخّرين ، وهذه هى حقيقةُ ما يبدو فى عبارات بعضِ أولئك العلماء من تنويهٍ بالشعر القديم دون الحديث ، والتصريح أحيانا بأنّ الأول أساسُ الاحتجاج ، فلم يكن وراء تلك العبارات والتصريحات سوى مبدأ واحدٍ هو أنّ الشعر القديمَ يمثّلُ المادةَ الصالحةَ للاحتجاج اللغوى والنّحْوى ، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك وجهٌ لتفضيل شعرٍ على شعرٍ إلاّ على أساس الجودة بصرف النظر عن مقاييسها - التى لم يكن من بينها قِدَمُ الشعر .

رفضٌ لغوىٌّ وتقدير فنّىّ

وقد عرفنا أنهم نصّوا من بين مَنْ لا يُحْتَجُّ بلغتهم على خمسة شعراء بالذات ثلاثة من الجاهليين واثنين من الإسلاميين ، ونقصد عدىَّ بنَ زيد وأبا دُؤاد الإيادىّ وأميّةَ بن أبى الصَّلت والطِّرمّاح والكُمَيْت .

غير أنَّ أولئك الشعراء كانوا محَلا للتقدير من جانب علماء الشعر حين يتجاوز الحديثُ أمورَ اللغة والنحو .

فابن سلاّم يقولُ عن عَدِىّ : « وله أربعُ قصائد غُرَرٌ ، روائعُ مبرِّزات ، وله بعدَهُنّ شعرٌ حسن » [(١)] ويحكى عن يونس قوله - وقد تمثّل ببيته :

أيُّها الشّامِتُ المُعيِّر بالدّهْـ .·. ـــرِ أأنْتَ المُبَرَّأُ المَوْفُورُ ؟

(١) ابن سلام ، طبقات الشعراء ١١٧ .

فقال يونس : «لو تمنَّيتُ أن أقولَ شعراً ما تمنَّيتُ إلاّ هذه أو مثلَ هذه» (١) ؟ .

ويُورد ابنُ قتيبةَ في حديثه عن عـدى ما وصفه به ابنُ سلاّم من أنّ له أربعَ قصائدَ غرراً ثم يروى منها جميعاً في كتابه (٢) ويستجيد له قوله :

قَدْ يُدْرِكُ المُبْطِئُ مِـــنْ حَظِّهِ .·. والخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيص (٣) .

وهو البيت الذى ذكر المبرّدُ أن القُطَامِيَّ أخذَ منه قوله :

قَدْ يُـــدْرِكُ المتَأَنِّى بَعْضَ حَاجَتِهِ .·. وقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

كمـا يستـجيد ابنُ قـتيـبةَ له قولاً فـى وصف السُّقاةِ ، ويسجّل له الـسَّبْقَ فى قوله لأخيه يحذّرُه من دخول أرض النعمان (٤).

وفى (حلْية الـمحاضـرة) يوردُ الحاتمى أمثلةً لأحـسن ما قيـل فى ردّ الشامـتين ويذكر منها بيت عدى بن زيد : (أيهـا الشامت .. البيت السابق) ويسجّل أنه صاحبُ واحدٍ من الأمثال الشاردة فى طـلب التوفيق من الله ، وكذلك فى الوعظ بالأيام ، وفى الحَضّ على المُجـازاة عن الخـيْر والشّر كل بمـثله (٥) . ويستـشهد المبرّدُ – كـما فى الحلية – ببيت عدى :

قَدْ يُدْرِكُ المُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ .·. والخَيرُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيص

للأبيات المشتملَة على مَثَلَيْن ، ويُوردِ الحاتمى قولَ عدى :

لَـوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِـــى شَـرِقٌ .·. كُنْتُ كالْغَصَّانِ بِالْماءِ اعْتِصَارِى

على أنه من أحسن ما قيل فى مَجىءِ الإساءة من قِبَلِ من لا تُتَوَقَّعُ إساءتُه (٦) . ولا شك أنّ دهشـــةَ القـــاضـى الجُرجـــانـى – الذى انســـاق إلى تصـــوّر تعـــصّب أولئك

(١) المرجع السابق ١١٨ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ / ١٧٦ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٨٣ .

(٤) المرجع السابق ١ / ١٨٤ ، والحلية ١ / ٢٤٨ .

(٥) ١ / ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

(٦) الحلية ١ / ٢٨٥ .

اللغويّين ، حتى على الجاهليين أنفسهم (١) - كانت ستزداد لو علم أنَّ الأصمعيَّ كان يقول : إنه ما رأى كَلاماً أشبَهَ بالسنَّة من قول عدى بن زيد :

عَنِ المَرْءِ لا تَسأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ∴ فإنَّ القَرِينَ بالمُقَـــارَنِ مُقْتَـدِ (٢)

أما عن أبي دُؤاد فإن ابنَ قتيبة يورد قول الحطيئة (الذى استشهد به القاضى الجرجانى) إنَّ أشعر النـاس هو أبـــو دُؤاد فى قولـه (لا أعُدّ الإقتـــار عُدْمـا..... الخ) (٣) ويقول ابنُ قتيبـة : وهذه القصيدة أجود شعره ، ويختار بعضها ويورده ، كما يسـجِّل له السبقَ إلى قـولٍ له فى حمـاية الجـار والمحافظة على عهـده ، أخذه منه الحُطَيْئة (٤). وأهم من هذا يورِد قولَ الأصمعى فيه : إنه أحَدُ نُعّاتِ الخَيْلِ المُجيدين ، وهم ثلاثة : أبو دُؤاد . . . وطُفَيْل ، والنابغـة الجَعْدى (٥) . وفـى (الموشَّح) خبرٌ له دلالته ، ويذهب إلى أن خلفا الأحمر كان ينحل شعره أبا دؤاد الإيادى ، وأن فى أيدى أهل الكوفة أربعين قصيـدة باسم أبى دؤاد صنعها خلف الأحـمر (٦) ، والسؤال الذى يتبـادَرُ إلى الذهن هو : هل كـان خلفٌ يَنْحلُ شعرَه شـاعرا لاقيمة لـه ، أعنى شاعرا لم يكن هناك طلبٌ على شعره ولا أحدَ يرغب فى سماعه ؟ لا شك أن المنزلةَ الشعريةَ لأبى دُؤاد هى التى جعلت رجلاً مثل خلف يختـار هذا الشـاعر بالذات يُسنِـد إليه قصائده المنحولة .

وأما عن **أميَّةَ بن أبى الصلْت** ، ففـى (الأغانى) خــبرٌ عن عمر بن شبَّة : « قال أبو عبيدة : اتفقَتْ العربُ على أنَّ أشعر أهل المُدُنِ أهلُ يثرب ثم عبد القيس، ثم ثقيــف ، وأن أشعر ثقيف أميةُ بن أبى الصلت » .

وفى خبر آخر عن يحيى بن محمد « قال الكميت : أميةُ أشعر النـاس ، قال

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الحلية ١ / ٢٧٧ ، ٢٨٢ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ١٩٠ .

(٤) المرجع السابق ١ / ١٩٢ .

(٥) المرجع السابق ١ / ١٩٠ .

(٦) المرجع السابق ١ / ١٩٢ .

كما قلنا ، ولم نقل كما قال » (١) ويصنّف الأصمعيُّ شعرَ أمية ضمن أشعار من ذَهبوا في اتجاه واحدٍ فيرى أنّ عامةَ شعر أُمّيةَ في ذكر الآخرة ، كما أن عامةَ شعرِ عنترة ذهبت في الحرب ، وعامة شعر عمر بن أبى ربيعة ذهبت في ذكر الشبّاب (٢) ، وفى الأغانى أيضًا أنّ سُفيان بنَ عُيَيْنَة استشهد بشعر أُمّيةَ فى معنى أنّ ثناءَ المادح على الممدوح كافٍ فى تذكيره بحاجته ، وذلك فى أثناء شرح مضمون دعاءٍ للرّسول وكيف أنّ دلالة الدعاء جاءت فى صورة الذّكر (٣) .

ولقد ترجم ابنُ قتيبة – فى الشعر والشعراء – **للكُمَيْت بن زيد** ، وتحدّث عن شعره وكثرة سرَقه ، ولكنه ذكر بعضَ المختارِ من شعره ، فأورد له قطعةً من قصيدةٍ بائية فى النّبيّ وبيتا فى هشام بن عبد الملك وقطعةً أخرى من جيد شعره(٤) ويصفه صاحبُ (الأغانى) بأنه «شاعر مقدَّم عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها » ، وفى (الأغانى) أيضا خبر عن مناظرة بين الكميت وحَماد الراوية وأن الكميتَ غلَبَه فى العلم بالشعر واللغة والغريب والرواية (٥) . وعرض الكميت شعراً له على الفرزدق ، يستشيره فى إظهاره إن كان جيدا أو سترِه إن كان رديئا فأمره الفرزدق – بعد أن سمع الشعر – بإظهار شعره قائلا « أنت أشعر من مضى وأشعر من بقى » ، ويذكر حمّاد مصدرَ علم الكميت ، وأنه كانت له جدّتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له الباديةَ وأمورَها ويخبرانه بأخبار الناس فى الجاهلية ، فإذا شكّ فى شعرٍ أو خبرٍ عرضه عليهما فيخبرانه عنه ، فمن هناك كان علمه (٦) .

وأما عن **الطِّرِمَّاح بن حكيم** فإنهم يحكُون أن الأصمعيَّ كان يستجيد قوله فى وصف الظّليم :

مُجْتابُ شَمْلَةِ بُرْجُدٍ لِسَراتِه ∴ قَدْراً وأسْلَمَ ما سِواهُ البُرْجُدُ (٧) .

---

(١) الخبران فى الأغانى ٤ / ١٢٢ .

(٢) الأغانى ٤ / ١٢٥ .

(٣) الأغانى ٨ / ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٤) الشعر والشعراء ٢ / ٥٦٤ .

(٥) الأغانى ١٥ / ١١٣ .

(٦) الأغانى ١٥ / ١٣٥ .

(٧) الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٢ .

وفى (حلية المحاضرة) نجد هذا البيتَ ضمن عَددٍ من التشبيهات (العُقْم) – وهى التى لم يُسْبَقْ أصحابُها إليها ولم يَلْحَقْهُمْ فيها أحدٌ لُحوقاً مُحْسناً – وهى التشبيهات التى اختارها أبو عمرو وخَلَف ويونس ، ضمن عدد من تشبيهاتِ الشعراء ، منهم عنترة وعديّ بن الرقاع والراعى والنابغة وذو الرمة وغيرهم (١) . كذلك يذكر ابنُ قتيبة تفضيلَ الأصمعيِّ لبيته فى وصف الثور (٢) ، وإلى نفس الشىء ذهبَ الحاتمى فى (حلْيَة المحاضرة) حيث يذكر تفضيل الأصمعيِّ لبيتِ الطِّرِمَّاح :

يَبْدُو وتُضْمِرُه البِلادُ كأنَّهُ .·. سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

على قولِ النَّابِغَة :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أكَارِعُهُ .·. طَاوِى المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

فقال الأصمعى : إن الطِّرِمَّاح « أحَقّ بهذا المعنى منه لأنه أخذَهُ وجَوَّدَهُ، وزاد عليه، وإن كان النابغة افْتَرعَه » (٣) .

وفى هذه الأخبار – على قلتها – كفاية ، فكثيرٌ منها صادر عن الأصمعى يعترف فيها بالشاعرية والتفوق للشعراء الذين رُفضَ الاحتجاج بشعرهم .

وليس لنا أن نبحث عن علة قبولهم – على المستوى الفنّى – لأشعار مَنْ قالوا إنهم لا يحتجُّون بهم لغويا ، فالموقف الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تعليل هو موقف القبول للشعر الجيد ، لكن ما يحتاج حقاً إلى البحث هو السبب الذى من أجله رُفض الاحتجاج بأولئك الشعراء خاصة أنهم جميعا يتمتَّعون بميزة القدم ، إذْ كان من بينهم – كما نرى حتى الآن – ثلاثةٌ من الجاهليين واثنان من الإسلاميين .

علل الرفض اللغوى

ولتوضيح هذه المسألة نورد العِللَ التى اقترنت بما يُرْوَى عن رفض الاحتجاج بأشعار أولئك الشعراء .

---

(١) الحلية ١ / ١٧٨ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٢ .

(٣) حلية المحاضرة ١ / ١٧٢ ، ونضرة الإغريض ١٠٨ .

١ – **أما عن عدىّ بن زيد** فيقول ابن قتيبة : « كان يسكنُ بالحيرة ، ويدخل الأرياف فثقُلَ لسانُه واحتُمِلَ عنه شيءٌ كثير جداً وعلماؤُنا لايرَوْن شعره حُجّة (١) . ويذكر أبو عبيدة عن أبى عمرو أن « العربَ لا تروى شعره لأنَّ ألفاظَه ليست بنجدية ، وكان نصرانيا من عباد الحيرة قرأ الكتب » (٢). ويقول ابنُ سلاّم : «وعدىُّ بنُ زيد كان يسكن الحيرة ومراكزَ الريف ، فَلاَنَ لسانُه وسَهُل مَنْطقُه فحُمِل عليه شيءٌ كثير، وتخليصُه شديد، واضْطرَبَ فيه خلفٌ الأحمر وخلَّط فيه المفضل » (٣) . وفى (الأغانى) : « وليس ممن يُعَدُّ فى الفحول ، وهو قَروىّ ، وكانوا قد أخذُوا عليه أشياءَ عيبَ فيها » (٤) . ويروى أبو عمرو الشيبانى عن المفضّل قولَه « كانت الوُفُود تَفدُ على المُلوك بالحيرة فكان عَدىُّ بن زَيْد يسمع لغاتِهم فيُدْخلها فى شعره » ، ويروون عن أبى عمر بن العلاء قولَه : إنّ عديًا « فى الشعراء بمنزلة سُهَيْل فى النجوم يعارِضها ولا يجرى مجراها . وفسّروا قوله بأنه يشبّهُ بها ويقعُد به عن شأوِها ألفاظُه الحيريّة وأنها ليست بنجدية » (٥).

٢ – **وأما عن أبى دُؤَاد الإيادى** فنجد فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة قولَ الأصمعىّ إن العرب لاتروِى شعرَ أبى دؤاد وعدىّ بن زيد لأنّ ألفاظهما ليست بنجديّة (٦) ويشير صاحب (الموشح) إلى أن هناك أشياء أُنكِرَتْ على أبى دُؤاد. والخبر كذلك وارد فى (الوساطة) للجرجانى يقول : زعم الأصمعى أنّ العرب لاتروى شعرَ أبى دؤاد وعدىّ بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية (٧) .

٣ – ويذكر ابنُ سلاّم فى طبقات الشعراء أن **أميةَ بنَ أبى الصَّلْت** كان كثيرَ العجائب ، يذكر فى شعره خلقَ السموات والأرض ويذكر الملائكةَ ويذكر

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ / ٢٢٥ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ١٨٢ .

(٣) طبقات ابن سلام ١١٧ ، وينقل الموشّح الخبر عنه ٧٣ .

(٤) الأغانى ٢ / ٩٧ .

(٥) الموشح ٧٣ .

(٦) الشعر والشعراء ١ / ١٩٠ ، والموشح ٧٣ .

(٧) الجرجانى ، الوساطة ٥١ .

من ذلك مالم يذكره أحدٌ من الشعراء ، وكان قد شامَّ أهل الكتاب (١) . ويقول ابنُ قتيبة عن أمية « وكان قد قرأ الكُتُبَ المتقدمة ... ويحكي في شعره قصص الأنبياء، ويأتي بألفاظٍ كثيرةٍ لاتعرفها العرب يأخذُها من الكتب المتقدّمة ، وبأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » (٢) ، ويحكي أنه كان يسمّي السماء في شعره « صَاقُورة » و «حَاقورة » و « بِرْقع » ويقول في الله عز وجل :

* هو (السَّلَطْلِيطُ) فَوْقَ الأرْضِ مُقْتَدِرُ *

ويقول : وأبدَتْ (الثُغْرُورَا) ، يريد الثَّغر ، وهذه أشياء منكرة . وعلماؤنا لايرون شعره حُجة في اللغة (٣) . وفي (الأغاني) في خبر ينتهي إلى عبد الله بن مسلم « كان أميةُ بن أبي الصلْت قد قرأ كتابَ الله عزَّ وجلَّ الأول ، فكان يأتي في شعره بأشياءَ لاتعرفها العرب » (٤) .

٤ – ويذكرُ ابنُ قتيبة عن الأصمعي عن خَلَفٍ أنه رأى الكُمَيْتَ بالكوفة في مسجدٍ يعلّم الصّبيان (٥) . وفي الموشّح عن الأصمعي أنه قال « الكميت ابن زيد ليس بحُجة لأنه مولَّد وكذلك الطّرماح » . وهناك تعليلٌ لعدم الاحتجاج به عن الأصمعي حيث يقول : ليس الكميت بن زيد بحُجَّةٍ لأن الكميتَ من أهل الكوفة فتعلَّم الغَريبَ ، وروى الشعرَ وكان معلّما فلا يكون مثلَ أهلِ البَدْو ومَنْ لمْ يَكُنْ من أهلِ الحَضَرِ ... ويقولون : وكان ذو الرمة أحسنَ حالاً عند الأصمعي من الكميت (٦) ، ويروى عنه قوله: الكميتُ تعلَّم النحوَ وليس بحجَّةٍ وكذلك الطِّرمَّاح ، وكانا يقولان ماقد سمعاه ولا يفهمانه ، قال رؤبة: كانا يسألانِني عن غريب شعرهما ، ويروى عن خلف أن رُؤْبَةَ ابنَ العجّاج ذكر أنَّ الكميت والطِّرماحَ سألاه عن بعض الغريب ثم

(١) طبقات ابن سلام ٢٢٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٤٢٩ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٤٣١ .

(٤) الأغاني ٤ / ١٢١ ، وينقل عن ابن قتيبة قوله : (فعلماؤنا لايحتجُّون بشيءٍ من شعره لهذه العلة).

(٥) الشعر والشعراء ٢/ ٥٦٢ .

(٦) الموشح للمرزباني ١٩٢ .

سمعه في شعرهما ، ويذكرون عن راوية الكميت أنه سمعه يقول : إذا قلتُ الشعر فجاءني أمرٌ مستوٍ سهلٌ لم أعبأ به حتى يجيءَ شيءٌ فيه عويصٌ فأستعمله (١) .

٥- وفي ترجمة ابن قتيبة **للطِّرِمَّاح** يذكرُ خبرَ رُؤْبَةَ عن نقلِ الكُمَيْتِ والطرمّاح الغريبَ عنه واستعمالهما له في شعرهما (٢) ، وفي (الموشّح) نجد قولَ أبي عمرو بن العلاء إنه رأى الطرمّاح بسَواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النَّبيط ويتعلّمها ليُدخلَها في شعره ، والخبر مذكورٌ أيضا عن أبي عمرو برواية عن الأصمعي أن أبا عمرو رآه بسواد الكوفة يكتُب ألفاظ النبيط « فقلتُ : ما تصنع بهذه ؟ قال : أُعَرِّبُها وأُدخِلُها في شعري » ، وعن شُعبة بن الحَجّاج أنه قال للطِّرِمّاح : أينَ نشأت ؟ قال : بالسَّواد (٣) ويستشهد الأصمعي على ذلك بقوله:

« طالَ في شَطِّ نَهْرَوانَ اغتِمَاضِي »

ويقول الأصمعي عنهما - أي الكُمَيْت والطِّرِماح - « كانا يقُولان ما قد سمِعَاه ولا يفْهمانه » (٤) .

هنا نلاحظ أن الاعتبارات التي قُدِّمَتْ كتعليلاتٍ لعدم الاحتجاج بأشعار أولئك الشعراء هي ما يأتي :

١- اعتبارات مكانية :

وذلك واضحٌ في قولهم عن عدي : إنه كان يسكُنُ الحيرة ويدخل الأرياف ، أو قولهم إنه قَرَوِيّ ، وأميةُ بن أبي الصلْت نفسه كان من شعراءِ القُرى العربية - كما رتّبه ابنُ سلّام - كان من الطّائف ، ويقول ابنُ سلام « وأهْلُ الطائف في طَرَفٍ » (٥) يعني في مكانٍ ناءٍ بعيد . ويتضح الاعتبارُ المكاني أيضا في ما

(١) الموشح ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ / ٥٦٧ .

(٣) الموشح ٢٠٨ .

(٤) الموشح ٢٠٩ .

(٥) طبقات ابن سلام ٢١٧ ، وراجع ماكتبه محقّق الكتاب بالهامش من أنّ الطائف على جبل غزوان بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا ، وكانت تسكنها ثقيف .

وصفوا به الكميتَ والطرمّاح من أنهما كانا من أهل السَّوَاد ، وقَوْل الأصْمَعِيّ عن الكُميت إنه نَشَأ بالكوفة فلا يكون مثلَ أهل البَدْو ومَنْ لم يكُنْ من أهلِ الحَضَر . وهو واضحٌ كذلكَ في حالَةِ الطِّرِمّاح مِمَّا حكَاهُ عنه أبو عمرو بن العلاء وأنَّهُ رآه بِسَوادِ الكُوفَة ، وهو الخَبَر الذى يؤكِّدُه شُعْبةُ بن الحَجاج ، كذلك يورِد القاضى الجرجانى فى الوساطة قول الأصمعى عن الكميت إنه (جُرْمُقَانِيٌّ) من جَرامِقِ الشّام لا يُحتَجُّ بشعره (١) . هذا ونذكر أنه مع قَبُول الأصْمعى الاحتجاجَ بشعر ذِى الرمة ، فإنه كان يلاحظ عليه بعض الظواهر المولّدة – كما يقول (فك) – ورأى أنّ شعرهَ لايشبه شعرَ العرب باستثناء قصيدةٍ واحدة ، وأن هذه السمات ناشئةٌ من إقامة ذى الرمة فى أرض (السَّواد) الخصبة أو كما يقول الأصمعى فى عرض تصويرى : « إنّ ذَا الرُّمَّة أكَلَ البَقْلَ والمَمْلُوحَ فى حَوانِيتِ البَقّالين حتى بَشم» (٢) .

٢ – اعتبار ثقافى خاص :

وهذا الاعتبارُ ناتج فى أغلب الأحيان عن اعتبارات المكان التى سبق الحديثُ عنها، وهذا مايتضح من قولهم عن عدى بن زيد : إنه كانَ نصرانيا من عِبَادِ الحيرة قد قَرأ الكُتُبَ وأنَّ الوفودَ كانتْ تَفِدُ على الملوك بالحيرة فكان عدىٌّ يسمع لغاتهم فيُدخِلها فى شعره . ويذكرون عن أميَّةَ بن أبى الصَّلْت أنه كان قد شامَّ أهلَ الكتاب وقرأ الكتب المتقدمةَ وكان يحكى فى شعره قصص الأنبياء ، وفى الأغانى أنه قرأ كتاب الله تعالى الأول . ويقولون عن الكُميت إنه كان معلّما بالكوفة وإنه تعلّم الغَريبَ وتعلم النحو وأنه كان – هو والطِّرِمّاح – يسألان رُؤْبَةَ عن الغريب ، ويروى أبو عمرو بن العلاء أنه رأى الطرمّاح وهو يكتب ألفاظ النَّبيط التى اعترف بأنه يُعَرِّبُها ويُدخلها فى شعره .

وممّا له دلالةٌ فى هذا الصَّدد أن يُعابَ الشاعر بمعرفة الكتابة ، وأن يحاولَ هو إنكارَ هذه المعرفة . ففى (الموشّح) أخبرنى الصّولى قال : حدثنا القاسم بن إسماعيل قال : أنشدنا محمد بن سلاّم لأبى النجم العجلى – وكان له صديق يسقيه الشرابَ فينصرف ثملا من عنده :

---

(١) الوساطة ١٠ .

(٢) الموشح ص ٢٨٤ ، ويراجع : العربية ليوهان فك ص ٤٥ .

أخرجُ من عندِ زيادٍ كالخَرِفْ .·. تخطّ رجلاىَ بخطّ مختلفْ

* كأنما تكتّبان لامَ الفْ *

قال الصّولى : وقد عيب أبو النجم بهذا ، فقيل : لولا أنه يكتب ماعرَف صورة لام ألف وعناقها لها ، كما عيب ذو الرّمة فى وصف عين ناقته حين قال :

كأنّما عينُها شبها – وقد ضمرت .·. وضمّها السيرُ فى بعض الأضَا – ميمُ

يريد : كأنّ عينها دارةُ ميم لتدويرها وغؤورها . والأضا : الغدير ... فقيل : لولا أنه يكتب لما عَرَف الميم . (١) .

وقد حاول ذو الرمّة أن يكتم معرفته بهذه المهارة ، ففى (الشعر والشعراء): «وقال عيسى بن عمر : قال لى ذو الرمة : ارفعْ هذا الحرف ، فقلت له : أتكتب ؟ فقال– بيده على فيه – أى : اكتمْ علىّ ، فإنه عندنا عيب » (٢).

ويبدو أن الإنكار لم يكن ممكنا ، لذلك راح ذو الرمّة يقرّ بمعرفته الكتابة وينكر– فى نفس الوقت – ممارسته لها بيده ، ففى خبر يصل إلى الهيثم بن عدىّ « قال: قرأ حمّاد الراوية على ذى الرّمة شعره ، فرآه قد ترك فى الخطّ لاماً ، فقال له حمّاد: وإنك لتكتب ؟ قال : اكتمْ علىّ ، فإنه كان يأتى باديتنا خطاط يعلمنا الحروف تخطيطا فى الرمل فى الليالى القُمْر ، فاستحسنتُها فثبتت فى قلبى ولم تخطّها يدى» (٣).

وواضح أن معرفة النحو واللغة تعلّما كانت من الأمور القادحة فى مكانة الشاعر عند اللغويين وكذلك معرفة الكتابة ، التى وصفها ذو الرمّة بأنها عيب عندهم ، وحاول التنصل منها بالقول بأنه عرفها بقلبه ولم يخطها بيده.

على أنّ أياً من هذين الاعتبارين لم يكنْ مقصوداً لذاته وإنما من حيثُ مايترتّب عليه من اتّصاف أشعار أولئك الشعراء بسماتٍ خاصّة لاحَظَها العلماء وسجّلوها وهى سماتٌ أوْجَدَتْ نوعا من المباينة بين لغات أولئك الشعراء ولغاتِ

---

(١) الموشح للمرزبانى ٢٧٩ . ٢٨٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٥٣٢ .

(٣) الموشح ٢٨٠ .

غيرهم ، ويمكن ملاحظةُ ذلك من قولهم عن عدىٍّ بن زيد وعن أبى دُؤاد : إن ألفاظهما ليست بنجدية ، وقولهم عن عدى : إنه لأنَ لسانُه وسهل منطقه وإنه كان يُدخِل فى شعره لغات الوفود القادمة على الحيرة ، وكذلك حديثهم عن مجموعة من المآخذ سُجِّلتْ على أبى دؤاد ، كما سجلوا على أمية بن أبى الصلت أنه كان يأتى بألفاظ كثيرة لايعرفها العرب، يأخذها من الكتب المتقدمة .... ويمثلون لذلك بتسمية السماء باسم (صاقورة) و (حاقورة) ..... الخ وتسمية الله عز وجل (السَّلَطْلِيط) وتسمية الثَّغر (الثَّغرور) ، وهى الظواهر التى قال عنها ابنُ قتيبة إنها أشياء مُنكَرة ، وعلَّل بها عدمَ احتجاج العلماء بشعر أمية فى نصٍّ أصرح مِمَّا فى (الشعر والشعراء) نسبته إليه رواية فى (الأغانى) [1] .

كذلك لاحظ العلماء على شعر كلٍّ من الكُميت بن زيد الأسدى والطِّرِمَّاح بن حكيم عدداً من السمات ، فيأخذون عليهما أنهما كانا يقولان ما قَدْ سَمعاه ولا يفهمانه ، وأنهما كانا يُدخلان الغريبَ فى أشعارهما ، ويحكون قولَ الكميت إنه لا يقبل أن يقول من الشعر ما يجىء مستويا سهلا ولا يَعبأ إلا بما يستطيع أن يُدخِل فيه شيئا من العَويص، ثم يذكرون قوله : إنه يصف الأشياء التى لم يَرهَا وإنما وُصفَتْ له فحسب ، فهو يصفها على السماع ، وكان هذا الاعترافُ من جانبه تبريرا لما لاحظه عليه معاصرُه ذو الرمة من عدم الدِّقَّة فى الوصف بسبب عدم الدِّقَّة فى استعمال الألفاظ . وتُكْمِلُ الروايات الأخرى هذه الصورة ، حيث تذكر أن ذا الرمة - أو غيرَه فى روايات أخرى - سجّل عليه عدم المناسبة فى جمعه بين كلمتى (الأُنْس) - أو الدَّلّ - و(الشَّنَب) .

وفى إمكاننا أن نختلف - مطمئنين - مع يُوهان فكْ فيما ذهب إليه من أن محاورةَ الكُميت مع ذى الرمة على النحو السابق تدلُّ على أنَّه رفع التقليد لذاته إلى مرتبة الحذق الفنى [2] ذلك أن ما يُسَمَّى بالاحتذاء الفنى - والذى يتمتَّع بدرجة من الأصالة - مسلكٌ يختلف عن الرغبة الواعيَة الصريحة فى إدخال عدد من الألفاظ أو الرغبة الصريحة فى وصفِ شىءٍ لأن هذا الوصف يُتيح استعمالَ هذا اللفظ أو ذاك ،

---

(١) الأغانى ٤ / ١٢١ .

(٢) يوهان فك ، العربية ٤٠ .

وهو مايظهر من قول الكميت إنه لايقبل من الشعر إلاّ ماجاء فيه شيء من العَويص ، وإنه يصف الأشياء التي وُصِفَتْ له ، كما يؤيده ما قيل عنه من تعمُّدِه لإدخال الغريب في شعره – أقول : فرقٌ كبيرٌ بين الاحتذاء الفني والذي يتحقق نتيجة للإعجاب بالنموذج إعجابا قد يولّد في بعض الأحيان انفعَالاً يُتيح للفنان خلقَ أثر جديد يتمتّع بكل سمات الأصالة وبين الرغبة المتعمّدة في الحديث عن كلِّ مايُهَيِّئُ للشاعر إدخالَ بعض الألفاظ التي يرجو سَلْكَها في شعره . وهنا يمكن الموافقة – بحق – على ما لاحظه فك من الربط بين هذه الظاهرة في شعر الكميت ، وما كان يراه ذلكَ الشاعر من أن أميةَ بنَ أبي الصلت أشعرُ الشعراء ، فقد عُرِف الشاعر الأخيرُ أيضا بحب الغَريب وحَشْوِ شعره بألفاظ لاتعرفها العرب ، وهي الظاهرة التي حازت إعجاب الكميت . وكان مما سجلوه عليه أيضا الخطأ في صِيَغ الأفعال كاستعماله صيغةَ الرباعي من الفعلين (بَرَقَ ، ورَعَدَ) – حيث قال في الأمر : (أبرقْ ، أرعدْ) – في غير دلالتهما [1] .

وليس هنا مكانُ إحصاء الأخطاء ، وحسبنا أن نسجِّل السماتِ العامةَ التي كان من شأنها أنْ تُبْعِدَ اللغويّينَ عن الاعتداد بشعر الشاعر في احتجاجهم اللغوي ، وحسبنا أن نذكر أنّهُمْ رأوا أنَّ كُلَّ علم الكميت ولغتِه قائمان على التعلُّم وليس على النشأة العربية أو التَّبدّي الذي قد يكون شفيعا في مثل هذه الحالة .

ويشاركُ الكميتَ الطِّرِمّاحُ في معظم الخصائص السابقة من تعلّم النحو واللغة تعلُّما وفي إدخال الغريب في شعره دون فهمه ولكنه اتّسَمَ بصفة أخرى هي إدخال الألفاظ الأجنبية – والنبطية بالذات – في شعره ، فإلى جانب الثقافة اللغوية المكتسبة – على خِلافِ المطلوب في لغة من يُحتَجُّ بشعرهم – فإنه أضاف إليها ألفاظا ليست عربيةً أصلا .

ونحن إنما نركّز على الاعتبارين السابقين : الاعتبار المكاني ، والاعتبار المتعلق باكتساب الشاعر لنوع من الثقافة الغربية على البيئة البدوية المثالية ، وذلك لأننا نرى أنّ

---

(١) الموشح ١٩٦ . ومماقالوه في ذلك – حكايةً عن الأصمعي – أنه « لايقال إلا (رَعَد) و (بَرَق) إذا أوعد وتهدّد » . أما البيت المشتمل على هذين الفعلين فهو :

أرعِدْ وأبرِقْ يايزيـ ∴ ـدُ فما وَعيدُك لي بضائرْ

هذين العاملين يُشكّلان الأساسَ الذي كان يترتب عليه رفضُ أو قبولُ الاحتجاج بالشاعر في مجال اللغة ، وليس غير هذين العاملين كان يتحكم في هذه المسألة ، حتى أصل الشاعر وعدم انتسابه إلى العرب ، لم يكن ليَقْدَحَ في صواب الاحتجاج بلغته إذا توافر له شَرْطُ البُعْدِ عن كل المؤثرات الأجنبية وشرط البيئة النقيّة اللغة ، فكما قلت من قبل ، كانت جميعُ الاعتبارات لاتُقصد لذاتها بل لما يترتّب عليها من احتمال عدم خُلوص لغة الشاعر وعدم نقاء عربيته .

وينقل السُّيوطي في (المزهر) عن الفارابي في أول كتابه المسمَّى (الألفاظ والحروف) قوله : « والذين عنهم نُقلتْ اللغة العربيةُ وبهم اقْتُدِيَ وعنهم أُخِذَ اللّسانُ العربيُّ من بين قبائل العرب هم : قَيْسٌ ، وتَميم ، وأَسَد ، فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكْثَرُ ما أُخِذَ ومُعْظَمه ، وعليهم اتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتَّصْرِيف ، ثم هُذَيْل وبعض كنانة وبعض الطائيِّين ، ولم يُؤْخَذْ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لَمْ يُؤْخَذْ عن حَضَرِيٍّ قط ، ولا عن سُكَّانِ البَرَارِي مِمَّنْ كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم ، فإنه لم يُؤْخَذْ لا مِنْ جُذَام ، لمجاورتهم أهلَ مصر والقِبْط ، ولا من قُضاعة وغسَّان وإياد لمجاورتهم أهلَ الشّام وأكثرهم نصارَى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تَغْلِبَ واليمن ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليُونان ، ولا من بَكْر لمجاورتهم للقِبط والفُرْس ، ولا من عَبْد القَيْس وأَزْدِعُمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالِطين للهند والفُرس، ولا من أهل اليَمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفةَ وسكانِ اليَمامة ، ولا من ثَقيف وأهْلِ الطائف لمخالطتهم تُجّارَ اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقَلُوا اللغةَ صادفوهم حينَ ابتدأوا ينقُلون لغةَ العرب قد خالَطُوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنَتُهم » [١] .

ومن هذا النصِّ يتضح أن شرطَ المكان كان موضعَ الاعتبار على أساس أنه دليل على عدم الخُضُوع للمؤثِّرات الأجنبية التي يمكن أن يتعرَّضَ لها سكانُ المدن والأقاليم المتطرِّفَة ، ومن الواضح أنَّ الإقامةَ في البادية - في ذاتها - لاتُسَوِّغُ الاستشهادَ بشعر الشاعر ، مالم تكن إقامته في مكان بعيدٍ عن احتمالات الاختلاط والفساد ، فهُمْ لم يأخذوا - كما يقول الفارابي - « عن سكان البراري مِمّن كان

---

(١) السيوطي ، المزهر ١ / ٢١٢ و الاقتراح ١٩ .

يسكن أطرافَ بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم » . فلا سُكْنَى المدنِ ، ولا الإقامةُ فى الصحراء – فى ذاتهما – هما الفاصل فى مسألة الاحتجاج بشعر الشاعر أو عدمه ، وإنما الفاصل فى ذلك هو مَدَى تعرُّضِ الشاعر للمؤثّرات الأجنبية التى يمكن أن تَبْدُوَ ظواهرُها فى لغته ، يقول ابنُ جنى : إن « علّةَ امتناع الأخذ عن أهل المدَرِ كما يُؤْخذ عن أهل الوبر ماعَرَضَ للُغَات الحاضرة وأهل المَدَر من الاختلال والفساد ، ولو عُلِمَ أنَّ أهْلَ مدينة باقُون على فصاحتهم لم يَعْرِضْ لـلُغَتِهِمْ شىءٌ من الفَسَـادِ لَوَجَبَ الأَخذُ عَنْهُمْ كما يُؤْخَذُ عن أهل الوَبَر وكذلك لو فَشَا فى أهل الوَبَرِ ما شَاعَ فى لُغَةِ أهلِ المَدَرِ من الخَلَلِ والفَسَاد لوَجَبَ رفضُ لُغتها » (١) .

كان العَامِلُ الحَاسِمُ فى اختيار الشعر ، عند قيام الحركة الخاصة بجمع التراث هو صلاحيتُه للغرض الذى يُختار من أجله ، ولقد تنوعت الأغراض فى اختيار الشعر ، ولكن غلب عليها فى العصر الأول – حوالى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى – تلك الحركةُ التى تزعَّمَتْ مايسمّيه يوهان فك بمبدأ (تنقية اللغة العربية) الذى حَمَلَ راية المحافظة على خُلوصِ اللغة (٢) ، ولتكن الدوافع إلى تلك التنقية ماتكون – دينيةً أو قوميةً أو غير ذلك – فإن الذى لاشكَّ فيه أن تلك الحركة أرادت أن تضعَ الصورةَ المثاليَّةَ للغة العربية على أحسن الوُجوهِ الممكنة ، وذلك عن طريق جمْع نماذجِها الممتازة وتحليلها وشرحِها . ونظر زعماءُ تلك الحركة فرأوا أنَّ العرب وهم الذين يمكن جمعُ هذه النماذج منهم ، قد انتشروا فى سائر الأقطار المفتوحة ، كما رأوا أنَّ أبناءَ تلك الشعوب الأعجمية قد انتشروا فى المدن الإسلامية والعربية وحَدثَ بين لغات الفريقين مايحْدُثُ عادةً عند التقاء اللغاتِ المختلفة من التأثير والتأثر – وإن احتفظت اللغة العربية بالنسبة الأعلى من الثَّبات بصفتها لغة الدين والحكم – لكنها على أى حال ، لم تَعُد فى نَقَاءِ اللغة التى يتكلَّمُها أولئك الذين ظلّوا فى البادية البعيدة بمعزَلٍ عن احتمالات المؤثِّرات الأجنبية على لغتهم .

من هنا جاءتْ أهمية عامِلِ الزمن ، أعنى أنّ التقدم فى الزّمن كان قرينةً على

(١) السيوطى ، الاقتراح ٢٤ وهو ينقل عن الخصائص ، وراجع الخصائص لابن جنى ١ / ٤٠٥ (باب فى ترك الأخذ عن أهل المدر)

(٢) يوهان فك ، العربية ٢٦ .

عدم اختلاط العرب بغيرهم، على حين كان التأخُّر قرينةً على العكس، دُون أن يكونَ للمسألة علاقةٌ بتفضيل جيلٍ على جيل، أو عَصْرٍ على عَصْر، وهذا ما يوضّحه نص من ابنِ سنانِ الخَفاجيّ، يقول: «فأمّا الاستشهادُ بأشعارِ هؤلاء المتقدّمين فقد بيّنا... سببَه، وقلنا: إنّ تقدُّمَ الزّمان غيرُ مُوجبٍ لذلك، وإنّما موجبُه أنّ العربَ الذين يتكلّمُونَ باللّغة العربيّة ولا يُخالطُونَ أحداً ممّن يتكلم بغير لغتهم هم الذين أقوالُهم حُجّة في اللغة، والعرب الذين خالَطُوا غيرَهم من العَجَم وفسدت لغتُهُمْ بالمخالطة لا يستَدَلُّ بكلامهمْ، فلمّا كانَ العربُ المتقدّمون قبل الإسلاَم وفي الصّدرِ الأول منه لا يخالِطُونَ في الأكثرِ غَيْرهُم كانت أقوالُهم في اللُّغَة حُجَّةً، ولمّا صارُوا بالملك والدّولَة يُخالطون غيرَهم ويَحْضُرُون ويسكنون المُدنَ لم يُستَدَلّ بلغتهم، ولهذا السببِ كان أبو عَمرو بن العَلاَء يعيبُ جريراً والفرزدقَ بطول مقامهما في الحضَر، وأبطل الرواة الاحتجاج بشعر الكميت بن زيد والطرماح لأنهما كانا حضريين» [١].

ومع شدّة وضوح كلام ابن سنان هنا فلا بأس بإيراد (بيانه) السابق الذى أشار إليه فى هذا النصّ تأكيداً لرأينا فى هذه القضية، يقول: «فلعل مَنْ يجدنا نستدلّ بكلام العرب المتقدمين على لغتهم ولانستدلّ بكلام المتأخرين يتخيّل أن هذا شيء يرجع إلى الزمان، وليس الأمر كذلك، وإنما العرب الأول لمّا كثر الإسلام واتصلت الدعوة وانتشرت حَضَرَ أكثرهم، وسكنوا الأرياف وفارقوا البدو، وخالطهم الباقى، فامتزج كلامهم بمن جاوروه من الأنباط وعاشروه من الأعاجم، وعدم منهم الطبع السليم الذى كانوا عليه قبل هذه المخالطة، فهم الآن لايحتجّ بكلامهم لهذه العلة، لا لأن القدمَ والحدوثَ سببان فى الصواب والخطأ ...» [٢].

ذلك هو - صراحة - السرّ فى موقف أبى عمرو - إن كان قد حدث بالفعل - ممن سماهم (محدثين) ولم يحتج بهم، وكذلك موقف الأصمعى وغيره من عدم الاحتجاج بأشعار المحدثين، وهو الموقف الذى أساء فهمَه بعضُ القدماء وكلُّ الدارسين المحدثين تقريبا، أعنى أن الفيْصلَ فى قبول الشعر من زاوية النقاء اللغوى هو ما يضمن وجود هذا النقاء، ولا شيء غير ذلك.

---

(١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة ٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق ١٢١.

ولقد كان ذلك المَسْلكُ طبيعيا ولا يحمِل أىَّ سمةٍ من سمات الرجعية – كما يحاول (فكْ) أن يصِفَ تلك الحركة (١) ، ذلك أنّ القائمين عليها ظلّوا على الوفاء لمبدئهم وهدفهم ، ولقد كان الهدف – كما ذكرت – محاولة جمع ، و وضع ، صورة للعربية كأنقى ما تكون ، ولقد أجمعوا على أنَّ مصادرهم إنما هى الكلام الموثوق بفصاحته « فشمل كَلاَمَ الله تعالى – وهو القرآن – وكلامَ نبيِّه صلّى الله عليه وسلم ، وكلاَمَ العرب قبل بعثته وفى زمنه وبعده إلى أن فَسَدَتْ الألسنة بكثرة المولّدين ، نظماً ونثرا ، عن مُسلمٍ أو كافر ، فهذه ثلاثةُ أنواع لابدَّ فيها من الثبوت » .

أما القرآن فكل ما ورد بأنه قُرِئَ به جاز الاحتجاجُ به فى العربية ، سواء كان متواترا أم شاذّا ، وقد أطبق الناسُ على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالِفْ قياسا معروفا (٢) .

تطبيق المبدأ على الحديث النبوى

ويتضح الوفاءُ لمبدئهم من أنهم لم يستشهدوا – فى اللغة – بكل كلام الرسول ، ورأوا أنّ كلامه إنما يُستدَلُّ منه « بما ثَبَتَ أنه قاله على اللفظ المروىّ ، وذلك نادرٌ جدا ، إنما يُوجَدُ فى الأحاديث القصار على قلّةٍ أيضا ، فإن غالب الأحاديث مروىٌّ بالمعنى ، وقد تداولتْها الأعاجم والمولّدون قبل تدوينها » (٣) . وهكذا لم تُستثْنَ أحاديثُ الرسول ولم تُعْفَ من أى شرطٍ من شروط حركة التنقية اللغوية ، فأىُّ شكٍّ فى بعضِ رواة الحديث كافٍ لأن يصبح الحديث خارجَ دائرة الكَلاَم الذى يُستَشْهَدُ به فى اللغة . ولقد كان ذلك مسلكَ متقدّمى اللغويين والنحاة كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسِيبَوَيْه من أئمة البصريين ، والكِسائى والفرّاء وعلىّ ابن المبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكُوفيّين ، وتبعهم على هذا المسلك المتأخّرون من الفريقين (٤) .

---

(١) يوهان فك ، العربية ٢٦ .

(٢) السيوطى ، الاقتراح ١٤ .

(٣) الاقتراح ١٦ .

(٤) الاقتراح ١٧ .

وكان طبيعيا ألا يُستثنى كلامُ العرب – وهو المصدر الثالث والأهم عند اللغويين – لأنهم احتجُّوا به على صحةِ ألفاظ القرآن – من نفس القاعدة، فرأوا الامتناعَ عن الاحتجاج بكل ما يُحتَمَلُ فيه وجود شيء من الفساد أو الاختلاط، ولم يكن عنصرُ الزمن هو الفيصل في ذلك، وإنما كان الشَّرْطان المتقدِّما الذكر هما الأساس، أعني المكانَ البعيد عن المؤثِّرات الخارجية، والثقافةَ العربيةَ الخالصة، فلمّا انعدمَ الشرطان في شعراءَ مثلِ عديٍّ بن زيد وأبي دؤاد وأميةَ ابن أبي الصلت – وهم جاهليون – ولما انعدما كذلك في شاعرين إسلاميَّيْن كالطِّرماح والكُميت، رفضُوا الاحتجاجَ بشعرهم أيضا، فلما فَشَا الاختلاطُ وانتشر اللحنُ وأصبحت العربيةُ تؤخَذُ تعلُّماً واكتسابا لا سَليقَةً وفطرة، وصار ذلك هو الشائع بين معظم الشعراء، وضَعَ اللغويون لأنفسهم حدّاً زمنيا يتوقفُون عنده عن الاحتجاج بأشعار الشعراء الذين يتأخَّرون عنه، ولم يكن الحدُّ الزمني يحمل معنَى التمييز بَيْن قديم ومحدث، وإنما كان يحمل – في حقيقة الأمر – دلالةً مكانيّةً ثقافيّةً معينة، فهم قد رأوا أن الزمنَ المتأخرَ ازدادَ فيه الاختلاطُ بين الشعوب المختلفة في المملكة الإسلامية، بحيث انعدم الشرطان السابقان، وبالتالي أصبح التهاونُ في شرط العُنْصُر الزمني تهاونا في شرط النقاء اللغوي الذي تطلَّبوه واشترطوه فيمن يُحْتجُّ بلغتهم، وذلك دون أن يلتفتوا – في هذا المجال بالذات – إلى المستوى الفنّي للشعراء، ودون أن ينصُّوا حقيقة على أن من رَفَضُوا الاحتجاجَ بأشعارهم كانوا أدْنى في درجة الشاعريّة ممن قَبِلُوا الاحتجاجَ بهم.

ويقول يوسف خليف: إنه «بقيام الدولة العباسية واستقرارِ الأوضاع في المجتمع الإسلامي الجديد، يبدأ العصرُ اللغويُّ الثالث، من حوالي الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة إلى نهاية هذا القرن ... في هذا العصر اللغوي الثالث كانت بواكير الحياة العقْلية قد أخذَتْ في الظهور ... وكانت حركةُ التنقية اللغوية قد بلَغَتْ أشدَّها بعد أن أصبحت الفصاحةُ أمراً غيرَ طبيعيٍّ في مجتمع انتشرت فيه العناصر الأجنبية وتغلغلت في مختلف ميادينه السياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية، في حين تراجعت العناصرُ العربية تراجُعاً ملحوظا بالنسبة إلى مراكزها في العصرين السابقين، وأخذ اللّحنُ في الظهور بصورة واضحة، ليس فقط في المجتمع العامِّ ولكن في المجتمع الأدبيّ أيضا، الأمر الذي دفعَ علماءَ اللغة والنحو إلى عَدَم الاحتجاج بالآثار الأدبية

للشعراء المعاصرين مهما تبلغ درجة فصاحتهم وسلامتهم اللغوية ، مبالغةً منهم فى الاحتياط ، وحرصا على صحة القواعد التى يضعونها والنتائج التى يسجلونها »[١] .

عدم التقيُّد بالعنصر العربى

ومما هو جدير بالذكر أن حركة التنقية اللغوية لم تُقِمْ وزنا لاعتبارات الجنس فى اختيار شواهدها وأمثلتها ، فحيثما توافرت شروط النقاء استمدَّ أصحابُ تلك الحركة شواهدَهم دون أن يُقيموا اعتبارات لجنس الشاعر ، وكثيرون أولئك الشعراء الذين كانوا من أبناء الإماء ، أو كانوا من أصولٍ أعجميةٍ صِرْفة ، ومع ذلك قُبِلُوا فى مجال الاحتجاج اللغوى ، ومن هؤلاء :

عَبْدُ بَنِى الحَسحَاس ، الذى جعله ابنُ سلام فى الطبقة التاسعة من الجاهليين [٢] وترجم له ابنُ قتيبة فى (الشعر والشعراء) [٣] وقال عنه : إنه كان حَبَشيًا مُعَلَّطاً قبيحا، ووصفه صاحب الأغانى بأنه كان عبداً أسودَ نُوبِيا أعجَميا [٤] .

وزياد الأعجم الذى كان مولى عبد القيس ، وكان ينزل اصطخر ، وكانت فيه لُكنة فلذلك قيل الأعجم [٥] .

وكذلك أبو دُلامة الذى كان مولى بنى أسد [٦] .

وأبو عَطاء السِّندى الذى كان عبداً أسود مَنْشؤُهُ الكوفة لايكاد يُفصح .. بين لثغةٍ ولكنة [٧] .

ومع هذا نجد ذلك النص فى (فحولة الشعراء) للأصمعى ، قال أبوحاتم :

---

(١) يوسف خليف (الشعر والحياة اللغوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة) ، المجلة ، العدد السادس يونية ١٩٥٧ .
(٢) طبقات ابن سلام ١٥٦ .
(٣) الشعر والشعراء ١ / ٣٦٩ .
(٤) الأغانى ٢٠ / ٢ ساسى .
(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٣٩٥ .
(٦) الشعر والشعراء ٢ / ٧٥١ .
(٧) نقلا عن اللآلئ - كما أورده محقق الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ / ٧٤٢ .

« وسألته عن زياد الأعجم ، فقال حُجَّة لم يتعلق عليه بلحن ، وكنيته أبو أمامة ، قلت فأخبرني عن عبد بني الحَسْحاس قال : هو فَصيح ، وهو زنجي أسود . قال : وأبو دُلامة عبد رأيته ، مولَّد حبشي ، قلت : أفصيحاً كان ؟ قال : هو صالح الفصاحة .. قال : وأبو عطاء السِّندي عبد أخرب مشقوق الأذن ، قلت : وكان في الأعراب ؟ . قال : لا ، ولكنه فصيح » (١) .

ذلك هو اعتراف أحد زعماء حركة التنقية اللغوية ، وواحد من الذين اتُّهموا بالتعصب ، بقبول لغة تلك الطائفة من العبيد .

ولا داعي للإطالة في هذا الصدد ، وحسبنا أن نذكر أن سيبويه قد استشهد بشعر سُحيم عبد بني الحسحاس (٢) واستشهد كذلك بشعر ابن ميَّادة – أحد من ختَموا بهم الشعراء – وكان هذا الأخير يزعم أن أمَّه فارسيَة (٣) .

وهكذا لم يكن هناك اعتبارٌ زماني بالمعنى المفهوم ، ولا حتى اعتبار مكاني لذاته يحول دون الاحتجاج النحوي واللغوي بالشعر المحدث ، وإنما وقفوا عند الشروط التي تُتيح لهم الحصولَ على شواهد اللغة النقية ونماذجها وهي الشروط التي كانت موضع احترام الجميع .

وكأنما كان هناك مايمكن تسميتُه بالطبقات اللغوية – أو المستويات اللغوية – للشعراء ، تقوم على درجة الاطمئنان إلى الاحتجاج بلغة الشاعر بصرف النظر عن مستواه الفني ، وهذا واضح مما قاله الأصمعي « قال .. وابن هَرْمة ثَبْتٌ فصيح ... قال: وابن أُذَيْنَة ثَبْت في طبقة ابن هرمة ، وهو دونه في الشعر » (٤) ، وكثيرا ما كانت الصفات التي يُفهم منها الغَضُّ من الشاعر إنما تعني رداءَة لغته ، بما يُخِلُّ بشرط صلاحيتها للاحتجاج ، قال أبو حاتم عن الأصمعي : « رأيته يطعن في الأُقيْشِر (شاعر إسلامي أموي) ولم يلتفت إلى شعره . قال : ولا يقال إلاّ (رَجُلٌ شُرَطِيٌّ) فقلت :

---

(١) الأصمعي ، فحولة الشعراء ، ٣١ ، ٣٣ .

(٢) البغدادي ، خزانة الأدب ١ / ٢٨٢ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١١٠ ، ٣٠٥ .

(٤) فحولة الشعراء ٣٢ ، ٣٣ .

قال الأقيشر :

إنّمـــا نَشْرَبُ من أمْوَالنَـــــا .·. فاسألُوا الشرْطِيَّ ما هَذَا الغَضَبْ

فقال : ذاك مولّد » (١) وكأن وصْفَ الشاعر - فى حديث الأصمعى - بأنه (مولّد) إنما كان يعنى انتماءه إلى الفئة التى لا يُحتّج بلغتها ، لا الفئة الرّديئة فنيًا ، وذلك ما يكمل إيضاحَه وصفُ الأصمعى لمَرْوان بأنه « كان مولّدا ، ولم يكُنْ له عِلْمٌ باللغة » (٢) . وان كان هذا لم يمنع من الاحتجاج ببعض أولئك المولّدين حيثما توافر عنصر الاطمئنان إلى لغتهم .

غير أن ماحدَثَ هو أن الدارسين المحدثين نظروا إلى توقُّف اللغويين والنحاة - فى الاحتجاج اللغوى - عند عصر معين ، أو شعراءَ معيَّنين فرأوا فى ذلك تعصُّبا ضدّ الشعر المحدَث ، وغضًا منه ، وتَبِع هذا خلطُهم بين روُح المحافظة فى اللغة فى مستواها العادى وقولهم - أو قول بعضهم - إن اللغة لا يُقاس عليها ، وبين كراهية التجْديد والإبداع فى كل النواحي والتعصُّب للقديم أيًا كان ، فَعَل ذلك نكُلْسن وفعله أحمد أمين ، وكذلك جُرونباوم وغيرهم .

ومن الأمثلة على هذا الخلط أيضا ما نجده فى حديث (بروكلمان) عن الأصمعى يقول : « ويؤكّد ابنُ جنّى فى الخصائص تعظيمَ الأصمعى للسّنّة والرّواية ، وكراهيتَه للبدْعة والرّأى ، ومن ثَمَّ كان يكره اختراعَ المعانى والعناية بالعروض » (٣) ، والواقع أن فهمَ بروكلمان لعبارة ابن جنى فى هذا الصدد واستنتاجَه منها كراهية الأصمعى للاختراع فى المعانى يمثل ذروة المشكلة التى وقع فيها الدارسون المحدَثون حين خلطوا بين منْع الاستشهاد فى اللغة والنحو بشعر المحدثين ، وبين التعصُّب ، كما أنهم خلطوا بين نزعة المحافظة فى اللغة فى مستواها المثالى النظرى ، وبين مقاومة الجديد بصفة عامة ، بما فى ذلك الاختراع فى المعانى .

---

(١) المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٢) الأغانى ١٠ / ٨٣ والموشح ٢٥١ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢ / ١٤٨ .

ويمثل فهمُ بروكلمان لعبارة ابن جنى فى الخصائص خَلْطاً من النوع الثانى، أعنى الخلطَ بين نزعة المحافظة فى اللغة والنحو وبين كراهية الاختراع والتجديد فى المعانى ، ففى الخصائص (باب فى أن ما قِيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) يقول فيه ابن جنّى : « إن الأصمعيَّ ليس ممّن ينشط للقياس ، ولا لحكاية التعليل » (١)، ويحكى عن الخليل بن أسد النّوشَجانى قال : « قرأت على الأصمعى هذه الأرجوزة للعجاج (ياصَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسا)، فلما بلغت (تَقَاعَسَ العِزُّ بنا فاقْعَنْسَسَا) قال لى الأصمعى : قال لى الخليل : أنشدنا رجلٌ (تَرَافَعَ العِزُّ بنا فَارْفَنْعَعَا) فقلت : هذا لا يكون ، فقال : كيف جازَ للعجّاج أن يقول : تَقَاعَسَ العِزُّ بنا فاقْعَنْسَسَا، ولا يجوز لى » (٢) ، ويقول ابنُ جنّى عن الخليل : إنه كان معروفا بقلة ابتعاثه فى النظر وتوفُّره على ما يَروى ويحفظ ، وتؤكّد هذا عندك الحكاية عنه وعن الأصمعى ، وقد كان أرادَه الأصمعى على أن يعلِّمَه العروض فتعذَّر ذلك على الأصمعى وبعُدَ عنه فيئس الخليل منه (٣) .

ومع أن ما أشار إليه بروكلمان من حديث ابن جنى عن الأصمعى لايحتمل كل ما فهمه منه ، فإننا نذكر أن الأصمعيَّ وكثيرين غيره من اللغويين كانوا على القول بأن هناك جوانب فى اللغة لا يقاس عليها ، وزاد الأصمعيّ إلى ذلك – وإن لم ينفردْ به أيضا – كراهيةَ تفسير القرآن بالرأى ، ويقول المبرِّد : إن الأصمعى كان لايُنشِد ولا يفسِّر ما فيه ذكر الأنواء ، لقول الرسول (صلعم) إذا ذكر النجوم فأمسكوا ... وكان لا يفسِّر شعرا يوافق تفسيرُه شيئا من القرآن ، هكذا يقول أصحابه (٤) .

وبالإضافة إلى ذلك فنحن نعرف موقفَ الأصمعى من أبى عبيدة فى تأليف الأخير لكتاب (مجاز القرآن) ، وأن الأصمعيَّ رأى أن عمله هذا يعد تفسيرا للقرآن بالرأى (٥)، وهو مبدأ لم يكن يُقره الكثيرون ، حيث كانوا يرون أن التفسيرَ الأمثل

---

(١) ابن جنى ، الخصائص ١ / ٣٦٢ .

(٢) ابن جنى ، الخصائص ١ / ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٣) الخصائص ١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٤) الكامل ٤٤٩ ط . وليام رايت .

(٥) نزهة الألباء ٧٣ .

للقرآن هو ما أُثِرَ عن الرسول (صلعم)، وبالتالى كانوا يتحرَّجون فى تفسير القرآن بالرأى واشتهر الأصمعى بهذا التحرُّج، ويقول ابنُ خلّكان فى ترجمته إنه «كان شديد الاحتراز فى تفسير الكتاب والسنة، فإذا سُئِلَ عن شيء منهما يقول: العرب تقول: معنى هذا كذا ولا أعلم المرادَ منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو» (١).

وكما قلت، كان ذلك موقف الكثيرين – وإن لم يدلّ على شىء من رجعية الفكر، بل إن من المؤلِّفين من يرى أن ذلك الموقف من الأصمعى لم يكن حقيقيا، وإنما كان نِكايةً من الأصمعى فى أبى عبيدة (٢)، أما الأخير فقد رأى أنَّ القرآن نصٌّ عربى يجرى على سنن العرب فى كلامهم، ومن هنا فسّر القرآن وعدته الأولى الفقه بالعربية وأساليبها (٣). على أى حال كان الأصمعى وغيرُه من اللغويين مثل الأخفش – الذى تمنىٌّ لو ضربَ أبا عبيدة بسبب تأليف مجاز القرآن – يظهرون كراهية التفسير بالرأى، وكما قلتُ لم يكن مثلُ هذا المسلك يدلُّ على شىء من الرجعية فى الفكر، وإنما كان يخضع لرأيٍ عامٍّ ذِى نظرةٍ خاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن بالذات.

ولا شك أن بروكلمان قد أسقَطَ تصوُّره لموقف الأصمعىِّ فى هذه الناحية على تفسيره وفهمه لعبارة ابن جنى فى الخصائص، وإلاّ فهى لا تحمِل أى معنى يدل على محافظة الرجل فى غير مجال تنقية اللغة وتفسير القرآن، وكثير من حديث ابن جنى ينصب على محافظة الخَليل بن أحمد وذهابه إلى القول بأن اللغه لا يقاس عليها، فهو – كما قلت – رأىٌ لاينفرد به الأصمعى، ثم هو لايستوجب الوصفَ بكراهية التجديد فى كل النواحى على نحو ما فعل بروكلمان.

وإلى نفس هذا المنحى تقريبا ذهب جرونباوم، وذلك فى تصريحه بأن علم اللغة كان بمَثابَةِ العامل المُحافِظِ فى الأدب، وأنّ القلق على الوضع الأدبى الناجم عن تلاشى الصلة ما بين أهل المدينة ولغةِ البَدْوِ الفُصْحى شجع على المضى فى الاتجاه

(١) نقلا عما أورده محققا فحولة الشعراء للأصمعى ص ٨٢.

(٢) راجع: ياقوت الحموى، إرشاد الأريب ٧ / ٢٦١.

(٣) راجع ص ١٦ من مقدمة محمد فؤاد سزجين لتحقيقه لمجاز القرآن.

التقليدى [١] .

على أن النوع الآخر من الخلط الذى وقع فيه المحدثون ، والذى يمثل العنصر الأوضح فى الصورة ، هو خلطهم بين عدم الاحتجاج بالشعر المحدث والتعصّب ضد هذا الشعر ، على الرغم من اعترافهم بوجود اعتبارات لغوية وراء التنويه بالشعر القديم .

ومن أمثلة الفهم لإعلاء اللغويين من شأن الشعر القديم كمصدر للغة النقية على أنه تعصب لذلك الشعر ضد شعر المحدثين ماذهب إليه أستاذنا شوقى ضيف فى حديثه عن دور اللغويين فى المحافظة على اللغة والعمل على بقائها نقية سليمة ، فهؤلاء العلمـــاء « كانوا حراساً أمناء على العربية ، فوضعوا قواعدها ودقائقها وجمعُوا شعْرها القديم واتّخذوه مثلاً أعلى للفصاحة والبيان وظلّوا يذودون عنها ذياداً قويا متعصبين للجاهليّين تعصُّبا شديدا ، فهم الشعراء حقا ، وغيرهم عالةٌ عليهم ، بل لقد أهدروا شاعرية معاصريهم ولم يجعلوا لشعرهم حُرمةً ولا فضلا ، إن قالو حَسناً فقد سُبِقُوا إليه ، وإن قالوا قبيحا فمن عندِهم ، ومنعوا الاحتجاجَ بشعرهم ، فهم لايحتجُّون فى مسائلهم النحويةِ ، واللغوية إلاّ بعرب البادية » [٢] .

هكذا ، تحت سيطرة فكرة التعصُّب للقديم وما نتج عنها من تصور جرْىِ الشعراء وراء هذا القديم ، تتحول عملية استمْداد الشواهد اللغوية والنحوية من الشعر القديم إلى تعصب لذلك الشعر ، ثم يتحول ذلك التعصب إلى إهدار لشعر المحدثين ، وتكون النتيجة هى الجرْى فى ركاب القديم .

والواقع أن تلك الحركة إنما كانت تريد نماذجَ خاليةً من الخطأ اللغوى ومن كلِّ عوامل التأثير الأجنبية . وكانت المؤثِّراتُ الأجنبيةُ قد ازدادت وتراكمت فى

(١) جوستاف فون جرونباوم ، (نشأة الشعر العربى وتطوره) بحث ترجم إلى العربية ونشر ضمن مجموعة أبحاث أخرى بعنوان دراسات فى تاريخ الأدب العربى ١٤٣ - هذا مع أن جرونباوم قد تنبّه إلى الوظيفة اللغوية لذلك الفريق من النقاد كالأصمعى ، راجع بحثا لنفس المؤلف بعنوان (النقد العربى فى القرن العاشر) ص ١٠٦ .

(٢) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٢٥ .

البيئة الحديثة ، فبدأ أصحابُ حركة التنقية اللغوية - والذين كانوا نقّادا من ناحية أخرى - يتحفّظون فى قبول نماذج الشعراء الإسلاميين ، واضطروا إلى رفض بعضها، لا لأنها متأخرةٌ زمنيا ولكن لأنها فقدت صفةَ النَّقاء والخلوّ من الشوائب الدخيلة ، وبمرور الوقت ، وتزايُد احتمال وجود التأثير الأجنبى فى لغة الشعراء اضطرَّ اللغويون إلى وضع حدٍّ زمنى - كان محلَّ اختلاف - للفترة التى لايجُوز الاحتجاجُ بشعرِ الشعراءِ المتأخرين بعدها . وكما أوضحتُ من قبل ، لم يكن المقصودُ فاصلا زمنيا بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت للزمنِ دلالتُه بالنسبة لعوامل التأثير الأجنبّى التى كانت تتزايد بمُرورِ الوقت. وهكذا أصبح التقُّدمُ فى الوقت دليلا على النقاء اللغوى .

والدليل على أن التقدمَ الزمنيَّ لم يكن مقصودا لذاته أنّ اللغويين الذين أُشيعَ عنهم - خطأً - حبُّ القديم والعزوفُ عن الجديد ، رفضوا الاحتجاج بشعر قبائلَ بأكملها فى الجاهلية ، ولو كان العاملُ الحاسمُ هو عامل الوقت حقيقة ، لما كان هناك محلٌّ للاستثناء ، لكنّ ما نقله السُّيوطى عن الفارابى وما ذكره ابنُ جنّى يوضّح أن عدد القبائل التى استُثْنِيَ شعرُها من الاحتجاج بالشعر الجاهليّ ، كان كبيرا ، وكان السببُ وراء استثنائها عدمَ توافر شرطِ النقاء اللغوى لاغير ، وكان فُقدانُ هذا الشرط نفسه وراءَ عدم الاحتجاج بشعر الطِّرِمّاح والكميت من الإسلاميين - الذين قبلوا الاحتجاج بشعرهم - وكان انعدامُ هذا الشرط أيضا هو السبب فى توقُّفهم عن الاحتجاج بشعر المحدثين عند فترة معينة كان من الصعب بعدَها الاطمئنانُ إلى خُلوصِ لغة الشعراء من المؤثِّرات الأجنبية .

على أن أولئك الشعراء الذين رُفض الاحتجاجُ بأشعارهم على المستوى اللغوى - ومنهم الشعراء المحدثون - كانوا يتمتعون بكل آيات التقدير التى كان يحظى بها الشعراء الآخرون ممّن قُبِلُوا لغويا ، وذلك حين يُدير الناقد ظهره إلى اعتبارات النقاء اللغوى ، ويولِّي وجهَه شطرَ العناصر الفنية الحقيقية فى الشعر . وهذه الحقيقة وحدَها هى التى تفسِّر قبول الاحتجاج بشعر الطِّرِماح والكُميت على المستوى البلاغى والأساليب البيانية ، وكذلك الاحتجاج بشعر المحدثين كبشّار وأبى نُواس فى نفس هذه المجالات ، وهى وحدَها أيضا التى تفسِّر صدورَ الهجوم ضد الشعر الحديث وصدور الثناء عليه والتنويه به على لسان العالم الواحد .

٢ – الشّعر القديم كوثائق للمعلومات

وانطلاقًا من المهمّة السابقة – مهمّة التنقية اللغويّة – إلى مهمّة أخرى من المهامّ التى اضطلع بها قُدامى النقّاد دون حاجة إلى شواهدَ من الشّعر المحدَث ، يقابلنا حديثُ الجاحظ الذى سبقت الإشارةُ إليه : « ولم أرَ غايةَ النحويّين إلا كلَّ شعرٍ فيه إعراب ، ولم أر غايةَ رواة الأشعار إلا كلَّ شعرٍ فيه غريبٌ أو معنى صعبٌ يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أرَ غايةَ رواةِ الأخبار إلا كلَّ شعرٍ فيه الشاهدُ والمثَل » (١) .

وقد فرغنا من القول فيما سُمِّىَ حديثا بـ (حركة التنقيةِ اللغويّة) ، وقد اضطلع بها – فيما رأينا – أصحابُ النحو واللغة ، وهم الذين يشملهم حديثُ الجاحظ عن النحويّين ، كما يشمل جانبًا من نشاط من أطلقَ عليهم (رُواة الأشعار) الذين نسب إليهم الاهتمام بالغريب والمعانى الصّعبة ، وهنا نصلُ إلى فريق آخرَ هم الذى أطلق عليهم الجاحظ (رواةَ الأخبار) ، وقال إنّ غايتهم هى : (كلُّ شعر فيه الشّاهدُ والمثَل) ، ولابدَّ أن يكونَ المقصودُ فى حديثه تلكَ الشّواهدَ والأمثلة التى تتخذ وثائقَ تحمل وقائعَ التاريخ وحوادثَه وأيام العرب وأنسابهم ، وسائر أنواع المعلومات عنهم ، وهذه وظيفة أخرى استُغِلَّ فيها الشّعرُ القديم دون أن يكونَ في استخدامه أدنى شبهةٍ من عصبيّة على شعر المحدثين .

وفى هذا الصدد يصادفنا تصريح لأبى عمرو بن العلاء يربط فيه بين الشعر والعلم – بمعنى المعرفة – يقول أبو عمرو : « ما انتهى إليكم مما قالت العربُ إلا أقلّه ، ولو جاءكمُ وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير » (٢) ويقول ابنُ سلام ناقدًا أخطاءَ ابن إسحاق فى الرواية : « فلو كان الشعرُ مثلَ ماوُضع لابن إسحاق وماروَى الصُّحُفيون ، ما كانت إليه حاجة ولافيه دليلٌ على علم » (٣). وهكذا نراه يصرّح بأن الشعرَ كان « فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون » ، ثم يورد كلمة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – : « كان الشعر علم قوم

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

(٢) طبقات ابن سلام ١ / ٢٥ .

(٣) نفس المرجع ١ / ١١ .

لم يكن لهم علم أصحّ منه » (١) .

وحول هذا المعني يقابلنا حديثُ يونس عن الفرزدق : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » ، كما يجيء وصف أبي عبيدة للفرزدق بأنه « راويةُ الناس وصاحب أخبارهم » (٢) . ليصادفنا هذا الربط بين رواية الشعر والعلم بالأخبار والأنساب – مرة أخرى – لدى الجاحظ الذى يوردُ قول أبي الحسن المدائني (ت ٢١٥) : « أربعةٌ من قريش كانوا رواةَ الناسِ للأشعار وعلماءَهم بالأنساب والأخبار ... » (٣) ، ممّا سوّغ مثلَ قول أبي هلال : إننا « لانعرف أنسابَ العرب وتواريخَها وأيامَها ووقائعَها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوانُ العرب وخزانةُ حكمتها ومستنبط آدابها ومستودعُ علومها » (٤) ، كما سوّغ ماصرّح به المرزوقى من أن « الله عزّ وجلّ قد أقامه [يعنى الشّعر] مقام الكتب لغيرها من الأمم ، فهو مستودعُ آدابها، ومستحفَظُ أنسابها ونظام فخارها يوم النفار وديوان حجاجها يوم الخصام » (٥) .

لنتذكر – إذن – كلَّ هذه النصوص فى الإشارة ، أو التصريح بأن شعر العرب القديم كان مستودعَ تاريخهم وثقافتهم ، بالمعنى الواسع للتاريخ والثقافة ، ولنتذكّرْ مسلكَ الجاحظ فى كتاب (الحيوان) وعدَّهُ الشعرَ العربيَّ مصدراً هامًّا من مصادر معلوماته ، ولنتذكرْ كلامه الذى قدّمنا به لهذه الفقرة فى تقسيم اهتمامات الرواة – إلى نحو ولغة وأخبار –وهو ما كرّره فى أكثر من موضع ، مصرّحًا بأن من الرواة من يقصر همّه على معرفة الأخبار والأنساب والأيّام (٦). لنتذكر كل ذلك لنتأكد من وجود هذه الغاية وراءَ رواية الشّعر القديم ، أعنى معرفَة تاريخ العرب القدماء وأنسابهم، وهى كما نرى ، غاية لا يصلح لتحقيقها الشعر المحدث ، وبالتالى فإن الانصراف عنه – فى هذا المجال المحدّد – إلى أشعار القدماء لايحمل أدنى شبهة من التعصب على المحدثين لصالح القدماء .

(١) طبقات ابن سلام ١ / ٢٤ . والعمدة ١ / ٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٣٢٣ .

(٤) الصناعتين ١٤٤ .

(٥) مقدمة المرزوقى لشرحه على الحماسة ١ / ٣ .

(٦) العمدة ٢ / ١٠٥ .

٣ – المهمة النوعيّة للرّاوية :

هكذا كانت روايةُ الشّعر القديم عمليةً ضرورية فرضتْها – فى مجال اللغة والنحو – ملابساتُ الحاجة إلى الشواهد النقيّة التى ارتبط نقاؤها بقدمَ الشعر المستشهَد به ، كما فرضتها طبيعة الحاجةِ إلى الشعر القديم باعتباره وثائقَ مشتملة على تاريخ العرب وجوانب حياتهم المختلفة ، فى الجاهلية على وجه الخصوص ، وقد رأينا أنه فى كلا المجالين لم يكن لاستخدام الشعر القديم أدنى دلالةٍ على التعصّب على الشعر المحدث .

ونضيف هنا – وبعيداً عن الوظيفتين السابقتين اللتين اتخذتْ مادّتهما من الشعر القديم – أنّ ظاهرةَ الرواية بمعناها المطلق ، بعيداً عن توظيف الشعر المرويّ لغرض معرفيّ ، هذه الظاهرة كانت نتاجًا طبيعيا لوجود التراث الضخم من جهة ، ولتخلف وسائل الكتابة والتدوين من جهة ثانية ، الأمر الذى أوجد ظاهرة الرواية كوسيلة للاحتفاظ بذلك التراث ونقله إلى الأجيال اللاحقة أقربَ ما يكون الى صورته الأصلية الصحيحة .

من هنا جاءت الدراسات التى تعمل على تحصين عملية الرواية من محاولات الإخلال بصحة المرويّ وسلامة نسبته إلى أصحابه ، فكانت الوقفة العظيمة التى وقفها ابنُ سلام فى مقدمة طبقاته فى مواجهة انتحال الشعر ووضْعه والخطأ فى الرواية وتشويه المرويّ ، فقد صرّح بأنه « فى الشعر مصنوع مفتعل كثير لاخير فيه ... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحدٍ إذا أجمع أهلُ العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىءٍ منه أن يقبل من صحيفة ولايروى عن صحفى ،فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه[1].

لنلاحظ هنا المقابلة بين كون الشّعر متداولاً من كتاب إلى كتاب ، مأخوذًا عن الصّحف ومرويًا عن الصحفيّين من ناحية ، وكونه مأخوذًا عن أهل البادية قد عُرِضَ على العلماء وأهل الرواية الصحيحة من ناحية ثانية ؛ فالأول مفتعل مصنوع لاخير فيه ، والآخر متفق عليه موثوق به ، من هنا كان مايتردّد فى أخبار الثقات من الرواة من

(١) ابن سلام ١ / ٤ .

مدحهم بالحفظ والصدق ، وصحة الرواية ، وعدم الأخذ عن الصّحف ، وعلى سبيل المثال ، يقول مكى بن سوادة فى أبى عمرو بن العلاء :

الجامعُ العلمَ ننساهُ ويحفظُهُ ∴ والصادقُ القول إنْ أنداده كذبوا

ويقول ابنُ سلام عن خلف : « كنا لانبالى إذا أخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا ألا نسمعه من صاحبه » (١) . ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن خلفًا الأحمر قد طلب من أبى نواس أن يرثيه - وهو حى - ليرى ما يقول فيه ، فقال الشاعر (ضمن أبيات) :

كنّا متى مانَدْنُ منه نغترفْ ∴ روايةً لاتُجتنى من الصُّحفْ (٢)

فلما ماتَ خلفٌ فعلاً كان مما قاله فيه أبو نواس :

لا يَهِمُ الحاءَ فى القراءةِ بالخا ∴ ءِ ، ولا لامَهَا مع الألفِ

ولايعمّى معنى الكلام ولا ∴ يكون إنشادُهُ من الصّحف (٣)

ومن هذا القبيل قول أبى جعفر القرطبى « مارُئِىَ فى يد ابن الأعرابى كتابٌ قط » (٤).

ذلك هو منتهى الإطراء - مدحًا أو رثاء - إطراء العالم بأنه لا يأخذ معلوماته عن الصحف ولايعتمد على النقل عن كتاب ، لماذا ؟ لأنّ الكتابة - حتى ذلك الوقت - لم تكن محلّ ثقة من المثقّفين ، إذْ كانت مظنّةً لوقوع التصحيف والخطأ فى القراءة ، وفى أخبار أولئك العلماء أمثلةٌ كثيرة لما وقع فيه كثيرٌ منهم من صور التصحيف والتحريف بسبب الاعتماد على الكتابة دون التلقّى والمشافهة ، ولعلّ من المناسب هنا أن نستأنس بما هو معروف عند علماء القراءات القرآنية من ضرورة أخذها مشافهة وتوقيفا وعدم الاقتصار على ماهو مكتوب فى المصحف .

---

(١) ابن سلام ١ / ٢٣ ، وإرشاد الأريب ١١/ ٦٧ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتزّ ١٤٨ ، وفى الديوان ٥٧٧ باختلاف يسير ، وينظر : الشعر والشعراء ٢ / ٧٨٩ .

(٣) الديوان ٧٥٦ ، إنباه الرواة للقفطى ١ / ٣٥٠ .

(٤) الأغانى ٦ /٧١ ، ويتكرر فى ٩٣ .

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الملابسات هى الاعتزاز بالحفظ وكثرة الرواية إلى حدّ المبالغة ، فزعم حمّاد الراوية – وقد سأله الوليد بن يزيد عن محفوظه وما استحقّ به لقب الراوية – أنه ينشد « على كلّ حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام » (١) ، وزعم مرة أنه يروى « سبعمائة قصيدة أول كلّ منها (بانت سعاد) » (٢) . أما الأصمعى فقد أُثِر عنه قوله : « أحفظ عشرة آلاف أرجوزة » و « قال أبو عبدالله بن الأعرابى : شهدتُ الأصمعى وقد أنشدَ نحواً من مائتى بيت مافيها بيتٌ عرفناه » (٣) ، أما ابن الأعرابى نفسه فيقول لتلميذه ثعلب : « أمليتُ – قبل أن تجيئنى يا أحمد – حملَ جمل » (٤) .

أما عائد كل هذا المحفوظ وهذه الرواية فهو – بصرف النظر عن المبالغة – شرحُ الأشعار وتفسير غامضها وتمييز بعضها من بعض : القديم من المحدث ، المأخوذ من المأخوذ منه ، الجيد من الردىء .. الخ ، وتلقانا فى أخبار حمّاد والأصمعى – على سبيل المثال – نماذجُ غيرُ قليلة من التعرّض للأشعار بالشرح والتفسير ، كما أنّ ترتيب ابن سلام لطبقاته يحمل – دون شك – حكما تقويميًا على شعراء كلّ طبقة . ويُدلُّ حماد فى حضرة الوليد بن يزيد بكثرة محفوظه وروايته، ويقول : إننى « لا أُنشَدُ شعراً قديمًا ولا محدثًا إلا ميّزتُ القديمَ منه من المحدث » (٥) ، وذكر مروانُ بنُ أبى حفصة أنه رأى حمّاداً فى مجلس الوليدين يزيد « وكلّما أنشدَ شاعرٌ شعراً وقفَ الوليدَ بن يزيد ... على بيت بيت من شعره ، وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعر » (٦) .

أما خلف الأحمر فإنه يُدلُّ بمكانه من نقد الشعر وتمييزه ، وهو صاحب المماثلة

---

(١) الأغانى ٦ / ٧١ ، ويتكرّر فى ص ٩٣ .

(٢) الأغانى ٦ / ٩٢ .

(٣) نزهة الألباء ١١٤ ، وفى سرعة حفظ الأصمعى ودقته انظر ص ١٢١ .

(٤) نزهة الألباء ص ١٥١ .

(٥) الأغانى ٦ / ٧١ .

(٦) الأغانى ٦ / ٧١ .

بين عمله فى نقد الشعر وعمل الصرّاف فى تمييز النقود ، وقد استغل الإقرارَ له بسعة العلم بالشعر فى تأكيد معرفته بالعلّة وراء رفض ما يرفض وقبول ما يقبل من الشعر دون أن يبدى السّبب فى ذلك (١) ، وبهذا استحقّ وصفَ معاصريه له بأنه : « أفرسُ الناس ببيت شعر » (٢) .

كذلك وُصف الأصمعى بأنه فى منزله خلف من العلم بالشعر ، وربما فضّله بعضهم عليه ، كما نُسب إلى الرشيد أنه أطلق عليه (شيطان الشعر) لسعة علمه به وقدرته على فهمه وتبيّن المقصود منه (٣) .

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالٌ عمّا إذا كانت عنايةُ أولئك الرواة مقصورةً على أشعار القدماء ؟ ويجيء على الفور الجوابُ بالنفى استناداً إلى مامرّ بنا من احتفالهم بشعر المحدثين وروايته وحفظه ودَرْسه ليردَ - مرةً أخرى - سؤالٌ عن السبب فى اقتران الحديث عن الروايةِ بأشعار القدماء دون شعر المحدثين ، وهو ما كان وراء الاعتقاد بعصبيّة أولئك الرواة لأشعار القدماء على الشعر المحدث .

وهنا لايتعدّى الجوابُ تفصيل ما أطلقنا عليه طبيعة (المهمّة النوعية للراوية)، بمعنى الوظيفة الحقيقية أو الدّور الحقيقى للرّاوية ، ولايتعدّى هذا الدورُ بمفهومه المطلق دور الواسطة أو المعبر بين مصدر الشعر ومتلقّية ، ومصدر الشعر هو الشاعر ، أو راويه المباشر ، أو سلسلة رواته إنْ كان مُوغلاً فى القدم ، وتنحصر مهارةُ الراوية وقدراته فى تحصيل أكبر قدر من الأشعار يُفترض فيها أن تكون قديمة وربما نادرة ، ليدخلها ضمن مرويّاته ، مباهيا بانفراده - إن أمكن - بروايتها ومعرفة غريبها ومعناها . وهذا هو معنى قول الجاحظ : « ولم أر غايةَ رواة الأشعار إلا كلّ شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلي الاستخراج » (٤) ، وهو نفسه ماصرّح به الباقلاني في حديثه عن مذاهب (أهل الصنعة) فى اختيار الكلام ، فقد « يختار قومٌ ما يغمض معناه ويغرب لفظه » ،

---

(١) ابن سلام ١ / .

(٢) ابن سلام ١ / ٢٣ . وياقوت ١١ / ٦٧ .

(٣) نزهة الألباء ١١٣ ، ١١٤ .

(٤) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

« الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم وإظهار التقدّم في معرفته وعجز غيرهم عنه » (١) .

ومع أن الحصرَ في كلام الجاحظ قد ينطوي على مبالغة ، كما أن رواةَ الغريب، أو مَنْ يختارونه في كلام الباقلاني ليسوا هم جميع الرواة ، مع ذلك تظلّ هناك حقيقة لاجدال فيها وهي اعتزازُ الرّاوية - بحكم مهمته - برواية الغريب والنادر ومالاتتاحُ معرفتُه وفهمُه لكل أحد ، وهذا هو السرّ في اعتزازهم برواية القديم والإعلان عن ذلك والتباهي به ، بحيث اقترنَ عملُ الرّاوية - كما سبق القول - برواية القديم ، فخيِّل للكثيرين أنّ ذلك المسلك هو صدى لعصبيةٍ منهم على شعر المحدثين، بينما الحقيقة خلافُ ذلك .

كانت الحقيقة - وهذا أمر منطقي أنّ أولئك الرّواةَ لم يستشعروا كبير قيمة ، وربمّا كبير خدمة يؤدّونها إلى معاصريهم ، برواية الشّعر المحدَث ، لاعصبيةً عليه كما فهم الدارسون في عصرنا الحديث ، وإنما لأنه موجودٌ ومتاحٌ للجميع وفي متناولهم ، وهذا هو الموقف الذي يكشف عنه مسلكُ المبردّ مع معاصره ، وصديقه ، البحتريّ ، وسبق أن رأينا مدى احتفاء المبرّد به وتنويهه بشاعريته ، لقد تساءل الأستاذ عبدالخالق عضيمة - في دهشة - عن السبب الذي من أجله خلا كتابُ (الكامل) للمبرِّد من شعر للبحتري ، مع ما كان بينهما من الصداقة والألفة (٢) ، وقد أجاب المبرِّدُ نفسه عن السؤال ، وأزال الدهشة ، وبيّن السبب ، جاء في كتاب (الموازنة) : «أخبرنا أبو الحسن الأخفش ، قال : سمعتُ أبا العباس محمد بن يزيد المبرّد يقول : ما رأيت أشعرَ من هذا الرجل - يعني البحتري - ولولا أنه ينشدني كما ينشدكم لملأتُ كتبي وأماليَّ من شعره » (٣).

ومعنى (ينشدني كما ينشدكم) أن البحتريّ كان باقيا في زمانه ، وأنّ المبرّد - لهذا السبب - لم يكن ليجد كبير فائدة في رواية شعره وإملائه ، لأن موقف

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١١٧ .

(٢) المبرّد حياته وآثاره ص ٥١ .

(٣) الموازنة ١ / ٢١ ، ٢٢ ، وانظر (أخبار البحتري) حاشية المحقق ص ٥٠ ، ٥١ .

معـاصريه لايختلف عن مـوقفه في مـعرفة شـعر البحـترى وروايته ، وبالتـالى فليس ثمة مايغرى من زاويـة عملية – معرفيّة أو فنيّة – برصده وتسجيله ، أو التباهى بذلك ، وإن كان حافظا له متذوقًا ومقدرًا .

ويبدو أن ذلك المسلك ، ولنفس السبب ، هو الذى كـان غالبا على الرواة ، مما جعل ابنَ رشـيق – وقد انزلق إلى اتهـامهم بالتعـصّب – يقول عن أبى عمـرو بن العلاء وأصـحـابه – كـالأصـمـعى وابن الأعـرابى – : « إن كلّ واحـد منهـم يذهب فى أهل عـصره هذا المـذهب ويقدّم مَنْ قـبلهم » (١) ، وبذلك فـسّر توقفـهم عن رواية أشعـار معـاصريهم – أو ما يحكى عن ذلك – بالـتعصّب عليـها وتقديم غـيرها . وليس لذلك أساسٌ من الحـقيقة ، فـقد سبق أن رأينا تقدير أبى عـمرو لبشّار ، وتقدير الأصـمعى له ولأبى نُواس ، وتقدير ابن الأعـرابى لأبى العتـاهية ، وإسحـاق الموصلى، وأبى نواس ، الذى كـتم روايتـه لـشعـره وأخـفى مـا سـجّل منـه ، لا لشيء إلا لأن رواية أشـعـار المعـاصرين لم تكن مدعاةً لافـتخارهم من حيث إنهم رواة ، أو – إن شـئنا الدقة –لم تكن رواية أشعار المحدثين محكًا لإظهـار كثرة المحفوظ من الغريب والنادر غير المعروف للجميع (٢)، وإنما كانت مظنة ذلك هى رواية الشّعر القـديم التى يتحقق بها وحدها المهمةُ النوعيةُ للرّاوية ، دون أن يعني ذلك تعصبا على الشعر المحدث أو غضًا منه .

٤ – اعتبارات شخصية

قلتُ في كلمـة التمـهيـد : إنّ من الشّروط الأسـاسيّة لقـراءة التراث النقـدى أن تؤخذ فى الاعتبار كلُّ العوامل المحيطة بنصوص ذلك التراث،بغيةَ الوصول إلى الدلالة الصـحيـحة التى قـد تكون وراءَ هذه النصـوص ، ويخطئ خطأً جسـيمـا مَن يدخلُ إلى دراسة التـراث العربى من مدخل التـسليم بكلّ ما يُقال ، أو قـبول دلالته على وجهـها ، ولنا فى مسلك ابن سلام –قبل تزيّدات الدارسين المحدثين –مثلٌ رائع فى الاحتراس

(١) العمدة ١ / ٩٣ .

(٢) تذخر كتب الأدب – كالأغـانى – بالحكايات عن استقدام الخلفاء والحكّام للرواة من أمثـال حمّاد والمفضّل والأصمعى ، لسؤالهم عن أمور تتصل بالشعر القديم ، مثل نسبته أو مناسبته ، أو شرح معناه وتفسير غريبه .. الخ .

من تدخل الأهواء ودوافع المنافسة بين الأفراد والعشائر في توجيه الحكم بالقبول والرفض .

وقد كان ذلك المسلكُ منه اعترافا بـأنّ وقائعَ هذا التراث وأخبارَهُ قد تُنوقِلَتْ بين أفراد أو جماعات لكلٍّ منهم أهواؤه ومواقفُه الخاصّة البعيدةُ عن العلم أو الفنّ ، وأن هذه الأهواء وتلك المواقف غير الفنيّة قد انعكستْ بالضرورة على مواقف العلماء والشعراء بعضهم من بعض ، متّخذةً - في الظاهر - طابعَ الرأى العلميّ أو الحكم الفنّي .

من ذلك - مثلا - ما يُروى عن المنافسة بين أبي عبيدةَ والأصمعى وانتقاد الأصمعيّ تأليفَ أبي عبيدة لكتابه (مجاز القرآن) [1] ، ومنه ما سبقت الإشارة إليه من أسباب تحامل الأصمعى على الفرزدق مما دفعه إلي القول بأن تسعةَ أعشار شعره سرقة. وقد اعترف الصولى بأن من عائبي أبي تمام « مَنْ يجعل ذلك سببا لنباهةٍ ، واستجلابًا لمعرفة - إذ كان ساقطًا خامــلاً .. ليجرىَ له ذكر فى النقص إذْ لم يقع له حظٌ فى الزيادة ، ومكسبٌ بالخطأ إذْ حُرمه من جهة الصواب » [2] . كما تحدث مؤرخو النقد عن طعن دعبل بن عليّ الخزاعى على أبى تمام ، وذكر عليُّ بنُ الجهم أنه « كان يكذبُ على أبي تمام ويضع عليه الأخبار » [3] وقد نسبوا إليه قوله : « لم يكن أبو تمام شاعرًا ، إنما كان خطيبا » [4] .

وقد يمكن القولُ بوجود شبهات من عصبيّة غير فنية - عرقيّة مثلاً - وراء أحكام تحمل طابعًا فنيًا ، على نحو ما نجد فى مقدمة (البديع) لابن المعتزّ ، من تأكيده على أن المحدثين من أمثال بشّار ومسلم وأبى نواس لم يخترعوا البديع ولم يسبقوا إليه ، إذْ كان موجودًا فى أشعار القدماء وفى كتاب الله وحديث الرسول صلىّ الله عليه وسلم .

لقد كان أخذُ مثلِ هذه الظروف فى الاعتبار كفيلاً بإلقاء الضوء على بعض

---

(١) نزهة الألباء ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك - أخبار أبى تمام ص ٢٨ .

(٣) أخبار أبى تمام ص ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ .

(٤) أخبار أبى تمام ص ٢٤٤ .

المواقف التي حُملت على محمَل التعصّب على المحدثين، دون أن يكون لها في – حقيقة الأمر – أدنى صلة بهذا الموقف.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يُحكى عن موقف الأصمعي من إسحاق الموصلي، وهو الموقف الذي اتُّخذ دليلا على تعصّب الأصمعيّ ضدّ المحدثين قاطبةً، وتقول الروايةُ إنّ إسحاق قد عرضَ على ذلك الناقد بيتين من إنشائه قدّمهما له على أنهما لبعض القدماء، وأن الأصمعيّ استحسنهما على هذا الأساس، ثم رجع عن حكمه عندما عرف أنهما لإسحاق (١).

وكما سبق القول كان ذلك الموقفُ هو الدليل على تعصُّب الأصمعي، لا على إسحاقَ وحدَه، وإنما على المحدثين عمومًا، مع أن النظرَ في طبيعة العلاقة بين الرجلين وقيام المنافسة بينهما للفوز بالهبات والعطايا في قصر الخليفة، من شأنه أن يُضفي على الخبر دلالةً مغايرةً، ففي خبر عن الأصمعي أنه دخل هو وإسحاق الموصلي على الرشيد فوجداه لَقِس النفس، فأنشده إسحاقُ أبياتًا أُعجب بها الرشيد فأجازه، ثم ضاعف له الجائزة لِما سمع من شكره، « قال الأصمعي: فعلمتُ يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم مني » (٢).

هذا من ناحية الأصمعي، أمّا من ناحية إسحاق فيحكى أنه كان يُنشد الفضْلَ ابنَ الربيع أبياتًا كان الأصمعيُّ أنشده إيّاها، قال: « ودخل الأصمعيّ فسمعني أنشدها، فقال: هات بقيتَها، فقلتُ له: ألم تقلْ إنه لم يبقَ منها شيء؟ فقال: ما بقّى منها إلا عيونها، ثم أنشد بعدَ هذه الأبيات ثلاثين بيتًا منها، فغاظني فعله، فلما خرج عرّفتُ الفضل بنَ الربيع قلةَ شكره لعارفةٍ، وبخله بما عنده، ووصفتُ له فضلَ أبي عبيدةَ معمر ابن المثنى، وعلمَه ونزاهته، وبذله لما عنده، واشتماله على جميع علوم العرب، ورغبته فيه، حتى أنفَذَ إليه مالا جليلا واستقدمه » (٣).

ويصور أبو الفرج ما كان من تغير الحال بين الأصمعي وإسحاق فيقول: « كان

---

(١) الخبر في الأغاني ٥ / ٣١٨، وفي الوساطة ص ٥٠، وفي نزهة الألبّاء ص ١٧١.

(٢) الأغاني ٥ ٣٢٢، ٣٢٣.

(٣) الأغاني ٥ / ٣٨٦.

إسحاق يأخذ عن الأصمعي، ويُكثر الرواية عنه، ثم فسدَ مابينهما فهجاه إسحاق، وكشفَ للرشيد معايبه، وأخبره بقلة شكره، وبخله وضعة نفسه، وأن الصنيعة لاتزكو عنده .. ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه » (١) .

ومن الباحثين من يرجع العداوة بين الأصمعي وإسحاق إلى أسس قومية تمثلت في عربيّة الأصمعي وشعوبية إسحاق، وربما زج فيها بشيء من العوامل السياسيّة التي تمثّلت في ذهاب دولة الأصمعي وحظوته في قصر الرشيد بعد القضاء على البرامكة (٢) .

وأيا كانت الأسباب وراءَ العداوة بينهما فقد وقعت هذه العداوة التي بدأت – كما هو واضح – بالتحاسُد ومحاولة كلّ من الرجلين للظفَر بالمكانة الأرفع والحظ الأوفر في بلاط الخليفة، وظهرت آثارُ ذلك فيما يمكن أن نسميه بـ(الحرب الكلامية) بينهما، فقد هجا كلٌّ منهما الآخر، وعمل على تشويه صورته، وإنْ بدا تفوّق إسحاق وتمكنه من خصمه في هذا المضمار، بدليل أن المعركة انتهتْ لصالحه بمغادرة الأصمعي بغداد وعودته إلى البصرة، مما لايُستغرب معه – في مثل هذا الجوّ – وجود هذه الرواية عن هذا الرجوع غير المبرَّر – في نفس اللحظة – من الحكم بالاستحسان إلى الحكم بالاستهجان .

وأقول (الرواية) لأنني أستبعد وقوعَ الحادثة التي تشير إليها، فليس من المألوف إنسانيا – ناهيك عن الأخلاق – أن يستحسن الإنسان ثم يستهجن في نفس اللحظة دون أي مبّرر، كما أن تصديقَ هذه الرواية وحملَها على محمل العصبية على المحدثين، فضلا عن تعارضه مع الموقف المطّرد للأصمعي في قبول الشعر المحدث وتشجيعه، فإنه يتعارض مع موقف الأصمعي في استحسان شعر إسحاق نفسِه وتفضيله في مواطنَ أخرى (٣) . وأغلب الظن أن هذه الرواية من صُنع إسحاق،

---

(١) الأغاني ٣٨٦، ونزهة الألباء ص ١١٧ – ١٠٩، ١٢٠، ١٢ .

(٢) الأصمعي واتجاهه الخلقي في الرواية الأدبية للدكتور جلال حجازي ص ١٥٦ – ١٥٨، وانظر كتاب (الأصمعي) لأحمد كمال زكي ص ٢٣٢ – ٢٣٥ .

(٣) الأغاني ٥ / ٢٧٨، وانظر في المقابل تنويها من إسحاق بالأصمعي في : الموشّح ص ٢٩٧، وفي (الأصمعي واتجاهه الخلقي) ص ٢٣٦، ٢٣٧ .

وضعها في إطار الحملة الشاملة التى نظمها ضدّ الأصمعي ، وإلا فإنّ أبسطَ مايُقال : إنها بعضُ حصاد المنافسة والبغضاء بين الرجلين ، وإنّ الهدف من ورائها لايتخطّى واضعَها ومن وُجهتْ إليه . ومن ثمّ كان لاينبغي اتخاذ مثل هذا الخبر دليلاً على وجود اتجاه عامّ من العصبية على المحدثين كما فعلَ الدارسون فى عصرنا الحديث .

وهكذا ، وعلى ضوء المهامّ اللغوية والنحويّة والإخبارية لذلك الفريق من النقاد، نستطيع أن نفسّر مايبدو وكأنه رَفضٌ للشعر المحدث بسبب الحداثة فى ذاتها ، وهو مافهمَه الدارسون المحدثون على أنه تعصُّب ضد هذا الشعر .

نستطيع أن نفسّر فكرةَ (آخِر الشعراء) أو (خاتم الشعراء) أو (سَاقَة الشعراء) فلا نرى لها علاقة بالمستوى الفنى للشاعر .

ونستطيع أن نفهم السَّببَ فيما ذهبوا إليه من عدم الاحتجاج بأشعار المحدَثين فلا نرى فيه لعنةً أبدية سلّطوها على ذلك الشعر .

وأن نفسّر ما كان يُعلنه بعضُهم من رفض روايةِ شعرِ معاصريه ورفض الحكم عليه ، وماكان يتمناه البعضُ لشاعره المفضَّل من المشاركة في ميزة التقدُّم الزمنى ، فلا نرى فى ذلك أكثرَ من محاولةٍ من اللغوىّ الراوية لتثبيت مكانته العلْميّة والاجتماعية القائمة على حفْظِه للنادرِ والغريب من الأشعار ، وكذلك القديم ، وذلك لعلْمنا أنّ مثلَ تلك التصريحات بعَدَم روايةِ شعر المحدثين وعدم الحكم عليه ، لم تكن تتعدّى مجرّدَ القول إلى أىّ لون من ألوان التطبيق الفعلى .

كذلك نستطيع أن نفهم السبب وراء ظاهرة مشابهة ، وهى رجوعُ بعض أولئك اللغويين عن كتابة الشعر حين يعلَمُ أنه لمُحدَث .

وأخيرا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا - فيما أظن - ما اضطرب أمامه رجل كالقاضى الجرجانى من رفضِ أولئك اللغويّين الاحتجاجَ فى اللغة بأشعارِ بعض الجاهليّين وبعض الإسلاميين ، وأن نردّه إلى علّتِه الحقيقية القائمة على الشكّ فى نقاء لغة أولئك الشعراء ، لا الغضّ من شاعريتهم كما فَهِم الجرجانى ، وهو الفهم الذى جعلَه يعلّل ذلك الموقفَ بما وجَّهَهُ إلى ذلك الفريق من اللغويين من تهمة التعصّب ، والذى يشير فى نفس الوقت إلى وجود أساسٍ تاريخىٍّ خاطئ أدّى بالدارسين المحدثين إلى الوقوع فيما وقعوا فيه .



(٢)

تعليــــل الأساس التاريخي للتصور القديم

قلتُ : إنّ مواقفَ قدامىَ النقّاد وتصريحاتهم كانت تتعدّدُ وتتباينُ بتعدُّد أدوارهم وتباينها ، وإنّ تصريحاتهم من خلال مهامهم اللغويّة والنحويّة والإخباريّة كانت تحمل معنى الاعتزاز بالشعر القديم باعتباره المادةَ الصالحة لتقديم الشواهد فى تلك المجالات ، وإنّ تلك التصريحات كانت سببًا فى شيوع التصوّر القديم عن تعصّب ذلك الفريق ضد شعر المحدثين ، وهو التصوّر الذى لم يكن ليعمّ لو أن الدارسين المحدثين قد تنبّهوا إلى ذلك التنوّع فى المهامّ ومجالات النشاط لدى أولئك العلماء ، وبالتالى إلى التفاوت في قيمة نصوص الشّعر ، قديمه وحديثه ، بالنسبة لكلٍّ من تلك المجالات .

ذلك عن شيوع هذا التصوّر ، أمّا وجوده من البداية فإنه يعود – في تقديرنا – إلى ما يمكن تسميته بـ (الأساس التاريخيّ) لذلك التصوّر ، وهو أساسٌ ساهمَ فى وضعه عددٌ من أعلام ذلك النقد بعد فترة البداية ، يتحمّلون مسوليّة إيجاده وماترتّب عليه من إساءة الفهم لموقف قدامى اللغويّين والرّواة من شعر المحدَثين ومن محاولات التجديد فى ذلك الشّعر .

ونحن إنما نستعمل كلمة (الأساس) مجازًا ، إذ ليس ثَمّة أساسٌ في الحقيقة ، وإنما هى ثلاثة نصوص نُزع أحدُها من سياقه وحمل دلالةً غير دلالته . أمّا الثانى فينضح بروح الافتعال والزيف ، ويغلب على الظنّ أنه من مبالغات راويه ، كما سنرى. وأما النصّ الثالث ففيه حدّةٌ وفيه اندفاعٌ فى توجيه التهمة – تهمة تعصّب اللغويّين والرواة على شعر المحدَثين – وفيه – إلى جانب ذلك – تناقضٌ يحمل نقضَه في ثناياه .

* * *

هناك ثلاثة نقاد شاركوا فى إيجاد ما أسميناه بـ (الأساس التاريخى) للتصور القديم ، وكانت عُدَّتهم فى ذلك ثلاثة نصوص شاعت فى تاريخ التراث النقدى واستمرّت إلى العصر الحديث ، أما النقّاد فهم – على الترتيب الزمنى – ابن قتيبة (ت ٢٧٦) ، والقاضى الجرجانى (ت ٣٦٦) وابن رشيق القيروانى (ت ٤٥٦) . وأما النصوصُ فاثنان منها ينسبان إلى أبى عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ أو ١٥٩) وثالثها للقاضى الجرجانى .

وواضح أنّ لدينا نصّين لم يُذكر صاحبهما ضمن مجموعة النقاد المخصوصين بالحديث ، وهما نصّا أبى عمرو ، كما أنّ لدينا ناقدين ليست لهما نصوصٌ ضمن مجموعة النصوص المرشّحة للدرس ، وهما ابنُ قتيبةَ وابن رشيق .

وعلة هذه الظاهرة – ظاهرة نصوص بغير نقاد ونقّاد بغير نصوص – أنّنا فى هذا السياق لانهتم بمن ينسب إليه النصُّ قدرَ اهتمامنا بتوجيه النصّ وتفسيره والقائم على هذا التفسير والتوجيه ، فهذا – فى الحقيقة – هو العامل المؤثّر الذى يستحقّ الانتباه والمتابعة.

ولنبدأ بإيراد النصوص بعيداً عن سياقاتها .

في خبر عن الأصمعيّ قال : « جلستُ إلى أبى عمرو عشر حجج ماسمعته يحتجّ ببيتٍ إسلاميّ » .

وفى خبر آخر قال : « وقال مرة [يعنى أبا عمرو بن العلاء] : لقد كثُر هذا المحدثُ وحسُنَ حتى لقد هممتُ أن آمرُ فتياننا بروايته ، يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما » (١).

أما نص القاضي الجرجانى فقد جاء فى غمرة حماسه للمتنبى ونكيره على من يتعصّبون على المحدثين – وهم الذين ينتمى إليهم المتنبى ، قال القاضى : « وقد بعدت بهم العصبيّةُ فى ذلك إلي تناول بعض المتقدّمين ، زعم الأصمعى أن العربَ لاتروى شعر أبى دؤاد وعدىّ بن زيد لأنّ ألفاظهما ليستْ بنجديّة ، وكيف يكون ذلك؟ وهذا

---

(١) النصّان فى البيان والتبيين ١ / ٣٢١ .

معاوية يفضّل عديًا على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيئةُ يُسألُ : من أشعر الناس ؟ فيقول: الذى يقول ، وأنشد لأبى دُؤاد ... » [١].

هذه هى النصوص الثلاثة ، نصّا أبى عمرو عاريين من أى سياق ، ونصّ القاضى مسبوقا بأقل ما يمكن من التمهيد ، إذ كان صاحبُ النصّ هو موجّهه وملبسه دلالته ومناسبته ، وذلك بخلاف نصّى أبى عمرو اللذين تولّى ابنُ قتيبة ثم ابنُ شيق القيروانى توجيههما وإلباسهما الدلالة التى ارتأياها .

• • •

فى سياق شرح ابن قتيبةَ لمنهجه فى (الشّعر والشّعراء) يقول : « ولم أسلكْ ، فيما ذكرتُه من شعر كلِّ شاعر مختارًا له ، سبيل مَنْ قلّدَ أو استحسن باستحسان غيره، ولانظرتُ إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدّمه ، وإلى المتأخّر بعين الاحتقار لتأخّره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيتُ كلا حظّه ووفّرتُ عليه حقّه ، فإنى رأيتُ من علمائنا من يستجيد الشعر السّخيف لتقدّم قائله ويضعه فى متخيّره ، ويرذل الرصين ولاعيْب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلمَ والشّعر والبلاغة على زمنٍ دون زمن ، ولاخصّ به قومًا دونَ قوم ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كلِّ دهر ، وجعل كلَّ قديم حديثًا فى عصره .. فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل يُعدُّونَ محدَثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممْتُ بروايته . ثم صار هؤلاء قدماءَ عندنا ببُعْد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا » [٢] .

وباستثناء بعض ملاحظات شكلية فإنّ أحدًا لايستطيع إلا أن يوافق على ماجاء فى النصّ عن مبدأ ابن قتيبة فى عدم التقليد فى الاختيار - وهو غير داخل فى اهتمامنا هنا - إلى الحديث عن التسوية بين المحدثين والقدماء ، ورفْض مسلك أولئك الذين فضّلوا القديم لمجرّد قدمه ، واسترذلوا الحديث لمجرد حداثته ، وهو المسلك الذى لم

(١) الوساطة للجرجانى ص ٥١ .

(٢) السعر والشعراء ١ / ٦٢ ، ٦٣ .

ينسبه ابنُ قتيبة إلى أحد بعينه ، وإنما ذكر أنه وجد من العلماء من يفعل ذلك .

أما الحديثُ عن جرير والفرزدق والأخطل وتسميتهم محدثين ، فقد نسبه مباشرةً إلى صاحبه أبي عمرو بن العلاء ، مغفلاً راوييْه الوسيطين : الأصمعي والجاحظ، وقد أوردهُ تأييدًا لما ذهب إليه من أن كلّ قديم كان محدثًا فى وقته ، كما أن كلَّ محدَث سيصير بمرور الوقت قديما ، وهي المقدّمة التى رتّب عليها القول بضرورة التسوية فى الحكم بين المحدثين والقدماء .

وإلى هنا والحديثُ طبيعى ومنطقى : ناقدٌ يريد أن يقدّم لبعض الأصول النقدية ، كوجوب الاستقلال فى الرأى وعدم التقليد ، والتزام الحياد وعدم التحيّز أو العصبيّة لعصر على حساب عصر ، ويريد – فى نفس الوقت – أن يروّج لمنحاه ذلك ، وأن يسلّط عليه المزيد من الأضواء ، فتوسّل إلى ذلك بدعوى التفرّد ومخالفة التّيار السائد من تقليد الآخرين فى الاختيار والحكم ، والانحياز إلى بعض العصور ضدّ بعض ، فكان ماصرّح به من وجود مَنْ يقلد في الاختيار ، ومن ينحاز فى الحكم لصالح القديم على حساب الحديث ، ليجيءَ دورهُ فى القول بأنّ القدم والحداثة أمران نسبيّان ، وكأنهما وجهان لعملة واحدة ، إذْ كلُّ قديم كان محدثًا ، وكلُّ محدث سوف يصبح قديمًا ، وهاهُمْ أولئك الذين نعدّهم قدماءَ – مثل جرير والفرزدق والأخطل – كانوا فى نظر أبى عمرو بن العلاء محدثين ، كما كانوا مجيدين إلى الحدّ الذى جعله يفكّر فى رواية أشعارهم .

هذه ترجمة أرجو أن تكون أمينة للسياق الذى استُخدمتْ فيه إحدى روايتى الأصمعيّ عن موقف أبى عمرو من الإسلاميّين ، وليس فى هذا السياق مايثير التساؤلَ باستثناء الجزء الأخير والذى يفيد أن أبا عمرو قد همّ برواية أشعارهم ، ولكنّه – كما يؤكّد اتجاهُ الدلالة – لم يفعل .

ونترك ابنَ قتيبةَ مؤقّتا ، ونعبُر على نصّ القاضى الجرجاني – مؤقتا أيضا – لنصلَ إلى ابن رشيق – الشارح الآخر لخبرىْ الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء – قال ابنُ رشيق :

« كل قديم من الشعراءِ فهو محدَثٌ في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولّد حتى هممتُ أن آمرَ صبيانَنا بروايته ، يعنى بذلك شعرَ جرير والفرزدق ، فجعله مولّدًا بالإضافة إلى شعر الجاهليّة والمخضرمين ، وكان لايعدُّ الشّعر إلا ما كان للمتقدمين . قال الأصمعي : (**جلستُ إليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيتٍ إسلاميّ**) ، وسئلَ عن المولّدين فقال : (ما كان من حسنٍ فقد سُبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمطُ واحدًا ، ترى قطعةَ ديباج وقطعةَ مسيح وقطعة نَطْع) .

هذا مذهب أبي عمرو وأصحابِه ، كالأصمعي وابنِ الأعرابي ، أعني أنّ كلَّ واحدٍ منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهبَ ويقدّم من قبلهم، وليس ذلك إلا لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد ، وقلةِ ثقتهم بما يأتي به المولّدون ، ثم صارتْ لجاجة .

فأما ابنُ قتيبةَ فقال : (لم يقصر الله الشعرَ والعلمَ والبلاغة على زمنٍ دون زمن ، ولاخصّ قومًا دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كلّ دهر ، وجعل كلّ قديم حديثًا في عصره .

ومما يؤيّد كلامَ ابن قتيبةَ كلامُ عليٍّ رضي الله عنه : (لولا أنّ الكلامَ يُعادُ لنفدَ) ، فليس أحُدنا أحقّ بالكلام من أحد ، وإنما السبق والشّرف معًا في المعنى على شرائط نأتي بها فيما بعد ... وقول عنترة :

* هل غادرَ الشعراء من متردّم *

يدلُّ على أنه يعد نفسَه محدَثًا قد أدرك الشعرَ بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئًا ، وقد أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقْه إليه متقدّمٌ ولا نازعَهُ إيّاه متأخّر » (١).

---

(١) العمدة ١ / ٩٠ ، ٩١ .

لقد أطلنا فى نقل رواية ابن رشيق ، أو – بعبارة أخرى – نقل ما قام به من تلفيق بين رواية الأصمعى عن مسلك أبى عمرو وكلامه ، ورواية ابن قتيبة وتوظيفه لنفس الكلام . وهنا نلاحظ :

١ – أن ابنَ رشيق قد بدأ من حيث انتهى ابنُ قتيبة ، إذْ بدأ بتقرير النتيجة التى كان قد وصل إليها ناقد القرن الثالث ، وهي أن كلّ قديم كان محدثًا فى زمانه وكلّ محدثٍ سيصير فيما بعد قديما .

٢ – استشهد على ذلك – مثل ابن قتيبة – بما نسبَ إلى أبى عمرو من تسمية جريرٍ والفرزدق محدثيْن – أو (مولّدين) كما هى عبارة ابن رشيق – وأضاف مفسّرًا : إن أبا عمرو قد وصفهم بهذه الصفة بالإضافة إلى شعر الجاهليّة والمخضرمين .

٣ – شفَعَ ذلك بما ذكره الأصمعىّ من أنه جلس إلى أبى عمرو عشر حجج – أو ثمانى حجج كما اختار ابنُ رشيق – فما سمعه يحتج ببيْت إسلامىّ ، كما أضاف كلامًا آخر لأبى عمرو يحمل وصفَ شعر المحدثين بالتفاوت ، وأنهم سبقوا إلى كل ماهو حسن . وبإيراد ابن رشيق لرواية الأصمعى فى عدم احتجاج أبى عمرو بالإسلاميّين مع إضافة أنه (كان لايعدّ الشعر إلا للمتقدمين) يكون قد فصّل ما أجمله ابنُ قتيبة ، ووَسَمَ ما تركه غفلاً ناقدُ القرن الثالث الذى لم ينسب مسلكَ تفضيل القديم واسترذال الحديث إلى أحد ، فجاء ابنُ رشيق ليُحكم إلصاقَ ذلك المسلك – بدلالته التى اختارها ابنُ قتيبةَ – إلى أبى عمرو .

٤ – تطوّع ابنُ رشيق بعد هذا بتسمية ذلك المسلك (مذهبًا) ، ثم أضافهُ إلى (أبى عمرو وأصحابه) الذين عدّد منهم الأصمعىَّ البصرىّ ، وابنَ الأعرابى الكوفىّ .

٥ – انطلاقًا من ذلك قام بإحكام المضادّة بين موقف ابن قتيبة والموقف الذى نسبه إلى أبى عمرو وأصحابه ، موقف التعصّب للقدماء واختصاصهم بالشاعريّة والفضل ، إذ نقَلَ قول ابن قتيبة : (لم يقصر اللهُ الشّعرَ والعلمَ والبلاغةَ على زمنٍ دونَ زمن ... بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كلّ دهر ، وجعل كُلَّ قديم حديثًا فى عصره) .

٦ – قام بإضافة بعد آخرَ إلى دلالة كلام ابن قتيبةَ ، إذْ حمله معنى الدفاع عن قدرة المحدثين على الابتكار والسّبق ، وذلك عندما أوردَ – على سبيل التأييد لابن قتيبة – كلمةَ عليٍّ – رضى الله عنه – (لولا أنّ الكلامَ يُعادُ لنفدَ) مفسِّرًا لها بقوله : « فليس أحدنا أحقّ بالكلام من أحد ... وقول عنترة : (هل غادرَ الشعراءُ من متردَّم) يدل على أنه يعد نفسه محدثًا قد أدركَ الشعرَ بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئًا ، وقد أتى فى هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم .. وعلى هذا القياس يحملُ قولُ أبى تمام :

يقول مَنْ تقرعُ أسماعَهُ ∴ كم تَرَكَ الأوّل للآخِــــــرِ

فنقضَ قولَهم (ماترك الأولُ للآخر شيئًا) » (١) .

وكأن ابن رشيق بإيراده لهذه الأقوال فى تأييده لما فهمه من كلام ابن قتيبة قد أحكم إلصاقَ التهمة بـ(أبى عمرو وأصحابه) – تهمة العصبيّة على المحدَثين – مضيفًا إليها تهمةً أخرى هى إنكارُ قدرة أولئك المحدثين على الابتكار والإتيان بالجديد ، وهو ما عارضه بكلام عليٍّ – رضى الله عنه – وصَنيع عنترة وبيت أبى تمام .

كيف ضمَّ ابنُ رشيق كلا من الأصمعيّ وابن الأعرابى (ق ٢ ، ٣) إلى أبى عمرو بن العلاء ليكوّن منهم ذلك الثلاثيّ المتعصّب –فى رأيه –على المحدثين؟ يبدو أن الدورَ هنا كان للقاضى الجرجانى (ت ٣٦٦) الذى يقف من الناحية التاريخية فى منتصف المسافة بين ابن قتيبة (ت ٢٧٦) وابن رشيق القيروانى (ت ٤٥٦) والذى كان – رغم ثقافته واتزان شخصيته – كان مندفعًا إلى المبالغة فى دعوى تعصّب النقاد على المحدثين ، كسبب عام يفسّر ماتصوّره من تعصّب بعضهم على المتنبى .

يقول الجرجانى : « وما أكثر من ترى وتسمعُ من حُفّاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهجُ بعيب المتأخرين » . ثم يورد ماقيل عن استحسان الأصمعى بيتين لإسحاق الموصلى على أنهما لبعض الأعراب ، ثم رجوعَهُ عن الاستحسان إلى الطعن عليهما حين علمَ أنهما لإسحاق . كما يورد خبرًا آخر عن مسلك مماثل لابن الأعرابى مع

(١) العمدة ١ / ٩١ .

أبيات لأبي تمام ، ثم يقول :

« وقد بعدت بهم العصبيّة في ذلك إلي تناول بعض المتقدمين ،زعم الأصمعي أنّ العربَ لاتروى شعر أبي دؤاد وعديّ بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجديّة ، وكيف يكون ذلك ! وهذا معاوية يفضّل عديًا على جماعة الشعراء ، وهذا الحُطيئةُ يُسألُ : من أشعرُ الناس ؟ فيقول : الذى يقول ، وأنشد لأبي دؤاد » . (ثلاث أبيات) [1] .

هكذا يبدو أن القاضىَ الجرجاني كان وراء ماذهب إليه ابنُ رشيق من ضمّ الأصمعى وابن الأعرابى إلى أبي عمرو ليكوّن من الثلاثة فريقًا ينسب إليه (مذهبا) أطلق عليه : (مذهب أبى عمرو وأصحابه)، وهو مذهب أساسه التعصّبُ على المحدثين، « ثم صارت لجاجةً » كما يقول ابن رشيق .

• • •

ومن الواضح أن الدارسين فى العصر الحديث قد نظروا إلى صورة الموقفِ بعينَىْ ابن رشيق (الذى استوعب حكايات القاضى الجرجانى) ، وحصّلوا معلوماتِهم عن قدامىَ الرواةِ واللغويين من خلال فهمه – أى فهم ابن رشيق – لكلام ابن قتيبة وتوظيفه لما رواه الأصمعىُّ عن أبى عمرو من عدم احتجاجهِ بأشعار الإسلاميين .

صنع ذلك طه حسين فقال : « وكان أبو عمرو بن العلاء يروى كارهًا شعر جرير ، لأن هذا (المولّد) كان مجيدًا » [2] ، وهى رواية بالمعنى لاتخلو من اجتهاد، ولكنها تعتمد صياغةَ ابن رشيق ، إذ إنه هو الذى استخدم كلمة (المولّد) بدلاً من (المحدث) التى جاءت فى الرواية الأصلية .

وصنع نفسَ الشيء طه إبراهيم فى قوله : إن « أخصّ الناس الذين كانوا يتعصّبون للقدماء ، ولايكادون يُقرّون بإحسان لمحدث هم النحويون واللغويون ، فأبو عمرو بن العلاء شيخُهم وأسنّهم كانت ذهنيتُه جاهليّةً وتعصّبه شديداً للجاهليين فلا

(١) الوساطة ٥٠ ، ٥١ .
(٢) حديث الأربعاء ٢ / ٦ .

يرى الشِّعرَ إلا لهم ولا يرى مَنْ بعدهم شيئا ، وغالى فى ذلك مغالاةً صرفته إلى النظر إلى المتقدِّم بعين الجلالة لا لسبب إلا لأنه متقدِّم ، والنظر إلى المتأخر بعين الاحتقار لا لسبب إلا لأنه متأخِّر ... وحتى قال فى أشعار كبار الإسلاميين : (لقد كثُر هذا المحدث وحسُن حتى لقد هممت بروايته) [١] .

ومن اليسير أن نلاحظ عملية التلفيق بين الرواية الأصليّة ورواية ابن قتيبة وتوجيه ابن رشيق ، مع وضوح توجيهات الأخير بدرجة أكبر ، نجد ذلك فى قول طه إبراهيم عن تعصّب أبى عمرو للجاهليين : (فلا يرى الشعر إلا لهم) وهو مضمون قول ابن رشيق (وكان لايعدّ الشّعر إلا للمتقدمين) ، ثم هو ينسب إلى أبى عمرو صراحة النظر بعين الجلالة إلى المتقدم وبعين الاحتقار إلى المتأخر ، وهى نسبةٌ لم يقل بها ابنُ قتيبة نفسه ، الذى اقتصر على القول بأنه وَجَد من علمائهم من يستجيد .. ومَن ... من غير أن ينصّ على أحد بعينه ، وإنما فعل ذلك ابنُ رشيق على نحو واضح مضيفًا نفسَ المسلك إلى الأصمعى وابن الأعرابى . كذلك ربط طه إبراهيم بين عدم احتجاج أبى عمرو بشعر الإسلاميين ووصفه لجرير والفرزدق بأنهما محدثان ، وهو فى ذلك أيضا متابع لابن رشيق فى تحريفه لدلالة الخبر عند ابن قتيبة .

ويبدو أن أحمد أمين قد أقرّ النتيجةَ التى توصّل إليها ابنُ رشيق في قوله : (هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعى وابن الأعرابى) يعنى في التعصّب للقديم ، فقال أحمد أمين : (وقد تزعّم معسكر الدعوة إلى القديم فريقٌ من اللغويين أمثال الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى) ، ثم يضيف : إنّ دعوتهم قد نجحت (وساد فى ذلك العصر تقديس الشعر الجاهلى وكلّ شيء جاهلى) [٢] ، وكما نرى فإن حديثه هنا صدى لما قاله ابن رشيق عن أبى عمرو من أنه (كان لايعدّ الشعر إلا للمتقدمين) ، تماما مثلما كان حديثه عن (معسكر الدعوة إلى القديم) صدى لحديث ابن رشيق عن (مذهب أبى عمرو وأصحابه) .

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى – مجلة الثقافة عدد ١٩ – مايو ١٩٣٩ ص ٨٠٧ .

وسار محمد مندور في نفس الدرب متأثراً برواية ابن قتيبة وتوجيهات ابن رشيق ، فأمّا « تعصّب اللغويين للشعر الجاهلي وعدم أخذهم بغيرهم فهذه مسألة لم يكن يفضّل الشّعرُ الجاهلي لأسباب فنية ... وإنما لمجرّد سبقه كما يقول ابنُ قتيبة : (كان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثُر هذا المحدث وحسُن حتى لقد هَمَمْتُ بروايته) ، والمحدث في قوله هذا هو شعر الفرزدق وجرير وأمثالهما ... ويقول ابن رشيق : هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي) [١] .

وواضح أن مندوراً قد قام بنفس عملية المزاوجة والتلفيق التي قام بها طه إبراهيم، لقد زاوج بين حديث ابن قتيبة عن مفضّلي القديم لقدمه وحديث الأصمعي عن عدم رواية أبي عمرو لشعر المحدثين أمثال جرير والفرزدق ، وهي مزاوجة صنعها ابنُ رشيق، ووافقه عليها مندور ، كما وافقه على الصّياغة النهائية للموقف بوجود ما سمّاه (مذهب أبي عمرو وأصحابه) . وشأن مندور هنا شأن ابن رشيق ، إذ يُقِرُّ كلاهما بعلّة توقّف اللغويّين والرّواة عن الاحتجاج بشعر المحدثين – وهي الحاجة إلى الشواهد النقيّة– ثم يعود ليصف الموقف بأنه تعصّب .. ! .

هذا ، ويبدو أنّ عباراتٍ مما وردَ في كلام أستاذنا شوقي ضيف من وصف أولئك العلماء بأنهم كانوا « متعصّبين للجاهليّين تعصّبا شديداً ، فهم الشعراء حقا، وغيرهم عالة عليهم .. إنْ قالوا حسنا فقد سُبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم » ، هي مما تأثر فيه بصياغة صاحب (العمدة) ، وإن كان استخدامه لكلمة (المحدثين) يشير إلى تأثّره أيضا برواية ابن قتيبة [٢] .

أما إبراهيم سلامة وهدّارة فواضح لديهما تأثيرُ القاضي الجرجاني ، والأخبار التي أوردها عن مواقف معيّنة لأفراد من فريق اللغويّين من بعض نماذج من أشعار المحدثين .

• • •

---

(١) النقد المنهجي ٨٠ ، ٨١ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٥ ، وانظر كتابه : النقد ص ٤٠ .

وكما سبق القول فإنني استعمل كلمة (الأساس) مجازاً ، إذ هو - في الحقيقة - لاوجودَ له من واقع كلام أصحابه الحقيقيّين وواقع السياقات التى وردت فيها النصوص التى أُقيم عليها . ولنبدأ فى مناقشته ببعض الملاحظات السريعة ، ولنذكر قبل هذه الملاحظات ما سبق أن سجلّناه من قيام هذا الأساس على ثلاثة نصوص ، اثنان منها مرويّان عن أبى عمرو بن العلاء - رواهما الأصمعى - وثالثها صادرٌ عن القاضي الجرجانى .

لنبدأ بما رواه الأصمعيُّ من قول أبى عمرو : (لقد كثّر هذا المحدثُ وحسّن حتى لقد هَمَمْتُ أن آمرَ فتياننا بروايته ، يعني جريراً والفرزدق وأشباههما) ، فنلاحظ:

١ - أن عبارة (حتى لقد هَمَمْتُ) تدلُّ على أنه لم يفعل ، إذْ (الهمُّ بالفعل) خلاف الفعل ، وهى عبارة تذكّر بعبارة البيت الذى قاله أحدُ الثائرين على عثمان رضى الله عنه :

هَمَمْتُ ولم أفعلْ ، وكدْتُ وليتنى ∴ تركتُ على عثمانَ تبكى حلائلُهْ

وهى دلالة أبعد ما تكون عن الحقيقة لما رأيناه - فى الفصل الثانى من الباب الثانى - من كثرة رواية أبى عمرو لأشعار الإسلاميّين ومَنْ بعدهم .

٢ - أن (الهمّ) في الرواية الأصلية - وهى غيرُ رواية ابن قتيبة ورواية ابن رشيق - متعلّق بأمر (فتيانهم) برواية شعر أولئك المحدثين (لقد هممتُ أن آمرَ فتيانَنا) وليس بأبى عمرو نفسه (هَمَمْتُ بروايته) كما هي رواية ابن قتيبة ، ولا بـ (صبيانهم) (هممتُ أن آمرَ صبياننا) كما هى رواية ابن رشيق . كلّ ذلك يوحى بأنّ الخبرَ شابهُ كثير من الافتعال والتكلّف .

٣ - في الرواية الأصليّة استخدمت كلمة (محدَث) ، وتابعها ابنُ قتيبةَ ، واستبدل بها ابنُ رشيق كلمة (مولّد) ، وهو على أى حال خلافٌ غير ذي بال ، إذ شاع استخدامُ كلٍّ من الكلمتين مكان الأخرى ، ومع ذلك يثير وصفُ أبى عمرو لكل من الفرزدق وجرير بأنه (محدث) أو (مولّد) مشكلةً غير سهلة ، فمن المعروف أن أبا عمرو ابن العلاء قد توفّى فى العقد السادس من القرن الثانى الهجرى ، وقد

ذكر أنه توفي سنة ١٥٩ أو سنة ١٥٤ ، أما الفرزدق وجرير فقد توفيا سنة ١١٠ ، ومعنى هذا أنّ وفاتهما سابقةٌ على وفاة أبي عمرو بحوالي ثلاث وأربعين سنة على الأقل ، وقد يصل الفرق إلى ثمانٍ وأربعين سنة على القول الآخر .

والسؤال هنا : أيكون من المناسب – مع هذا الفارق في السنّ – أن يُطلق أبو عمرو على كلّ من الشاعرين صفةَ (المحدَث) ؟ ليس هذا فحسب ، بل إن صياغة الخبر تشتمل على كثير من أمارات الافتعال والتصنع ، فإلى جانب تركيب العبارة : « حتى لقد هممتُ بروايته ،حتى لقد هممتُ أن آمر فتياننا بروايته ، حتى لقد هممتُ أن آمر صبياننا بروايته) ، هناك استعمال اسم الإشارة للقريب (هذا) الذى يحمل فى هذا السياق بالذات دلالةً على هوان الشأن ودنوّ المنزلة ، وهى – كلها – وسائلُ صناعية ألصقت فيما أحسب ، أو نسجت حول خبر له – فى ظاهره – صلةٌ بدعوى التعصُّب على المحدثين ، وهو – في حقيقته – لاعلاقة له بالمسألة من قريب أو بعيد .

بل إنّ من اللافت فى أعقاب تلك الرواية عن توقّف أبى عمرو عن رواية شعر (هذا المحدث) وعدوله عن أمر (فتيانه) أو (صبيانه) بروايته ... أن يتطرّق الحديث إلى علم أبى عمرو وصدقه وبلاغته ، والخبر مرويٌّ هذه المرة عن أبى عبيدة : « وفى أبى عمرو بن العلاء يقول الفرزدق :

مازلتُ أفتح أبوابا وأغلقها ∴ حتّى أتيتُ أبا عمــرو بنَ عمّارِ

قال (أبو عبيدة) : فإذا كان الفرزدق – وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم – يقول فيه مثل هذا القول ، فهو الذى لايشكُّ فى خطابته وبلاغته . وقال يونس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصفُ أخبار الناس »[1] .

لنلاحظ الآن كيف كان أبو عبيدة – معاصر الأصمعي – كيف كان ينظر إلى الفرزدق ، وكيف استشهد بشعره فى أبى عمرو بن العلاء على مكانة أبى عمرو من العلم والبلاغة .. إلخ ، ولنتذكّر وصفه للفرزدق بأنه (راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم) ، هذا الفرزدق نفسه – الذى سبقت وفاتُه وفاةَ أبى عمرو بثلاث وأربعين

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٢١ .

سنة على الأقل ، هو الذي جعلته روايةُ الأصمعي محدثا لايأبه أبو عمرو برواية شعره.

أليس في ذلك مايثير التساؤل – وربما الشبهات – حول رواية الأصمعي ؟ خاصةً إذا ذكرنا أن الأصمعي هو صاحب القول بأن تسعةَ أعشار شعر الفرزدق سرقة وأن جريرًا لم يسرق سوي نصف بيت .؟ .

لنتوقفْ الآن عند هذا الحدّ من التساؤل وقد انهار تماما أحدُ أركان ذلك الأساس المتوهم للتصوّر القديم ، ولايعود سبب انهياره إلي ماقمنا به هنا من التحليل والنقد الداخليّ للخبر وصياغته فحسب ، وإنما يعود أيضا إلى مامرّبنا من الأخبار الكثيرة المتواترة عن قيام أبي عمرو برواية شعر ذلك الجيل وإنشاده ، والتعلّم من شعرائه واستفتائهم في قضايا الشعر واللغة والجلوس منهم مجلس التلميذ من الأستاذ ، ذلك فضلا عن رواية أشعار مَنْ بعدهم .

ونأتي بعد ذلك إلي النصّ الثاني من نصّي أبي عمرو اللذين رواهما الأصمعي وقد حاز شهرةً لعلّها تفوق شهرةَ النصّ السابق ، ولاذَ به من الدارسين المحدثين – كما رأينا – جمعٌ غفير وجدوا فيه جميعًا البرهان الساطع على تعصّب أبي عمرو وفريقه – الأصمعي وابن الأعرابي – ضدّ الشعراء المحدثين ، خاصّةً أن هؤلاء الدارسين قد أخذوا رواية الأصمعي عن صنيع أبي عمرو وفقًا لما وجّهها إليه ابنُ قتيبة ثم ابنُ رشيق ، مغفلين تمامًا سياقها الأول الذي وردت خلالَه الروايةُ مرفوعةً إلى صاحبها بطريق مباشر. وقد سبق لنا في بداية الفصل إيرادُ النصّ ، ولكننا تعمّدنا أن نصنع كما صنع الدارسون المحدثون في تجريد النصّ من سياقه الأول ومناسبته الحقيقيّة ، لنكشف إلى أيّ مدى يخطئ المتصدّي لنصوص التراث إذا ما أهملَ الإحاطة الكافية بظروف هذه النصوص وملابساتها .

لقد وردتْ روايةُ الأصمعي عن عدم احتجاج أبي عمرو بأشعار الإسلاميين في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ في أثناء ذكره لعدد من الخطباء والنسابين والعلماء على هذا النحو :

« ومن النسّابين من بني العنبر ثم من بني المنذر : الخَنْتَفُ بنُ يزيد بن جَعْوَنَة ... وكان أبو بكر رحمه الله أنسبَ هذه الأمّة ، ثم عمرُ ، ثم

جبير بنُ مطعم ثم سعيدُ بنُ المسيِّب ، ثم محمد بن سعيد بن المسيِّب .. ومن النسّابين العلماء : عتبة بن عمر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام... ومن بني حرقوص : شعبة بن القلعم ... ومن بني أسيّد بن عمرو بن تميم : أبو بكر بن الحكم ،كان ناسبًا راويةً شاعرًا... ومنهم معلّل بنُ خالد ، أحد بنى أنمار بن الهُجيْم ، وكان نسّابةً علامةً راويةً صدوقًا .. ومنهم من بنى العنبر ثم من بنى عمرو بن جندب : أبو الخنساء عبّاد بن كسيب ، وكان شاعرًا علامةً وراويةً نسّابة ... ومنهم : عمرو بنُ خولة ، كان ناسبًا خطيبا وراويةً فصيحًا ... وكان يحيى بن عروةَ بن الزبير ناسبًا عالما ... ومنهم ثم من قريش : محمد بن حفص ، وهو ابن عائشة ...

ومن بنى خزاعيّ بن مازن : أبو عمرو وأبو سفيان ابنا العلاء بن عمّار بن العريان . فأمّا أبو عمرو فكان أعلمَ الناس بأمور العرب ، مع صحّة سماع وصدق لسان ، حدثنى الأصمعيّ قال : جلستُ إلى أبى عمرو عشر حجج ماسمعته يحتجّ ببيت إسلامىّ ... وحدثنى أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلمَ الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وأيام العربِ وأيّام الناس ... وكانت عامّة أخبارهِ عن أعراب أدركوا الجاهلية ...

وكان عقيل بن أبى طالب ناسبًا عالما بالأمّهات ... ومن رؤساء النسّابين : دَغْفَلُ بن حنظلة أحدُ بنى عمرو بن شيبان ... ومن نسّابى كلب : محمد بن السائب ، وهشام بن محمد بن السّائب ، وشرقىّ بن القطامى ... » [1].

والنص طويل ، يخلط الجاحظ فى أجزاء كثيرة منه حديثَ الخطباء بالقضاة بالعلماء بالرواة والنسّابين ، ولكننا اجتزأنا باقتباس مجاله الألصق بخبر الأصمعى ، ماقبله ومابعده ، يدور كلّه على ذكر النسّابين والعلماء بأخبار الناس والوقائع ، فلا عجب أن يُسبقَ النصّ بالحديث عن علم أبى عمرو (بأمور العرب ، مع صحة سماع

(١) البيان والتبيين ١ / ٣١٨ - ٣٢٢ ، وقد حذفنا - كما هو واضح - كثيرا من مواضع الاستطراد .

وصدق لسان) ، وأن يلحقَ بالحديث عن علمه (بالغريب والعربيّة وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس) ، ثم يتلو ذلك ما يؤكد رسوخه فى علمه بالأخبار والأنساب والأيام ، خاصةً القديم منها ، وذلك بالقول بأن (عامّة أخباره كانت عن أعراب أدركوا الجاهلية) .

وفى تصوّرى أن دلالة الخبر – بعد أن أوردناه فى سياقه الأصلىّ – واضحةٌ تمام الوضوح ، فالحديث عن رجل نسّابة إخبارىٍّ مؤرخ ، عدتّه رواياته ومايحفظه من أخبار العرب وأخبار وقائعها ، ووعاءُ ذلك كلّه الشّعر القديم ، ثم مايظفر به من أخبار يفضّل فيها على نحو دائم علوَّ المصدر ، ومن هنا كان اعتزازه باستقاء أخباره من أعراب قد أدركوا الجاهلية ، ومن هنا أيضا يمكن أن نفهم مسلكه فى عدم الاحتجاج بالشعر الإسلامى – إن صحّت الرواية – فى أىِّ مجال ؟ ليس فى مجال النقد والحكم الفنّى بحال من الأحوال ، وإنما كان ذلك فى مجال التاريخ والأنساب والوقائع ، وليس ثمة إشارةٌ من قريب أو بعيد إلى حكم فنّى أو تحيّز – من زاوية فنيّة – لعصر ضدّ عصر آخر .. وما أشار إليه أستاذنا شوقى ضيف فى نصّه الذى نقلناه فى أول الفصل السابق من أنه كان من الضرورىّ أن يفرّق أولئك العلماء (بين الصحّة اللغويّة والصّحة الفنيّة) كان مراعًى لديهم بالفعل .

كان الهدفُ من رواية الشعر القديم متنوعًا ، كان الشّعر القديم نصوصًا فنيّةً تُروى ، شأنها شأن شعر المحدثين ، لإشباع الذوق الفنى ، يشهد بذلك ترتيبُ ابن سلام لطبقاته ، وكان الشعر القديم – دون شعر المحدثين – متونًا لغويةً صالحةً للاحتجاج فى ميدان اللغة والنحو ، فرُوى لهذه الحاجة أيضا ، وكان وثائق تحمل أخبارهم وأنسابهم ووقائعهم ، فروى كذلك لهذه الحاجة أيضًا دون شعر المحدثين .

وليست بنا حاجة بعد الذى قدّمناه – فى الفصل الثانى من الباب الثانى – إلى تقديم المزيد عن احتفاء ذلك الفريق من اللغويين والرواة بشعر المحدثين وتنويههم بأصحابه وتفضيلهم لهم أحيانا على فحول الأقدمين . ولم يكن ممّا يقدح فى ذلك الشعر من الوجهة الفنيّة أنه لايصلح مادّةً للاحتجاج فى مجالات النحو واللغة والتاريخ والأنساب ، تلك المجالات التى تفرّد الشّعر القديمُ بتلبية حاجاتهم فيها .

وليس من ذنب أولئك الفريق أن الدارسين المحدثين لم يتبيّنوا تعدُّدَ مهامّهم ،

وبالتالي اختلاف مواقفهم وتفاوتَ قيمةِ النصوص عندهم تبعًا لاختلاف حاجاتهم منها. كما أنه ليس من ذنبهم أيضا اختلاط الأمر على بعض القدماء أنفسهم ، وهم – كما سبق القول – ابن قتيبة والقاضى الجرجانى وابن رشيق القيروانى ، فهؤلاء الثلاثة مسئولون عن الإيهام بوجود هذا الأساس الزائف الذى قام عليه القولُ بتعصُّب قدامى النقّادِ من الرواة واللغويين ضدّ شعر المحدثين .

أمّا ابن قتيبة فقد عزلَ الخبرَ المرويّ عن أبى عمرو – إن كان وقع منه فعلا – عن سياقه الذى ورد فيه ، سياق الاعتزاز فى ميدان التاريخ والأنساب واللغة والنحو بشعر الأقدمين ، وأورد النصّ فى سياقٍ يوحى بتعصّب أبى عمرو على المحدثين ، وأنه المقصود بالإشارة إلى مَنْ يفضّلون القديم لقدَمه ويسترذلون الحديثَ لحداثته .

وأما القاضى الجرجانى فقد أكّد الدعوى وجمعَ عددًا من الأخبار عن نقداتٍ جزئية لنفَر من اللغويين موجّهة إلى بعض شعرٍ محدث ، ثم عمّم مسلك التعصّب والاتّهام به مرتدًا به إلى الوراء ، فأولئك العلماء لايتعصّبون على المحدثين فحسب ، وإنما هم يتعصّبون على القدماء أنفسهم ، وصدر عنه فى ذلك ما يؤكدّ أن المسألة كانت غامضة فى ذهنه تمامًا نتيجة عدمِ إدراكه لتعدّد مهام ذلك الفريق من الرواة واللغويين ، واختلاف مواقفهم من الشعر تبعًا لهذه المهام .

فلما جاء ابنُ رشيق وجَدَ الطريقَ معبدًا بالفعل إلى التناقض وسوءِ الفهم ، فوجّه إلى (أبى عمرو وأصحابه) تهمةَ التعصّب على شعر المحدثين ، مستدلا بعدم روايتهم له – مع روايتهم للشعر القديم – معترفًا فى نفس الوقت بأن روايتهم للشعر القديم إنما كانت لحاجاتهم إلى الشاهد . ومعلوم أن روايةَ الشعر من أجل الحاجة إلى الشاهد فى مجالات النحو واللغة والتاريخ والأنساب – حيث لايصلحُ شعرُ المحدثين – مسلك علميّ موضوعي ، وهو – لذلك – لاعلاقة له بالتعصّب .

على أنّ ابنَ قتيبةَ يُعَدُّ مسئولاً إلى حدٍّ كبيرٍ عن الفكرةِ التى شاعت عن وجودِ فريقٍ من النقادِ يزدَرى الشعرَ المحدث ويحتقره لتأخُّر زمنه . وقد يكون فيما أعلنه من إهمال البعضِ لروايةِ الشعرِ الحديث شيءٌ من الصحّة ، لكنّ ذلك كان قاصرا على مجالِ الاستشهاد اللغوى ، فلم يكن اللغويون يهتمون فى البحثِ عن شواهدهم بالعنصر الفنّى فى الشعر ، وإنما كان همُّهم توافرَ عنصر النقاءِ – كما

ذكرنا – وهذا واضحٌ من تصريح للأصمعي بأنَّ الشاعر ابنَ أذنيةَ شاعرٌ ثَبْتٌ من (طبقة) ابن هَرْمة وإن كـانَ أدْنَى منه فى درجة الشـاعرية ، فـالطبقـةُ هنا تعنى المنزلةَ التى يحتلُّها الشاعر من حيث درجة الاطمئنان إلى إمكـان الاحتجاج بشعره .

لكن حـديثَ ابنِ قتيبـةَ كان عامًا فلم يحـاولْ التفـرقةَ بين المجـالين – إن كان قـد تبيَّنَهُمـا – وهذا التـعـمـيم ، الذى يؤدّى إلى سـوء الفـهم ، واضحٌ بشـدّةٍ عند القـاضى الجـرجانى ، ولعلّه المسـئـولُ الأولُ عن توجيـه تهـمةِ التـعصُّب ضـد الشـعر الحـديث إلى متقدِّمى اللغويين والنحاة فى القـرنين الثانى والثالث أو – على الأقل – لعله مسئولٌ عن تقرير التهمة وتفصيلها وتوسيعِ نطاقها ودَفْعِها خُطوةً أخرى أكثرَ مما فعل ابنُ قتيبة الذى لم يتعدَّ الإدلاء ببـعض الأقوال العـامة المطّاطة ، والمضلِّلة فى نفس الوقت ، فلقـد صرح ابنُ قتـيبـة بأنه وجَدَ من يستجـيد الشـعرَ السخيـفَ لتقـدُّم قائله ، ويُرذِل الشعرَ الرصينَ لتأخّر زمنه ، ثم قال : إن كلَّ قديم كان محدَثًا فى وقته ، واستشهد على هذه الحقيقة بما كان يقـوله أبو عمْرو بن العـلاء عن جرير والفرزدق ووصـفِه لهما بأنـهما مـحدَثان ، ثم تقمَّصَ ابنُ قتيبةَ شخـصيةَ الرجلِ العادلِ الذى لايغُضّ من الشعرِ عنده تأخُّرُه ولا يُعلى من شأنه تقدُّمه ، ووقف عند هذا الحدِّ والتزمَ به فعلا فى (الشعر والشعراء) (١).

على أنَّ خطورة تصـريح ابنِ قتيبـةَ إنما تأتى – كمـا ألْمَحْنا – من تعميمـه لترك اللغـويين لرواية الشعـر الحديثِ فى مـجال الاحـتـجاج اللغـوى على الموقف من الشعـرِ الحديـث فى كلِّ الميادين ، وذلك حين جـعَلَ من نفسـه مدافـعا ضـد ما اعـتبَره تحكيـما للزَّمَنِ فى الشعر .

فلمـا جاءَ القاضـى الجرجانى راحَ يـحدِّد الخصـومَ المحتَمَلين الذين يريـد أن يقومَ بالوسـاطـة بينهم وبين المتنبِّى ، فـرأى أن « خَصْمَ هذا الرجلِ فـريقـان : أحـدُهـمـا يعمّ بالنقص كل مـحدَثٍ ، ولا يرى الشعـر إلا القديمَ الجاهلىَّ ، ومـا سُلِكَ به ذلك المنْهج ، وأُجْرِىَ على تلك الطريقـة ، ويـزعم أنَّ سـاقـةَ الشعـراءِ رُؤْبة وابنُ هَرْمـة وابـنُ ميَّادةَ والحَكَمُ الخُضْرى » (٢) . ورأى أنَّ أصـحـاب هذه النزعـة الذيـن وضـعـوا المتنبِّى مع المحدَثين فـحمَلوا على شـعره ضِمْنَ حـملتِهم على الشّعراءِ المحـدثين جملةً أقلُّ ظُلْماً من

---

(١) الشعر و الشعراء ١ / ٦ ، ٧ .

(٢) الوساطة ٤٩ .

الفريق الثانى من الخصوم ، وهم الذين يعترفون للمحدثين - مثل أبى تمام ومسلم ومن بعدهما - بالفضل ، ولكنهم ينكرون ذلك على المتنبى بالذات ، وهو واحد من المحدثين ، وهذا الفريق هو الذى يريد القاضى مجادلته والاحتجاج لديه .

ونحن إنما نقدم هذا التمهيد لنبين كيف كان القاضى لايزال يرى أن هناك من رفض شعر المحدثين على أساس زمنى مستغلا ما قالوه عن ختم الشعر بعدد من الشعراء اختلفوا فيهم وفى الزمن الذى انتهى عنده الاحتجاج بالشعر - كما قدمنا - ثم راح يفصل رأيه فى تعصب الفريق الأول : « فما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين » (١) . ثم يمثل بما دار بين الأصمعى وإسحاق الموصلى ، وما يحكى عن صنيع ابن الأعرابى بشعر أبى تمام. ثم راح يبالغ فى مد تهمة التعصب تلك ، فجعلها وراء رفض الأصمعى الاحتجاج بشعر عدى بن زيد وأبى دؤاد الإيادى ، ويتساءل القاضى: « كيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيئة يسأل : من أشعر الناس فيقول : الذى يقول : (وينشد لأبى دؤاد ثلاثة أبيات) (٢) .

ونسى القاضى أن الأصمعى نفسه كان معجبًا بالشاعرين ، وأنه تمثل كثيرا - فى غير مجال اللغة - بشعر عدى بن زيد على وجه الخصوص ، وأن رفض الاحتجاج بلغة الشعر شىء مختلف تماماً عن رفض الشعر من الوجهة الفنية ، وهكذا يصير هذا الموقف ، كما صوره القاضى الجرجانى وكما فهمه ، مدعاة للتساؤل ، فهل كان الأصمعى ممن يتعصبون للقديم ضد الحديث ؟ أم أنه كان يتعصب ضد الحديث والقديم أيضا؟ .

والواقع أنه كان فى مقدور القاضى أن يتبين حقيقة الموقف لو أن تفكيره لم يقع تماما تحت ضغط ماتصوره من تعصب أولئك الفريق من اللغويين والذى أداه إلى عدم التفرقة بين رفض الاحتجاج بالشعر ، ورفض الشعر من زاوية فنية ، وهذا مايتضح من جعله رفض الأصمعى للاحتجاج اللغوى بشعر عدى وأبى دؤاد نوعا من التعصب ضد الشاعرين .

---

(١) الوساطة ٥٠ .

(٢) نفس المرجع .

ولقد كان ابنُ رشيق – فى العمـدة – أبعد نظرًا من الجرجانى ، إذْ فطِنَ إلى أنَّ تقديمَ اللغـويين للشعر القديم إنما كـان لحاجتِهم فى الشعـر إلى الشاهِدِ ، وقِلَّةِ ثقتهم بما يأتى به المولَّدون (١) .

وهذه نظرة صحيحةٌ لاغبارَ عليها ، غير أنه لم يستطعْ أن يتحرَّر على طول الخَطِّ من الفكرة الشائعة عن تعصُّب اللغويين ضد الشعر الحديث ، وضد كل ماهو جديد فى الشعر ، أكثر من هذا نراه يربط بين تلك الفكرة والقول بعَدَم قُدْرة المحدثين على الابتكار ، لأن القدماءَ قد استَنْفَدُوا المعانى ولمَ يَعُدْ أمامَ المحدثين شىءٌ يبتكرونه . ونحن الآن لا نعرض رأىَ ابنِ رشيق فى القضية وإنما نعرض فهْمَهُ لموقفِ اللغويِّين الأوائل من الشعـــر الحديـــث ، فلَقَدْ تَسَلَّم الخيطَ المضلِّلَ من سابقيه أمثال ابن قتيبة والقاضى الجرجانى ، ثم راح يشعِّبُ القضيةَ ويفرِّعُها ، ناسياً أنه اعترف فى البداية بأنَّ تفضيلَ اللغويين للشعر القديمِ كان بسبب الحاجةِ إلى الشواهد النقية فى اللغة .

بعبارة أخرى ، كانت نظرةُ ابن رشيق مستقيمةً إلى حد بعيد عندما قرَّرَ أن رواية اللغويين والنحويين – أمثال أبى عمرو والأصمعى وابن الأعرابى – للشعر القديم كان بسبب حاجتهم إلى الشاهدِ والمثَلَ ، وأن الشعرَ القديمَ هو المصدر الموثُوقُ به فى هذا المجال ، لكنَّه مالبث أنْ عرض فى مقابلِ تلكَ النظرة مَوْقفاً آخرَ ، هو الذى وَقَفَهُ ابن قتيبةَ فى مقدمته للشعر والشعراء من وجوب التسوية فى الإنصاف والتقبُّلِ بين القديم والحديث ، فبعد أن يَذْكُرَ موقفَ أبى عمرو فى عدم الاحتجاج بالشعر الإسْلاَمِىِّ ، يقول : « فأما ابنُ قتيبة فقال : لم يَقْصُر الله الشعرَ والعلْمَ والبلاغةَ على زَمَنٍ دُونَ زمن ولا خَصَّ قوما دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسُوما بين عِباده فى كلِّ دهر ، وجعـــلَ كلَّ قديمٍ حَديثـــا فى عصْره » (٢) .

وهكذا يجعل ابنُ رشيق من دفاع ابن قتيبةَ عن المحدثين رداًّ على ما توهَّمَهُ من رفْضِ اللغويين لذلك الشعر فى غير مجالِ الاحتجاج اللغوى ، وهو فهمٌ خاطئٌ عزَّزَ به ماسبقه إليه ابنُ قتيبة والقاضى الجرجانى . ثم مالَبِث أن وقع فى خطأٍ آخرَ حين أضافَ إلى فهمه الخاطئ لموقف اللغويين القدامى من الشعر الحديث عنصرا آخرَ ،

---

(١) العمدة ١ / ٩١ .

(٢) العمدة ١ / ٩١ .

صوَّرَ – بمقتضاه – أولئك القومَ فى صورة من يسلبُون المحدَثين القدرةَ على الابتكار والسَّبق ، وذلكَ حين أيَّدَ كلامَ ابنِ قتيبةَ السابقَ بنصٍّ عن الإمام عليٍّ مؤدَّاه أنَّ إعادةَ الكلامِ حقٌّ للجميع : « فلَولاَ أنّ الكلامَ يُعادُ لَنَفِدَ » ويقول إنه ليسَ أحدٌ أحقٌّ بالكلام من أحدٍ ، وإنّما السَّبقُ والشرفُ معاً فى المعنىَ على شرائِطَ نأتِى بها فيما بعد .

ولاشك أن إيرادَهُ لكلمةِ عليٍّ – رضى الله عنه : « لولاَ أنَّ الكلامَ يُعادُ لنَفِدَ » تأييداً لدفاعِ ابنِ قتيبةَ عن المحدثين دليلٌ قاطعٌ على ربْطِ ابنِ رشيقٍ بين الهُجوم المزعوم من جانب اللغويين على الشِّعر الحديث وتعريَةِ أصحابِ ذلك الشعر من القُدرَةِ على الابتكار والسَّبْق ، وكأنه رأى – بعدَ أنْ خلَط ، دُونَ أن يَشْعُر ، بينَ رفضِ اللغويين للشعر الحديث فى مجالِ الاحتجاج اللغوى ، ورفضِ ذلك الشعرِ مطلَقاً – كأنه رأى أنَّ مِنْ أسباب ذلك الرفض المزعوم خلوَّ ذلك الشعرِ من عنصر الابتِكار والسَّبق ، فراح يردّ عليهم بكلامِ ابن قتيبةَ فى وجوب قَبول الجيِّد من القديم والحديث ، لأن الله لم يَقْصُر الشعر على زمن دون زمن ، ثم راح يؤيّد كلام ابنِ قتيبةَ بكلامِ عليٍّ فى أن الكلام حقٌّ للجميع يستخدمونه دونَ أن يكون فى استخدامِه فضلٌ للأوّلِ على الآخر ، لأنَّ الكلام محدُودٌ ولولا أنه يُعاد لَنَفِدَ ، وكأنَّ ابنَ رشيقٍ وقد رأى ابنَ قتيبةَ يؤكّد وجوبَ إلغاء عاملِ الزمن فى الحكم على الشعر رأى أن يؤكِّد هو الآخر أنّ فى إمكان المتأخرين أنْ يُبْدِعُوا وأنْ يبتكرُوا.

وعلىٍ الرغم من أنّ نصَّ ابنِ قتيبةَ فِى حَدِّ ذاتِه ، وبدُون ربْطِه بالسياق الذى أورده فيه ابنُ رشيق ، يمثّل مبدأً مقبولا ، وأنَّ عبارةَ الإمام عليٍّ التى أوردها ابنُ رشيق أيضا تمثّل هى الأخرى أساساً هَامّاً مِن أسس استخدام اللغة ، فإنَّ سوقَ هاتين العبارتين فى سِياقِ التعقيب والردِّ على مايُرْوَى من رفضِ القدماءِ للشعرِ الحديث فِي ميدان الاحتجاج اللغوِى قد أعطى للصورة طابَعاً آخر ، حيث أبرز موقِفَين متعارضَين ، وهو مادَعَّم فكرةَ تعصُّبِ اللغويين القدامى ضد الشعر الحديث ، بشكل واضح .

وعلى الرغم من ارتفاعِ غالبيّة الأصوات – إن لم يكن جميعُها – منذ وقت مبكر، بالتنويه بالشعر الحديث (١) ورغم أنَّ رجلا كالثعالبى أعلن – صراحةً – تفضيلَ

---

(١) راجع الفصل الثانى من الباب الثانى .

الشعر الحديث على الشعر القديم إلى حدّ الاعتقاد بأنّ تفوق الشعر وامتيازه يتناسب تناسبًا طرديًا مع تأخر الزمن ، وعلى الرغم - أيضا - من أنّ البلاغيين العرب مالبثوا أنْ فتحوا بابًا للحديث عما سموه (الاختراع) ضمن أبحاثهم في علم البديع ، وأن الحثّ على الابتكار والمطالبة بقول الجديد كان قويا ونشطا ، وأنّ رجلاً كابن جنى يقول صراحةً إن المولّدين يُستشهَدُ بهم في المعاني كما يُستشهَد بالقدماء فى الألفاظ (١) ، ورغم أنّ المتأخرين من البلاغيين قسّموا علومَ الأدب إلى ستة : اللغة والصرف والنحو ، والمعانى والبيان والبديع ، وقالوا إن الثلاثةَ الأولى يُستشهَدُ عليها بكلام العرب وحدَهم دون الثلاثة الأخيرة ، فإنه يُستَشهَدُ فيها بكلامهم وكلام غيرهم من المولّدين ، لأنها راجعةٌ إلى المعانى ولا فرقَ فى ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجعٌ إلى العقل ، ولذلك قُبلَ من أهل هذا الفن الاستشهادُ بكلام البحترىّ وأبى تمّام وأبى الطّيب (٢) ، على الرغم من ذلك كلّه ، وهو ما كان كافيا لتغيير الصورة القديمة التى فُهِمَتْ من أقوال قُدامَى النقاد ، فإنّ الدارسين المحدَثين ظلّوا على ترديد القول بأنّ أولئك النقاد عارضُوا الشعرَ الحديثَ وهاجمُوه بصفة عامّة ، وأنّهم ركّزوا هجومَهم بصفة خاصّة على ما احتوى على بعض مظاهر التّجْديد ، وقبل هؤلاء الدارسُون ما انْحَدرَ إليهم فى بعض عبارات تفتقر إلى الدلالة القاطعة ، عن تحكيم الزمن فى الشعر . ونَسُوا أنّ قول أولئك النقاد القدامى برفض الشعر الحديث بناءً على التأخّر الزمنى لاغير ، معناه أنهم يُلغُون أنفُسَهم ووجودَهم ووجودَ عصرهم قبل كل شىء . فكثير منهم - مثل خلف والأصمعى - كان يحلو لهم أن يقُولوا الشعر أحيانا (٣) ، ومع أنّ شاعريتهم لم تكن من النوع الممتاز ، فإن مجرد محاولتهم لقول الشعر تدلُّ على أنهّم كانوا يرون أن إله الشعر لم يحجُب إلهامه عن الوجود بعد .

لقد رأينا اهتماما من أبى عمرو وخلف ويونس بتسجيل التشبيهات العُقم - وهى التشبيهات التى لم يُسبق أصحابها إليها - ولم تكن تلك التشبيهات التى سجّلوها قاصرةً على الجاهليين ، بل شارك فيها عدىُّ بن الرقاع والراعى والطرمّاح وذو الرمة ،

---

(١) الخصائص ٢ / ٢٣٦ .

(٢) خزانة الأدب لابن حجّة ٥ ، ٦ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٣ .

(٣) أغانى ١٥ / ١٢٥ .

وليس يعنينا هنا أصحاب هذه التشبيهات بقدر ما يعنينا هذا الاهتمامُ المبكرُ من ذلك الفريق من لغويِّى النقاد بتسجيل مظاهرِ السبق عند الشعراء ، ولقد عقد الحاتمى فى حلية المحاضرة فصلا عن (السابق والمُصلِّى) من الشعراء ، والفصلُ عبارةٌ عن مجموعة من الأبيات والمعانى التى قرَّرَ متقدمُو اللغويين أن بعضَ الشعراء سَبقوا إليها ، وقد يكون الفصلُ منصبًّا على ما سبق إليه بعض الجاهليين – وإن بدا أنَّ فيه نقصا – ولكن هذا ليس محورَ نظرتنا ، وإنما تنصبُّ هذه النظرة أساسا على هذا التنبُّه المبكِّر لكلِّ ماهو جديد مبتكَر ، والعملِ على إحصائه وتسجيله ، وليس يُعقَلُ من قوم كان تفكيرُهم على هذا النحو أن يرفُضوا الشعرَ الحديثَ تحتَ دعوىَ أنه استحدث مالم يكن موجوداً فى الشعر الجاهلى ، أو تحتَ دعوى أنه لمَ يحْظَ بلحظات من العصر (المقدَّس) للشعر العربى .



خاتمة

لقد وقفتْ وراءَ فكرة هذا البحثِ مجموعةٌ من النصوص القديمة ، كان من أثرِ التنبُّه لها الشكُّ فيما قيل حول مقاومةِ النقد العربى الخالصِ لشعر المحدَثين ولحركات التَّجْديد فى ذلك الشعر حتى القرن الثالث على الأقل ، وتبع هذا الشكَّ مراجعةٌ دقيقةٌ بقدر الإمكان لكل ما أُتيح الاطّلاعُ عليه من آراءِ النقّادِ فى تلك الفترة ، مع محاولةِ الاستفادة - كلّما أمكن - من مناهج علماءِ الحديث واللغة فى توثيق النصوصِ ومقابَلة بعضها ببعض والنظر فى أحوال الرواة وأهوائهم .

ومع أنّ النتيجةَ التى انتهى البحثُ إليها بدأت تتّضحُ مبرّأةً من الشك منذ بدايات تلك المراجعة ، فإنه كان لابدَّ من المضى فى الشوط إلى آخره ، خاصةً أن القولَ بمقاومةِ النقد العربى للشعراء المحدثين - وبالذات مَنْ عُرِفُوا ببعض النزعات التجديديّة - مسألةٌ أصبحت من المسلمات بين دارسى ذلك النقد فى الوقت الحاضر .

من هنا كانت ضرورةُ استعراضِ أهمِّ الآراءِ وأوضحها فيما يتعلق بهذه المشكلة عند هؤلاء الدارسين ، وقد بَدا أنَّ هناك ما يشبه الإجماع على هذا القول ، وحدثَ أيضا - وهذا هو الأخطر - أنَّ ما أجمعوا عليه راحَ كلٌّ منهم يستغلُّه على نحوٍ خاصٍّ فى تفسير ما بدا له من الظواهر وكأنه معلولُ تلك العلة- أعنى تعصُّبَ النقدِ العربى ضد الحداثة والتجديد .

وكان ممّا شجّعهم على المضىِّ فى توجيه هذه التهمة إلى النقد العربى أنَّ ظروفَ الأدب العربى ذاته - خاصة فى العصور المتأخرة - كانت فى اتجاه تأكيدها ، إذْ حَمَلَ هذا الأدب كثيرا من سِماتِ الاتّباع والمحاكاة للنماذج الرائعة للمبدعين العِظام فى العصور الأولى ، وبدا ذلك وكأنه دليلٌ دامغ على ثُبوت التهمة فأصبحت - كما قلتُ - من المسلّمات التى يبدأ منها دارسو هذا النقد لينتهُوا بعد ذلك إلى

مايشاءُون من نتائج كثيرا مايجانبها الصواب ، إذ لا يخفى أنَّ المقدمات الخاطئة لاتترتب عليها إلاَّ نتائجُ مماثلة .

وكان هذا النوعُ من النتائج ومحاولةُ تقويمها من أصعبِ ماتعرض له هذا البحث خاصّة حين كانت النتيجة الواحدة تتّخذ ألوانا شتى بحسب الذاهبين إليها .

وتتعدّد النتائجُ المختلفةُ مرتّبة على مقدمة واحدة ، وتتفاوت مواقف الدارسين ، ولكنّ الحقيقةَ تظل ثابتةً كما هي ، ويتسبب ثباتُها في كثير من المشاكل التي تعترض طريقَ القول بمعاداة النقاد العرب للجديد ، وأخطر هذه المشاكل ، وهي أقوى أدلَّتنا في نفس الوقت ، هذه النصوص الكثيرة والأخبار المتواترةُ التي توضّح العكس ، أعني قبولَ النقد العربي لشعر المحدثين واستيعابَه لمحاولات التجديد فيه .

ولـمّا كانت هناك بعضُ النصوص القديمة مما يشير إلى وجودِ حركةٍ نقديّةٍ حول بعض الشعراء من ذوي النزعات التجديديّة ، كما أن بعضا آخر يشير إلى عدم الاعتدادِ - في مجالاتٍ خاصةٍ - بشعر المحدثين ، كانَ من الطبيعي أن نتعرض بالدراسة لحقيقة موقف النقد العربي من حركات التجديد ، وهو ماتفرّع عنه الوقوفُ عند عددٍ من المصطلحات التي شاع استخدامها في النقد القديم مثل « عمود الشعر » و « المقاربة » في التشبيه والاستعارة و « الطبع » و « التكلف » وغيرها .

أما النوع الآخر من النصوص ، أقصد النصوص التي تشير إلى عدم الاحتكام - في بعض المجالات - إلى شعر المحدثين ، فقد تكفّل ببيان حقيقتها الفصلُ الأول من الباب الرابع من البحْث ، والذي اتّضح منه دوَرَانُ هذه النصوص حول عدم الاحتجاج بشعر المحدثين في ميدانِ النَّحْوِ واللغة والتاريخ والأنساب نظرًا للشك في نقاءِ لغة أولئك الشعراء بعد اتّساع اختلاطهم بالأعاجم ، ولأن الشعر القديم يمثل - من الوجهة العلميّة المحايدة - المادة الصالحة للاستشهاد به في هذه المجالات .

أما مسألةُ القَبول - على المستوى الفني - لشعرِ المحدثين ، وأما احتضانُ سِماتِ التجديد فيه ، فأمرٌ تؤكده - كما قلت - النصوصُ الكثيرة المتواترة . وإنَّ في تنويه ذلك الفريق من النقاد - ممَّنْ تعرّضوا لتلك التهمة - بشعرِ المحدثين ، وروايتهم له ، وتصنيف الكتبِ فيه ، وجَمْع دواوين أصحابه ، لدَلائلَ قاطعَةً على ما نقول .

على أنّ هناك مسألةً جديرةً بالإشارة إليها وهى أنّ هذا العرض المحدَّد لحقيقة موقف النقد العربى من مسألة محدَّدة ، لم يحاول أن يتجاوز ذلك إلى النظر فى الأدب العربى ، فَبَقِىَ الحديثُ خاصا بالنقد ، وليس ذلك هروبا من المشاكل ، وإنما هو فى حقيقة الأمر ابتعادٌ عن الوقوع فيما وقع فيه أصحابُ القول بمعاداة النقد العربى لشعر المحدثين وحركات التجديد ، حين خَلَعُوا نظرتَهم إلى الأدب العربى – الأدب الذى قد تَبْدُو عليه بعض سمات الاتّباعية والمحافظة – على تصوُّرهم للنقد ولآراء رجاله. فبدأوا – لهذا السبب – بأفكار مُسبّقة عن ذلك النقد مؤدَّاها أنه نقدٌ محافظ ، وذلك على أساس أنّ الأدبَ المحافظ لأبدّ أن يكون قد عاش فى ظل نقد يعادى الحداثة ويقاومُ التجديد .

وكان ماكان من النتائج التى ترتبت على هذا النوع من الإسقاط – إن جاز استعارةُ مصطلح من الدراسات النفسية – كان أن شَاعَ اتّهامُ النقد العربى الخالص بمعاداة الجديد ، وكان أنْ فُسِّرَ الاتجاهُ إلى قبول الجديد بعد ذلك بعوامل أجنبية طارئة– وكان أنْ أغفل الدارسون المحدَثون كلَّ النُّصُوص التى تنقُضُ هذه التصورات الواهية ، وكان أيضا أنْ أغفلُوا التعرّضَ بالدَّرْس لمبحث هامٍّ ودال ، احتفل به النقد العربى القديم وهو مبحث (الابتكار) . ويبدو أن إغفال التعرض لهذا المبحث كان – هو أيضا – نتيجة لإسقاطٍ أوْ وَهْم آخر ، أساسُه أنّ من المستبعد أن يكون النقد الذى واكب هذا الأدبَ المحافظ نقدا يحتفل بدراسة الابتكار ، لأنَّ الطبيعىَّ فى مثل هذا النقد البحثُ فى (فضل الأقدمين) لا تجديد المحدثين .

من هنا كان وقوفُ هذا البحث عند مجال النقدِ لايتعدّاه ، مع الإيمان فى نفس الوقت بعدد من المبادىء من بينها :

* أن المحافظةَ فى الأدب قد يكون مصدرُها أمراً آخرَ غير النقد .
* أنّ ناتجَ هذه المحافظة قد لايكون – بالضرورة – رديئا .
* أن الحضَّ على التجديد فى ذاته – على مستوى النقد – والأخذ الواعى به على مستوى الأدب – قد لاتكون نتيجته مرضيةً من وجهة الفن السليم .

من هنا كان التحلّلُ من الجزْم بجدوى موقف النقادِ العرب فى قبول الجديد

والترحيب به على الآثار الأدبية والاكتفاء بتسجيل الموقف فحسب .

أما مايبدُو أنه نتيجةٌ لنزعة محافِظة فى الأدب ، وأما حقيقةُ التجديدِ الذى طالَبَ به وشجَّعَهُ النقدُ العربى ، وأما نتيجة ذلك على مستوى الإنتاج الفَنى ، من واقع نظرة تمتد لتربط بين المجالين ، وأمّا قيمة شعار التجديد فى ذاته – من حيث المبدأ – بالنسبةِ للفن .. فأسئلةٌ تحتاج الإجابة عنها إلى بحثٍ مستقل .

* * *

المصادر والمراجع

- **الدكتور إبراهيم سلامة**

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان – الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢.

- **إبراهيم بن على بن تميم (أبو إسحاق الحصرى)**

زهر الآداب وثمر الألباب ، ضبط وشرح الدكتور زكى مبارك ، المكتبة التجارية مصر ١٩٢٥ .

- **ابن حِجّة الحموى**

خزانة الأدب ، طبعة سنة ١٢٩١ هـ .

- **ابن عبد ربه الأندلسى (شهاب الدين أحمد)**

العِقد الفريد ، طبعة سنة ١٣١٦ بالمطبعة الشرقية

- **ابن منظور المصرى (جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصارى)**

أخبار أبى نواس ، شرحه وضبطه ونشره : محمد عبد الرسول إبراهيم ، وعباس الشربينى ، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٤ .

- **الأستاذ أحمد أمين**

جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى ، مجلة الثقافة ١٩ ، ٢١ السنة الأولى ١٩٣٩ .

النقد الأدبى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ .

• **أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى**

شرح ديوان الحماسة « المقدمة » تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ .

• **أغناطيوس كراتشكوفسكى**

دراسات فى تاريخ الأدب العربى (مجموعة أبحاث مترجمة عن الروسية) دار النشر (علم) موسكو ١٩٦٥.

• **جوستاف فون جرونباوم**

(الاستجابة للطبيعة فى الشعر العربى) ، (نشأة الشعر العربى وتطوره) ، بحثان ضمن مجموعة أبحاث لنفس المؤلف نشرت بعنوان : دراسات فى الأدب العربى ، ترجمة إحسان عباس وآخرين . منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ١٩٥٩ .

• **الحسن بن بشر الآمدى**

الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، ذخائر العرب ٢٥ .

• **الحسن بن رشيق القيروانى**

العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ المكتبة التجارية الكبرى .

• **الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى (أبو هلال)**

ديوان المعانى ، تصحيح الدكتور كرنكو ، عنيت بنشره مكتبة القدسى ١٣٥٢هـ .

• **الحسين بن عبد الله بن سينا**

الخطابة ، تحقيق محمد سليم سالم – القاهرة ١٩٥٤ .

• **الدكتور شكرى محمد عياد**

كتاب أرسطو طاليس « فى الشعر » نقل أبى بشر متى بن يونس القُنّائى من السريانى إلى العربى ، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره فى البلاغة العربية . دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧ .

• **الدكتور شوقى ضيف**

البلاغة : تطور وتاريخ ، دار المعارف ١٩٦٥

الفن ومذاهبُه فى الشعر العربى، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٦٠.

• **الأستاذ طه أحمد إبراهيم**

تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ .

• **الدكتور طه حسين**

تمهيد فى البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر ، بحث أُلقى بالفرنسية فى بعض مؤتمرات المستشرقين ، ترجمه عبد الحميد العبّادى ونُشر فى مقدمة (البرهان) – وهو الكتاب المعروف بنقد النثر والمنسوب خطأً إلى قدامة بن جعفر ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

حديث الأربعاء . دار المعارف ، مصر .

• **الأستاذ عباس محمود العقاد**

ابن الرُّومى ، حياته من شعره ، مطبعة مصر ، (بدون تاريخ) .

• **عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى**

الاقتراح فى علم أصول النحو .

المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، شرحه وعلّق عليه محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم .

- **عبد الرحمن بن أبى الوفاء بن عبد الله بن أبى سعيد الأنبارى**

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، نشر على يوسف ، جمعية إحياء مآثر علماء العرب (بدون تاريخ) .

- **عبد الرحيم العباسى**

معاهد التنصيص ، طبعة قديمة .

- **عبد القادر بن عمر البغدادى**

خزانة الأدب ولبّ لُباب لِسان العرب ، دار العصور للطبع والنشر بمصر ١٩٢٩ .

- **الدكتور عبد القادر القط**

(حركات التجديد فى الشعر العباسى) ، بحث منشور ضمن مجموعة دراسات بعنوان : إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ، دار المعارف ١٩٦٢.

- **عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى**

أسرار البلاغة ، تحقيق هـ . ريتر ، استانبول ، ١٩٥٤ .

دلائل الإعجاز ، الطبعة الرابعة ، دار المنار بمصر ١٣٦٧ هـ .

- **عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمى (أبو هفان)**

أخبار أبى نواس ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، مكتبة مصر ١٩٥٣ .

- **عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى**

سر الفصاحة ، تحقيق على فودة ، الطبعة الأولى ١٩٣٢ ، نشر مكتبة الخانجى .

- **عبد الله بن مسلم بن قتيبة**

الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

• **عبد الله بن المعتز**

طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر ١٩٥٦. – كتاب البديع، نشره وعلّق عليه، وكتب مقدمتَه أغناطيوس كراتشكوفسكى ١٩٣٣.

• **عبد الملك بن قريب (أبو سعيد الأصمعى)**

فحولة الشعراء، شرح وتحقيق ونشر محمد عبد المنعم خفاجى وغيره، المطبعة المنيرية، ١٩٥٣.

• **عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورى الثعالبى**

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، ط٢ المكتبة التجارية ١٩٥٦.

• **على بن بسام الشنترينى**

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول فى مجلدين، المجلد الأول من القسم الرابع، مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

• **على بن الحسين الأصفهانى (أبو الفرج)**

الأغانى، الأجزاء من ١ – ١٦ مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر + الأجزاء من ١٥ – ٢٠ ط ساسى.

• **على بن الحسين الموسوى العَلَوى، المعروف بالشريف المرتضى**

غُرَرُ الفوائِدِ ودُرَرُ القلائد، المَعْرُوفُ بأمالى المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٤.

• **على بن عبد العزيز الجرجانى**

الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوى الطبعة الثانية دار إحياء الكتب العربية ١٩٥١.

• **عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ**

البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة مكتبة الخانجى (مكتبة الجاحظ ٢) .

الحيوان ، بتحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – الطبعة الأولى صدرت فى سبعة أجزاء ، من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥ .

• **قدامةُ بن جعفر**

نقد الشعر ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ .

• **كارل بروكلمان**

تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ٥٩ ، ٦١ ، ١٩٦٢ .

• **محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف القيروانى**

أعلام الكلام ، نشر مكتبة الخانجى ، الطبعة الأولى ١٩٢٦ ، الرسائل النادرة (١) .

• **محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى**

عيار الشعر ، تحقيق د . طه الحاجرى ، د . محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ١٩٥٦ .

• **محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى**

حلية المحاضرة فى صناعة الشّعر ، تحقيق : جعفر الكتانى ، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ١٩٦٩ – مكتبة جامعة القاهرة . وطبعتها وزارة الثقافة والإعلام – العراق ١٩٧٩ .

الرسالة المُوضِحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره ، تحقيق د . محمد يوسف نجم ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

• **محمد بن حيدر البغدادى**

قانون البلاغة ، ضمن رسائل البلغاء ، اختيار وتصنيف محمد كرد على ، الطبعة الثالثة ، ١٩٤٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

• **محمد بن سلاّم الجُمحى**

طبقات الشعراء ، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٥٢ .

• **محمد بن الطيب الباقلانى (القاضى أبو بكر)**

إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .

• **محمد عبد الخالق عضيمة**

المبرد ، حياته وآثاره ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٣٨٥ هـ .

• **محمد بن عمران المرزبانى**

الموشّح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، جمعية نشر الكتب العربية ، بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .

معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ .

• **الدكتور محمد مصطفى هدارة**

مشكلة السرقات فى النقد العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ .

• **الدكتور محمد مندور**

النقد المنهجى عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٤٨ .

• **محمد بن يحيى الصولى**

أخبار أبى تمام ، وبأولها رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك ، فى تأليف أخبار

أبي تمام ، نشره وحققه : خليل عساكر ، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ .

أخبار البحترى ، (وذيل الأخبار من رواية الصولى) ، حققه وعلق عليه د . صالح الأشتر . مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ .

الأوراق (قسم أخبار الشعراء) ، عنى بنشره جـ. هيورث دن ، الطبعة الأولى ١٩٣٤ .

مقدمة الصولى لديوان أبى نواس بروايته ، نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة نقلا عن النسخة الخطية المحفوظة بالمكتبة التيمورية . دار الكتب برقم (١٣٥٦٨ ز).

• **محمد بن يزيد المبرد**

الكامل فى اللغة والأدب ، الجزء الأول بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم والسيد شحاته ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، الجزء الثانى طبع المطبعة الخيرية بالجمالية ١٣٠٨ هـ .

• **المظفر بن السعيد العلوى الحسينى**

نضرة الإغريض فى نصرة القريض ، تحقيق نهى عارف الحسن ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦ .

• **الدكتور نجيب البهبيتى**

أبو تمام الطائى : حياته وشعره ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥

تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ .

• **ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى**

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (المعروف بمعجم الأدباء) .

• يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٢ - ١٩١٤ .

• يوسف البديعى

هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ، نشر وتحقيق محمود مصطفى ، مطبعة العلوم بالسيدة زينب ١٩٣٤ .

• الدكتور يوسف خليف

الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، دار المعارف ١٩٥٩ .

الشعر والحياة اللغوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، المجلة ، العدد ٦ يونيو ١٩٥٧ .

صور أخرى من المقدمات الجاهلية ، المجلة ، العدد ١٠٤ أغسطس ١٩٦٥.

• يوهان فك

العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، مصر .

مراجع باللغة الانجليزية

ELKOTT (A.) Arab Conception of poetry AS Illustrated in kitab Al - Muwazanah Bayna Abi - Tammam Wal - Buhturi, A thesis submitted for the Ph . D. degree , University of London , May 1950.

GRUNEBAUM (G . E . V.) The Concept of plagiarism in Arabic Theory , Journal of Near Eastern Studies, Vol , III , Oct , 1944.

NICHOLSON (R . A .) A literary History of The Arabs .

فهرس تفصيلى

تُهاجَمْ ، اهتزاز التصوّر القديم عنده أمام تفضيل الأصمعى لبشّار على مروان – أحمد أمين وتردّده بين وصف ابن قتيبة بالتحرّر ووصفه بالرجعية – مندور والأسباب الحقيقيّة – فى رأيه – لقيام ثورة على الجديد ، عدم وضوح الفرق بين دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام من واقع تصويره للمحاولتين – إبراهيم سلامة والقول بانتكاسة الشعر المحدث كأثر للدعوة إلى محاكاة القديم ، اصطدام هذا الرأى بموقف أنصار البحترى فى تشجيع الجديد والحضّ عليه – شكرى عياد والقول بتناقض النقد العربىّ مع نفسه فى مطالبته باحتذاء القديم.. ومعارضته – فى نفس الوقت – لظاهرة السرقات – عبدالقادر القط وطبيعة التجديد فى كلّ من دعوة أبى نواس وطريقة أبى تمّام ، تجديد المقدّمات ليس مقصوراً على أبى نواس ، الاتجاه السّلوكى وراء دعوة أبى نواس ، تجديد أبى تمام بين الكم والكيف – هدّارة وتأكيد وجود الثورة ضد الإخلال بالنظام القديم للقصيدة ، منطقية كلامه بالنسبة لكلام مندور ، الأسس الثلاثة التى قام عليها رفض الرواة وعلماء اللغة ، فى تصوّره ، لشعر المحدثين ، اتّسام هذه الأسس بالتعميم وعدم التفرقة بين نظرة اللغويين إلى الشعر كمادة لغوية ونظرتهم إليه كآثار فنيّة .

الباب الثانى

بين مشكلات التصوّر وصورة الواقع

١ – مشاكل يفرضها القولُ بتعصّب النقد العربى ضدّ شعر المحدثين .

مقدمة : طابع المشاكل السابقة والفرق بينها وبين المشاكل المثارة فى هذا الفصل .

- **المشكلة الأولى :** تمثُّلها فى التعارض بين النصوص التى تحمل معنى التعصّب ضدّ شعر المحدثين والنصوص التى تحمل معنى قبوله والحماس له ، أمثلة ، الطريق المسدود الذى يفضى إليه التعارض .
- **المشكلة الثانية :** تمثُّلها فى القول بتحكيم قدامى النقاد لمعيار التقدّم الزمنى فى الحكم على الشعر ، تراجع هذا المعيار أمام رفض النقّاد لأشعار

بعض القدماء ، القاضى الجرجانى يتّهم قدامى النقاد بالتعصّب على الجاهليّين أيضا .

• **المشكلة الثالثة :** تمثّلها فى الطفرة التى تبدو – بحكم التصوّر القديم – بين المراحل المتعاقبة فى تاريخ النقد العربى . الإقرار بقبول الجديد والحماس له بعد المرحلة الأولى .

• **المشكلة الرابعة :** تمثّلها فى محاولة التعليل لما بدا أنه تحوّل غير طبيعى ، الربط بين قبول الجديد واتّساعه ودخول الفكر اليونانى إلى ساحة الفكر العربى . القول بأن قدامة قد دافع عن جديد أبى تمام ضد هجوم ابن المعتزّ .

٢ – صورة الموقف من واقع النصوص التى رويت عن أولئك النقاد .

أبو عمرو بن العلاء .. روايته لأشعار جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمّة وعمر بن أبى ربيعة وعدىّ بن الرّقاع ، معرفته وروايته لأشعار مخضرمى الدولتين ، تنويهه ببشّار وروايته شعره .

خلف الأحمر .. تفضيله مروان بن أبى حفصة على الأعشى ، كتابته شعر بشّار ، ميله إلى أبى نواس .

يونس بن حبيب .. تفضيله مروان على الأعشى .

أبو عمرو الشّيبانى .. اجتماع مسلم وأبى نواس وأبى العتاهية وتناشُدهم عنده ، تنويهه بأبى نواس .

أبو عبيدة .. ذهابه إلى أنّ بشاراً والسيد الحميرى هما أشعر المحدثين ، تفضيله بشّاراً على مروان وعلى جرير والفرزدق ، تفضيله مروان على الأعشى ، تنويهه بأبى نواس وتفضيل إحدى قصائده على قصيدة لامرئ القيس .

أبو زيد الأنصارى .. تنويهه ببشّار والحكم له على مروان .

الأصمعى .. تفضيله بشّاراً على مروان . إعجابه بابن هرمة . التجديد أساس إعجابه ببشّار . إشادته بالسيد الحميرى . إعجابه وتنويهه بأبى نواس فى مجلس

الفضل البرمكى . قبوله لشعر أبى العتاهية . إعجابه بشعر إسحاق الموصليّ وشعر محمد بن حازم الباهلى .

ابن الأعرابى .. ثناؤه على شعر العباس بن الأحنف ، وعلى أبى نواس، وعلى إسحاق الموصلي وأبى العتاهية . تنويهه بمحمّد بن حازم الباهلى . خبر يؤكدّ رواية ابن الأعرابى لشعر المحدثين رغم تظاهره بعدم روايته .

إسحاق الموصلي .. إسحاق نفسه شاعر محدث . كيف يرفض شاعر محدث أشعار المحدثين . تنويهه بأبى نواس . انتصاره للعبّاس بن الأحنف . ارتياحه لوصف بعض الأعراب له بأنه مجدّد .

يعقوب بن السكّيت .. تفسيره لديوان أبى نواس . معرفته بشعر ابن هرمة .

أبو حاتم السّجستانى .. تفضيله لبشار وروايته شعره .

أبو هفّان المهزمى .. إعجابه بأبى نواس وتأليفه كتابًا فى أخباره .

الرّياشى .. إعجابه بالعباس بن الأحنف وأبى نواس والحسين بن الضحّاك .

ابن قتيبة .. تسويته بين القدماء والمحدثين . عدم أخذه الشعراء بما أوجبه عليهم من اتّباع خطوات القصيدة التقليديّة . بشّار يعدل عن المقدّمة التقليديّة دون أن يتعرّض لمؤاخذة الناقد . مسلم يفعل نفس الشيء ولا يؤاخذ. سلوك نفس المسلك مع أبى نواس . روايته الكثير مما سبق إليه أبو نواس وأخذته منه الشعراء .

المبرّد .. استبعاده لمعيار الزمن فى الحكم على الشعراء . روايته لشعر عمارة وابن مناذر والعتّابى ومنصور النّمرى وبشّار وابن المعذّل وأبى نواس . تنويهه بالحسين بن الضحّاك . سعيه إلى كتابة شعر أبى تمّام– شدّة إعجابه بالبحترى . تأليفه كتاب (الروضة) فى أشعار المحدثين .

ثعلب .. حكمه بين مسلم وأبى نواس وتفضيل مسلم . طلبه اختياراً من أشعار أبى تمام . حماسه لأبى تمام مع إعجابه بالبحترى .

الجاحظ وموقفه من المحدثين . تنويهه ببشّار . إعجابه الشديد بأبى نواس وشعره في الطّرد . وضوح خطّ التطوّر البديعى فى ذهنة وتعيين شعرائه قبل ابن المعتز . ردّه على من يستسقط أشعار المحدثين .

ابن المعتز .. نموذج من النقاد الأدباء الذين تقّبلوا شعرَ المحدثين ونوّهوا به . حقيقة موقف ابن المعتز من أبى تمام . تأليفه كتاب (طبقات الشعراء) وقصره على الشعراء المحدثين .

عدم خضوع أىّ من النقّاد السابقين فى قوله بتفضيل المحدثين لأيّة تأثيرات أجنبية . حول مسلك اللجوء إلى علل خارجيّة لما يبدو من ظواهر تجديديّة فى الأدب أو النقد . خطورة الاعتماد على النصوص الجزئية والمبتسرة . صورة من آثار هذا المسلك . المدلولات الحقيقيّة لبعض الصفات التى وُصف بها شعر المحدثين : صفة التفاوت ، الوصف بسرعة زوال الأثر .

الباب الثالث

دراسة لطبيعة دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمّام

مقدمة : الاضطراب الذى تتسم به الأبحاث الحديثة حول هاتين المحاولتين ، تضارب الأقوال فى مدى الهجوم على كلّ منهما ، وفى أسبابه .

١ – موقف النقّاد من أبى نواس : صدور القائلين بوجود الهجوم على دعوته والقائلين بعدم الهجوم من منطلق واحد . الخروج على المقدّمة التقليديّة سابق على أبى نواس . أهميّة دعوته وإحساس النّقاد بها . عدم تعرّض النقّاد لها بالهجوم .

٢ – طابع الخصومة حول أبى تمام : عمود الشّعر والخروج عليه بين أبى نواس وأبى تمّام . عمود الشعر فى تصور الدارسين المحدثين . عناصر يجب استبعادها من الخصومة حول أبى تمّام : أخطاء الإعراب ، استخدام البديع والإكثار منه ، السرقات ، التجديد والمعانى الجديدة . الموطن الحقيقى للنزاع حول أبى تمام : من وجهة نظر أصحاب البحترى ، من واقع الأخطاء التى سجّلها الآمدى . رسوخ فكرة الخطأ اللغوى فى أذهان المهاجمين لأبى تمام على مستوى التركيب

والدلالة . أصحاب البحترى يعتقدون بإمكان الابتداع مع المحافظة على سلامة العبارة . عمود الشّعر كما صوّره المرزوقى . العناصر النسبيّة والعناصر الموضوعية فيه . حدود التجوّز وفكرة المقاربة في التشبيه والاستعارة . التقاء الفريقين على الاعتراف بعنصرى المعنى المبتدع والعبارة المستقيمة . صعوبة القول بأنها معركة بين مدافعين على قديم ومدافعين عن جديد . تأكّد هذا الرأى من واقع المصطلحات المستخدمة فى النزاع .

٣ – عودٌ إلى حقيقة الموقف من أبى نواس : تركّز الفارق الحقيقى بين دعوة أبى نواس ومذهب أبى تمام في خروج الأخير على عمود الشعر . الثقافة اللغويّة الواسعة لأبى نواس واستقامة أسلوبه . عدم خروج أبى نواس على عمود الشعر وراء عدم الهجوم عليه . وعْىُ النقاد بدعوة أبى نواس وقبولهم لها . البحترى هو الآخر لم يخرج على عمود الشّعر . التطوّر الذى لحق لغة الشعر وقبله الجميع .

الباب الرابع : تفسير وتعليل

مقدمة : مفاتيح للموقف كانت فى أيدى الدارسين المحدثين . تنبّه نكلسن إلى الاعتبارات اللغوية وراء جمع الشعر القديم . طه إبراهيم والتنبّه إلى حاجة اللغويين إلى الشاهد النحوى واللغوى ، إغفاله لدلالة تفضيل الأصمعى لبشّار على مروان . مندور يغفل دلالة عدم قيام خصومة حول أبى نواس . إغفال إبراهيم سلامة لقول أصحاب البحترى إنّ صاحبهم لايحتذى على مثال أحد . أخطر خيوط الموقف كان في يد شكرى عياد ، عدم الاحتجاج بالشعر الحديث بسبب شيوع الاضطراب اللغوى واللحن ، قوله بالتناقض فى موقف النقد العربى كان كفيلا بالكشف عن الموقف الحقيقى .

المهام المتعدّدة لقدامى النقّاد: بين تقويم الشعر فنيا والنظر إليه كمتون لغويّة .

١ – حركة التنقية اللغوية : بين قبول الشعراء من الوجهة الفنية ورفضهم من الزاوية اللغوية : عدى بن زيد ، أبو دؤاد الإيادى ، أمية بن أبى الصّلت ، الكميت بن زيد ، الطِّرِمّاح . العلل التى اقترنت برفض الاحتجاج اللغوى بأشعار هؤلاء الشعراء ، طبيعة الاعتبارات التى صاحبت رفض الاحتجاج بأشعارهم : اعتبار مكاني ، اعتبار ثقافى ، القبائل التى احتجوا بأشعارها فى اللغة والنحو ، الدلالة

الحقيقية لصفة القدم فى الشعر . رفض ماذهب إليه يوهان فك من وصف حركة التنقية اللغوية بأنها حركة رجعيّة . مصادرهم فى جمع اللغة : القرآن الكريم ، كلام الرسول (ص) ، الموثوق بفصاحته من كلام العرب . حركة التنقية لاتقيم وزنا لاعتبارات الجنس، احتجاجهم بأشعار العبيد والهجناء ، الدلالة الخاصّة لكلمة (مولّد) . صور من خلط المحدثين بين رفض الشعر من الوجهة اللغويّة ورفضه فنيا.

٢ – الشّعر القديم كوثائق للمعلومات : حديث الجاحظ عن رواة الأخبار – الذين عدّوا الشعر مصدراً للعلم : عمر بن الخطاب – أبو عمرو بن العلاء – ابن سلام – الشعر مصدر للتاريخ ومعرفة الأنساب : المدائنى – أبو هلال – المرزوقى . وظيفة لا يصلح لها إلاّ الشعر القديم – رواية الشعر القديم لهذه الغاية لايعنى التعصب على الشعر المحدث .

٣ – المهمّة النوعيّة للراوية : أهميّة (وسيلة) الرواية فى ظل تخلف (وسيلة) الكتابة – ذم الأخذ عن الصّحف أو الكتب – تعلّق مكانة الرّواية بمقدار محفوظه من أشعار القدماء – الشعر المحدث لايحتاج إلى رواية لأنه متاح للجميع – مثال من موقف المبّرد من تدوين شعر البحترى .

٤ – اعتبارات شخصية : كيف انعكست الخلافات الشخصية على الأحكام الفنية – مثال للصراع بين الشعراء : دعبل بن علىّ وأبو تمام – مثال للصراع بين الشعراء والنقاد : الأصمعى وإسحاق الموصلى ، تباين قيم النصوص باختلاف مجالات الاهتمام .

الأساس التاريخى للتصوّر القديم . خبران عن أبى عمرو بن العلاء، التصوير الانفعالي للموقف على يد ابن قتيبة . القاضى الجرجانى يؤكّد التهمةَ ويوسّعها ، تعميم موقف التعصّب ليشمل الجاهليين . ابن رشيق يبالغ فى ترسيخ الصورة الخاطئة . انطلاقه من حيث انتهى ابن قتيبة والقاضى الجرجانى ، مذهب أبي عمرو وأصحابه فى التعصب على المحدثين . الربط بين رواية الشعر القديم وادّعاء القول بضآلة حظ المحدثين من الابتكار . النقد الداخلى لرواية الأصمعى عن أبى عمرو. سبق الفرزدق وجرير زمنيا على أبى عمرو – دلالة حديث أبى عمرو من واقع سياقه الحقيقى فى رواية الجاحظ – النص يشير إلى صنيع مؤرّخ نسّابة وليس موقف ناقد فنّى .

خاتمة : الدافع إلي البحث . المنهج . الصعوبات . المجال النوعى المحدد للبحث

رقم الإيداع

٩٣ / ٩٢٠١

I.S.B.N

977 - 5521 - 07- 6